

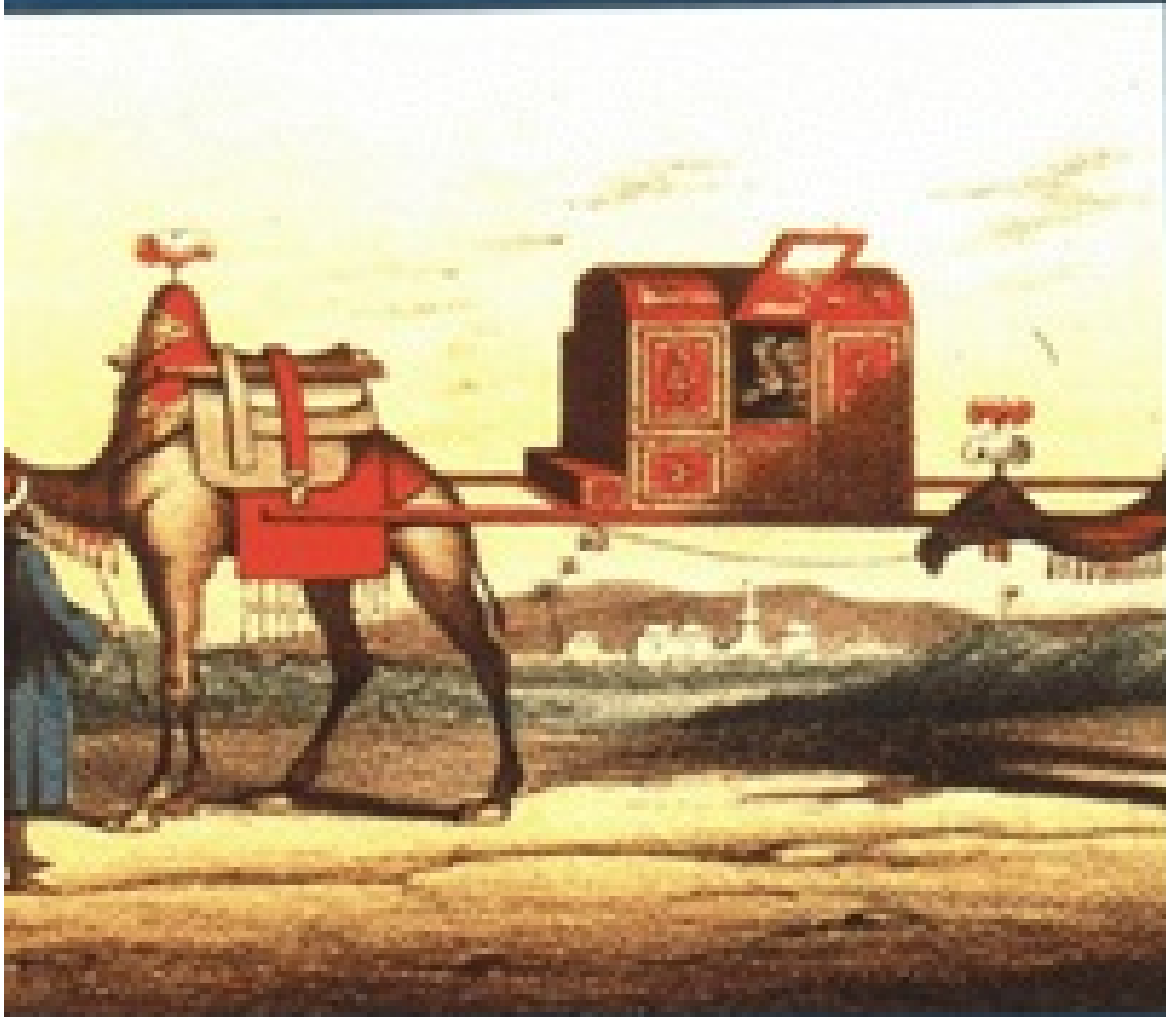
SHAMMAH IBN FURAYH AL-ANBARISI

تَذَكُّرَةٌ بِالْإِخْبَارِ عَنْ اتِّفَاقَاتِ الْأَسْفَارِ (578-581) م



2008

مُتَمِّمٌ بِرِوَايَةِ بَنِي جَبْرِ وَالْأَتَدِ لِمُؤَيِّدِ



حَقْلَهَا وَرَقْدَ لَهَا، عَلِيٌّ كَيْبَعَانِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تذكرة بالآخبار عن اتقافات الاسفار

كاتب:

محمد بن احمد ابن جبير

نشرت فى الطباعة:

الموسسة العربية للدراسات و النشر - دار السويدى

الفهرس

٥	الفهرس
٢٣	تذكرة بالآخبار عن اتقافات الاسفار
٢٣	اشارة
٢٣	[المقدمات]
٢٣	[تمهيد]
٢٤	استهلال
٢٥	المقدمة
٢٥	اشارة
٢٥	دقة علمية
٢٥	اهتمام بالتفاصيل
٢٦	زمن الرحلة
٢٧	لمحة عن الرحالة
٢٨	نص الرحلة
٢٨	اشارة
٢٨	[شهر شوال سنة ثمان و سبعين و خمسمائة]
٢٩	[شهر ذى القعدة من السنة المذكورة]
٢٩	اشارة
٢٩	أنواء عاصفة
٣٠	جزيرة صقلية
٣٠	بشرى بالسلامة
٣١	شهر ذى الحجة من السنة المذكورة
٣١	اشارة
٣١	ذكر بعض أخبار الإسكندرية و آثارها

- ٣٢ مآثر صلاح الدين
- ٣٣ مغادرة الإسكندرية
- ٣٣ ذكر مصر و القاهرة و بعض آثارها العجيبة
- ٣٤ ذكر مشاهد أهل البيت رضى الله عنهم
- ٣٥ مشاهد الشريقات العلويات رضى الله عنهن
- ٣٥ ذكر مشاهد بعض أصحاب رسول الله، صلى الله عليه و سلم،
- ٣٥ مشاهد الأئمة العلماء الزهاد رضى الله عنهم أجمعين
- ٣٦ القلعة و المارستان
- ٣٧ مسجد ابن طولون و مآثر السلطان العمرانية
- ٣٨ الأهرام و أبو الهول
- ٣٨ فضائل صلاح الدين
- ٣٩ شهر المحرم سنة تسع و سبعين عرفنا الله يمينها و بركتها
- ٣٩ اشارة
- ٤٠ ذكر ما استدرک خبره مما أغفل
- ٤٠ أسيوط و أخميم
- ٤٢ مشاهد و إجراءات مخزية
- ٤٢ معالم فى الطريق إلى قوص
- ٤٣ شهر صفر عرفنا الله يمينه و بركته
- ٤٤ شهر ربيع الأول عرفنا الله بركته
- ٤٤ اشارة
- ٤٥ طواغيت و أقفاص دجاج
- ٤٦ مغادرة عيذاب
- ٤٧ شهر ربيع الآخر عرفنا الله بركته
- ٤٧ اشارة

- ٤٧ النزول في جدة
- ٤٨ نهب الحجاج
- ٤٩ الدعوة المؤمنية الموحدية
- ٤٩ إلى مكة المكرمة
- ٥٠ شهر جمادى الأولى عرفنا الله بركته
- ٥٠ إشارة
- ٥٠ ذكر المسجد الحرام و البيت العتيق كرمه الله و شرفه
- ٦٠ ذكر أبواب الحرم الشريف قدسه الله
- ٦٠ إشارة
- ٦٠ باب الصفا:
- ٦١ باب الخلقين:
- ٦١ باب العباس، رضى الله عنه:
- ٦١ باب على، رضى الله عنه:
- ٦١ باب النبى، صلى الله عليه و سلم:
- ٦١ باب صغير أيضا، بإزاء باب بنى شيبه المذكور: لا اسم له.
- ٦١ باب بنى شيبه:
- ٦١ باب دار الندوة:
- ٦١ باب صغير بإزاء بنى شيبه، شبه خوخة الأبواب: لا اسم له
- ٦١ باب صغير لدار العجلة:
- ٦٢ باب السدة:
- ٦٢ باب العمرة:
- ٦٢ باب حزورة:
- ٦٢ باب إبراهيم، صلى الله عليه و سلم:
- ٦٢ باب ينسب لحزورة أيضا:

- ٦٢ باب جيات الأكبر:
- ٦٢ باب ينسب لجيات الأكبر أيضا:
- ٦٤ ذكر مكة شرفها الله تعالى و آثارها الكريمة و أخبارها الشريفة
- ٦٤ اشارة
- ٦٦ ذكر بعض مشاهدها المعظمة و آثارها المقدسة
- ٦٨ ذكر ما خص الله تعالى به مكة من الخيرات و البركات
- ٧٠ شهر جمادى الآخرة عرفنا الله يمنه و بركته
- ٧٢ شهر رجب الفرد عرفنا الله بركته
- ٧٢ اشارة
- ٧٤ سراة اليمن و التزود بالمؤمن
- ٧٥ العمرة
- ٧٦ أكمة ابن الزبير
- ٧٦ طواف النساء و غسيل البيت
- ٧٧ شهر شعبان المكرم عرفنا الله بركته
- ٧٧ اشارة
- ٧٨ ليلة النصف من شعبان
- ٧٩ شهر رمضان المعظم عرفنا الله بركته
- ٧٩ اشارة
- ٨٠ أخو صلاح الدين
- ٨٢ الاحتفال بختم القرآن الكريم
- ٨٤ شهر شوال عرفنا الله بركته
- ٨٤ اشارة
- ٨٥ مناسك الحج
- ٨٧ شهر ذى القعدة عرفنا الله يمنه و بركته

٨٨	اشارة
٨٨	دار خديجة الكبرى
٩٠	هنا نشأ الإسلام
٩٠	شهر ذى الحجة عرفنا الله ببركته
٩٠	اشارة
٩٢	الأمان فى عرفات
٩٣	موكب الأمير العراقى
٩٥	العودة إلى مكة
٩٦	المسير إلى العراق
٩٩	مقطرة لانفساح طريقها.
٩٩	شهر محرم سنة ثمانين و خمس مائة عرفنا الله ببركته و بركة سنته
٩٩	اشارة
١٠٠	ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم و ذكر روضته المقدسة المطهرة
١٠٢	ذكر المشاهد المكرمة التى ببيع الغرقد و صفح جبل أحد
١٠٤	فى مجلس رئيس العلماء
١٠٦	الرحيل إلى العراق
١٠٩	ذكر مدينة الكوفة حرسها الله تعالى
١٠٩	ذكر مدينة الحلّة حرسها الله تعالى
١١٠	شهر صفر سنة ثمانين عرفنا الله يمينه و بركته
١١٠	اشارة
١١١	ذكر مدينة السلام بغداد حرسها الله تعالى
١١٢	مجالس العلماء
١١٥	دار الخلافة العباسية
١١٧	الرحيل إلى الموصل

- ١١٨ ذكر مدينة تكريت حرسها الله تعالى
- ١١٨ ذكر مدينة الموصل حرسها الله تعالى
- ١١٩ أهبه استقبال الخاتون
- ١٢٠ شهر ربيع الأول من سنة ثمانين عرفنا الله بركته
- ١٢٠ اشارة
- ١٢٠ ذكر مدينة نصيبين حرسها الله
- ١٢١ ذكر مدينة دنيسر حرسها الله
- ١٢٢ ذكر مدينة رأس العين حرسها الله
- ١٢٣ ذكر مدينة حران كلاًها الله
- ١٢٥ ذكر مدينة منبج حرسها الله
- ١٢٥ ذكر بلدة بزاعة كلاًها الله عز و جل
- ١٢٦ ذكر مدينة حلب حرسها الله تعالى
- ١٢٧ ذكر مدينة حماة حماها الله تعالى
- ١٢٨ مدينة حمص حرسها الله تعالى
- ١٢٩ ذكر مدينة دمشق حرسها الله تعالى
- ١٣٠ اشارة
- ١٣٠ ذكر جامعها المكرم عمره الله تعالى
- ١٣٠ اشارة
- ١٣١ ذكر تذييعه و مساحته و عدد أبوابه و شمسياته
- ١٣٥ ذكر مشاهده المكرمة و آثاره المعظمة
- ١٣٥ قاسيون و ما حوله
- ١٣٩ شهر جمادى الأولى عرفنا الله بركته
- ١٣٩ اشارة
- ١٣٩ ذكر جمل من أحوال البلد عمره الله بالإسلام

- ١٤٠ إكرام الغرباء
- ١٤١ نصارى جبل لبنان
- ١٤٢ دمشق و آثارها
- ١٤٣ الصعود إلى سطح قبة الرصاص
- ١٤٥ رتبهم في جنائزهم
- ١٤٦ حسن سيرة السلطان
- ١٤٦ شهر جمادى الآخرة عرفنا الله بركته
- ١٤٦ اشارة
- ١٤٧ ذكر مدينة بانياس حماها الله تعالى
- ١٤٨ ذكر مدينة عكا دمرها الله و أعادها
- ١٤٩ ذكر مدينة صور دمرها الله تعالى و أعادها
- ١٥٠ المسلمون في عكا
- ١٥٠ أسرى المسلمين و افتداء المغاربة
- ١٥٢ شهر رجب الفرد عرفنا الله بركته و يمنه
- ١٥٢ اشارة
- ١٥٣ شهر شعبان المكرم عرفنا الله خيره و بركته
- ١٥٤ هول العاصفة
- ١٥٥ بين اليأس و الرجاء
- ١٥٦ شهر رمضان المعظم عرفنا الله البركة و القبول بمنه و كرمه
- ١٥٦ اشارة
- ١٥٦ جنوح المركب و تحطمه
- ١٥٧ ذكر مدينة مسينة من جزيرة صقلية أعادها الله تعالى
- ١٥٨ ملك صقلية و ثقته بالمسلمين
- ١٥٩ مغادرة مدينة مسينة

- ١٦٠ ذكر مدينة شفلودي من جزيرة صقلية أعادها الله تعالى
- ١٦٠ ذكر مدينة ثرمة من الجزيرة المذكورة [جزيرة صقلية]: فتحها الله
- ١٦٠ قصر سعد و مسجده
- ١٦١ ذكر المدينة التي هي حضرة صقلية أعادها الله
- ١٦٢ عيد الميلاد في كنيسة الإنطاكي
- ١٦٣ ذكر مدينة أطرابنش من جزيرة صقلية أعادها الله
- ١٦٣ شهر شوال عرفنا الله يمنه و بركته
- ١٦٥ شهر ذى القعدة عرفنا الله يمنه و بركته
- ١٦٧ شهر ذى الحجة عرفنا الله يمنه و بركته
- ١٦٨ شهر محرم سنة إحدى و ثمانين عرفنا الله بركتها بمنه
- ١٦٩ كشاف حضارى
- ١٦٩ اشارة
- ١٦٩ آيات قرآنية
- ١٦٩ (أ)
- ١٦٩ (ب)
- ١٦٩ (ت)
- ١٦٩ (س)
- ١٦٩ (ق)
- ١٦٩ أجناس و قبائل و أقوام
- ١٦٩ (أ)
- ١٧٠ (ب)
- ١٧٠ (ج)
- ١٧٠ (ح)
- ١٧٠ (خ)

۱۷۰ (د)

۱۷۰ (ر)

۱۷۰ (س)

۱۷۰ (ش)

۱۷۰ (ص)

۱۷۰ (ع)

۱۷۱ (غ)

۱۷۱ (ق)

۱۷۱ (م)

۱۷۱ (ن)

۱۷۱ (ه)

۱۷۱ (ی)

۱۷۱ ادیان و مذاهب

۱۷۱ (أ)

۱۷۱ (ح)

۱۷۲ (ز)

۱۷۲ (ش)

۱۷۲ (م)

۱۷۲ (ن)

۱۷۲ (ی)

۱۷۲ أعلام

۱۷۲ (أ)

۱۷۳ (ب)

۱۷۳ (ج)

۱۷۴ (ح)

۱۷۴ (خ)

۱۷۴ (د)

۱۷۴ (ر)

۱۷۴ (ز)

۱۷۵ (س)

۱۷۵ (ش)

۱۷۵ (ص)

۱۷۵ (ط)

۱۷۵ (ع)

۱۷۶ (غ)

۱۷۶ (ف)

۱۷۶ (ق)

۱۷۶ (ل)

۱۷۶ (م)

۱۷۷ (ن)

۱۷۷ (ه)

۱۷۷ (و)

۱۷۷ (ی)

۱۷۷ أماكن

۱۷۷ (أ)

۱۷۸ (ب)

۱۷۹ (ت)

۱۷۹ (ث)

۱۷۹	(ج)
۱۸۰	(ح)
۱۸۱	(خ)
۱۸۱	(د)
۱۸۱	(ر)
۱۸۲	(ز)
۱۸۲	(س)
۱۸۲	(ش)
۱۸۲	(ص)
۱۸۲	(ط)
۱۸۲	(ع)
۱۸۳	(غ)
۱۸۳	(ف)
۱۸۳	(ق)
۱۸۴	(ک)
۱۸۴	(ل)
۱۸۴	(م)
۱۸۵	(ن)
۱۸۵	(ه)
۱۸۵	(و)
۱۸۵	(ی)
۱۸۶	أمثال و حکم و أشعار
۱۸۶	(أ)
۱۸۶	(ض)

١٨٦ (ع)

١٨٦ حلی و مجوهرات

١٨٦ (ج)

١٨٦ (ذ)

١٨٦ (ف)

١٨٦ (ق)

١٨٦ (ل)

١٨٦ (ی)

١٨٦ حیوانات

١٨٧ (أ)

١٨٧ (ب)

١٨٧ (ت)

١٨٧ (ج)

١٨٧ (ح)

١٨٧ (خ)

١٨٧ (د)

١٨٧ (س)

١٨٧ (ع)

١٨٨ (غ)

١٨٨ (ق)

١٨٨ صناعات

١٨٨ (د)

١٨٨ طعام و شراب

١٨٨ (أ)

۱۸۸ (ب)

۱۸۸ (ت)

۱۸۸ (ج)

۱۸۸ (ح)

۱۸۹ (خ)

۱۸۹ (د)

۱۸۹ (ز)

۱۸۹ (س)

۱۸۹ (ع)

۱۸۹ (ق)

۱۸۹ (م)

۱۸۹ عقاییر و عطور

۱۹۰ (ع)

۱۹۰ (ک)

۱۹۰ (م)

۱۹۰ فنون

۱۹۰ (ت)

۱۹۰ (ف)

۱۹۰ (م)

۱۹۰ کتب

۱۹۰ (أ)

۱۹۰ (ت)

۱۹۰ (ق)

۱۹۱ (م)

١٩١	لباس
١٩١	اشارة
١٩١	(أ)
١٩١	(ق)
١٩١	(ل)
١٩١	مساجد
١٩١	(م)
١٩٢	مصطلحات
١٩٢	(خ)
١٩٢	(س)
١٩٢	(م)
١٩٢	معابد
١٩٢	(ك)
١٩٢	معالم و آثار
١٩٢	(أ)
١٩٢	اشارة
١٩٢	أبواب دمشق:
١٩٣	أبواب المدينة:
١٩٣	أبواب المسجد الأموى بدمشق:
١٩٣	أبواب مسجد الرسول (ص):
١٩٤	(ب)
١٩٤	(ت)
١٩٤	(ج)
١٩٤	(ح)

۱۹۵ (خ)

۱۹۵ (د)

۱۹۵ (ر)

۱۹۵ (ز)

۱۹۶ (س)

۱۹۶ (ص)

۱۹۶ (ط)

۱۹۶ (ع)

۱۹۶ (غ)

۱۹۶ (ق)

۱۹۸ (ک)

۱۹۸ (م)

۱۹۹ (ن)

۱۹۹ منشآت

۱۹۹ (ب)

۱۹۹ (ج)

۱۹۹ (خ)

۱۹۹ (ف)

۱۹۹ (م)

۲۰۰ مواد و معادن

۲۰۰ (أ)

۲۰۰ (ب)

۲۰۰ (ج)

۲۰۰ (ح)

۲۰۰ (خ)

۲۰۰ (د)

۲۰۰ (ر)

۲۰۰ (ز)

۲۰۱ (س)

۲۰۱ (ش)

۲۰۱ (ص)

۲۰۱ (ع)

۲۰۱ (ق)

۲۰۱ (ک)

۲۰۱ مواسم و عادات

۲۰۱ (ع)

۲۰۱ نباتات

۲۰۱ (أ)

۲۰۲ (ب)

۲۰۲ (ت)

۲۰۲ (ث)

۲۰۲ (ج)

۲۰۲ (ح)

۲۰۲ (ر)

۲۰۳ (س)

۲۰۳ (ش)

۲۰۳ (ص)

۲۰۳ (ع)

۲۰۳ (ف)

۲۰۳ (ق)

۲۰۳ (ک)

۲۰۴ (ل)

۲۰۴ (م)

۲۰۴ (ن)

۲۰۴ (ی)

۲۰۴ نقود

۲۰۴ (د)

۲۰۴ هیئات و منظمات وسائل و أدوات

۲۰۴ (أ)

۲۰۵ (ب)

۲۰۵ (ت)

۲۰۵ (ث)

۲۰۵ (ج)

۲۰۵ (ح)

۲۰۵ (د)

۲۰۵ (ر)

۲۰۵ (ز)

۲۰۶ (س)

۲۰۶ (ش)

۲۰۶ (ص)

۲۰۶ (ط)

۲۰۶ (ع)

۲۰۶ (ق)

۲۰۷ (ک)

۲۰۷ (م)

۲۰۷ (ه)

۲۰۷ (و)

۲۰۷ الفهرس

تذكرة بالآخبار عن اتقافات الاسفار

إشارة

نام كتاب: تذكرة بالآخبار عن اتقافات الاسفار

نويسنده: ابن جبير، محمد بن احمد

تاريخ وفات مؤلف: ٦١٤ هـ. ق

موضوع: جغرافياى عمومى

زبان: عربى

تعداد جلد: ١

ناشر: المؤسسة العربية للدراسات و النشر - دار السويدى

مكان چاپ: بيروت - ابوظبى

سال چاپ: ٢٠٠٨ م

نوبت چاپ: اول

[المقدمات]

[تمهيد]

"و فى جزيرة صقلية هبط واحد من المسلمين ممن يحفظ اللسان الرومى مع جملة من الروم إلى أقرب المواضع المعمورة منها فأعلمنا أنه رأى جملة من أسرى المسلمين نحو الثمانين بين رجال و نساء يباعون فى السوق. و كان ذلك عند وصول العدو - دمره الله - بهم من سواحل البحر ببلاد المسلمين، و الله يتداركهم برحمته".

نص الرحلة ص ٢٥

.. "و من أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذى قد وضعه الله، عز و جل، على يدي من سخر لذلك آية للمتوسمين و هداية للمسافرين، لولاه ما اهدوا فى البحر إلى بر الإسكندرية، يظهر على أزيد من سبعين ميلا و فى أعلاه مسجد موصوف بالبركة".

نص الرحلة ص ٢٥

... "و بيت الله الآين بأيدى أقوام قد اتخذوه معيشة حرام و جعلوه سببا إلى استلاب الأموال و استحقاتها من غير حل، و مصادرة الحجاج عليها و ضرب الذلة و المسكنة الدنية عليهم، تلافها الله عن قريب بتطهير يرفع هذه البدع المجحفة عن المسلمين بسيوف الموحدين أنصار الدين".

نص الرحلة ص ٥٨

... "فلما قضينا العمرة و طفنا، و جئنا للسعى بين الصفا و المروة، و قد مضى هدى من الليل، أبصرناه كله سرجا و نيرانا، و قد غص بالساعين و الساعيات على هوداجهن، فكنا لا نتخلص إلا بين هوداجهن و بين قوائم الإبل، لكثرة الزحام و اصطكاك الهوداج بعضها على بعض".

نص الرحلة ص ١٠٠

تذكرة بالآخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٧

يصدر هذا الكتاب في إطار خطة متكاملة لتحقيق أبرز وأهم المخطوطات العربية والإسلامية المتوفرة في خزائن المخطوطات في العالم، و المتعلقة بالحج و الحجاج و رحلات العلماء و الأدباء و المتصوفة إلى مكة المكرمة و المدينة المنورة، شرع "المركز العربي للأدب الجغرافي- ارتياد الآفاق" بتحقيقها، و تكفلت "دار السويدى" بنشرها في سلسلة مهداة إلى روح الشيخ زايد بنى نهضة الإمارات. من المنتظر في المرحلة الأولى أن تبلغ هذه الموسوعة من الكتب مائة كتاب، موازية لمائة كتاب أخرى مختارة من أدب الرحلات الكلاسيكى العربى، و مائة ثالثة من أدب الرحلة العربى المعاصر.

رحلات الحج تعتبر فى الثقافة العربىة أدبا قائما فى ذاته، و هى فرع من أدب الرحلة له قيمة كبيرة لما يذخر من معارف و علوم مختلفة، و لما يرسمه على طول خط السير و السفر من علامات و إشارات متتالية تصنع كلها عبر توالى المحطات الحضارية التى يمر بها سفرا حضاريا ضخما و متكاملًا من أسفار النشاط الإنسانى المادى و الروحى عبر العصور.

*** تهدف الموسوعة حماية هذا التراث العربى الإسلامى و الكشف عن المجهول منه و تحقيقه و دراسته و نشره وفق أحدث طرق النشر الورقى (و الإلكترونى لا حقا) تمهيدا لوضعه فى متناول الأجيال العربىة. و تغطى الموسوعة الرحلات التى قام بها الرحالة العرب و المسلمون من علماء و أدباء، و شعراء و متصوفة، و سائر من أدى فريضة الحج

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٨

و ألف كتابا ينتمى إلى ما يعرف بأدب الرحلة، إن باللغة العربىة أو فى لغات أخرى، و تشمل الموسوعة النصوص التى وضعها الرحالة و الحجاج إلى مكة المكرمة و المدينة المنورة، أكانوا من الشام أو مصر أو المغرب العربى أو شرق إفريقيا، أو بلدان آسيا الوسطى، و غيرها من دول العالم الإسلامى، و العالم أجمع، حيثما وجدت جاليات إسلامية و خرج من بينها حجاج زاروا بيت الله الحرام و دونوا أخبار زياراتهم.

تشمل الموسوعة النصوص التى كتبت عبر أكثر من ٨ قرون، و من ضمنها كتابات الرحالة المعروفين إلى جانب الأقل شهرة منهم ... و ستزود الموسوعة فى مجلدات منفصلة بالرسوم و الخرائط الضرورية و الصور النادرة، و كذلك بالملاحق و الفهارس التى ترصد (و توثق) مجتمعة لطرق الحج، و المحامل الأساسية، كمحمل الحج الشامى، و محمل الحج المصرى، و محمل الحج المغربى، و محمل دارفور إلخ ... إضافة إلى وضع رسوم و خرائط لطرق الحج، و ذلك وفق خطة أكاديمية شاملة يشارك فيها فريق عمل كبير من الأكاديميين و المحققين و المترجمين و الدارسين المتصلعين بتحقيق المخطوطات من مختلف أنحاء العالم العربى.

ستألف الموسوعة من ١٠٠ كتاب تضم النصوص العربىة و النصوص المترجمة من اللغات الأخرى، كالتركية و الفارسية و لغة الأوردو، أساسا ثم لغات أخرى كتب بها الحجاج رحلاتهم، كالألبانية و البوسنية و الروسية، و الصينية و غيرها من اللغات التى تنطق بها جاليات إسلامية، فضلا عن اللغات الأوروبية التى ألف بها الحجاج المسلمون من الأوروبيين.

من شأن هذه الموسوعة، التى توضع للمرة الأولى بالعربىة، أن ترفع من شأن الإسلام و المعرفة به، و أن تشكل كنزا جغرافيا، و أدبيا و علميا و دينيا لكل باحث عن المعرفة. و الهدف، أخيرا، هو نشر معرفة عميقة بثقافة العلماء و المفكرين و الأدباء و الدعاة العرب و المسلمين الذين ارتبطت أسماؤهم بالحج و ثقافته، و تركيز صورة أكثر وضوحا للإسلام و المسلمين فى مسعاهم الحضارى عبر العصور.

و الله من وراء القصد.

محمد أحمد السويدى

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٩

هذه أول رحلة حج أندلسية، ولعلها أهم الرحلات التي يمم أصحابها شطر الديار المقدسة في مكة المكرمة و المدينة المنورة. رحلة تمتاز بمكانتها في المكتبة العربية، و من النادر أن نجد ما يماثلها أو يدانيها قيمة تاريخية و جغرافية و دينية، سواء بما اشتملت عليه من إيمان روحى عميق و دقة علمية بالغه و رصد تأملى واسع، أو بالنظر إلى أهمية المرحلة التاريخية التي شهد صاحب الرحلة وقائع منها، و هى عهد صلاح الدين الأيوبي و مقاومة الغزو الفرنجى. هذا، فضلا عن أسلوبها البلاغى الجميل و نسيجها الأدبى الممتع. إنها يوميات عالم ثاقب البصيرة، واسع الأفق، شديد الملاحظة، تتجلى أهميتها فى التفاصيل الدقيقة التى يتأمل ابن جبير ملامحها باهتمام و يتحدث عنها باستفاضة من مدن و أرياف و موانئ و مناسك و آثار مقدسة و معالم عمرانية، فضلا عن الدروس البليغة المؤثرة التى لا- يستغنى عنها أى مسلم ينوى التوجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج أو العمرة، دون أن نهمل المزايا التاريخية التى حفلت بذكرها.

دقة علمية

الرحالة أديب مرموق فى زمنه، و هو يعنى النظر و الفكر و المقارنة، و يقدر المسافة
تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٠

و يجرى القياس أحيانا، فى كل ما يتعلق بالأماكن الإسلامية المقدسة و ما جاورها أو اقترن بها من مساجد و زوايا و أضرحه و مرافق خدمات و مواقع غزو و صلح، و لا يغفل عن ذكر ما جرى فى تلك المواقع من أحداث هامة أخرى كحفر الآبار و إنشاء سبل الماء و ترميم معالمها العمرانية.

و تكشف لنا رحلته هذه مدى اهتمامه بالتفاصيل، على اختلاف موضوعاتها، كالتواريخ اليومية و ظهور الأهله و رصد و تسجيل كل ما يمر به أو يراه من ملامح الأرض و تشكيلاتها و طرقها و المسافات التى قطعها و أحوال الجو و أنواء البحر، و جرأته فى السؤال عما لا يعرف، و ملاحظاته الناقدة لسوء تصرفات العاملين الموكلين بإدارة شؤون الناس، و استنكاره لانحرافهم عن الصراط المستقيم، و لا ينسى أن يركز على ما أنجز صلاح الدين من مدارس و مستشفيات و مساجد و حمامات و غير ذلك من المرافق الحضارية العامة. و يشيد ابن جبير برعاية السلطان للمغاربة و الغرباء، فضلا عن حياته الجهادية المظفرة ضد الفرنجة و تحرير البلاد منهم.

إن ابن جبير يبين لنا، بغير قصد و لا ادعاء، مكانته الرائدة فى كتابة المذكرات اليومية. و لا نملك إلا الإعجاب بهذا الرحالة الرائد و تقدير جهوده الميمونة حق قدرها، و نحن نراه منكبا على تسجيل دقائق يومياته فى الحل و الترحال، عبر البر و البحر، فى حالات السكينة و الأمان و فى أوقات العواصف و الأهوال، غير عابئ بالمصاعب و الأخطار التى تواجه الكاتب و تحول دون مواصلة عمله بطريقة ميسورة.

إنه يؤكد بذلك أن الكاتب الصادق فارس قضية و حامل رسالة، و هو لا يبتغى من وراء ذلك أجرا و لا منة.

اهتمام بالتفاصيل

و سوف يرى القارئ شغف الرحالة بوصف الطرق و المدن و ما تضم فى حناياها من معالم و مساجد و آثار و أضرحه و أولياء، دون أن يغفل متابعته الوصفية و النقدية لسلوك الناس و أولى الأمر منهم بوجه خاص. و هو لا ينسى أن يدعم مواقفه و آراءه

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١١

بشواهد مستفيضة بما يحفظ من القرآن الكريم و السيرة النبوية المشرفة. إنه رجل قوى الإيمان شديد التقوى، يولى المواقع التاريخية و الآثار المقدسة عناية خاصة و يتبرك بزيارتها، معبرا بذلك عن نفس حرة كريمة عامرة بالصلاح و التواضع و السيرة العطرة. يكفي هنا أن نشير إلى ما ذكر من تفاصيل في مناسك الحج و المسجد الحرام في مكة المكرمة و زيارته لمدينته رسول الله (صلى الله عليه و سلم) و مسجده المبارك هناك. و لا بد أن نتابعه خطوة خطوة و نعيش بصحبته كل دقيقة، و هو يمضى بنا في أرجاء تلك العتبات و الأماكن المقدسة. و لا ينسى أن يعرج بنا إلى أضرحة الشهداء و الأولياء و الصالحين الأوائل الذين احتضنتهم تلك التربة المطهرة لتأمل أعمالهم الصالحة، و نستعيد ذكرياتهم و موافقهم المجيدة و هم يحملون مشاعل الخير و الحق و العدالة للبشرية جمعاء، و يخرجون بأجيال الأمة من الظلمات إلى النور وراء الرسول الأعظم، الرائد المطهر الذي لا يكذب أهله، صلوات الله و سلامه عليه. إن صدق الحب و الإيمان و التقوى لا بد أن ينتقل إلى نفس القارئ الكريم، ليشارك هذا الرجل الورع الحليم في كل كلمة طيبة و مع كل التفاتة راضية.

و الكاتب ينعى على المسلمين في المشرق العربي ما حل بهم من خلاف و انحراف عن الصراط المستقيم، و ربما بدا منحازا إلى مذهب دون غيره أو منددا بمذهب آخر لا ينسجم مع عقيدته، إنما لا ينبغي أن ننسى أنه عاش في عصر الحملات الصليبية التي كانت تقتضى موقفا جماعيا موحدًا من أجل التصدي لأعداء الأمة الطامعين. و كان صلاح الدين الأيوبي ممثلا لذلك الموقف الجهادي الموحد و قائدا له. و لعل هذا الإخلاص الوجداني العميق هو الذي جعل ابن جبير متشددا إلى حد التعصب الصارم الذي لا يقبل المداهنة أو المداراة. إن كلمة الحق التي تشغل بال المؤمن الصادق لا بد من إعلانها بلا تردد و لا مجامله، و لا سيما حين يتكاثر عدد المنافقين و يغدو المتمسك بعقيدته كالقابض على الجمر. و ليس لنا أن ننسى أن ديار الإسلام كانت محط أطماع غريبة، و هي تواجه هجمات عدوانية ضارية لا يمكن السكوت عنها أو التعامل معها بتسامح بارد و استسلام ذليل.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٢

و مع ذلك، فإننا نلمس لديه إحساسا مرهفا بالدعابة اللطيفة المغلفة بالظرف و الطرافة. و يبدو هذا واضحا في رصده لتصرفات الخاتون بنت أمير الموصل، على سبيل المثال. كما أنه حين مر في مدينة حمص، المعروفة بظرف أهلها، سأل أحد أبنائها: "أليس عندكم مارستان؟" و استنكر الرجل السؤال و أجاب: "حمص كلها مارستانات!" و في الطريق من بغداد إلى الموصل، كانت الخاتونان: (بنت الأمير مسعود ملك الدروب و الأرمن و أم عز الدين صاحب الموصل) هما قائدتي العسكر المرافق لموكب الحجيج، فلم يتمالك نفسه من ترديد قول الشاعر:

ضاع الرعيل و من يقوده!

زمن الرحلة

امتدت هذه الرحلة سنتين و شهرين و ثلاثة أسابيع، بدأها يوم الخميس في ٨ شوال سنة ٥٧٨ هـ، الموافق ٣ فبراير (شباط) ١١٨٣ م، و ختمها في ٢٢ محرم سنة ٥٨١ هـ، الموافق ٢٥ أبريل (نيسان) ١١٨٥، و لم يدون غيرها. و حسبنا هنا أن نتأمل بعض مشاق الطرق البحرية و النهرية و البرية التي سار فيها الرحالة، فضلا عن رحلته في الليل من المتوسط إلى مدينة قوص على الحدود بين مصر و السودان. و لا يمكن أن ننسى الأخطار المحدقة بالمسافرين المسلمين في مراكز الجنويين في تلك الحقبة التاريخية الرهيبة من حملات الغزو و العدوان. فقد كان طريق الحج الشامي عبر العقبة مقطوعا أو غير آمن، و هذا ما دفع بالرحالة و صحبه أن يواصل ترحاله شرقا، مع الحج العراقي من المدينة المنورة إلى بغداد فالموصل فحوران ليرجع من هناك عبر سوريا و بعض مدن فلسطين، ثم توجه أخيرا من ميناء عكا عائدا إلى غرناطة بحرا.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٣

و كانت رحلته الثانية إلى بيت المقدس، بعد أن استردها صلاح الدين و حررها من الصليبيين. و في هذه الرحلة، خرج من غرناطة في التاسع من ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م و عاد إليها سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م. و بمناسبة فتح بيت المقدس، مدح صلاح الدين بقصيدة يقول فيها:

أطلت على أفكك الزاهر سعود من الفلك الدائر

ثم قام برحلة ثالثة إلى الحجاز، ملتصقا بالعزاء إثر وفاة زوجته. و كانت هذه آخر رحلاته، إذ جاور بمكة حينا من الزمن ثم في بيت المقدس، و تجول في ربوع مصر حتى استقر أخيرا في الإسكندرية منصرفا للتدريس إلى أن وافته المنية هناك في التاسع و العشرين من شعبان سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م.

و سواء كان سفره في البر أو البحر، فإن شغف الكاتب الأصيل في رصد أهوال الطريق و مباحجها و أحوال الجو و تقلباته لا يفارقه أبدا. و نراه طوال سنوات الرحلة مواظبا على صلواته في أوقاتها، مستمسكا بالعروة الوثقى لا انفصام لها، حريصا على دينه، مقتديا بالسلف الصالح و مناقبهم، مستنكرا كل زيغ أو انحراف طرأ على معتقدات الناس و عاداتهم و تصرفاتهم. فهو يقوم بمهمة المصلح الاجتماعي، و لا يضمن بحمل رسالته في التنديد بكل منكر أملا في إشاعة الفضيلة و حسن المعاملة بين الناس.

لكن القارئ لا بد أن يشعر بفيض من الأسى و العتب على أجدادنا الذين لم يحافظوا على كثير من تلك الآثار المقدسة التي دونها ابن جبير بحرص و محبة و استفاضة، و قد ضاعت مع الأيام و لم يبق منها غير ألق الذكرى، بينما نرى أعداءنا يتخذون من أساطيرهم الخرافية صروحا لا يجرؤ أحد على المساس بها أو الإساءة إليها.

رافق ابن جبير في رحلة الحج هذه أحمد بن حسان، و يكنى بأبي جعفر، و كان مولده و منشؤه في غرناطة. و قد اشتغل بصناعة الطب و أجاد في علمها و عملها و خدم المنصور بطبته، و توفي بمدينة فاس. و له كتاب (تدبير الصحة) ألفه للمنصور.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٤

لمحة عن الرحالة

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير بن سعيد بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير الكنانى، الرحالة الأندلسى. و كان جده الأكبر عبد السلام من أوائل الداخلين إلى الأندلس مع بلج القشيري في سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م، فهو أندلسى شاطبي بلنسى. و ولد في العاشر من ربيع الأول سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م في بلنسية شرقي الأندلس. و في رواية أخرى أن مولده كان في سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م. و هو ينسب إلى بلنسية بسبب مولده فيها على أرجح الأقوال. أما نسبه إلى شاطبة فهي من جراء إقامته فيها فترة من الزمن، قبل أن ينتقل إلى غرناطة.

نشأ ابن جبير في رعاية والده و تلقى العلم عنه و عن علماء عصره في شاطبة. و كان اهتمامه الأول بالأدب فغدا علما بارعا فيه، كما أتقن صناعة الكتابة. ثم تنقل في مستهل حياته بين عدد من المدن الأندلسية و الإفريقية، فأقام في بلنسية و شاطبة و غرناطة و سبتة و فاس، و تقلد مناصب كتابية عدّة. و هو يعد أحد كتاب الدولة الموحدية من حكام الأندلس و المغرب، و قد تبوأ لديهم مكانة عالية، تقديرا لعلمه الواسع و موهبته الشعرية و قدرته الجيدة على كتابة النثر.

و تجمع الروايات أنه كان أديبا معروفا و شاعرا مجيدا و عالما فاضلا مشغوبا بالأسفار، نزيه النفس، كريم الأخلاق، أنيق الخط، ذا أسلوب في الكتابة يمتاز بالسهولة و ورقة العبارة. و تبدو هذه السمات الفنية واضحة في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب. إن همه الأول أن ينقل إلى قارئه ما يراه و ما يسمعه، في صور طليئة واضحة. و هذا يؤكد أنه أديب متمرس في صنغته، متعمق في لغته و بيانه. و يمكن أن نضيف إلى ذلك اهتمامه بالسجع و المحسنات البديعية و اللفظية أحيانا، أسوة بأسلوب أبناء عصره في مشرق الوطن و مغربه، لكننا نلاحظ أن موهبته الأدبية الأصيلية سرعان ما تبعده عن تلك الزخارف الشكلية، فيعود إلى عبارته العفوية السلسة التي

تستقر في قلوب قرائه حالما تدخل أسماعهم. وقد أهلتها مزاياه الأدبية و الخلقية إلى تقلد أرفع

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٥

المناصب في الدولة. و يصفه المقرئ في (نفس الطيب) بالمروءة و حب الخير و حرصه على مساعدة الناس و قضاء حاجاتهم و رعاية الغرباء منهم. و هو يعبر بصدق وجداني عن تلك المزايا الإنسانية في شعره، إذ يقول:

يحسب الناس بأني متعب في الشفاعات و تكليف الوري

و الذي يتبعهم من ذاك لي راحة في غيرها لن أفكرا

و بودي لو أفضي العمر في خدمة الطلاب حتى في الكرى

و من حق ابن جبير علينا أن نتركه يتحدث بأسلوبه الطلي البليغ. و سوف يلحظ القارئ كثرة الجمل الاعراضية في الدعاء للمدن و للناس، أحياء و أمواتا. إن بعض النسخ المنشورة مالت إلى الاختصار فحذفت تلك العبارات، لكنني آثرت إثباتها احتراماً لهذا الرحالة و التزاماً بالأمانة التاريخية. كما أنني وضعت بعض العناوين الفرعية تسهيلاً للقارئ. و لقد آثرت شرح العديد من الكلمات التي قدرت أن الفتیان لا يعرفون معانيها المعجمية، كما رجعت إلى القرآن الكريم و دوّنت أسماء السور و الآيات المباركة التي استشهاد بها المؤلف. و يمكن أن أضيف هنا أن كشاف الأسماء الحضارية و الأعلام التاريخية و الجغرافية في الختام قد اعتمدت فيه حالة الرفع كما في (أبو فلان) أو (عباسيون و يمنيون)، و إن كانت واردة في النص في حالة النصب أو الجر. و لا بد لي من الإشارة إلى أنني لم أتمكن من العثور على مرجع يبين لي بدقة معنى كلمة (مشرجب) و مشتقاتها، و إن بدا من السياق أن المعنى التقريبي لها يدل على الباب المزخرف أو النافذة ذات الزجاج المعشق. إن كل كلمة دونها المؤلف تحمل أثراً من خليجات قلبه و وجدانه. و ها أنذا أريح القارئ من عبء الاستفاضة في التقديم، لأن متعة القراءة و مشاركة الرحالة في وقائع سفره و معاشته في دقائق يومياته أمتع و أجدي من أي حديث آخر.

على كنعان

أبو ظبي في ٢٨ / ٩ / ٢٠٠٦

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٧

نص الرحلة

إشارة

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٩

[شهر شوال سنة ثمان و سبعين و خمسمائة]

بسم الله الرحمن الرحيم تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ابتدئ بتقيدها يوم الجمعة الموفى ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان و سبعين و خمسمائة على متن البحر بمقابلة جبل شلير عرفنا الله السلامة بمنه. و كان انفصال أحمد بن حسان و محمد بن جبير من غرناطة، حرسها الله للنية الحجازية المباركة، قرنها الله بالتيسير و التسهيل و تعريف الصنع الجميل، أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور، و بموافقة اليوم الثالث لشهر فبرير الأعمى. و كان الاجتياز على جيان لقضاء بعض الأسباب، ثم كان الخروج منها أول ساعة من يوم الاثنين التاسع عشر لشهر شوال المذكور و بموافقة اليوم الرابع عشر لشهر فبرير المذكور أيضا.

و كانت مرحلتنا الأولى منها إلى حصن القبذاق، ثم منه إلى حصن قبرة، ثم منه إلى مدينة إستجة، ثم منها إلى أشونة، ثم منه إلى

شليز، ثم منه إلى حصن أركش، ثم منه إلى قرية تعرف بقرية النشمه من قري مدينة ابن السليم، ثم منها إلى جزيرة طريف،
تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٠

و ذلك يوم الاثنين السادس والعشرين من الشهر المؤرخ. فلما كان ظهر يوم الثلاثاء من اليوم التالي، يسر الله علينا في عبور البحر إلى قصر مصمودة تيسيرا عجيبا، والحمد لله. ونهضنا منه إلى سبتة غدوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين منه، و ألفينا بها مركبا للروم الجنوبيين مقلعا إلى الإسكندرية بحول الله، عز وجل، فسهل الله علينا في الركوب فيه. وأقلعنا ظهر يوم الخميس التاسع والعشرين منه، و بموافقة الرابع والعشرين من فبراير المذكور، بحول الله تعالى و عونته، لا رب غيره. و كان طريقنا في البحر محاذيا لبر الأندلس.

[شهر ذي القعدة من السنة المذكورة]

إشارة

و فارقناه يوم الخميس السادس لذي القعدة بعده عندما حاذينا دانية. و في صبيحة يوم الجمعة السابع من الشهر المذكور آنفا قابلنا بر جزيرة يابسة ثم يوم السبت بعده قابلنا جزيرة ميورقة، ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة منورقة. و من سبتة إليها نحو ثمانية مجار، و المجري مائة ميل. و فارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة، و قام معنا بر جزيرة سردانية أول ليلة الثلاثاء الحادي عشر من الشهر المذكور، و هو الثامن من مارس، دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل. و بين الجزيرتين، سردانية و منورقة، نحو الأربعمئة ميل، فكان قطعنا مستغربا في السرعة.

أنواء عاصفة

و طرأ علينا من مقابلة البر في الليل هول عظيم، عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى في الحين من تلقاء البر، فأخرجنا عنه، و الحمد لله على ذلك. و قام علينا نوء هال

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢١

له البحر صبيحة يوم الثلاثاء المذكور، فبقينا مترددين بسببه حول بر سردانية إلى يوم الأربعاء بعده فأطلع الله علينا، في حال الوحشة و انغلاق الجهات بالنوء فلا نميز شرقا من غرب، مركبا للروم قصدنا إلى أن حاذانا، فسل عن مقصده، فأخبر أنه يريد جزيرة صقلية و أنه من قرطاجنة عمل مرسية. و قد كنا استقبلنا طريقه التي جاء من غير علم، فأخذنا عند ذلك في اتباع أثره، و الله الميسر، لا رب سواه. فخرج علينا طرف من بر سردانية المذكور، فأخذنا في الرجوع، عودا على بدء، إلى أن وصلنا طرفا من البر المذكور يعرف بقوسمركة، و هو مرسى معروف عندهم. فأرسينا به ظهر يوم الأربعاء المذكور و المركب المذكور معنا. و بهذا الموضع المذكور أثر لبنيان قديم ذكر لنا أنه كان منزلا لليهود فيما سلف.

ثم إنا أقلعنا منه ظهر يوم الأحد السادس عشر من الشهر المذكور، و في مدة مقامنا بالمرسى المذكور جددنا فيه الماء و الحطب و الزاد. و هبط واحد من المسلمين ممن يحفظ اللسان الرومي مع جملة من الروم إلى أقرب المواضع المعمورة منا فأعلمنا أنه رأى جملة من أسرى المسلمين نحو الثمانين بين رجال و نساء يباعون في السوق. و كان ذلك عند وصول العدو - دمره الله - بهم من سواحل البحر ببلاد المسلمين، و الله يتداركهم برحمته. و وصل إلى المرسى المذكور، يوم الجمعة الثالث من يوم أرسينا فيه، سلطان الجزيرة المذكورة، مع جملة من الخيل. فنزل إليه أشياخ المركب من الروم و اجتمعوا به، و طال مقامهم عنده، ثم انصرفوا و انصرف إلى موضع سكناه. و تركنا المركب المذكور في موضع إرسائه، بسبب مغيب بعض أصحابه في البلد، عند هبوب الريح الموافقة لنا.

و في ليلة الثلاثاء الثامن عشر لدى القعدة المذكور، و الخامس عشر من شهر مارس المذكور أيضا، و في الربع الباقي منها، فارقنا بر سردانية المذكورة، و هو بر طويل جرينا بحذائه نحو المائتي ميل. و منتهى دور الجزيرة، على ما ذكر لنا، أزيد من خمسمائة ميل، و يسر الله علينا في التخلص من بحرنا، لأنه أصعب ما في الطريق، و الخروج منه يتعذر في أكثر الأحيان، و الحمد لله على ذلك.

و في ليلة الأربعاء بعدها، من أولها، عصفت علينا ريح هال لها البحر، و جاء معها

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٢

مطر ترسله الرياح بقوة، كأنه شآبيب سهام. فعظم الخطب و اشتد الكرب، و جاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة. فبقينا على تلك الحال الليل كله، و اليأس قد بلغ منا مبلغه، و ارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا. فجاء النهار، و هو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذى القعدة، بما هو أشد هولاً- و أعظم كرباً، و زاد البحر اهتاجاً و اربدت الآفاق سواداً، و استشرت الرياح و المطر عسوفاً، حتى لم يثبت معها شرع. فلجئ إلى استعمال الشراع الصغار. فأخذت الرياح أحدها و مزقته و كسرت الخشبة التي تربط الشراع فيها، و هي المعروفة عندهم بالقرية. فحينئذ تمكن اليأس من النفوس، و ارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء إلى الله عز و جل. و أقمنا على تلك الحال النهار كله. فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور، و سرنا في هذه الحال كلها بريح الصواري سيرا سريعا.

جزيرة صقلية

و في ذلك اليوم حاذينا بر جزيرة صقلية. و بتنا تلك الليلة، التي هي ليلة الخميس التالية لليوم المذكور، مترددين بين الرجاء و اليأس.

فلما أسفر الصبح نشر الله رحمته، و أقتعت السحاب و طاب الهواء و أضاءت الشمس و أخذ في السكون البحر.

فاستبشر الناس و عاد الأانس و ذهب اليأس، و الحمد لله الذي أرانا عظيم قدرته، ثم تلافى بجميل رحمته و لطيف رأفته، حمداً يكون كفاء لمنتته و نعمته. و في هذا الصباح المذكور، ظهر لنا بر صقلية و قد أجزنا أكثره و لم يبق منه إلا الأقل. و أجمع من حضر من رؤساء البحر من الروم و ممن شاهد الأسفار و الأهوال في البحر من المسلمين أنهم لم يعاينوا قط مثل هذا الهول في ما سلف من أعمارهم، و الخبر عن هذه الحال يصغر في خبرها. و بين البرين المذكورين، بر سردانية و بر صقلية، نحو الأربعمائة ميل.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٣

و استصحبنا من بر صقلية أزيد من مائتي ميل، ثم ترددنا بحذائه بسبب سكون الرياح.

فلما كان عصر يوم الجمعة الحادى و العشرين من الشهر المذكور أفلعنا من الموضع الذى كنا أرسينا فيه، و فارقنا البر المذكور أول تلك الليلة. و أصبحنا يوم السبت و بيننا و بينه مسافة بعيدة، و ظهر لنا إذ ذاك الجبل الذى كان فيه البركان. و هو جبل عظيم مصعد فى جو السماء، قد كساه الثلج. و أعلمنا أنه يظهر فى البحر مع الصحو على أزيد من مسيرة مئة ميل. فأخذنا ملججين و أقرب ما نؤمله من البر إلينا جزيرة أقریطش و هى من جزائر الروم، و نظرها إلى صاحب القسطنطينية، و بينها و بين جزيرة صقلية مسيرة سبعمائة ميل، و الله كفيل بالتيسير و التسهيل بمنه. و فى طول هذه الجزيرة، جزيرة أقریطش المذكورة، نحو من ثلاثمائة ميل.

و فى ليلة الثلاثاء الخامس و العشرين من الشهر المذكور، و هو الثانى و العشرون من شهر مارس، حاذينا البر المذكور تقديراً لا عياناً.

و فى صبيحة اليوم المذكور فارقناه متوجهين لقصدنا. و بين هذه الجزيرة المذكورة و بين الإسكندرية ستمائة ميل أو نحوها.

و فى صبيحة يوم الأربعاء السادس و العشرين منه ظهر لنا البر الكبير المتصل بالإسكندرية المعروف ببر الغرب، و حاذينا منه موضعاً يعرف بجزائر الحمام، على ما ذكر لنا، و بينه و بين الإسكندرية نحو الأربعمائة ميل، على ما ذكر لنا، فأخذنا فى السير و البر المذكور منا يمينا.

بشرى بالسلامة

و في صبيحة يوم السبت التاسع والعشرين من الشهر المذكور أطلع الله علينا البشري بالسلامة بظهور منار الإسكندرية على نحو العشرين ميلا، و الحمد لله على ذلك حمدا يقتضى المزيد من فضله و كريم صنعه. و في آخر الساعة الخامسة منه كان تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٤

إرساؤنا بمرسى البلد، و نزولنا إثر ذلك، و الله المستعان فيما بقى بمنه. فكانت إقامتنا على متن البحر ثلاثين يوما، و نزلنا في الحادي و الثلاثين، لأن ركوبنا إياه كان يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر شوال، و نزولنا عنه في يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ذى القعدة، و بموافقة السادس.

و العشرين من مارس، و الحمد لله على ما من به من التيسير و التسهيل، و هو سبحانه المسؤول بتتميم النعمة علينا ببلوغ الغرض من المقصود، و تعجيل الإياب إلى الوطن على خير و عافية، إنه المنعم بذلك لا رب سواه. و كان نزولنا بها بفندق يعرف بفندق الصفار بمقربة من الصبابة.

شهر ذى الحجة من السنة المذكورة

إشارة

أوله يوم الأحد، ثانی يوم نزولنا بالإسكندرية. فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه. فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا و كتبت أسماؤهم و صفاتهم و أسماء بلادهم، و سئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدى زكاة ذلك كله، دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل. و كان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم، فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل أحال عليه الحول أم لا. و استنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن أبناء المغرب و سلع المركب. فطيف به مرقبا على السلطان أولا، ثم على القاضى، ثم على أهل الديوان، ثم على جماعة من حاشية السلطان. و فى كل يستفهم ثم يقيد قوله، فخلى سبيله، و أمر المسلمون بتزليل أسبابهم و ما فضل من أزودتهم. و على ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم و بحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان. فاستدعوا واحدا واحدا، و أحضر ما لكل واحد من الأسباب،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٥

و الديوان قد غص بالزحام. فوقع التفتيش لجميع الأسباب، ما دق منها و ما جل، و اختلط بعضها ببعض، و أدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها.

ثم استحلّفوا بعد ذلك، هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا. و فى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي و تكاثر الزحام، ثم أطلقوا بعد موقف من الذل و الخزي عظيم، نسال الله أن يعظم الأجر بذلك. و هذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين، و لو علم بذلك - على ما يؤثر عنه من العدل و إيثار الرفق - لأزال ذلك، و كفى الله المؤمنين تلك الخطئة الشاقة و استؤدوا الزكاة على أجمل الوجوه. و ما لقينا ببلاد هذا الرجل، ما يلزم به قبيح لبعض الذكر، سوى هذه الأحداث التي هي من نتائج عمال الدواوين.

ذكر بعض أخبار الإسكندرية و آثارها

فأول ذلك حسن وضع البلد و اتساع مبانيه، حتى إننا ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منه و لا أعلى مبنى و لا أعتق و لا أحفل منه، و أسواقه فى نهاية من الاحتفال أيضا. و من العجب فى وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها و أعتق و أمتن، لأن الماء من النيل

يخترق جميع ديارها و أزقتها تحت الأرض، فتصل الآبار بعضها ببعض و يمد بعضها بعضا. و عاينا فيها أيضا، من سواري الرخام و ألواح كثره و علوا و اتساعا و حسنا، ما لا يتخيل بالوهم، حتى إنك تلقى في بعض الممرات بها سواري يغص الجو بها صعودا، لا يدري ما معناه و لا لم كان أصل وضعها. و ذكر لنا أنه كان عليها في القديم مبان للفلاسفة خاصة، و لأهل الرئاسة في ذلك الزمان- و الله أعلم- و يشبه أن يكون ذلك للرصد.

و من أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي قد وضعه الله، عز و جل، على يدي من سخر لذلك آية للمتوسمين و هداية للمسافرين، لولاه ما اهدوا في البحر إلى بر الإسكندرية، يظهر على أزيد من سبعين ميلا. و مبناه في غاية العتاقه و الوثاقه طولاً و عرضاً، يزاحم الجو سما و ارتفاعاً، يقصر عنه الوصف و ينحسر دونه الطرف، تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٦

الخبر عنه يضيق و المشاهده له تتسع. ذرنا أحد جوانبه الأربعة فألفينا فيه نيفا و خمسين باعا، و يذكر أن في طوله أزيد من مائة و خمسين قامه. و أما داخله فمرأى هائل، اتساع معارج و مداخل و كثره مساكن، حتى إن المتصرف فيها و الوالج في مسالكها ربما ضل.

و بالجملة لا يحصلها القول، و الله لا يخليه من دعوة الإسلام و يقيه. و في أعلاه مسجد موصوف بالبركة يتبرك الناس بالصلاة فيه، و طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذي الحجة المؤرخ، و صلينا في المسجد المبارك المذكور. و شاهدنا من شأن مبناه عجا لا يستوفيه وصف و اصف.

مآثر صلاح الدين

من مناقب هذا البلد و مفاخره العائده في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس و المحارس الموضوعه فيه لأهل الطلب و التبعده، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه و مدرّسا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه و إجراء يقوم به في جميع أحواله. و اتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين، حتى أمر بتعيين حمّامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، و نصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم، و وكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، و تحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحتهم التي يشيرون بها من علاج و غذاء. و قد رتب أيضا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة، و ينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم.

و من أشرف هذه المقاصد أيضا أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغما ما بلغوا، و نصب لتفريق ذلك كل يوم إنسانا أمينا من قبله. فقد ينتهي في اليوم ألفى خبزه أو أزيد، بحسب القله و الكثره، و هكذا دائما.

و لهذا كله أوقاف من قبله حاشا ما عينه من زكاة العين لذلك. و أكد على المتولين لذلك

تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٧

متى نقصهم من الوظائف المرسومة شىء أن يرجعوا إلى صلب ماله. و أما أهل بلده ففي نهاية من الترفيه و اتساع الأحوال، لا يلزمهم وظيف البتة. و لا فائد للسلطان بهذا البلد سوى الأوقاف المحبسه المعينه من قبله لهذه الوجوه و جزية اليهود و النصرارى و ما يطرأ من زكاة العين خاصة، و ليس له منها سوى ثلاثة أثمانها و خمس الأثمان مضافه للوجوه المذكوره.

و هذا السلطان الذي سن هذه السنن المحموده، و رسم هذه الرسوم الكريمة على عدمها في المده البعيده، هو صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب، وصل الله صلاحه و توفيقه. و من أعجب ما اتفق للغرباء، أن بعض من يريد التقرب بالنصائح إلى السلطان ذكر أن أكثر هؤلاء يأخذون جراية الخبز و لا حاجه لهم بها، رغبه في المعيشه، لأنهم لا يصلون إلا بزاد يقلهم. فكاد يؤثر سعى هذا المنتصح. فلما كان في أحد الأيام خرج السلطان المذكور على سبيل التطلع خارج بلده، فتلقى منهم جماعة قد لفظتهم الصحراء المتصلة

بطرابلس، و هم قد ذهبت رسومهم عطشا و جوعا. فسألهم عن وجهتهم و استطلع ما لديهم. فأعلموه أنهم قاصدون بيت الله الحرام و أنهم ركبوا البر و كابدوا مشقة صحرائية. فقال: لو وصل هؤلاء و هم قد اعتسفوا هذه المجاهل التي اعتسفوها و كابدوا من الشقاء ما كابدوه و بيد كل واحد منهم زنته ذهبا و فضة لوجب أن يشاركوها و لا يقطعوا عن العادة التي أجريتها لهم، فالعجب ممن يسعى على مثل هؤلاء و يروم التقرب إلينا بالسعى في قطع ما أوجبناه لله، عز و جل، خالصا لوجهه.

و مآثر هذا السلطان و مقاصده في العدل و مقاماته في الذود عن حوزة الدين لا تحصى كثرة. و من الغريب أيضا، في أحوال هذه البلد، تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع أحوالهم. و هو أكثر بلاد الله مساجد، حتى إن تقدير الناس لها يطفف. فمنهم المكثر و المقلل، فالمكثر ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد، و المقلل ما دون ذلك لا ينضب، فمنهم من يقول ثمانية آلاف و منهم من يقول غير ذلك. و بالجملة فهي كثيرة جدا تكون منها الأربعة و الخمسة في موضع و ربما كانت مركبة، و كلها بأئمة مرتين من قبل

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٨

السلطان، فمنهم من له الخمسة دنائير مصرية في الشهر، و هي عشرة مؤمنية، و منهم من له فوق ذلك و منهم من له دونه. و هذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان، إلى غير ذلك مما يطول ذكره من المآثر التي يضيق عنها الحصر.

مغادرة الإسكندرية

ثم كان الانفصال عنها، على بركة الله تعالى و حسن عونه، صبيحة يوم الأحد الثامن لذي الحجة المذكور، و هو الثالث لأبريل، فكانت مرحلتنا منه موضع يعرف بدمهور، و هو بلد مسور في بسط من الأرض أفح، متصل من الإسكندرية إليه إلى مصر. و البسيط كله محرث، يعمه النيل بفيضه، و القرى فيه يمينا و شمالا لا تحصى كثرة.

ثم في اليوم الثاني، و هو يوم الاثنين، أجزنا النيل بموضع يعرف بصا في مركب تعدي.

و اتصل سيرنا إلى موضع يعرف ببرمة فكان مبيتنا بها، و هي قرية كبيرة فيها السوق و جميع المرافق. ثم بكرنا منها يوم الثلاثاء، و هو يوم عيد النحر من سنة ثمان و سبعين و خمسمائة المؤرخة، فشهدنا الصلاة بموضع يعرف بطندته و هي من القرى الفسيحة الآهلة، فأبصرنا بها مجمعا حفلا، و خطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة. و اتصل سيرنا إلى موضع يعرف بسبك و كان مبيتنا بها.

و اجتزنا في ذلك اليوم على موضع حسن يعرف بمليج، و العمارة متصلة و القرى منتظمة في طريقنا كلها. ثم بكرنا منها يوم الأربعاء بعده. فمن أحسن بلد مررنا عليه موضع يعرف بقلوب على ستة أميال من القاهرة فيه الأسواق الجميلة و مسجد جامع كبير حليل البنيان، ثم بعده المنية، و هو موضع أيضا حليل، ثم منها إلى القاهرة، و هي مدينة السلطان الحفيلة المتسعة، ثم منها إلى مصر المحروسة. و كان دخولنا فيها إثر صلاة العصر من يوم الأربعاء، و هو الحادي عشر من ذي الحجة المذكور و السادس

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٩

من أبريل، عرفنا الله فيها الخير و الخبرة و تمم علينا صنعه الجميل بالوصول إلى الغرض المأمول، و لا أخلانا من التيسير و التسهيل بعزته و قدرته، إنه على ما يشاء قدير.

و في يوم الأربعاء المذكور، أجزنا القسم الثاني من النيل في مركب تعدي أيضا بموضع يعرف بدجوة، و ذلك وقت الغداة الصغرى، و كان نزولنا في مصر بفندق أبي الثناء في زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص، رضى الله عنه، في حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور.

ذكر مصر و القاهرة و بعض آثارها العجيبة

فأول ما نبدأ بذكره منها الآثار و المشاهد المباركة التي بركتها يمسكها الله عز و جل:

فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب، رضى الله عنهما، و هو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض، قد بنى عليه بنيان حفيلى يقصر الوصف عنه و لا يحيط الإدراك به، مجلل بأنواع الديباج، محفوف بأمثال العمدة الكبار شمعا أبيض و منه ما هو دون ذلك، قد وضع أكثرها فى أتوار فضة خالصة و منها مذهبة، و علقت عليه فناديل فضة، و حفّ أعلاه كله بأمثال التفايح ذهبا فى مصنع شبيه الروضة يقيد الأبصار حسنا و جمالا، فيه من أنواع الرخام المجزّع الغريب الصنعة البديع الترتيب ما لا يتخيله المتخيلون و لا يلحق أدنى وصفه الواصفون.

و المدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها فى التأنق و الغرابة، حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة، و عن يمين الروضة المذكورة و شمالها بيتان من كليهما المدخل إليها و هما أيضا على تلك الصفة بعينها، و الأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع. و من أعجب ما شاهدناه فى دخولنا إلى هذا المسجد المبارك، حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل، شديد السواد و البصيص، يصف

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٣٠

الأشخاص كلها كأنه المرأة الهندية الحديثة الصقل. و شاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك، و إحداقهم به، و انكبابهم عليه، و تمسحهم بالكسوة التى عليه، و طوافهم حوله مزدحمين باكين، متوسلين إلى الله سبحانه و تعالى ببركة التربة المقدسة، و متضرعين ما يذيب الأكباد و يصدع الجماد. و الأمر فيه أعظم، و مرأى الحال أهوال، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم. و إنما وقع الإلماع بنبذة من صفته، مستدلا على ما وراء ذلك إذ لا ينبغي لعاقل أن يتصدى لوصفه، لأنه يقف موقف التقصير و العجز. و بالجملة، فما أظن فى الوجود كله مصنعا أحفل منه، و لا مرأى من البناء أعجب و لا أبداع، قدس الله العضو الكريم الذى فيه بمنه و كرمه.

و فى ليلة اليوم المذكور بنتا بالجبانة المعروفة بالقرافة، و هى أيضا إحدى عجائب الدنيا، لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء، صلوات الله عليهم، و أهل البيت رضوان الله عليهم، و الصحابة و التابعين و العلماء و الزهاد و الأولياء ذوى الكرامات الشهيرة و الأنبياء الغريبة. و إنما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته. فمنها قبر ابن النبى صالح، و قبر روييل بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، صلوات الله عليهم أجمعين، و قبر آسية امرأة فرعون رضى الله عنها، و مشاهد أهل البيت رضى الله عنهم أجمعين:

مشاهد أربعة عشر من الرجال، و خمس من النساء، و على كل واحد منها بناء حفيلى.

فهى بأسرها روضات بديعة الإتقان عجيبة البنيان، قد و كل بها قومه يسكنون فيها و يحفظونها. و منظرها منظر عجيب، و الجرايات متصلة لقوامها فى كل شهر.

ذكر مشاهد أهل البيت رضى الله عنهم

مشهد على بن الحسين بن على رضى الله عنه، و مشهدان لابنى جعفر بن محمد الصادق، رضى الله عنهم، و مشهد القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد بن على زين العابدين المذكور، رضى الله عنهم، و مشهدان لابنيه الحسن و الحسين رضى الله عنهما، و مشهد ابنه عبد الله بن القاسم، رضى الله عنه، و مشهد ابنه يحيى بن القاسم، و مشهد على بن عبد الله بن القاسم رضى الله عنهم، و مشهد أخيه عيسى بن عبد الله،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٣١

رضى الله عنهما، و مشهد يحيى بن الحسن بن زيد بن الحسن، رضى الله عنهم، و مشهد محمد بن عبد الله بن محمد الباقر بن على زين العابدين الحسين بن على، رضى الله عنهم، و مشهد جعفر بن محمد من ذرية على بن الحسين، رضى الله عنهم، و ذكر لنا أنه كان ربيب الإمام مالك، رضى الله عنه.

مشهد السيدة أم كلثوم ابنة القاسم بن محمد بن جعفر، رضى الله عنهم، و مشهد السيدة زينب ابنة يحيى بن زيد بن على بن الحسين، رضى الله عنهم، و مشهد أم كلثوم ابنة محمد بن جعفر الصادق، رضى الله عنهم، و مشهد السيدة أم عبد الله بن القاسم بن محمد، رضى الله عنهم.

و هذا ذكر ما حصله العيان من هذه المشاهد العلوية المكرمة، و هى أكثر من ذلك.

و أخبرنا أن فى جملتها مشهدا مباركا لمريم ابنة على بن أبى طالب، رضى الله عنه. و هو مشهور لكن لم نعاينه. و أسماء أصحاب هذه المشاهد المباركة إنما تلقيناها من التواريخ الثابتة عليها مع تواتر الأخبار بصحة ذلك، و الله أعلم بها. و على كل واحد منها بناء حفيلى، فهى بأسرها روضات بديعة الإتيان عجيبه البنيان، قد و كل بها قومه يسكنون فيها و يحفظونها. و منظرها منظر عجيب. و الجرايات متصله لقوامها فى كل شهر.

ذكر مشاهد بعض أصحاب رسول الله، صلى الله عليه و سلم،

بالقراءة المذكورة و مشاهد التابعين و الأئمة و العلماء و الزهاد و الأولياء المشتهرين بالكرامات رضى الله عنهم أجمعين و المقيّد يبرأ من القطع بصحة ذلك، و إنما رسم من أسمائهم ما وجدته مرسوما فى تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٣٢

توارىخها. و بالجملة، فالصحة غالبه لا يشك فيها، إن شاء الله عز و جل: مشهد معاذ بن جبل، رضى الله عنه، مشهد عقبه بن عامر الجهنى حامل راية رسول الله، صلى الله عليه و سلم، مشهد صاحب برده، صلى الله عليه و سلم، مشهد أبى الحسن صائغ رسول الله، صلى الله عليه و سلم، مشهد سارية الجبل رضى الله عنه، مشهد محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، مشهد أولاده رضى الله عنهم، مشهد أحمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، مشهد أسماء ابنة أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، مشهد ابن الزبير بن العوام رضى الله عنهما، مشهد عبد الله بن حذافة السهمى صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم، مشهد ابن حليمه رضى رسول الله صلى الله عليه و سلم.

مشاهد الأئمة العلماء الزهاد رضى الله عنهم أجمعين

مشهد الإمام الشافعى رضى الله عنه، و هو من المشاهد العظيمة احتفالا و اتساعا. و بنى يازائه مدرسه لم يعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع مساحة و لا أحفل بناء، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، يازائها الحمام، إلى غير ذلك من مرافقها، و البناء فيها حتى الساعة، و النفقة عليها لا تحصى. و تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى، و سلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله، و يقول: زد احتفالا و تأنقا، و علينا القيام بمؤونه ذلك كله، فسبحان الذى جعله صلاح دينه كاسمه. و لقينا هذا الرجل، الخبوشانى المذكور، تبركا بدعائه، لأنه قد كان ذكر لنا أمره بالأندلس، فألفيناه فى مسجده بالقاهرة و فى البيت الذى يسكنه داخل المسجد المذكور. و هو بيت ضيق الفناء فدعا لنا و انصرفنا، و لم نلق من رجال مصر سواه.

مشهد المزنى صاحب الإمام الشافعى رضى الله عنه؛ مشهد أشهب صاحب مالك رضى الله عنه؛ مشهد عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك رضى الله عنهما؛ مشهد أصبغ صاحب مالك رضى الله عنهما؛ مشهد القاضى عبد الوهاب رضى الله عنه؛ مشهد عبد الله بن عبد الحكم، و محمد بن عبد الله بن عبد الحكم رضى الله عنهما؛ مشهد

الفقيه الواعظ الزاهد أبي الحسن الدينوري، رضى الله عنه؛ مشهد بنان العابد رضى الله عنه؛ مشهد الرجل الصالح العابد الزاهد المعروف بصاحب الإبريق، وقصته عجيبة في الكرامة؛ مشهد أبي مسلم الخولاني رضى الله عنه؛ مشهد المرأة الصالحة المعروفة بالعيناء رضى الله عنها؛ مشهد الروذبارى رضى الله عنه؛ مشهد محمد بن مسعود بن محمد بن هارون الرشيد المعروف بالسبتي رضى الله عنه؛ مشهد الرجل الصالح مقل الحششى رضى الله عنه؛ مشهد ذى النون بن إبراهيم المصرى رضى الله عنه؛ مشهد القاضي الأنبارى؛ قبر الناطق الذى سمع عند وضعه فى لحده يقول "اللهم أنزلى منزلا مباركا و أنت خير المنزلين" رضى الله عنه، مشهد العروس و لها أثر من الكرامة فى حال جلوتها على زوجها لم يسمع أعجب منه؛ مشهد الصامت الذى يحكى عنه انه لم يتكلم أربعين سنة؛ مشهد العصافيرى؛ مشهد عبد العزيز بن أحمد بن الحسن الخوارزمى؛ مشهد الفقيه الواعظ الأفضل الجوهري، و مشاهد أصحابه بازائه رضى الله عنهم أجمعين؛ مشهد شقران شيخ ذى النون المصرى؛ مشهد الرجل الصالح المعروف بالأقطع المغربى؛ مشهد المقرئ ورش؛ مشهد الطبرى؛ مشهد شيبان الراعى.

و المشاهد الكريمة بها أكثر من أن تضبط بالتحديد أو تتحصل بالإحصاء، و إنما ذكرنا منها ما أمكننا مشاهدته. و بقبلة القرافة المذكورة بسيط متسع يعرف بموضع قبور الشهداء، و هم الذين استشهدوا مع ساريه رضى الله عن جميعهم. و البسيط المذكور مسنم كله للعيان على مثال أسنمة القبور دون بناء. و من العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية و مشاهد معمورة يأوى إليها الغرباء و العلماء و الصلحاء و الفقراء، و الإجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان فى كل شهر، و المدارس التى بمصر و القاهرة كذلك، و حقق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيف على ألفى دينار مصرية فى الشهر، و هى أربعة آلاف دينار مؤمنة.

و ذكر لنا أن لجامع عمرو بن العاص بمصر من الفائد نحو الثلاثين دينارا مصرية فى كل يوم تفرق فى مصالحه و مرتبات قومته و سدنته و أئمتته و القراء فيه. و مما شاهدنا بالقاهرة أربعة جوامع حفيظة البنيان أنيقة الصنعة إلى مساجد عدة.

و فى أحد الجوامع استمعنا إلى الخطبة اليوم. و يأخذ الخطيب فيها مأخذ سنّى يجمع فيها الدعاء للصحابة، رضى الله عنهم، و للتابعين و من سواهم و لأمهات المؤمنين زوجات النبى صلى الله عليه و سلم، و لعمية الكريمين حمزة و العباس، رضى الله عنهما، و يلفظ الوعظ و يرقق التذكير حتى تخشع القلوب القاسية و تتفجر العيون الجامدة.

و يأتى للخطبة لابسا السواد على رسم العباسية. و صفة لباسه برده سوداء عليها طيلسان شرب أسود، و هو الذى يسمى بالمغرب الإحرام، و عمامة سوداء، متقلدا سيفا. و عند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر فى أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرين كأنها إيذان بالإنصات، و فى توسطه أخرى، و فى انتهاء صعوده ثالثة. ثم يسلم على الحاضرين يمينا و شمالا و يقف بين رايتين سوداوين فيهما تجزيع بياض قد ركزت فى أعلى المنبر. و دعاؤه فى هذا التاريخ للإمام العباسى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله، ابن الإمام أبى محمد الحسن المستضىء بالله، ابن الإمام أبى المظفر يوسف المستنجد بالله، ثم لمحبي دولته أبى المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين، ثم لأخيه ولى عهده أبى بكر سيف الدين.

القلعة و المارستان

و شاهدنا أيضا بنيان القلعة و هو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة، يريد السلطان أن يتخذة موضع سكناه، و يمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر و القاهرة. و المسخرون فى هذا البنيان و المتولون لجميع امتهاناته و مؤنثته العظيمة كنشر الرخام و نحت الصخور العظام

و حفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور، و هو خندق ينقر بالمعاول نقرا في

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٣٥

الصخر عجا من العجائب الباقية الآثار، العلوج الأسارى من الروم و عددهم لا يحصى كثرة، و لا سبيل أن يمتهن في ذلك البيان أحد سواهم. و للسلطان أيضا بمواضع آخر ببيان، و الأعلاج يخدمونه فيه. و من يمكن استخدامه من المسلمين في مثل هذه المنفعة العامة مرفه عن ذلك كله و لا وظيفة في شيء من ذلك على أحد.

و مما شاهدناه أيضا من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة. و هو قصر من القصور الرائقة حسنا و اتساعا، أبرزه لهذه الفضيلة تأجرا و احتسابا، و عين قيما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير و مكنه من استعمال الأشربة و إقامتها على اختلاف أنواعها. و وضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى. و بين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة و عشية، فيقابلون من الأغذية و الأشربة بما يليق بهم.

و بإزاء هذا الموضع، موضع مقتطع للنساء المرضى. و لهن أيضا من يكفلهن.

و يتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد، اتخذت محابس للمجانين. و لهم أيضا من يتفقد في كل يوم أحوالهم و يقابلها بما يصلح لها. و السلطان

يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث و السؤال، و يؤكد في الاعتناء بها و المثابرة عليها غاية التأكيد. و بمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه.

مسجد ابن طولون و مآثر السلطان العمرانية

و بين مصر و القاهرة المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن طولون، و هو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه و يحلقون فيه، و أجرى عليهم الأرزاق في كل شهر. و من أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم إليهم، و لم يجعل يدا لأحد عليهم. فقدموا من أنفسهم حاكما يمثلون أمره و يتحاكمون في طوارئ أمورهم

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٣٦

عنده، و استصحبوا الدعاء و العافية، و تفرغوا لعبادة ربهم، و وجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذي هم بسبيله.

و ما منها جامع من الجوامع، و لا مسجد من المساجد، و لا روضة من الروضات المبنية على القبور، و لا محرس من المحارس و لا مدرسة من المدارس، إلا و فضل السلطان يعم جميع من يأوى إليها و يلزم السكنى فيها، تهون عليه في ذلك نفقات بيوت الأموال. و من مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمر المسلمين كافة، أنه أمر بعمارة محاضر أزمها معلمين لكتاب الله، عز و جل، يعلمون أبناء الفقراء و الأيتام خاصة، و تجرى عليهم الجراية الكافية لهم.

و من مفاخر هذا السلطان و آثاره الباقية المنفعة للمسلمين القناطر التي شرع في بنائها بغربى مصر، و على مقدار سبعة أميال منها، بعد رصيف ابتدئ به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض، تسير فيه مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة، و هى نحو الأربعين قوسا من أكبر ما يكون من قسى القناطر.

و القنطرة متصلة بالصحراء التى يفضى منها إلى الإسكندرية، له في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمه، إعدادا لحادثه تطرأ من عدو يدهم جهة نجر الإسكندرية عند فيض النيل و انغمار الأرض به و امتناع سلوك العساكر بسببه. فأعد ذلك مسلكا في كل وقت إن احتيج إلى ذلك. و الله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع و محذور بمنه.

و لأهل مصر فى شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحدائنية، يرون أن حدوثها إيدان باستيلاء الموحدين عليها و على الجهات

الشرقية، و الله أعلم بغيبه، لا إله سواه.

الأهرام و أبو الهول

و بمقربة من هذه القنطرة المحدثه الأهرام القديمة، المعجزة البناء، الغريبة المنظر، المربعة الشكل، كأنها القباب المضروبة قد قامت في جو السماء، و لا سيما الاثنان منها، فإنهما يغص الجو بهما سماوا، في سعة الواحد منها من أحد أركانه إلى الركن الثاني ثلاثمائة خطوة و ست و ستون خطوة، قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٣٧

و ركبت تركيبا هائلا بديع الإلصاق، دون أن يتخللها ما يعين على إلصاقها، محددة الأطراف في رأى العين. و ربما أمكن الصعود إليها على خطر و مشقة، فتلقى أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرحاب، لو رام أهل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك. و للناس في أمرها اختلاف: فمنهم من يجعلها قبورا لعاد و بنيه، و منهم من يزعم غير ذلك. و بالجملة فلا يعلم شأنها إلا الله عز و جل.

و لأحد الكبيرين منها باب يصعد إليه على نحو القامة من الأرض أو أزيد، و يدخل منه إلى بيت كبير سعته نحو خمسين شبرا و طوله نحو ذلك. و في جوف ذلك البيت رخامة طويلة مجوفة شبه التي تسميها العامة البيلة، يقال إنها قبر و الله أعلم بحقيقته ذلك. و دون الكبير هرم سعته من الركن الواحد إلى الركن الثاني مئة و أربعون خطوة. و دون هذا الصغير خمسة صغار و ثلاثة متصله، و الاثنان على مقربة منها متصلان.

و على مقربة من هذه الأهرام بمقدار غلوة صورة غريبة من حجر قد قامت كالصومعة على صفة آدمي هائل المنظر، وجهه الأهرام و ظهره القبلة مهبط النيل، تعرف بأبي الأهوال. و بمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب لعمر و بن العاص رضى الله عنه. و له أيضا بالإسكندرية جامع آخر، هو مصلى الجمعة للمالكيين. و بمدينة مصر آثار من الخراب الذى أحدثه الإحراق الحادث بها وقت الفتنة، عند انتساح دولة العبيديين، و ذلك سنة أربع و ستين و خمسمائة، و أكثرها الآن مستجد و البنيان بها متصل. و هى مدينة كبيرة و الآثار القديمة حولها و على مقربة منها ظاهرة تدل على عظمتها اختطاطها فى ما سلف.

و على شط نيلها مما يلي غربيها، و النيل معترض بينهما، قرية كبيرة حفيلة البنيان تعرف بالجيزة. لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة يجتمع إليها. و يعترض بينها و بين مصر جزيرة، فيها مساكن حسان و علالي مشرفة، و هى مجتمع اللهو و الزهدة، و بينها و بين مصر خليج من النيل يذهب بطولها نحو الميل و لها مخرج له.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٣٨

و بهذه الجزيرة مسجد جامع يخطب فيه. و يتصل بهذا الجامع المقياس الذى يعتبر فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة. و استشعار ابتدائه فى شهر يونيه، و معظم انتهائه أغشت و آخره أول شهر أكتوبر. و هذا المقياس عمود رخام أبيض مثنى، فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه، و هو مفصل على اثنتين و عشرين ذراعا، مقسمة على أربعة و عشرين قسما تعرف بالأصابع. فإذا انتهى الفيض عندهم أن يستوفى الماء تسعة عشر ذراعا منغمرة فيه فهى الغاية عندهم فى طيب العام. و ربما كان الغامر منه كثيرا بعموم الفيض. و المتوسط عندهم ما استوفى سبعة عشر ذراعا، و هو الأحسن عندهم من الزيادة المذكورة. و الذى يستحق به السلطان خراجه فى بلاد مصر ستة عشر ذراعا فصاعدا، و عليها يعطى البشارة الذى يراعى الزيادة فى كل يوم و الزيادة فى أقسام الذراع المذكورة و يعلم بها مياومه حتى تستوفى الغاية التى يقضى بها. و إن قصر عن ست عشرة ذراعا فلا مجبى للسلطان فى ذلك العام و لا خراج.

و ذكر لنا أن بالجيزة المذكورة قبر كعب الأحبار رضى الله عنه. و فى صدر الجزيرة المذكورة أحجار رخام قد صورت فيها التماسيح، فيقال: إن بسببها لا تظهر التماسيح فيما يلي البلد من النيل مقدار ثلاثة أميال علوا و سفلا، و الله أعلم بحقيقته ذلك.

و من مفاخر هذا السلطان المزلفه من الله تعالى و آثاره التي أبقاها ذكرا جميلا للدين و الدنيا: إزالته رسم المكس المضروب وظيفه على الحجاج مدة دولة العبيدين. فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استيادتها عنتا مجحفا و يسامون فيها خطه خسف باهظه. و ربما ورد منها من لا فضل لديه على نفقته و لا نفقه عنده فيلزم أداء الضريبة المعلومه، و كانت سبعة دنانير و نصف دينار من الدنانير المصريه التي هي خمس عشر دينارا مؤمنيه على كل رأس، و يعجز عن ذلك، فيتناول بأليم العذاب بعيداب كاسمها مفتوحه العين. تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٣٩

و ربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الأثنين أو غير ذلك من الأمور الشنيعه، نعوذ بالله من سوء قدره. و كان بجده أمثال هذا التنكيل و أضعافه لمن لم يؤد مكسه بعيداب، و وصل اسمه غير معلم عليه علامه الأداء. فمحا هذا السلطان هذا الرسم للعين و دفع عوضا منه ما يقوم مقامه من أطعمه و سواها، و عين مجبى موضع معين بأسره لذلك، و تكفل بتوصيل جميع ذلك إلى الحجاز لأن الرسم المذكور كان باسم ميره مكه و المدينه، عمّرهما الله، فعوض من ذلك أجمل عوض، و سهل السبل للحجاج، و كانت في حيز الانقطاع و عدم الاستطلاع، و كفى الله المؤمنين على يدى هذا السلطان العادل حادثا عظيما و خطبا أليما. فترتب الشكر له على كل من يعتقد من الناس أن حج البيت الحرام إحدى القواعد الخمس من الإسلام، حتى يعم جميع الآفاق و يوجب الدعاء له في كل صقع من الأصقاع و بقعه من البقاع، و الله من وراء مجازاة المحسنين، و هو - جلت قدرته - لا يضيع أجر من أحسن عملا. إلى مكوس كانت في البلاد المصريه و سواها ضرائب على كل ما يباع و يشتري مما دق أو جل، حتى كان يؤدي على شرب ماء النيل المكس، فضلا عما سواه. فمحا هذا السلطان هذه البدع اللعينه كلها و بسط العدل و نشر الأمن.

و من عدل هذا السلطان و تأمينه للسبل، أن الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفا فيما يعينهم، و لا يستشعرون لسواده هيبه تشيهم. على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر و الإسكندريه حسبا تقدم ذكره.

شهر المحرم سنة تسع و سبعين عرفنا الله يمينها و بركتها

إشارة

استهل هلاله ليلة الثلاثاء، و هو اليوم السادس و العشرون من أبريل، و نحن بمصر، يسر الله علينا مرامنا. و في صبيحة يوم الأحد السادس من محرم المذكور كان انفصالنا من مصر و صعودنا في النيل على الصعيد، قاصدين قوص، عرفنا الله عادته الجميله من التيسير و حسن المعونه بمنه. و وافق يوم إقلاعنا المذكور أول يوم من مايه،

تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٤٠

بحول الله عز و جل. و القرى في طريقنا متصله في شطى النيل و البلاد الكبار حسبا يأتي ذكره، إن شاء الله. فمنها قرية تعرف بأسكر، في الضفة الشرقيه من النيل، مياسره للصاعد فيه. و يذكر أن فيها كان مولد النبي موسى الكليم، صلى الله على نبينا و عليه، و منها ألقته أمه في اليم، و هو النيل حسبا ذكر.

و عينا أيضا بغربى النيل ميامنا لنا، و ذلك كله يوم إقلاعنا المذكور و في الثانى منه، المدينه القديمه المنسوبه ليوسف الصديق، صلى الله عليه و سلم، و بها موضع السجن الذى كان فيه. و هو الآن ينقض و ينقل أحجاره إلى القلعه المبتناه الآن على القاهره، و هو حصن حصين المنعه. و بهذه المدينه المذكوره أهراء الطعام التي اخترنها يوسف، صلى الله عليه و سلم، و هي مجوفه على ما يذكر. و منها الموضع المذكور بمنيه ابن الخطيب، و هو بلد على شط النيل ميامنا للصاعد فيه، كبيره فيه الأسواق و الحمامات و سائر مرافق المدن. اجترنا عليه ليلة الأحد الثالث عشر لمحرم المذكور، و هو الثامن من يوم إقلاعنا من مصر، لأن الريح سكنت عنا فتربصنا في الطريق. و لو ذهبنا إلى رسم كل موضع يعترضنا في شطى النيل يميننا و شمالا لضاق الكتاب عنه، و لكن نقصد من ذلك إلى الأكبر الأشهر.

و قابلنا على مقربة من هذا الموضع، مياسرا لنا، المسجد المبارك المنسوب لإبراهيم خليل الرحمن، صلوات الله عليه و على نبينا. و هو مسجد مذکور مشهور معلوم بالبركة مقصود،

و يقال: إن بفنائها أثر الدابة التي كان يركبها الخليل، صلى الله عليه و سلم. و منها موضع يعرف بأنصنا، مياسرا لنا، و هي قرية فسيحة جميلة بها آثار قديمة، و كانت في السالف مدينة عتيقة. و كان لها سور عتيق، هدمه صلاح الدين و جعل على كل مركب منحدر في النيل وظيفه من حمل صخرة إلى القاهرة، فنقل بأسره إليها.

و في صبيحة يوم الاثنين الرابع عشر من محرم المذكور، و هو التاسع من إقلاعنا من مصر، اجترنا بالجبل المعروف بجبل المقله، و هو بالشط الشرقي من النيل، مياسرا

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٤١

للساعد فيه. و هو نصف الطريق إلى قوص، من مصر إليه ثلاثة عشر بريدا، و منه إلى قوص مثلها.

و مما يجب ذكره على جهة التعجب، أن من حيز مصر في شط النيل الشرقي مياسرا للساعد فيه حائطا متصلا قديم البنيان، منه ما قد تهدم و منه ما بقي أثره، يتمادى على الشط المذكور إلى أسوان آخر صعيد مصر، و بين أسوان و بين قوص ثمانية برد.

و الأقوال في أمر هذا الحائط تتشعب و تختلف، و بالجملة فشأنه عجيب و لا يعلم سره إلا الله عز و جل. و هو يعرف بحائط العجوز، و لها خبر مذکور، أظن هذه العجوز هي الساحرة المذكور خبرها في المسالك و الممالك التي كانت لها المملكة بها مدة.

ذكر ما استدرک خبره مما أغفل

و ذلك أنا لما حللنا الإسكندرية في الشهر المؤرخ أولا، عاينا مجتمعا من الناس عظيما بروزا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال و جوههم إلى أذناها و حولهم الطبول و الأبواق. فسألنا عن قصتهم، فأخبرنا بأمر تنفطر له الأكباد إشفاقا و جزعا. و ذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا و أنشأوا مراكب في أقرب المواضع التي لهم من بحر القلزم ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكرة اتفقوا معهم عليه. فلما حصلوا بساحل البحر، سمروا مراكبهم و أكملوا إنشاءها و تأليفا و دفعوها في البحر و ركبوها قاطعين بالحجاج، و انتهوا إلى بحر النعم فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا، و انتهوا إلى عيذاب فأخذوا فيها مركبا كان يأتي بالحجاج من جدة، و أخذوا أيضا في البر قافلة كبيرة تأتي من قوص إلى عيذاب، و قتلوا الجميع و لم يحيوا أحدا. و أخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن، و أحرقوا أطمعة كثيرة على ذلك الساحل، كانت معدة لميرة مكة و المدينة أعزهما الله، و أحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الإسلام، و لا انتهى رومي إلى ذلك الموضع قط. و من أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة و بشاعة، و ذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٤٢

الرسول، صلى الله عليه و سلم، و إخراجهم من الضريح المقدس. أشاعوا ذلك و أجروا ذكره على ألسنتهم. فأخذهم الله باجرائهم عليه، و تعاطيهم ما تحول عناية القدر بينهم و بينه. و لم يكن بينهم و بين المدينة أكثر من مسيرة يوم. فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر و الإسكندرية، دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد المغرب البحرية. فلحقوا العدو و هو قد قارب النجاة بنفسه، فأخذوا عن آخرهم. و كانت آية من آيات العناية الجبارية، و أدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان نيف على شهر و نصف أو حوله. و قتلوا و أسروا، و فرق من الأسارى على البلاد ليقتلوا بها، و وجه منهم إلى مكة و المدينة، و كفى الله بجميل صنعه الإسلام و المسلمين أمرا عظيما، و الحمد لله رب العالمين.

و من المواضع التي اجتزنا عليها في الصعيد بعد جبل المقلّة الذي ذكرنا أنه نصف الطريق من مصر إلى قوص، حسبما تقدم ذكره، موضع يعرف بمنفلوط، بمقرّبة من الشط الغربي، ميامنا للصاعد في النيل، فيه الأسواق و سائر ما يحتاج إليه من المرافق. و هي بلدة في نهاية من الطيب ليس في الصعيد مثلها، و قمحها بجلب إلى مصر لطيبه و رزانه حبه، قد اشتهر عندهم بذلك. فالتجار يصعدون في المراكب لاستجلابه.

و منها مدينة أسيوط، و هي من مدن الصعيد الشهيرة، بينها و بين الشط الغربي من النيل مقدار ثلاثة أميال. و هي جميلة المنظر، حولها بساتين النخل، و سورها سور عتيق.

و منها موضع يعرف بأبي تيج، و هو بلد فيه الأسواق و سائر مرافق المدن، و هو في الشط الغربي من النيل. و منها مدينة أحميم، و هي أيضا من مدن الصعيد الشهيرة المذكورة بشرقي النيل و بشطه، قديمة الاختطاط عتيقة الوضع، فيها مسجد ذى النون المصري، و مسجد داود أحد الصالحين

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٤٣

المشتهرين بالخير و الزهادة، و هما مسجدان موسومان بالبركة، دخلنا إليهما متبركين بالصلاة فيهما، و ذلك يوم السبت التاسع عشر لمحرم. و بهذه المدينة آثار و مصانع من بنیان القبط و كنائس معمورة الآن بالمعاهدين من نصارى القبط. و من أعظم الهياكل المتحدث بغرائبها في الدنيا، هيكل عظيم في شرقي المدينة و تحت سورها، طوله مئتا ذراع و عشرون ذراعا، وسعته مئة و ستون ذراعا، يعرف عند أهل هذه الجهة بالبربا. و كذلك يعرف كل هيكل عندهم، و كل مصنع قديم. قد قام هذا الهيكل العظيم على أربعين سارية، حاشا حيطانه. دور كل سارية منها خمسون شبرا، و بين كل سارية و سارية ثلاثون شبرا، و رؤوسها في نهاية من العظم و الإتيقان، قد نحتت نحتا غربيا فجاءت مركنة بديعة الشكل، كأن الخراطين تناولوها، و هي كلها مرقشة بأنواع الأصبغة اللازوردية و سواها.

و السوارى كلها منقوشة من أسفلها إلى أعلاها. و قد انتصب على رأس كل سارية منها رأس صاحبته التي تليها لوح عظيم من الحجر المنحوت، من أعظمها ما كلنا فيه ستة و خمسين شبرا طولاً و عشرة أشرار عرضاً و ثمانية أشرار ارتفاعاً. و سقف هذا الهيكل كله من ألواح الحجارة المنتظمة بديع الإلصاق، فجاءت كأنها فرش واحد. و قد انتظمت جميعه التصاوير البديعة و الأصبغة الغريبة، حتى يخيل للناظر فيها أنها سقف من الخشب المنقوش. و التصاوير على أنواع في كل بلاط من بلاطاته، فمنها ما قد جللته طيور بصور رائقة، باسطة أجنحتها توهم الناظر إليها أنها تهم بالطيران، و منها ما قد جللته تصاوير آدمية رائقة المنظر رائعه الشكل. قد أعدت لكل صورة منها هيئة هي عليها، كإمساك تمثال بيدها، أو سلاح، أو طائر، أو كأس، أو إشارة شخص آخر بيده، أو غير ذلك، مما يطول الوصف له و لا تتأتى العبارة لاستيفائه.

و داخل هذا الهيكل العظيم و خارجه و أعلاه و أسفله تصاوير كلها مختلفات الأشكال و الصفة، و منها تصاوير هائلة المنظر خارجه عن صور الآدميين يستشعر الناظر إليها رعباً و يتملأ منها عبرة و تعجبا. و ما فيه مغرز أشفى و لا إبرة إلا و فيه صورة أو نقش أو خط بالمسند لا يفهم. قد عم هذا الهيكل العظيم الشأن كله هذا

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٤٤

النقش البديع. و يتأتى في صم الحجارة من ذلك مالا يتأتى في الرخو من الخشب، فيحسب الناظر استعظاما له أن عمر الزمان لو شغل بترقيشه و ترصيعه و تزيينه لضاق عنه. فسبحان الموجد للعجائب لا إله سواه. و على أعلى هذا الهيكل سطح مفروش بألواح الحجارة العظيمة على الصفة المذكورة، و هو في نهاية الارتفاع، فيحار الوهم فيها، و يضل العقل في الفكرة في تطليعها و وضعها.

و داخل هذا الهيكل من المجالس و الزوايا و المداخل و المخارج و المصاعد و المعارج و المسارب و الموارج ما تضل فيه الجماعات من الناس و لا يهتدى بعضهم لبعض إلا بالنداء العالى، و عرض حائطه ثمانية عشر شبرا، و هو كله من حجارة مرصوفة على الصفة

التي ذكرناها. وبالجملة فشان هذا الهيكل عظيم و مرآه إحدى عجائب الدنيا التي لا يبلغها الوصف ولا ينتهي إليها الحد، وإنما وقع الإلماع بنبذة من وصفه دلالة عليه، والله المحيط بالعلم فيه والخبير بالمعنى الذي وضع له. فلا يظن المتصفح لهذا المكتوب أن في الإخبار عنه بعض غلو، فإن كل مخبر عنه، لو كان قسا بيانا، أو سحبان يقف موقف العجز والتقصير، والله المحيط بكل شيء علما، لا إله سواه.

مشاهد وإجراءات مخزية

و بلاد هذا الصعيد المعترضة في الطريق للحجاج والمسافرين، كإخميم وقوص و منية ابن الخطيب، من التعرض لمراكب المسافرين و تكشفها و البحث عنها و إدخال الأيدي إلى أوساط التجار، فحفا عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير، ما يقبح سماعه و تشنع الأحداث عنه. كل ذلك برسم الزكاة، دون مراعاة لمحلها أو ما يدرك النصاب منها، حسبما ذكرناه في ذكر الإسكندرية من هذا المكتوب. و ربما ألزموهم الأيمان على ما بأيديهم، و هل عندهم غير ذلك، و يحضرون كتاب الله العزيز، تقع اليمين عليه. فيقف تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٤٥

الحجاج بين أيدي هؤلاء المتناولين لها مواقف خزي و مهانة تذكرهم أيام المكوس. و هذا أمر يقع القطع على أن صلاح الدين لا يعرفه. و لو عرفه لأمر بقطعه، كما أمر بقطع ما هو أعظم منه، و لجاهد المتناول له، فإن جهادهم من الواجبات لما يصدر عنهم من التعسف و عسير الإرهاق و سوء المعاملة مع غرباء انقطعوا إلى الله عز و جل، و خرجوا مهاجرين إلى حرمة الأيمن. و لو شاء الله لكانت عن الخطئة مندوحة في اقتضاء الزكاة على أجمل الوجوه من ذوى البضائع في التجارات، مع مراعاة رأس كل حول الذي هو محل الزكاة، و بتجنب اعتراض الغرباء المنقطعين ممن تجب الزكاة له لا عليه، و كان يحافظ على جانب هذا السلطان العادل الذي قد شمل البلاد عدله و سار في الآفاق ذكره، و لا يسعى فيما يسىء الذكر بمن قد حسن الله ذكره، و يقبح المقالة في جانب من أجمل الله المقالة عنه.

و من أشنع ما شاهدناه من ذلك خروج شردمة من مرده أعوان الزكاة، في أيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبه، فيصعدون إلى المراكب استكشافا لما فيها، فلا يتركون عكما و لا غرارة إلا و يتخللونها بتلك المسال الملعونة مخافة أن يكون في تلك الغرارة أو العكم اللذين لا يحتويان سوى الزاد شيء غيب عليه من بضاعة أو مال. و هذا أقبح ما يؤثر في الأحاديث الملعنة، و قد نهى الله عن التجسس، فكيف عن الكشف لما يرجى ستر الصون دونه من حال لا يريد صاحبها أن يطلع عليها، إما استحقارا أو استنفاسا دون بخل بواجب يلزمها، و الله الآخذ على أيدي هؤلاء الظلمة بيد هذا السلطان العادل و توفيقه، إن شاء الله.

معالم في الطريق إلى قوص

و من المواضع التي اجتزنا عليها بعد أخميم المذكورة موضع يعرف بمنشأة السودان على الشط الغربي من النيل، و هي قرية معمورة، و يقال: إنها كانت في القديم مدينة كبيرة. و قد قام أمام هذه القرية، بينها و بين النيل، رصيف عال من الحجارة كأنه السور تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٤٦

يضر ب فيه النيل و لا يعلوه عند فيضه و مده، فالقرية بسببه في أمن من أتيه. و منها موضع يعرف بالبلينة، و هي قرية حسنة كثيرة النخل، بالشط الغربي من النيل، بينها و بين قوص أربعة برد. و منها موضع يعرف بدشنه بالشط الشرقي من النيل، و هي مدينة مسورة فيها جميع مرافق المدن، و بينها و بين قوص بريدان.

و منها موضع بغربي النيل، و على مقربة من شطه، يعرف بدندرة. و هي مدينة من مدن الصعيد، كثيرة النخل مستحسنة المنظر مشتهرة بطيب الرطب، بينها و بين قوص بريد و ذكر لنا أن فيها هيكلا عظيما، و هو المعروف عند أهل هذه الجهات بالبربا، حسبما ذكرنا عند

ذكر أخميم، و هيكلها يقال أن هيكل دندرة أحفل منه و أعظم.

و منها مدينة قنا، و هي من مدن الصعيد، بيضاء أنيقة المنظر ذات مبان حفيلة، و من مآثرها المأثورة صون نساء أهلها و التزامهن البيوت، فلا تظهر في زقاق من أزقتها امرأة البتة، صحت بذلك الأخبار عنهن، و كذلك نساء دشنة المذكورة قبيل هذا. و هذه المدينة المذكورة في الشط الشرقي من النيل، و بينها و بين قوص نحو البريد. و منها قفت، و هي مدينة بشرقي النيل و على مقدار ثلاثة أميال من شطه. و هي من المدن المذكورة في الصعيد حسنا و نظافة ببيان و إتقان وضع.

ثم كان الوصول إلى قوص يوم الخميس الرابع و العشرين لمحرّم المؤرخ و هو التاسع عشر من مايه، فكان مقامنا في النيل ثمانية عشر يوما و دخلنا قوص في التاسع عشر. و هذه المدينة حفيلة الأسواق، متسعة المرافق، كثيرة الخلق لكثرة الصادر و الوارد من الحجاج و التجار اليمينيين و الهنديين و تجار أرض الحبشة، لأنها مخطر للجميع، و محط للرحال و مجتمع الرفاق، و ملتقى الحجاج المغاربة و المصريين و الإسكندريين و من يتصل بهم. و منها يفوزون بصحراء عذاب، و إليها انقلبهم في صدرهم من الحج، و كان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمي بالمدينة، و هي ربض كبير خارج المدينة، على باب الفندق المذكور. تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٤٧

شهر صفر عرفنا الله يمينه و بركته

استهل هلاله ليلة الأربعاء، و هو الخامس و العشرون من شهر مايه، و نحن بقوص نروم السفر إلى عذاب، يسر الله علينا مراننا بمنه و كرمه. و في يوم الاثنين الثالث عشر منه، و هو السادس من يونيه، أخرجنا جميع رحالنا من زاد و سواه إلى المبرز، و هو موضع قبلي البلد و على مقربة منه، فسيح الساحة، محدد بالنخيل، يجتمع فيه رحال الحاج و التجار و تشد فيه و منه يستقلون و يرحلون، و فيه يوزن ما يحتاج وزنه على الجمالين. فلما كان إثر صلاة العشاء الآخرة رفعنا منه إلى ماء يعرف بالحاجر فبتنا به. و أصبحنا يوم الثلاثاء بعده مقيمين به بسبب تفقد بعض الجمالين من العرب لبيوتهم، و كانت على مقربة منهم، و في ليلة الأربعاء الخامس عشر منه، و نحن بالحاجر المذكور، خسف القمر خسوفا كلياً أول الليل و تمادى إلى هداء منه. ثم أصبحنا يوم الأربعاء المذكور ظاعنين، و قلنا بموضع بقلاع الضياع. ثم كان المبيت بموضع يعرف بمحط اللقيطة، كل ذلك في صحراء لا عمارة فيها. ثم غدونا يوم الخميس فنزلنا على ماء ينسب للعبدین، و يذكر أنهما ماتا عطشا قبل أن يرداه فسمى ذلك الموضع بهما، و قبراها به، رحمهما الله. ثم تزودنا منه الماء لثلاثة أيام، و فوزنا سحر يوم الجمعة السابع عشر منه، و سرنا في الصحراء نبيت منها حيث جن علينا الليل، و القوافل العيذاية و القوصية صادرة و واردة، و المفازة معمورة أمنا.

فلما كان يوم الاثنين الموفى عشرين منه نزلنا على ماء بموضع يعرف بدنقاش، و هي بئر معينه يرد فيها من الأنعام و الأنام ما لا يحصيهم إلا- الله عز و جل، و لا- يسافر في هذه الصحراء إلا- على الإبل لصبرها على الظمأ. و أحسن ما يستعمل عليها ذوو الترفيه الشقاديف، و هي أشباه المحامل، و أحسن أنواعها اليمانية لأنها كالأشاكيز السفرية مجلدة متسعة، يوصل منها الاثنان بالجمال الوثيقة و توضع على البعير و لها أذرع قد

تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٤٨

حفت بأركانها يكون عليها مظلة، فيكون الراكب فيها مع عديله في كَنّ من لفتح الهاجرة و يقعد مستريحا في وطائه و متكئا و يتناول مع عديله ما يحتاج إليه من زاد و سواه و يطالع متى شاء المطالعة في مصحف أو كتاب. و من شاء، ممن يستجيز اللعب بالشطرنج، أن يلعب عديله تفكها و إجماما لنفس لآعبه. بالجملة فإنها مريحة من نصب السفر. و أكثر المسافرين يركبون الإبل على أحمالها، فيكابدون من مشقة سموم الحر غما و مشقة. و في هذا الماء وقعت بين بعض جمالي العرب اليمينيين أصحاب طريق عذاب و ضمّانها،

و هم من بلّى من أفضاخ قضاة، و بين بعض الأغزاز بسبب التراحم على الماء، مهاوشة كادت تفضى إلى الفتنة ثم عصم الله منها. و القصد إلى عيذاب من قوص على طريقتين: أحدهما يعرف بطريق العبدین، و هى هذه التى سلكتناها، و هى أقصر مسافة؛ و الآخر طريق دون قنا، و هى قرية على شاطئ النيل. و مجتمع هاتين الطريقتين على مقربة من ماء دنقاش المذكور. و لهما مجتمع آخر على ماء يعرف بشاغب، أمام ماء دنقاش بيوم.

فلما كان عشاء يوم الاثنين المذكور تزودنا الماء ليوم و ليلة و رفعنا إلى ماء بموضع يعرف بشاغب، فوردناه ضحوه يوم الأربعاء الثانى و العشرين لصفر المذكور. و هذا الماء ثمد يحفر عليه فى الأرض فتسمح به قريبا غير بعيد، إلا أنه زعاق. ثم رحلنا منه سحر يوم الخميس بعده و تزودنا الماء لثلاثة أيام إلى ماء بموضع يعرف بأمتان، و تركنا طريق الماء بموضع يعرف با... يسارا، و ليس بينه و بين شاغب غير مسافة يوم، و الطريق عليه و عر للإبل.

فلما كان ضحوه يوم الأحد السادس و العشرين لصفر المذكور نزلنا بأمتان المذكور،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٤٩

و فى هذا اليوم المذكور كان فراغنا من حفظ كتاب الله، عز و جل له الحمد و له الشكر على ما يسر لنا من ذلك. و هذا الماء بأمتان المذكور هو فى بئر معينة قد خصها الله بالبركة. و هو أطيب مياه الطريق و أعذبها، فيلقى فيها من دلاء الوارد ما لا يحصى كثرة فتروى القوافل النازلة عليها على كثرتها، و تروى من الإبل البعيدة الإظماء ما لو وردت نهرا من الأنهار لأنضبتة و أنزفته. و رمنا فى هذه الطريق إحصاء القوافل الواردة و الصادرة فما تمكن لنا، و لا سيما القوافل العيذاوية المتحملة لسلع الهند الواصلة إلى اليمن، ثم من اليمن إلى عيذاب.

و أكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل، فلقد خيل إلينا لكثرتة أنه يوازي التراب قيمة.

و من عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء، أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل و القرفة و سائرها من السلع، مطروحة لا حارس لها تترك بهذه السبيل، إما لإعياء الإبل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار، و تبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصنونة من الآفات، على كثرة المارة عليها من أطوار الناس.

ثم كان رفعنا من أمتان المذكور صبيحة يوم الاثنين بعد الأحد المذكور. و نزلنا على ماء بموضع يعرف بمجاج بمقربة من الطريق ظهر يوم الاثنين المذكور. و منه تزودنا الماء لأربعة أيام إلى ماء بموضع يعرف بالعشاء على مسافة يوم من عيذاب. و من هذه المرحلة المجاجية يسلك الوضع، و هى رمل ميثاء تتصل بساحل بحر جدة، يمشى فيها إلى عيذاب إن شاء الله، و هى أفيح من الأرض مد البصر يمينا و شمالا. و فى ظهر يوم الثلاثاء الثامن العشرين من الشهر المذكور كان رفعنا من مجاج المذكور سالكين على الوضع.

شهر ربيع الأول عرفنا الله بركته

إشارة

استهل هلاله ليلة الجمعة الرابع و العشرين من شهر يونيه، و نحن بآخر الوضع على نحو ثلاث مراحل من عيذاب. و فى وقت الغداة من يوم الجمعة المذكور كان

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٥٠

نزلنا على الماء بموضع يعرف بالعشاء، على مرحلتين من عيذاب. و بهذا الموضع كثير من شجر العشر، و هو شبيه بشجر الأترج، لكن لا شوكة له. و ماء هذا الموضع ليس بخالص العذوبة، و هو فى بئر غير مطوية. و ألفينا الرمل قد انهال عليها و غطى ماءها، فرام الجمالون حفرها و استخراج مائها فلم يقدرها على ذلك و بقيت القافلة لا ماء عندها. فأسرنا تلك الليلة، و هى ليلة السبت الثانى من

الشهر المذكور، فترلنا ضحوه على ماء الخيب، و هو بموضع بمراى العين من عيذاب، يستقى منه القوافل و أهل البلد و يعم الجميع، و هى بئر كبيرة كأنها الجب الكبير.

فلما كان عشى يوم السبت دخلنا عيذاب، و هى مدينة على ساحل بحر جدّه غير مسورة، أكثر بيوتها الأخصاص، و فيها الآن بناء مستحدث بالجص. و هى من أحفل مراسى الدنيا، بسبب أن مراكب الهند و اليمن تحط فيها و تعلق منها، زائدا إلى مراكب الحجاج الصادرة و الواردة. و هى فى صحراء لا نبات فيها، و لا يؤكل فيها شىء إلا مجلوب، و لكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كثير و لا سيما مع الحاج، لأن لهم على كل حمل طعاما يحملونه ضريبه معلومه خفيفه المؤونه، بالإضافة إلى الوظائف المكوسيه التى كانت قبل اليوم التى ذكرنا رفع صلاح الدين لها. و لهم أيضا من المرافق من الحجاج إكراء الجلاب منهم و هى المراكب. فيجتمع لهم من ذلك مال كثير فى حملهم إلى جدّه و ردهم وقت انفضاضهم من أداء الفريضة. و ما من أهلها ذوى اليسار إلا من له الجلبه و الجلبتان، فهى تعود عليهم برزق واسع. فسبحان قاسم الأرزاق على اختلاف أسبابها، لا إله سواه.

و كان نزولنا فيها بدار تنسب لمونح أحد قوادها الحبشيين الذين تأثلوا بها الديار و الرباع و الجلاب. و فى بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ فى جزائر على مقربه منها، و أوان الغوص عليه فى هذا التاريخ المقيده فيه هذه الأحرف، و هو شهر يونيه العجمى و الشهر الذى يتلوه. و يستخرج منه جوهر نفيس، له قيمه سنیه، يذهب الغائصون

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٥١

عليه تلك الجزائر فى الزوارق و يقيمون فيها الأيام فيعودون بما قسم الله، لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق. و المغاص منها قريب القعر ليس ببعيد. و يستخر جونه فى أصداف لها أزواج كأنها نوع من الحيتان أشبه شىء بالسلفاء. فإذا شقت ظهرت الشقتان من داخلها كأنهما محارتا فضه، ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبه من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف. فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ و الأرزاق. فسبحان مقدرها لا إله سواه. لكنهم ببلده لا رطب فيها و لا يابس قد ألفوا بها عيش البهائم؛ فسبحان محب الأوطان إلى أهلها، على أنهم أقرب إلى الوحش منهم إلى الأنس.

طواغيت و أفاص دجاج

و الركوب من جدّه إليها آفة للحجاج عظيمه، إلا الأقل منهم ممن يسلمه الله عز و جل، و ذلك أن الرياح تلقىها على الأكثر فى مراس بصحارى تبعد منها مما يلى الجنوب، فينزل إليهم البجاه، و هم نوع من السودان ساكنون بالجبال، فيكرون منهم الجمال و يسلكون بهم غير طريق الماء. فربما ذهب أكثرهم عطشا و حصلوا على ما يخلفهم من نفقه أو سواها. و ربما كان من الحجاج من يتعسف تلك المجهله على قدميه، فيضل و يهلك عطشا. و الذى يسلم منهم يصل إلى عيذاب كأنه منشر من كفن.

شاهدنا منهم مدة مقامنا أقواما قد وصلوا على هذه الصفه، فى مناظرهم المستحيله و هيئاتهم المتغيره آيه للمتوسمين. و أكثر هلاك الحجاج بهذه المراسى؛ و منهم من تساعده الريح إلى أن يحط بمرسى عيذاب، و هو الأقل.

و الجلاب التى يصرفونها فى هذا البحر الفرعونى ملفقه الإنشاء، لا يستعمل فيها مسمار البته. إنما هى مخيطة بأمراس من القنبار، و هو قشر جوز النار جيل، يدرسونه إلى أن يتخيط، و يفتلون منه أمراسا، يخطون بها المراكب و يخللون بها بدسر من عيدان

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٥٢

النخل. فإذا فرغوا من إنشاء الجلبه على هذه الصفه، سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش، و هو أحسنها. و هذا القرش حوت عظيم فى البحر، يتلع الغرقى فيه. و مقصدهم فى دهان الجلبه ليلين عودها و يرطب، لكثرة الشعاب المعترضه فى هذا البحر. و لذلك لا يصرفون فيه المركب المسمارى.

و عود هذه الجلاب مجلوب من الهند و اليمن، و كذلك القنبار المذكور. و من أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجه من

خوص شجر المقل. فمجموعها متناسب في اختلال البنية و وهنها، فسبحان مسخرها على تلك الحال و المسلم فيها، لا إله سواه. و لأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت. و ذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض، و تعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة، يحمل أهلها على ذلك الحرص و الرغبة في الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبه منهم ثمنها في طريق واحدة. و لا يبالي بما يصنع البحر بها بعد ذلك، و يقولون: علينا بالألواح، و على الحجاج بالأرواح. و هذا مثل متعارف بينهم. فأحق بلاد الله بحسبه يكون السيف درتها هذه البلده، و الأولى بمن يمكنه ذلك أن لا يراها و أن يكون طريقه على الشام إلى العراق، و يصل مع أمير الحاج البغدادي، و إن لم يمكنه ذلك أولا- فيمكنه آخره عند انفضاض الحاج، يتوجه مع أمير الحاج المذكور إلى بغداد، و منها إلى عكة. فإن شاء دخل منها إلى الإسكندرية، و إن شاء إلى صقلية أو سواهما. و يمكن أن يجد مركبا من الروم، يقلع إلى سبته أو سواها من بلاد المسلمين. و إن طال طريقه بهذا التحليق، فيهون لما يلقي بعيذاب و نحوها.

و أهلها الساكنون بها من قبيل السودان يعرفون بالبجاء، و لهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم في الجبال المتصلة بها. و ربما وصل في بعض الأحيان، و اجتمع بالوالي الذي فيها من الغز إظهارا للطاعة. و مستنابه مع الوالي في البلد، و الفوائد كلها له إلا البعض منها. و هذه الفرقة من السودان المذكورين فرقة أضل من الأنعام سيلا و أقل عقولا، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهارا للإسلام. و وراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة و سيرهم، ما لا يرضى و لا يحل. و رجالهم و نساؤهم يتصرفون

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٥٣

عراة، إلا خرقا يسترون بها عوراتهم، و أكثرهم لا يسترون. و بالجملة، فهم أمة لا أخلاق لهم، و لا جناح على لا عنهم.

مغادرة عيذاب

و في يوم الاثنين الخامس و العشرين لربيع الأول المذكور، و هو الثامن عشر من يوليه، ركبنا الجلبه للعبور إلى جده. فأقمنا يومنا ذلك بالمرسى لركود الريح و مغيب النواتية. فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء، أفلعنا على بركة الله، عز و جل، و حسن عونه المأمول. فكانت مدة المقام بعيذاب، حاشا يوم الاثنين المذكور، ثلاثة و عشرين يوما محتسبه عند الله، عز و جل، لشظف العيش و سوء الحال و اختلال الصحة لعدم الأغذية الموافقة. و حسبك من بلد، كل شيء فيه مجلوب حتى الماء، و العطش أشهى إلى النفس منه. فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام و ماء يشغل المعدة عن اشتها الطعام، فما ظلم من غنى عن هذه البلده بقوله:

"ماء زعاق و جو كله لهب"

فالحلول بها من أعظم المكاره التي حف بها السبيل إلى البيت العتيق، زاده الله تشريفا و تكريما، و أعظم أجور الحجاج على ما يكابدونه، و لا- سيما في تلك البلده الملعونة. و مما لهج الناس بذكره قبائحها، حتى يزعموا أن سليمان بن داود، على نبينا و عليه السلام، كان اتخذها سجنا للعفارتة، أراح الله الحجاج منها بعمارة السبيل القاصدة إلى بيته الحرام، و هي السبيل التي من مصر على عقبه أيلة إلى المدينة المقدسة.

و هي مسافة قريبة يكون البحر منها يمينا، و جبل الطور المعظم يسارا، لكن للإفرنج بمقربه منها حصنا مندوبا يمنع الناس من سلوكه، و الله ينصر دينه و يعز كلمته بمنه.

فتمادى سيرنا في البحر يوم الثلاثاء السادس و العشرين لربيع الأول المذكور و يوم الأربعاء بعده بريح فاترة المهيب. فلما كان العشاء الآخرة من ليلة الخميس و نحن قد استبشرنا برؤية الطير المحلقة من بر الحجاز، لمع برق من جهة البر المذكور، و هي جهة الشرق، ثم نشأ نوء أظلم له الأفق إلى أن كسا الآفاق كلها، و هبت ريح شديدة صرفت

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٥٤

المركب عن طريقه راجعا وراءه، و تمادى عصوف الرياح و اشتدت حلكة الظلمة و عمت الآفاق، فلم ندر الجهة المقصودة منها، إلى

أن ظهر بعض النجوم فاستدل بها بعض الاستدلال و حط القلع إلى أسفل الدقل، و هو الصارى. و أقمنا ليلتنا تلك في هول يؤذن باليأس، و أرانا بحر فرعون بعض أهواله الموصوفة، إلى أن أتى الله بالفرج مقترنا مع الصباح، فلان قياد الريح و أفشع الغيم و أصححت السماء، و لاح لنا بر الحجاز على بعد لا نبصر منه إلا بعض جباله، و هى شرق من جدء، زعم ربان المركب و هو الرّائس، أن بين تلك الجبال التى لاحت لنا و بر جدء يومين، و الله يسهل لنا كل صعب و ييسر لنا كل عسير بعزته و كرمه. فجرينا يومنا ذلك، و هو يوم الخميس المذكور، بريح رخاء طيبة، ثم أرسينا عشيء فى جزيرة صغيرة فى البحر على مقربة من البر المذكور بعد أن لقينا شعابا كثيرة، يكثر فيها الماء و يضحل علينا، فتخللنا أثناءها على حذر و تحفظ. و كان الربان بصيرا حاذقا فيها، فخلصنا الله منها، حتى أرسينا بالجزيرة المذكورة، و نزلنا إليها و بتنا بها ليلة الجمعة التاسع و العشرين لربيع الأول المذكور، و أصبح الهواء راكدا و الريح غير متنفسه إلا من الجهة التى لا توافقنا فأقمنا بها يوم الجمعة المذكور. فلما كان يوم السبت الموفى ثلاثين تنفست الريح بعض التنفس، فأقلعنا بذلك النفس، نسير سيرا رويدا. و سكن البحر حتى خيل لناظره صحن زجاج أزرق. فأقمنا على تلك الحال نرجو لطيف صنع الله عز و جل. و هذه الجزيرة تعرف بجزيرة عائقة السفن، فعصمنا الله عز و جل من فآل اسمها المذموم، و له الحمد و الشكر على ذلك.

شهر ربيع الآخر عرفنا الله بركته

إشارة

استهل هلاله ليلة السبت و نحن بالجزيرة المذكورة و لم يظهر تلك الليلة للأبصار بسبب النوء لكن ظهر فى الليلة الثانية كبيرا مرتفعا، فتحققنا إهلاله ليلة السبت المذكور، و هو الثالث و العشرون من شهر يوليه، و فى عشى يوم الأحد ثانية أرسينا تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٥٥
بمرسى يعرف بأبحر، و هو على بعض يوم من جدء، و هو من أعجب المراسى و ضعا، و ذلك أن خليجا من البحر يدخل البر و البر مطيف به من كلتا حافتيه فترسى الجلاب منه فى قرارة مكئة هادئة.
فلما كان سحر يوم الاثنين بعده أقلعنا منه على بركة الله تعالى بريح فاترة، و الله الميسر لا رب سواه. فلما جن الليل أرسينا على مقربة من جدء و هى بمرأى العين منا.
و حالت الريح صبيحة يوم الثلاثاء بعده بيننا و بين دخول مرساها. و دخول هذه المراسى صعب المرام، بسبب كثرة الشعاب و التفافها. و أبصرنا من صنع هؤلاء الرؤساء و النواتية فى التصرف بالجلبة أثناءها أمرا ضخما، يدخلونها على مضايق و يصرّفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان السلس القيادة، و يأتون فى ذلك بعجب يضيق الوصف عنه.

النزول فى جدء

و فى ظهر يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر المذكور، و هو السادس و العشرون من شهر يوليه، كان نزولنا بجدء حامدين لله عز و جل و شاكرين على السلامة و النجاة من هول ما عايناه فى تلك الثمانية الأيام طول مقامنا على البحر، و كانت أهوالا شتى، عصمنا الله منها بفضلله و كرمه، فمنها ما كان يطرأ من البحر و اختلاف رياحه و كثرة شعابه المعترضة فيه. و منها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب و اختلالها و اقتسامها المرة بعد المرة عند رفع الشراع، حطه أو جذب مرسة من مراسيه. و ربما سنحت الجلبة بأسفلها على شعب من تلك الشعاب أثناء تخللها، فنسمع لها هدا يؤذن باليأس، فكنا فيها نموت مرارا و نحيا مرارا. و الحمد لله على ما من به من العصمة و تكفل به من الوقاية و الكفاية حمدا يبلغ رضاه و يستهدى المزيد من نعماه، بعزته و قدرته، لا إله سواه.

و كان نزولنا فيها بدار القائد على، و هو صاحب جدة من قبل أمير مكة المذكور، في صرح من تلك الصروح الخوصية التي بينونها في أعالي ديارهم و يخرجون منها إلى سطوح بيتون فيها. و عند احتلالنا جدة المذكورة عاهدنا الله، عز و جل، سرورا بما أنعم الله به من السلامة، ألا يكون انصرافنا على هذا البحر الملعون، إلا إن طرأت ضرورة تحول بيننا و بين سواه من الطرق. و الله ولى الخيرة في جميع ما يقضيه و يسنيه بعزته.

و جدة هذه قرية على ساحل البحر المذكور، أكثر بيوتها أخصاص، و فيها فنادق مبنية بالحجارة و الطين. و في أعلاها بيوت من الأخصاص كالغرف، و لها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر. و بهذه القرية آثار قديمة تدل على أنها كانت مدينة قديمة، و أثر سورها المحدق بها باق إلى اليوم. و بها موضع فيه قبة مشيدة عتيقة، يذكر أنه كان منزل حواء أم البشر، صلى الله عليها، عند توجهها إلى مكة، فبنى ذلك المبنى عليه تشهيرا لبركته و فضله، و الله أعلم بذلك. و فيها مسجد مبارك منسوب إلى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، و مسجد آخر له ساريتان من خشب الأبنوس ينسب أيضا إليه، رضى الله عنه، و منهم من ينسبه إلى هارون الرشيد، رحمه الله عليه.

و أكثر سكان هذه البلدة مع ما يليها من الصحراء و الجبال أشراف علويون:

حسنيون و حسينيون و جعفريون، رضى الله عن سلفهم الكريم. و هم من شطف العيش بحال يتصدع له الجمد إشفاقا، و يستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن: من إكراء جمال إن كانت لهم، أو مبيع لبن أو ماء، إلى غير ذلك من تمر يلتقطونه أو حطب يحتطبونه. و ربما تناول ذلك نساءهم الشريفات بأنفسهن، فسبحان المقدر لما يشاء. و لا شك أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة و لم يرتض لهم الدنيا. جعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا.

و بخارج هذه البلدة مصانع قديمة تدل على قدم اختطاطها، و يذكر أنها كانت من مدن الفرس. و بها جباب منقورة في الحجر الصلد، يتصل بعضها ببعض، تفوت الإحصاء كثرة. و هى داخل البلد و خارجها، حتى إنهم يزعمون أن التى خارج البلد ثلاثمائة و ستون جبا، و مثل ذلك داخل البلد. و عاينا نحن جملة كثيرة لا يأخذها الإحصاء. و عجائب الموضوعات كثيرة، فسبحان المحيط علما بها.

نهب الحجاج

و أكثر أهل هذه الجهات الحجازية و سواها فرق و شيع لا دين لهم قد تفرقوا على مذاهب شتى. و هم يعتقدون فى الحجاج ما لا يعتقد فى أهل الذمة، قد صيروهم من أعظم غلاتهم التى يستغلونها، ينتهبونها، و يسبون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابا. فالحجاج معهم لا يزال فى غرامة و مؤونة إلى أن يبسر الله رجوعه إلى وطنه.

و لو لا ما تلافى الله به المسلمين فى هذه الجهات بصلاح الدين، لكانوا من الظلم فى أمر لا ينادى وليده و لا يلين شديده. فإنه رفع ضرائب المكوس عن الحجاج، و جعل عوض ذلك مالا و طعاما يأمر بتوصيلهما إلى مكثر أمير مكة، فمتى أبطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم عاد هذا الأمير إلى ترويع الحجاج و إظهار تقيفهم بسبب المكوس. و اتفق لنا من ذلك أن وصلنا جدة، فأمسكنا بها خلال ما خوطب مكثر الأمير المذكور. فورد أمره أن يضمن الحجاج بعضهم بعضا و يدخلوا حرم الله، فإن ورد المال و الطعام اللذان برسمه من قبل صلاح الدين، و إلا فهو لا يترك ماله قبل الحجاج. هذا لفظه، كأن حرم الله ميراث بيده، محلل له اكترأوه من الحجاج. فسبحان مغير السنن و مبدلها.

و الذى جعل له صلاح الدين، بدلا من مكس الحجاج، ألفا دينار اثنان، و ألفا إردب من القمح، و هو نحو الثمانمائة قفيز بالكيل الإشبيلي عندنا، حاشا إقطاعات أقطعها بصعيد مصر و بجهة اليمن لهم بهذا الرسم المذكور. و لو لا مغيب هذا السلطان العادل صلاح

الدين بجهة الشام، في حروب له هناك مع الإفرنج، لما صدر عن هذا الأمير المذكور ما صدر في جهة الحاج. فأحق بلاد الله بأن يطهرها السيف و يغسل أرجاسها و أدناسها بالدماء المسفوكه في سبيل الله هذه البلاد الحجازية، لما هم عليه من حل عرى الإسلام، و استحلال أموال الحاج و دمائهم.

فمن يعتقد من فقهاء أهل الأندلس إسقاط هذه الفريضة عنهم فاعتقاده صحيح، لهذا السبب و بما يصنع بالحاج مما لا يرتضيه الله، عزّ و جل. فراكب هذا السبيل راكب

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٥٨

خطر و معتسف غرر و الله قد أوجد الرخصة فيه على غير هذه الحال، فكيف و بيت الله الآن بأيدي أقوام قد اتخذوه معيشة حرام و جعلوه سببا إلى استلاب الأموال و استحقاقها من غير حل، و مصادرة الحجاج عليها و ضرب الذلة و المسكنة الدينية عليهم، تلافها الله عن قريب بتطهير يرفع هذه البدع المجحفة عن المسلمين بسيوف الموحدين أنصار الدين، و حزب الله أولى الحق و الصدق، و الذاتين عن حرم الله عزّ و جل، و الغائرين على محارمه، و الجادين في إعلاء كلمته و إظهار دعوته و نصر ملته، إنه على ما يشاء قدير، و هو نعم المولى و نعم النصير.

و ليتحقق المتحقق و يعتقد الصحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب، لأنهم على جادة واضحة لا بنيات لها. و ما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء و بدع، و فرق ضالة و شيع، إلا من عصم الله عزّ و جل من أهلها. كما أنه لا عدل و لا حق و لا دين على وجهه إلا عند الموحدين، أعزهم الله، فهم آخر أئمة العدل في الزمان. و كل من سواهم من الملوك في هذا الأوان فعلى غير الطريقة يعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم، و يستجلبون أموالهم بكل حيلة و سبب، و يركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلا. اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين، الذي قد ذكرنا سيرته و مناقبه، لو كان له أعوان على الحق ... مما أريد الله عز و جل يتلافى المسلمين بجميل نظره و لطيف صنعه.

الدعوة المؤمنية الموحدية

و من عجيب ما شاهدناه في أمر الدعوة المؤمنية الموحدية و انتشار كلمتها بهذه البلاد و استشعار أهلها لملكها أن أكثر أهلها، بل الكل منهم يرمزون بذلك رمزا خفيا حتى يؤدي ذلك بهم إلى التصريح، و ينسبون ذلك لآثار حدثانية وقعت بأيدي بعضهم أنذرت بأشياء من الكوائن فعابونها صحيحة.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٥٩

فمن بعض الآثار المؤذنة بذلك عندهم أن بين جامع ابن طولون و القاهرة برجين مقتربين عتيقى البناء، على أحدهما تمثال ناظر جهة المغرب، و كان على الآخر تمثال ناظر إلى المشرق. فكانوا يرون أن أحدهم إذا سقط، أنذر بغلبة أهل الجهة التي كان ناظرا إليها على ديار مصر و سواها. و كان من الاتفاق العجيب أن وقع التمثال الناظر إلى المشرق فتلا وقوعه استيلاء الغز على الدولة العبيدية، و تملكهم ديار مصر و سائر البلاد. و هم الآن متوقعون سقوط التمثال الغربي، و حدثان ما يؤملونه من ملكة أهلهم، إن شاء الله. و لم يبق إلا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد، فهم يستطلعون بها صباحا جليا و يقطعون بصحتها، و يرتقبونها ارتقاب الساعة التي لا يمترن في إنجاز وعدّها. شاهدنا من ذلك بالإسكندرية و مصر و سواهما، مشافهة و سماعا، أمرا غريبا يدل على أن ذلك الأمر العزيز أمر الله الحق و دعوته الصدق. و نمى إلينا أن بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة و زعمائها قد حبر خطبا أعدّها للقيام بها بين يدي سيدنا أمير المؤمنين، أعلى الله أمره. و هو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة، و ينتظره انتظار الفرج بالصبر الذي هو عبادة، و الله - عز و جل - يبسطها من كلمه، و يعليها من دعوة، إنه على ما يشاء قدير.

إلى مكة المكرمة

و في عشي يوم الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور، و هو الثانى من شهر أغشت، كان انفصالنا من جدّة بعد أن ضمن الحجاج بعضهم بعضا، و ثبتت أسماؤهم فى زمام عند قائد جدّة على بن موفق، حسبما نفذ إليه أمر ذلك من سلطانه صاحب مكّة مكثّر بن عيسى المذكور. و هذا الرجل، مكثّر، من ذرية الحسن بن على - رضوان الله عليهما. لكنه ممن يعمل غير صالح، فليس من أهل سلفه الكريم، رضى الله عنهم.

و أسرينا تلك الليلة إلى أن وصلنا القرين مع طلوع الشمس. و هذا الموضع هو منزل الحاج و محط رحالهم، و منه يحرمون و به يريحون اليوم الذى يصبحونه. فإذا كان فى عشيّة، رفعوا و أسروا ليلتهم و صبّحوا الحرم الشريف، زاده الله تشريفا و تعظيما. و الصادرين من الحج ينزلون به أيضا، و يسرون منه إلى جدّة. و بهذا الموضع المذكور بئر معينة عذبة،

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٦٠

و الحاج بسببها لا يحتاجون إلى تزود الماء غير ليلة إسرائهم إليه. فأقمنا بياض يوم الأربعاء المذكور مريحين بالقرين. فلما حان العشى، رحنا منه محرمين بعمرة، فأسرنا ليلتنا تلك، فكان وصولنا مع الفجر قريب الحرم. فنزلنا مرتقبين لانتشار الضوء.

و دخلنا مكّة، حرسها الله، فى الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور، و هو الرابع من شهر أغشت، على باب العمرة. و كان إسرائنا تلك الليلة المذكورة، و البدر قد ألقى على البسيطة شعاعه، و الليل قد كشف عنا قناعه، و الأصوات تصك الآذان بالتلبية من كل مكان، و الألسنة تضج بالدعاء و تبتهل إلى الله بالثناء، فتارة تشتد بالتلبية، و آوئه تتضرع بالأدعية، فيا لها ليلة كانت فى الحسن بيضة العقر، فهى عروس ليالى العمر و بكر بنيات الدهر، إلى أن وصلنا، فى الساعة المذكورة من اليوم المذكور، حرم الله العظيم و مبوأ الخليل إبراهيم. فألفينا الكعبة الحرام عروسا مجلوة مزفوفة إلى جنّة الرضوان، محفوفة بوفود الرحمن، فطفنا طواف القدوم، ثم صلينا بالمقام الكريم، و تعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم، و هو بين الحجر الأسود و الباب، و هو موضع استجابة الدعوة. و دخلنا قبة زمزم و شربنا من مائها و هو "لما شرب له" كما قال، صلى الله عليه و سلم. ثم سعينا بين الصفا و المروة، ثم حلقتنا و أحللنا. فالحمد لله الذى كرّمنا بالوفادة عليه، و جعلنا ممن انتهت الدعوة الإبراهيمية إليه، و هو حسبنا و نعم الوكيل. و كان نزولنا فيها بدار تعرف بالنسبة إلى الحلال قريبا من الحرم، و من باب السدة أحد أبوابه، فى حجرة كثيرة المرافق المسكنية، مشرفة على الحرم و على الكعبة المقدسة.

شهر جمادى الأولى عرفنا الله ببركته

إشارة

استهل هلاله ليلة الاثنين الثانى و العشرين لأغشت، و قد كمل لنا بمكّة، شرفها الله تعالى، ثمانية عشر يوما، فهلال هذا الشهر أسعد هلال اجتلته أبصارنا فيما سلف من أعمارنا. طلع علينا و قد تبوأنا مقعد الجدار الكريم و حرم الله العظيم و القبة التى فيها تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٦١

مقام إبراهيم، مبعث الرسول و مهبط الروح الأمين، جبريل بالوحى و التنزيل، فأوزعنا الله شكر هذه المنّة، و عرفنا قدر ما خصنا به من نعمة، و ختم لنا بالقبول، و أجرانا على كريم عوائده من الصنيع الجميل و لطيف التيسير و التسهيل بعزته و قدرته، لا إله سواه.

ذكر المسجد الحرام و البيت العتيق كرمه الله و شرفه

البيت المكرّم له أربعة أركان. و هو قريب من التربع. و أخبرنى زعيم الشيبين الذين إليهم سدانة البيت، و هو محمد بن إسماعيل بن عبد الرحمن من ذرية عثمان بن طلحة بن شيبه بن طلحة بن عبد الدار، صاحب رسول الله، صلى الله عليه و سلم، و صاحب حجابة

البيت: أن ارتفاعه في الهواء من الصفح الذي يقابل باب الصفا، و هو من الحجر الأسود، الركن اليماني، تسعة و عشرون ذراعا و سائر الجوانب ثمانية و عشرون، بسبب انصباب السطح إلى الميزاب.

فأول أركانه الركن الذي فيه الحجر الأسود، و منه ابتداء الطواف، و يتقهقر الطائف عنه ليمر جميع بدنه به، و البيت المكرم عن يساره، و أول ما يلقي بعده الركن العراقي، و هو ناظر إلى جهة الشمال. ثم الركن الشامي، و هو ناظر إلى جهة الغرب. ثم الركن اليماني، و هو ناظر إلى جهة الجنوب. ثم يعود إلى الركن الأسود، و هو ناظر إلى جهة الشرق. و عند ذلك يتم شوطا واحدا.

و باب البيت الكريم في الصفح الذي بين الركن العراقي و ركن الحجر الأسود، و هو قريب من الحجر بعشرة أشبار محققة. و ذلك الموضوع الذي بينهما من صفح البيت يسمى الملتزم، و هو موضع استجابة الدعاء. و الباب الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبرا و نصف. و هو من فضة مذهبة، بديع الصنعة، رائق الصفة، يستوقف الأبصار حسنا و خشوعا للمهابة التي كساها الله بيته. و عضاداته كذلك، و العتبة العليا

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٦٢

كذلك أيضا. و على رأسها لوح ذهب خالص إبريز في سعته مقدار شبرين. و للباب نقارتا فضة كبيرتان يتعلق عليهما قفل الباب، و هو ناظر للشرق، و سعته ثمانية أشبار، و طوله ثلاثة عشر شبرا، و غلظ الحائط الذي ينطوى عليه الباب خمسة أشبار.

و داخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجزع، و حيطانه رخام كلها مجزّع. قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج مفرطة الطول، و بين كل عمود و عمود أربع خطا. و هي على طول البيت متوسطة فيه. فأحد الأعمدة، و هو أولها، يقابل نصف الصفح الذي يحف به الركنان اليمانيان. و بينه و بين الصفح مقدار ثلاث خطا. و العمود الثالث، و هو آخرها، يقابل الصفح الذي يحف به الركنان العراقي و الشامي.

و دائر البيت كله من نصفه الأعلى مطلى بالفضة المذهبة المستحسنة، يخيل للناظر إليها أنها صفيحة ذهب لغلظها. و هي تحف بالجوانب الأربعة و تمسك مقدار نصف الجدار الأعلى.

و سقف البيت مجلل بكساء من الحرير الملون. و ظاهر الكعبة كلها من أربعة الجوانب مكسو بستور من الحرير الأخضر و سداها قطن و في أعلاها رسم بالحرير الأحمر فيه مكتوب: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِيكَّةَ**، و اسم الإمام الناصر لدين الله في سعته قدر ثلاثة أذرع يطيف بها كلها. قد شكل في هذه الستور من الصنعة الغريبة التي تبصرها أشكال محاريب رائقه، و رسوم مقروءة مرسومة بذكر الله تعالى، و بالدعاء للناصر العباسي المذكور الأمر بإقامتها، و كل ذلك لا يخالف لونها. و عدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة و ثلاثون سترا. و في الصفحين الكبيرين منها ثمانية عشر، و في الصفحين الصغيرين ستة عشر، و له خمسة مضائى، و عليها زجاج عراقي بديع النقش، أحدها في وسط السقف، و مع كل ركن مضوا، و الواحد منها لا يظهر لأنه تحت القبو المذكور بعد.

و بين الأعمدة أكواس من الفضة عددها ثلاثة عشر، و أحدها من ذهب.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٦٣

و أول ما يلقي الداخل على الباب عن يساره الركن الذي خارجه الحجر الأسود، و فيه صندوقان فيهما مصاحف، و قد علاهما في الركن بوبيان من فضة كأنهما طاقان ملصقان بزواية الركن. و بينهما و بين الأرض أزيد من قامه. و في الركن الذي يليه و هو اليماني كذلك، لكنهما انقلعا و بقى العمود الذي كانا ملصقين عليه. و في الركن الشامي كذلك، و هما باقيان. و في جهة الركن العراقي كذلك. و عن يمينه الركن العراقي و فيه باب يسمى باب الرحمة يصعد منه سطح البيت المكرم. و قد قام له قبو فهو متصل بأعلى سطح البيت داخله الأدرج. و في أوله البيت المحتوى على المقام الكريم. فتجد للبيت الكريم بسبب هذا القبو خمسة أركان، و في سعة صفحيه قامتان، و هو محتو على الركن العراقي بنصفين من كل صفح، و ثلثا قناة هذا القبو مكسوان بستر الحرير الملون كأنه قد لف فيه ثم وضع.

و هذا المقام الكريم الذى داخل هذا القبو هو مقام إبراهيم، صلى الله على نبينا و عليه، و هو حجر مغشى بالفضة، و ارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار، و سعته مقدار شبرين، و أعلاه أوسع من أسفله، فكأنه، و له التنزيه و المثل الأعلى، كانون فخار كبير أوسطه يضيق عن أسفله و عن أعلاه، عايناه و تبركنا بلمسه و تقبيله، و صب لنا فى أثر القدمين المباركتين ماء زمزم فشربناه، نفعنا الله به. و أثرهما بين و أثر الأصابع المكرمة المباركة.

فسبحان من ألامنه لواطئه حتى أثرت فيه و لا تأثير القدم فى الرمل الوثير، سبحان جاعله من الآيات البيئات. و لمعاينته و معاينة البيت الكريم هول يشعر النفوس من الدهول و يطيش الأفتدة و العقول، فلا تبصر إلا لحظات خاشعة، و عبرات هامة، و مدامع باكية، و ألسنة إلى الله، عز و جل، ضارعة داعية.

و بين الباب الكريم و الركن العراقى حوض طوله اثنا عشر شبرا، و عرضه خمسة أشبار و نصف، و ارتفاعه نحو شبر، متصل من قبالة عضادة الباب التى تلى الركن المذكور آخذا جهته، و هو علامة موضع المقام مدة إبراهيم، عليه السلام، إلى أن صرفه النبى، صلى الله عليه و سلم، إلى الموضع الذى هو الآن مصلى. و بقى الحوض المذكور مصبا لماء البيت إذا غسل، و هو موضع مبارك، يقال: إنه روضة من رياض الجنة، و الناس يزدحمون للصلاة فيه، و أسفله مفروش برملة بيضاء و ثيرة.

و موضع المقام الكريم هو الذى يصلى خلفه، يقابل ما بين الباب الكريم و الركن

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٦٤

العراقى، و هو إلى الباب أميل بكثير، و عليه قبة خشب فى مقدار القامة أو أزيد، مركنة محددة بديعة النقش، سعتها من ركنها الواحد إلى الثانى أربعة أشبار، و قد نصبت على الموضع الذى كان فيه المقام، و حوله تكيف من حجارة نصبت على حرف كالحوض المستطيل، فى ارتفاعه نحو شبر، و طوله خمس خطأ، و عرضه ثلاث خطأ. و أدخل المقام إلى الموضع الذى وصفناه فى البيت الكريم احتياطا عليه، و بينه و بين صفح البيت الذى يقابله سبع عشرة خطوة، و الخطوة كلها فيها ثلاثة أشبار.

و لموضع المقام أيضا قبة مصنوعة من حديد موضوعة إلى جانب قبة زمزم. فإذا كان فى أشهر الحج، و كثر الناس و وصل العراقيون و الخراسانيون، رفعت قبة الخشب و وضعت قبة الحديد لتكون أحمل للازدحام.

و من الركن الذى فيه الحجر الأسود إلى الركن العراقى أربعة و خمسون شبرا محققة.

و من الحجر الأسود إلى الأرض ستة أشبار، فالطويل يتطامن إليه، و القصير يتطاول إليه. و من الركن العراقى إلى الركن الشامى ثمانية و أربعون شبرا محققة، و ذلك داخل الحجر. و أما من خارج، فمنه إليه أربعون خطوة، و هو مئة و عشرون شبرا محققة، و من خارجه يكون الطواف. و من الركن الشامى إلى الركن اليمانى، ما من الركن الأسود إلى العراقى لأنه الصفح الذى يقابله. و من اليمانى إلى الأسود ما من العراقى إلى الشامى داخل الحجر لأنه الصفح الذى يقابله.

و موضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنه الرخام حسنا، منها سود و سمر و بيض قد ألصق بعضها إلى بعض، و اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطأ إلا- فى الجهة التى تقابل المقام، فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به. و سائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برملا أبيض، و طواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة، و بين الركن العراقى و بين أول جدار الحجر مدخل إلى الحجر سعته أربع خطأ، و هى ستة أذرع محققة كلناها باليد. و هذا الموضع الذى لم يحجر عليه، هو الذى تركت قريش من البيت، و هو ستة أذرع، حسبما وردت به الآثار الصحاح. و يقابله عند الركن الشامى مدخل آخر، على مثال تلك السعة. و بين جدار البيت الذى تحت الميزاب، و الذى يقابله من

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٦٥

جدار الحجر، على خط استواء يشق وسط الصحن المذكور، أربعون شبرا. و سعته من المدخل إلى المدخل ست عشرة خطوة، و هى ثمانية و أربعون شبرا. و دور الجدار رخام كله مجزّع بديع الإلصاق ... و هناك قضبان صفر مذهبة، وضع منها فى صفحه، أشكال

شطر نجية متداخلة بعضها على بعض و صفات محاريب، فإذا ضربت الشمس فيها لاح لها بصيص و لألاء يخيل للناظر إليها أنها ذهب يرتمي بالأبصار شعاعه. و في ارتفاع جدار هذا الحجر الرخامي خمسة أشبار و نصف، وسعته أربعة أشبار و نصف.

و داخل الحجر بلاط واسع ينعطف عليه الحجر كأنه ثلثا دائرة، و هو مفروش بالرخام المجزّع المقطع في دور الكف إلى دور الدينار ما فوق ذلك، ثم الصق بانتظام بديع و تأليف معجز الصنعة غريب الإتقان رائق الترصيع و التجزيع رائع التركيب و الرصف، يبصر الناظر فيه من التعاريج و التقاطيع و الخواتم و الأشكال الشطرنجية و سواها على اختلاف أنواعها و صفاتها ما يقيد بصره حسنا، فكأنه يجليه في أزهار مفروشة مختلفات الألوان إلى محاريب قد انعطف عليها الرخام انعطاف القسي، و داخلها هذه الأشكال الموصوفة و الصنائع المذكورة. و بازائها رخامتان متصلتان بجدار الحجر المقابل للميزاب، أحدث الصانع فيهما من التوريق الرقيق و التشجير و التقضيب، ما لا يحدثه الصنع باليدين في الكاغد قطعاً بالجلمين . فمرآهما عجيب، أمر بصنعتهما على هذه الصفة إمام المشرق أبو العباس أحمد الناصر بن المستضيء بالله، أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله، أبي المظفر يوسف العباسي، رضى الله عنه.

و يقابل الميزاب في وسط الحجر، و في نصف جداره الرخامي، رخامة قد نقشت أبدع نقش، و حفت بها طرة منقوشة نقشا مكحلا عجيبا، فيه مكتوب: مما أمر بعمله عبد الله و خليفته، أبو العباس أحمد الناصر لدين الله، أمير المؤمنين، و ذلك في سنة ست و سبعين و خمسمائة. و الميزاب في أعلى الصفح الذي يلي الحجر المذكور، و هو من صفر مذهب، قد خرج الحجر بمقدار أربعة أذرع، و سعته مقدار شبر. و هذا الموضع تحت الميزاب هو أيضا مظنة استجابة الدعوة بفضل الله تعالى، و كذلك الركن اليماني و يسعى

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٦٦

المستجار ما يليه. و هذا الصفح المتصل به من جهة الركن الشامي.

و تحت الميزاب، في صحن الحجر بمقربة من جدار البيت الكريم، قبر إسماعيل، صلى الله عليه و سلم. و علامته رخامة خضراء مستطيلة قليلا على شكل محراب، تتصل بها رخامة خضراء مستديرة. و كلتاهما غريبة المنظر، فيهما نكت تفتح عن لونها إلى الصفرة قليلا كأنها تجزيع. و هي أشبه الأشياء بالنكت التي تبقى في البيدق من حل الذهب فيه. و جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر، رضى الله عنها، و علامته رخامة خضراء سعتها مقدار شبر و نصف. يتبرك الناس بالصلاة في هذين الموضعين من الحجر، و حق لهم ذلك، لأنهما من البيت العتيق، و قد انطبقا على جسدين مقدسين مكرمين، نورهما الله و نفع ببركتهما كل من صلى عليهما. و بين القبرين المقدسين سبعة أشبار.

و قبة بئر زمزم تقابل الركن، و منها إليه أربع و عشرون خطوة. و المقام المذكور الذي يصلى خلفه عن يمين القبة، و من ركنها إليه عشر خطا. و داخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض. و تنور البئر المباركة في وسطها، مائل عن الوسط إلى جهة الجدار الذي يقابل البيت المكرم، و عمقها إحدى عشرة قامة، حسبما ذرعناه.

و عمق الماء سبع قامات على ما يذكر. و باب القبة ناظر إلى الشرق، و بابا قبة العباس و قبة اليهودية ناظران إلى الشمال.

و الركن من الصفح الناظر إلى البيت العتيق من القبة المنسوبة إلى اليهودية يتصل بالركن الأيسر من الصفح الأخير الناظر إلى الشرق من القبة العباسية. فبينهما هذا القدر من الانحراف. و تلى قبة بئر زمزم من ورائها قبة الشراب، و هي المنسوبة للعباس، رضى الله عنه. و تلى هذه القبة العباسية، على انحراف عنها، قبة تنسب لليهودية. و هاتان القبتان مخزنان لأوقاف البيت الكريم من مصاحف و كتب و أتوار شمع و غير ذلك. و القبة العباسية لم تخل من نسبتها الشرايية لأنها كانت سقاية الحاج، و هي حتى الآن يبرد فيها ماء زمزم.

و يخرج مع الليل لسقى الحاج في قلال يسمونها الدوارق، كل دورق منها ذو مقبض واحد. و تنور بئر زمزم من رخام قد ألصق بعضه ببعض إصاقا لا تحيله الأيام، و أفرغ في أثنائه الرصاص. و كذلك داخل التنور. و حفت به أعمدة الرصاص الملتصقة

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٦٧

إليه إبلاغا في قوة لزه و رصه: اثنان و ثلاثون عمودا قد خرجت لها رؤوس قابضة على حافة البئر دائرة بالثور كله. و دوره أربعون

شبرا، و ارتفاعه أربعة أشبار و نصف، و غلظه شبر و نصف. و قد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر، و عمقها نحو شبرين، و ارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار، تملأ ماء للوضوء، و حولها مصطبة دائرة يرتفع الناس إليها و يتوضؤون عليها.

و الحجر الأسود المبارك ملصق في الركن الناظر إلى جهة المشرق، و لا يدرى قدر ما دخل في الركن. و قيل: إنه داخل في الجدار بمقدار ذراعين. و سعتة ثلثا شبر، و طوله شبر و عقد، و فيه أربع قطع ملصقة. و يقال: إن القرمطي، لعنه الله، كان الذي كسره.

و قد شدت جوانبه بصفيحة فضة، يلوح بصيص بياضها على بصيص سواد الحجر و رونقه الصقيل فيبصر الرائي من ذلك منظرا عجيبا، هو قيد الأبصار. و الحجر عند تقيله لدونه و رطوبة يتنعم بها الفم، حتى يود اللائم أن لا يقلع فمه عنه، و ذلك خاصة من خواص العناية الإلهية. و كفى أن النبي، صلى الله عليه و سلم، قال: "إنه يمين الله في أرضه." "نفعنا الله لاستلامه و مصافحته، و أوفد عليه كل شيق إليه بمنه.

و في القطعة الصحيحة من الحجر، مما يلي جانبه الذي يلي يمين المستلم له إذا وقف مستقبله، نقطة بيضاء صغيرة مشرقه، تلوح كأنها خال في تلك الصفحة المباركة. و في هذه الشامة البيضاء أثر: إن النظر إليها يجلو البصر. فيجب على المقبل أن يقصد بتقيله موضع الشامة المذكورة ما استطاع.

و المسجد الحرام يطيف به ثلاث بلاطات على ثلاث سوار من الرخام، منتظمة كأنها بلاط واحد، ذرعا في الطول أربعمائه ذراع، و في العرض ثلاثمائه ذراع. فيكون تكسيه محققا ثمانية و أربعين مرجعا، و ما بين البلاطات فضاء كبير. و كان على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم، صغيرا. و قبة زمزم خارجة عنه، و في مقابلة الركن الشامي، رأس سارية ثابتة في الأرض منها كان حد الحرم أولا. و بين رأس السارية و بين الركن الشامي المذكور، اثنتان و عشرون خطوة. و الكعبة في وسطه على استواء من الجوانب الأربعة، ما بين الشرق و الجنوب و الشمال و الغرب. و عدد سواريه الرخامية التي عدتها بنفسى أربع مئة سارية و إحدى و سبعون سارية، حاشا الجصية

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٦٨

التي منها في دار الندوة، و هي التي زيدت في الحرم، و هي داخل في البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال، و يقابلها المقام مع الركن العراقي، و فضاؤها متسع، يدخل من البلاط إليه. و يتصل بجدار هذا البلاط كله مصاطب تحت قسي حنايا، يجلس فيها النساخون و المقرئون و بعض أهل صنعة الخياطة.

و الحرم محدد بحلقات المدرسين و أهل العلم. و في جدار البلاط الذي يقابله أيضا مصاطب تحت حنايا على تلك الصفة، و هو البلاط الآخذ من الجنوب إلى الشرق. و سائر البلاطات تحت جدرانها مصاطب دون حنايا عليها، و البنين فيها الآن على أكمل ما يكون. و عند باب إبراهيم مدخل آخر من البلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب، فيه أيضا سوار جصية. و وجدت بخط أبي جعفر بن علي الفنكي القرطبي، الفقيه المحدث: أن عدد سواريه أربع مئة و ثمانون، لأنى لم أحسب التي خارج باب الصفا.

و للمهدي محمد بن أبي جعفر المنصور العباسي في توسعه المسجد الحرام و التأثق في بنائه آثار كريمة. و وجدت في الجهة التي من الغرب إلى الشمال مكتوبا في أعلى جدار البلاط: "أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين، أصلحه الله، بتوسعة المسجد الحرام، لحجاج بيت الله و عماره، في سنة سبع و ستين و مائة."

و للحرم سبع صوامع: أربع في أربعة الجوانب، و واحدة في دار الندوة، و أخرى على باب الصفا، و هي أصغرهما، و هي علم لباب الصفا، و ليس يصعد إليها لضيقها، و على باب إبراهيم صومعة قد ذكرت عند باب إبراهيم فيما بعد. و باب الصفا يقابل الركن الأسود بالبلاط الذي من الجنوب إلى الشرق، و في وسط البلاط المقابل للباب ساريتان مقابلتان للركن المذكور فيهما منقوش: "أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين، أصلحه الله، بإقامة هاتين الأسطوانتين علما لطريق رسول الله، صلى الله عليه و سلم، إلى الصفا ليتأسى به حاج بيت الله و عماره، على يدى يقطين بن موسى و إبراهيم بن صالح، في سنة سبع و ستين و مئة."

و في باب الكعبة المقدسة، نقش بالذهب رائق الخط طويل الحروف غليظها، يرمى الأبصار برونقه و حسنه، مكتوب فيه "مما أمر بعمله عبد الله و خليفته الإمام أبو عبد الله محمد أمير المؤمنين، المقتفى لأمر الله و سنة نبيه، صلى الله عليه و على الأئمة تذكره بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٦٩

الطاهرين، و خلد ميراث النبوة لديه، و جعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين، في سنة خمسين و خمسمائة "في صفحتي البابين على هذا النص المذكور. و يكتنف البابين الكريمين عضادة غليظة من الفضة المذهبة البديعة النقش، تصعد إلى العتبة المباركة، تشف عليها و تستدير بجانبى البابين. و يعترض أيضا بين البابين عند إغلاقهما شبه العضادة الكبيرة من الفضة المذهبة هي بطول البابين متصله بالواحد منهما الذى عن يسار الداخل إلى البيت.

و كسوة الكعبة المقدسة من الحرير الأخضر، حسبما ذكرناه. و هي أربع و ثلاثون شقة: في الصفح الذى بين الركن اليماني و الشامى منها تسع، و فى الصفح الذى يقابله بين الركن الأسود و العراقى تسع أيضا، و فى الصفح بين العراقى و الشامى ثمان، و فى الصفح بين اليمانى و الأسود ثمان أيضا، و قد وصلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعم الأربعة جوانب. و قد أحاط بها من أسفلها تكيف مبنى بالجص، فى ارتفاعه أزيد من شبر، و فى سعته شبران أو أزيد قليلا فى داخله خشب غير ظاهر، و قد سمرت فيه أوتاد حديد فى رؤوسها حلقات حديد ظاهرة، قد أدخل فيها مرس من القنب غليظ مفتول و استدار بالجوانب الأربعة، بعد أن وضع فى أذيال الستور شبه حجز السراويلات، و أدخل فيها ذلك المرس و خيط عليه بخيوط من القطن المفتولة الوثيقة.

و مجتمع الستور فى الأركان الأربعة مخطط أزيد من قامه، ثم منها إلى أعلاها تتصل بعري من حديد يدخل بعضها فى بعض. و استدار أيضا بأعلاها، على جوانب السطح، تكيف ثان وقعت فيه أعالي الستور فى حلقات حديد، على تلك الصفة المذكورة. فجاءت الكسوة المباركة مخططة الأعلى و الأسفل، و وثيقة الأزرار، لا تخلع إلا من عام إلى عام عند تجديدها، فسبحان من خلد لها الشرف يوم القيامة، لا إله سواه.

و باب الكعبة الكريم يفتح كل يوم اثنين و يوم جمعة، إلا فى رجب فإنه يفتح فى كل يوم. و فتحه أول بزوغ الشمس، يقبل سدنة البيت الشيبون، فيبادر منهم من ينقل كرسيًا كبيرًا شبه المنبر الواسع له تسعة أدراج مستطيلة، قد وضعت له قوائم من الخشب متطامنة مع الأرض، لها أربع بكرات كبار مصفحة بالحديد لمباشرتها الأرض، يجرى الكرسي عليها حتى يصل إلى البيت الكريم. فيقع درجه الأعلى متصلًا بالعتبة

تذكره بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٧٠

المباركة من الباب. فيصعد زعيم الشيبين إليه، و هو كهل جميل الهيئة و الشارة، و بيده مفتاح القفل المبارك، و معه من السدنة من يمسك فى يده سترًا أسود يفتح يديه به أمام الباب، خلال ما يفتحه الزعيم الشيبى المذكور، فإذا فتح القفل قبل العتبة ثم دخل البيت وحده و سد الباب خلفه و أقام قدر ما يركع ركعتين. ثم يدخل الشيبون و يسدون الباب أيضا و يركعون. ثم يفتح الباب و يبادر الناس بالدخول، و فى أثناء محاولة فتح الباب الكريم يقف الناس مستقبلين إياه بأبصار خاشعة و أيد مبسوطة إلى الله ضارعة، و إذا انفتح الباب كبر الناس و علا ضجيجهم و نادوا بالسنة مستهلة:

اللهم افتح لنا أبواب رحمتك و مغفرتك، يا أرحم الراحمين. ثم دخلوا بسلام آمنين.

و فى الصفح المقابل للداخل فيه، الذى هو من الركن اليمانى إلى الركن الشامى، خمس رخامات منتصبات طولًا كأنها أبواب، تنتهى إلى مقدار خمسة أشبار من الأرض، و كل واحدة منها نحو القامة، الثلاث منها حمر و الاثنتان خضراوان. فى كل واحدة منها تجزيع بياض لم ير أحسن منظرا منه، كأنه فيها تنقيط. فيتصل بالركن اليمانى منها الحمراء، ثم تليها بخمسة أشبار الخضراء، و الموضع الذى يقابلها متقهقرا عنه بثلاثة أذرع، هو مصلى النبى، صلى الله عليه و سلم، فيزدحم الناس على الصلاة فيه تبركا به. و وضعهن على هذا الترتيب، و بين كل واحدة و أخرى القدر المذكور. و يتصل بينهما رخام أبيض صافى اللون ناصع البياض، قد أحدث الله، عز و جل،

في أصل خلقته أشكالا غريبة مائلة إلى الزرقاء، مشجرة مغصنة، و في التي تليها مثل ذلك بعينه من الأشكال كأنها مقسومة، فلو انطبقتا لعاد كل شكل يصافح شكله، فكل واحدة شقة الأخرى لا محالة، عند ما نشرت انشقت على تلك الأشكال، فوضعت كل واحدة بإزاء أختها. و الفاصل منها بين كل خضراء و حمراء رخامتان، سعتهما خمسة أشبار لأعداد الأشبار المذكورة. و الأشكال فيها تختلف هيئاتها، و كل أخت منها بإزاء أختها.

و قد شددت جوانب هذه الرخامات تكافيف، غلظها قدر إصبعين من الرخام المجزع، من الأخضر و الأحمر المنقطين و الأبيض ذي الخيلان، كأنها أنابيب مخروطية يحار الوهم فيها. فاعترضت في هذا الصفح المذكور من فرج الرخام الأبيض ست فرج. و في الصفح الذي عن يسار الداخل، و هو من الركن الأسود إلى الركن اليماني، تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٧١

أربع رخامات: اثنتان خضراوان، و اثنتان حمراوان، و بينهما خمس فرج من الرخام الأبيض. و كل ذلك على الصفة المذكورة. و في الصفح الذي عن يمين الداخل، و هو من الركن الأسود إلى العراقي، ثلاث: اثنتان حمراوان، و واحدة خضراء. و تصل بها ثلاث فرج من الرخام الأبيض. و هذا الصفح هو المتصل بالركن الذي فيه باب الرحمه، وسعته ثلاثة أشبار، و طوله سبعة، و عضادته التي عن يمينك، إذا استقبلته، رخامة خضراء في سعة ثلثي شبر.

و في الصفح الذي من الشامي إلى العراقي ثلاث: اثنتان حمراوان، و واحدة خضراء. و تصل بها ثلاث فرج من الرخام الأبيض، على الصفة المذكورة. و يكمل هذا الرخام المذكور طرتان، واحدة على الأخرى، سعة كل واحدة منهما قدر شبرين، ذهب مرسوم في اللازورد، قد خط فيه خط بديع. و تصل الطرتان بالذهب المنقوش على نصف الجدار الأعلى. و الجهة التي عن يمين الداخل، لها طرة واحدة، و في هاتين الطرتين بعض مواضع دراسة.

و في كل ركن من الأركان الأربعة مما يلي الأرض، رخامتان خضراوان صغيرتان تكتنفان الركن، و تكتنف أيضا كل باين من الفضه، اللذين في كل ركن كأنهما طاقان، عضادتان من الرخام الأخضر صغيرتان على قدر نقيبهما. و في أول كل صفح من الصفحات المذكورة رخامة حمراء و في آخره مثلها، و الخضراء بينهما على الترتيب المذكور، إلا الصفح الذي عن يسار الداخل، فأول رخامة تجدها متصلة بالركن الأسود رخامة خضراء، ثم حمراء إلى كمال الترتيب الموصوف.

و بإزاء المقام الكريم منبر الخطيب، و هو أيضا على بكرات أربعة شبه التي ذكرناها.

فإذا كان يوم الجمعة، و قرب وقت الصلاة، ضم إلى صفح الكعبة الذي يقابل المقام، و هو بين الركن الأسود و العراقي، فيسند المنبر إليه. ثم يقبل الخطيب داخلا على باب النبي، صلى الله عليه و سلم، و هو يقابل المقام في البلاط الآخذ من الشرق إلى الشمال، لابسا ثوب سواد مرسوما بذهب، و متعمما بعمامة سوداء مرسومة أيضا، و عليه طيلسان شرب رقيق، كل ذلك من كسا الخليفة التي يرسلها إلى خطباء بلاده، يرفل فيها و عليه السكينة و الوقار، يتهادى رويدا بين رايتين سوداوين يمسهما رجلان من

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٧٢

قومه المؤذنين، و بين يديه ساعيا أحد القومه، و في يده عود مخروط أحمر، قد ربط في رأسه مرس من الأديم المفتول، رقيق طويل، في طرفه عذبة صغيرة ينفضها بيده في الهواء نفضا، فتأتى بصوت عال يسمع من داخل الحرم و خارجه، كأنه إيدان بوصول الخطيب. و لا يزال في نفصها إلى أن يقرب من المنبر، و يسمونها الفرقعة. فإذا قرب من المنبر عرج إلى الحجر الأسود فقبله، و دعا عنده ثم سعى إلى المنبر، و المؤذن الزمزمي، رئيس المؤذنين بالحرم الشريف، ساع أمامه لابسا ثياب السواد أيضا، و على عاتقه السيف يمسه بيده دون تقلد له، فعند صعوده في أول درجة، قلده المؤذن المذكور السيف. ثم ضرب بنعله سيفه فيها ضربة، أسمع بها الحاضرين، ثم في الثانية، ثم في الثالثة. فإذا انتهى إلى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة، و وقف داعيا مستقبل الكعبة بدعاء خفي. ثم انفتل عن يمينه و شماله و قال: السلام عليكم و رحمة الله و بركاته. فيرد الناس عليه السلام. ثم يقعد، و يبادر المؤذنون بين يديه في المنبر بالأذان على

لسان واحد. فإذا فرغوا قام للخطبة، فذكر و وعظ و خشع فأبلغ. ثم جلس الجلسة الخطيبية، و ضرب بالسيف ضربة خامسة. ثم قام للخطبة الثانية، فأكثر بالصلاة على محمد، صلى الله عليه و سلم و على آله، و رضى عن أصحابه، و اختص الأربعة الخلفاء بالتسمية، رضى الله عن جميعهم، و دعا لعلى النبي، صلى الله عليه و سلم، حمزة و العباس، و للحسن و الحسين، و والى الترضى عن جميعهم. ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبي، صلى الله عليه و سلم، و رضى عن فاطمة الزهراء، و عن خديجة الكبرى، بهذا اللفظ. ثم دعا للخليفة العباسى أبى العباس أحمد الناصر، ثم لأمير مكة مكث بن عيسى بن فليته بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبى هاشم الحسنى، ثم لصلاح الدين

أبى المظفر يوسف بن أيوب و لولى عهده أخيه أبى بكر بن أيوب. و عند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان.

و إذا أحبَّ الله يوما عبده ألقى عليه محبة للناس

و حق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم، و حسن النظر لهم، و لما رفعه من

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٧٣

وظائف المكوس عنهم. و فى هذا التاريخ أعلمنا بأن كتابه وصل إلى الأمير مكث، و أهم فصوله التوصية بالحاج، و التأكيد فى ميرتهم و تأمينهم و رفع أيدي الاعتداء عنهم، و الإيعاز فى ذلك إلى الخدام و الأتباع و الأوزاع، و قال: إنه إنما نحن و أنت متقلبون فى بركة الحاج. فتأمل هذا المنزع الشريف و المقصد الكريم. و إحسان الله يتضاعف إلى من أحسن إلى عباده. و اعتناؤه الكريم موصول لمن جعل همه الاعتناء بهم، و الله عز و جل كفيل بجزاء المحسنين، إنه ولى ذلك، لا رب سواه.

و فى أثناء الخطبة تركز الرايتان السوداوان فى أول درجة من المنبر، و يمسكهما رجلان من المؤذنين، و فى جانبى باب المنبر حلقتان تلقى الرايتان فيهما ركوزتين. فإذا فرغ من الصلاة خرج، و الرايتان عن يمينه و شماله و الفرقعة أمامه على الصفة التى دخل عليها، كأن ذلك أيضا إيدان بانصراف الخطيب و الفراغ من الصلاة. ثم أعيد المنبر إلى موضعه بإزاء المقام.

و ليلة أهل هلال الشهر المذكور، و هو جمادى الأولى، بكر أمير مكة مكث المذكور فى صيحتها، إلى الحرم الكريم مع طلوع الشمس، و قواده يحفون به، و القراء يقرأون أمامه، فدخل على باب النبي، صلى الله عليه و سلم. و رجاله السودان، الذين يعرفونهم بالحزابة، يطوفون أمامه و بأيديهم الحراب. و هو فى هيئة اختصار، عليه السكينة و الوقار، و سمت سلفه الكريم، رضى الله عنهم، لابسا ثوب بياض متقلدا سيفه مختصرا متمما بكرزيه صوف بيضاء رقيقة، فلما انتهى بإزاء المقام الكريم وقف و بسط له وطاء كتان فصلى ركعتين. ثم تقدم إلى الحجر الأسود قبله و شرع فى الطواف، و قد علا- فى قبة زمزم صبى، هو أخو المؤذن الزمزمى، و هو أول المؤذنين أذانا، به يقتدون و له يتبعون، و قد لبس أفضر ثيابه و تعمم، فعند ما يكمل الأمير شوطا واحدا و يقرب من الحجر يندفع الصبى فى أعلى القبة رافعا صوته بالدعاء و يستفتح بصبح الله مولانا الأمير بسعادة دائمة و نعمة شاملة. و يصل ذلك بتهنئة الشهر، بكلام مسجوع مطبوع، حفيلى الدعاء و الشناء. ثم يختم ذلك بثلاثة أبيات أو أربعة من الشعر،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٧٤

فى مدحه و مدح سلفه الكريم و ذكر سابقه النبوة، رضى الله عنهم، ثم يسكت. فإذا أطل من الركن اليمانى يريد الحجر، اندفع بدعاء على ذلك الأسلوب، و وصله بأبيات من الشعر غير الأبيات الأخر، فى ذلك المعنى بعينه، كأنها منتزعة من قصائد مدح بها.

هكذا فى السبعة الأشواط، إلى أن يفرغ منها. و القراء فى أثناء طوافه أمامه. فينتظم من هذه الحال و الأبهة، و حسن صوت ذلك الداعى على صغره، لأنه ابن إحدى عشرة سنة أو نحوها، و حسن الكلام الذى يورده نثرا و نظما، و أصوات القراء و علوها بكتاب الله، عز و جل، مجموع يحرك النفوس و يشجىها و يستوكف العيون و يبكيها، تذكر لأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا. فإذا فرغ من الطواف ركع عند الملتزم ركعتين، ثم جاء و ركع خلف المقام أيضا، ثم ولى منصرفا و حلبته تحف به. و لا يظهر

فى الحرم إلا لمستهل هلال آخر، هكذا دائما.

و البيت العتيق مبنى بالحجارة الكبار الصم السمير، قد رص بعضها على بعض، و ألصقت بالعقد الوثيق إصاقا لا- تحيله الأيام و لا تقصمه الأزمان. و من العجيب أن قطعة انصدعت من الركن اليماني فسمرت بمسامير فضة و أعيدت كأحسن ما كانت، و المسامير فيه ظاهرة.

و من آيات البيت العتيق أنه قائم وسط الحرم كالبرج المشيد، و له التنزيه الأعلى.

و حمام الحرم لا تحصى كثرة، و هى من الأمن بحيث يضرب بها المثل. و لا سبيل أن تنزل بسطحه الأعلى حمامة، و لا تحل فيه بوجه و لا- على حال. فترى الحمام يتجلى على الحرم كله، فإذا قربت من البيت عرجت عنه يمينا أو شمالا و الطيور سواها كذلك. و قرأت فى أخبار مكة أنه لا ينزل عليه طائر إلا عند مرض يصيبه، فإما أن يموت فى حينه أو يبرأ. فسبحان من أورثه التشريف و التكريم.

و من آياته أن بابه الكريم يفتح فى الأيام المعلومة المذكورة، و الحرم قد غص بالخلق، فيدخله الجميع و لا يضيق عنهم بقدره الله، عز و جل، و لا يبقى فيه موضع إلا و يصلى فيه كل أحد. و يتلاقى الناس عند الخروج منه، فيسأل بعضهم بعضا: هل دخل البيت ذلك اليوم؟ فكل يقول: دخلت و صليت فى موضع كذا و موضع كذا، حيث صلى الجميع. و لله الآيات البينات و البراهين المعجزات، سبحانه و تعالى. و من عجائب

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٧٥

اعتناء الله تبارك و تعالى به، أنه لا يخلو من الطائفين ساعة من النهار و لا وقتا من الليل.

فلا تجد من يخبر أنه رآه دون طائف به، فسبحان من كرمه و عظمه و خلد له التشريف إلى يوم القيامة.

و فى أعلى بلاطات الحرم سطح يطيف بها كلها من الجوانب الأربعة، و هو مشرف كله بشرفات مبسوطه مركنة، فى كل جانب من الشرفة ثلاثة أركان، كأنها أيضا شرفات أخر صغار. و الركن الأسفل منها متصل بالركن الذى يليه من الشرفة الأخرى. و تحت كل صلة منها ثقب مستدير فى دور الشبر، منفوذ يخترقه الهواء، يضرب فيه شعاع الشمس أو القمر فيلوح كأنها أقمار مستديرة، يتصل ذلك بالجوانب الأربعة كلها، كأن الشرفات المذكورة بنيت شقة واحدة، ثم أحدثت فيها هذه التقاطيع و التراكين، فجاءت عجيبة المنظر و الشكل. و فى النصف من كل جانب من الجوانب الأربعة المذكورة، شقة من الجص معترضة بين الشرفات مخرمة فرجية، طولها نحو الثلاثين شبرا تقديرا، تقابل كل شقة منها صفحا من صفحات الكعبة المقدسة، قد علت على الشرفات كالتاج.

و للصوامع أيضا أشكال بديعة، و ذلك أنها ارتفعت بمقدار النصف، مركنة من الأربعة جوانب بحجارة رائعة النقش عجيبة الوضع، قد أحاط بها شباك من الخشب الغريب الصنعة، و ارتفع عن الشباك عمود فى الهواء كأنه مخروط، مختم كله بالآجر تختيما يتداخل بعضه على بعض، بصنعة تستميل الأبصار حسنا. و فى أعلى ذلك العمود الفحل، و قد استدار به أيضا، شباك آخر من الخشب على تلك الصنعة بعينها. و هى متميزة الأشكال كلها، لا يشبه بعضها بعضا. لكنها على هذا المثال المذكور، من كون نصفها الأول مركنا و نصفها الأعلى عمودا لا ركن له.

و فى النصف الأعلى من قبة زمزم و القبة العباسية التى تسمى السقاية، و القبة التى تليها منحرفة عنها يسيرا، المنسوبة لليهودية، صنعة من قرنصه الخشب عجيبة، قد تأتق الصانع فيها، و أحدق بأعلاها شباك مشرجب من الخشب، رائق الخلل و التأريج و داخل شباك قبة زمزم شطح و قد قام فى وسطه شبه فحل الصومعة. و فى ذلك السطح يؤذن الزمزمى، و قد انخرط من ذلك الفحل عمود من الجص، و استقر فى

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٧٦

رأسه صفحة حديد، تتخذ مشعلا فى شهر رمضان المعظم. و فى الصفح الناظر إلى البيت العتيق من القبة سلاسل فيها قناديل من زجاج معلقة توقد كل ليلة. و فى الصفح الذى عن يمينه كذلك، و هو الناظر إلى الشمال. و فى كل جانب منها ثلاثة شراحيب مقومة كأنها

أبواب، قد قامت على سوار من الزجاج صغار، لم ير أبدع منها صنعة؛ منها ما هو مفتول فتل السوار، ولا سيما الجانب الذى يقابل الحجر الأسود من قبة زمزم، فإن سواريه فى نهاية من إتقان الصنعة، قد أدير بكل سارية منها رؤوس ثلاثة أو أربعة، و تحت ما بين كل رأس و رأس ... و أحدثت فيه صنائع من النقش عجيبة المنظر، و ربما فتل بعضها عن الصفة السوارية.

و هذا الجانب الذى يقابل الحجر الأسود من القبة المذكورة، تتصل به مصطبة من الرخام دائرة بالقبة، يجلس الناس فيها معتبرين بشرف ذلك الموضع، لأنه أشرف مواضع الدنيا المذكورة بشرف مواضع الآخرة: لأن الحجر الأسود أمامك، و الباب الكريم مع البيت قبالتك، و المقام عن يمينك، و باب الصفا عن يسارك، و بئر زمزم وراء ظهرك. و ناهيك بهذا!

و ينطبق على كل شرجب من تلك الشراحيب أعمدة حديد، قد تتركب بعضها على بعض كأنها شراحيب آخر. و أحد أركان شباك الخشب المحدد بالقبة العباسية، يتصل بأحد أركان شباك القبة اليهودية حتى يتماسا. فمن يكون فى أعلى سطح هذه، ينفتل إلى سطح الأخرى من الركنين المذكورين. و داخل هذه القباب صنعة من القرنصة الجصية رائعة الحسن.

و للحرم أربعة أئمة سنية و إمام خامس لفرقة تسمى الزيدية. و أشرف أهل هذه البلدة على مذهبهم، و هم يزيدون فى الأذان: حتى على خير العمل إثر قول المؤذن حتى على الفلاح. و هم روافض سبابون، و الله من وراء حسابهم و جزائهم. و لا يجمعون مع الناس، إنما يصلون ظهرا أربعاً، و يصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها.

فأول الأئمة السنية الشافعى، رحمه الله، و إنما قدمنا ذكره لأنه المقدم من الإمام العباسى. و هو أول من يصلى، و صلاته خلف مقام إبراهيم، صلى الله عليه و سلم و على نبينا الكريم، إلا صلاة المغرب فإن أربعة الأئمة يصلونها فى وقت واحد، مجتمعين

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٧٧

لضيق وقتها: يبدأ مؤذن الشافعى بالإقامة، ثم يقيم مؤذنو سائر الأئمة. و ربما دخل فى هذا الصلاة على المصلين سهو و غفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة. فربما ركع المالكى بركوع الشافعى أو الحنفى أو سلم أحدهم بغير سلام إمامه. فترى كل أذن مصيخة لصوت إمامها أو صوت مؤذنه مخافة السهو. و مع هذا فيحدث السهو على كثير من الناس. ثم المالكى، رحمه الله، و هو يصلى قبالة الركن اليمانى، و له محراب حجر يشبه محاريب الطرق الموضوعه فيها. ثم الحنفى، رحمه الله، و صلاته قبالة الميزاب تحت حطيم مصنوع له. و هو أعظم الأئمة أبهة و أفخرهم آله من الشمع و سواها، بسبب أن الدولة الأعجمية كلها على مذهبه، فالاحتفال له كثير، و صلاته آخراً. ثم الحنبلى، رحمه الله، و صلاته مع صلاة المالكى فى حين واحد، و موضع صلاته يقابل ما بين الحجر الأسود و الركن اليمانى. و يصلى الظهر و العصر قريبا من الحنفى فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال، و الحنفى يصليهما فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب قبالة محرابه و لا حطيم له. و للشافعى بإزاء المقام حطيم حفيل. و صفة الحطيم خشبتان، موصول بينهما بأذرع شبه السلم، تقابلهما خشبتان على تلك الصفة، قد عقدت هذه الخشب على رجلين من الجص غير بائنة الارتفاع. و اعترض فى أعلى الخشب خشبة مسمرة فيها، قد نزلت منها خطاطيف حديد، فيها قناديل معلقة من الزجاج. و ربما وصل بالخشبة المعترضة العليا شباك مشرجب بطول الخشبة.

و للحنفى بين الرجلين الجصيتين المعتقدتين على الخشب محراب يصلى فيه.

و للحنبلى حطيم معطل، هو قريب من حطيم الحنفى. و هو منسوب لرامشت أحد الأعاجم ذوى الشراء، و كانت له فى الحرم آثار كريمة من النفقات، رحمه الله. و يقابل الحجر حطيم معطل أيضاً، ينسب للوزير المقدم بهذا اللفظ المجهول.

و يطيف بهذه المواضع كلها، دائر البيت العتيق و على بعد منه يسيرا، مشاعيل توقد فى صحاف حديد فوق خشب مركزه، فيتقد الحرم الشريف كله نورا. و يوضع الشمع بين أيدي الأئمة فى محاريبهم. و المالكى أقلمهم شمعا، و أضعفهم حالا، لأن مذهبه فى هذه البلاد غريب. و الجمهور على مذهب الشافعى، و عليه علماء البلاد و فقهاؤها، إلا الإسكندرية و أكثر أهلها مالكيون و بها الفقيه ابن عوف، و هو شيخ كبير من أهل العلم، بقية الأئمة المالكية.

و في إثر كل صلاة مغرب، يقف المؤذن الزمزمي في سطح قبة زمزم، و لها مطلع على أدراج من عود في الجهة التي تقابل باب الصفا، رافعا صوته بالدعاء للإمام العباسي أحمد الناصر لدين الله، ثم للأمر مكثر، ثم لصلاح الدين أمير الشام و جهات مصر كلها و اليمن، ذى المآثر الشهيرة و المناقب الشريفة. فإذا انتهى إلى ذكره بالدعاء، ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين بألسنة تمدها القلوب الخالصة و النيات الصادقة.

و تخفق الألسنة بذلك خفقا يذيب القلوب خشوعا، لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل، و ألقى عليه من محبة الناس و عباد الله شهدائه في أرضه. ثم يصل ذلك بدعاء لأمرء اليمن من جهة صلاح الدين، ثم لسائر المسلمين و الحجاج و المسافرين، و ينزل. هكذا دأبه دائما أبدا.

و في القبة العباسية المذكورة خزنة تحتوى على تابوت مبسوط متسع، و فيه مصحف أحد الخلفاء الأربعة أصحاب رسول الله، صلى الله عليه و سلم، و بخط يد زيد بن ثابت، رضى الله عنه، منتسخ سنة ثمانى عشرة من وفاة رسول الله، صلى الله عليه و سلم، و ينقص منه ورقات كثيرة. و هو بين دفتي عود مجلد بمغاليق من صفر، كبير الورقات و واسعة، عايناه و تبركنا بتقبيله و مسح الخدود فيه. نفع الله بالنية في ذلك.

و أعلمنا صاحب القبة المتولى لعرضه علينا: أن أهل مكة متى أصابهم قحط أو نالتهم شدة في أسفارهم أخرجوا المصحف المذكور، و فتحو باب البيت الكريم، و وضعوه في القبة المباركة مع المقام الكريم: مقام الخليل إبراهيم، صلى الله عليه و سلم، و اجتمع الناس كاشفين رؤوسهم داعين متضرعين، و بالمصحف الكريم و المقام العظيم إلى الله متوسلين. فلا ينفصلون عن مقامهم ذلك إلا و رحمة الله، عز و جل، قد تداركتهم. و الله لطيف بعباده، لا إله سواه.

و بإزاء الحرم الشريف ديار كثيرة، لها أبواب يخرج منها إليه. و ناهيك بهذا الجوار الكريم، كدار زبيدة و دار القاضي و دار تعرف بالعجلة و سواها من الديار. و حول الحرم أيضا ديار كثيرة تطيف به، لها مناظر و سطوح يخرج منها إلى سطح الحرم فيبيت أهلها فيه و يبردون ماءهم في أعالي شرفاته. فهم من النظر إلى البيت العتيق دائما في عبادة متصله، و الله يهنئهم ما خصهم به من مجاورة بيته الحرام بمنه و كرمه.

و ألفت بخط الفقيه الزاهد الورع أبي جعفر الفنكى القرطبي: أن ذرع المسجد الحرام في الطول و العرض ما أثبتة أولا، و طول مسجد رسول الله، صلى الله عليه و سلم، ثلاثمائة ذراع، و عرضه مائتان، و عدد سواريه ثلاثمائة، و مناراته ثلاث، فيكون تكسيره أربعة و عشرين مرجعا من المراجع المغربية، و هي خمسون ذراعا في مثلها.

و طول مسجد بيت المقدس، أعاده الله للإسلام، سبعمائة و ثمانون ذراعا، و عرضه أربعمائة و خمسون ذراعا، و سواريه أربعمائة و أربع عشرة سارية، و قناديله خمسمائة، و أبوابه خمسون بابا، فيكون تكسيره من المراجع المذكورة مائة مرجع و أربعين مرجعا و خمس مرجع.

ذكر أبواب الحرم الشريف قدسه الله

إشارة

للحرم تسعة عشر بابا، أكثرها مفتوح على أبواب كثيرة، حسبما يأتي ذكره، إن شاء الله.

باب الصفا:

يفتح على خمسة أبواب، و كان يسمى قديما بباب بنى مخزوم.

باب الخلقين:

و يسمى بباب جياذ الأصغر، مفتاح على بايين، و هو محدث.

باب العباس، رضى الله عنه:

و هو يفتح على ثلاثة أبواب.

باب على، رضى الله عنه:

مفتاح على ثلاثة أبواب.

باب النبى، صلى الله عليه و سلم:

يفتح على بايين.

باب صغير أيضا، بإزاء باب بنى شيبه المذكور: لا اسم له.

باب بنى شيبه:

و هو يفتح على ثلاثة أبواب، و هو باب بنى عبد شمس، و منه كان دخول الخلفاء.

باب دار الندوة:

ثلاثة، البابان من دار الندوة منتظمان، و الثالث فى الركن الغربى من الدار. فيكون عدد أبواب الحرم بهذا الباب المنفرد عشرين بابا.

باب صغير بإزاء بنى شيبه، شبه خوخة الأبواب: لا اسم له

. و قيل: إنه يسمى باب

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٨٠

الرباط لأنه يدخل منه لرباط الصوفية.

باب صغير لدار العجلة:

محدث.

باب السدّة:

واحد.

باب العمرة:

واحد.

باب حزورة:

على بابين.

باب إبراهيم، صلى الله عليه و سلم:

واحد.

باب ينسب لحزورة أيضا:

على بابين

باب جواد الأكبر:

على بابين.

باب ينسب لجواد الأكبر أيضا:

على بابين.

و منهم من ينسب البابين من هذه الأبواب الأربعة الجيادية إلى الدقاقين، و الروايات فيها تختلف. لكننا اجتهدنا في إثبات الأقرب من أسمائها إلى الصحة، و الله المستعان لا رب سواه.

و باب إبراهيم، صلى الله عليه و سلم، هو في زاوية كبيرة متسعة، فيها دار المكناسي الفقيه الذي كان إمام المالكية في الحرم، رحمه الله. و فيها أيضا غرفة، هي خزانة للكتب المحبسة على المالكية في الحرم. و الزاوية المذكورة متصلة بالبلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب و خارجه عنه. و بإزاء الباب المذكور عن يمين الداخل عليه، صومعة على غير أشكال الصوامع المذكورة. فيها تخاريم في الجص، مستطيلة الشكل كأنها محاريب، قد حفت بها قرنصة غريبة الصنعة. و على الباب قبة عظيمة بانه العلو، يقرب من الصومعة ارتفاعها، قد ضمن داخلها غرائب من الصنعة الجصية و التخاريم القرنصية، يعجز عنها الوصف. و ظاهرها أيضا تقاطع في الجص كأنها أرجل مدورة، قد تركبت دائرة على دائرة. و فحل الصومعة المذكورة على أرجل من الجص، مفتوح ما بين كل رجل و رجل. و خارج باب إبراهيم بئر تنسب إليه، عليه السلام. و إنما بدئ بباب الصفا لأنه أكبر الأبواب، و هو الذي يخرج عليه إلى السعي. و كل وافد إلى مكة، شرفها الله، يدخلها بعمرة فيستحب له الدخول على باب بني شيبه ثم يطوف سبعا و يخرج على باب الصفا و يجعل

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٨١

طريقه بين الاسطوانتين اللتين أمر المهدي، رحمه الله، بإقامتهما علما لطريق رسول الله، صلى الله عليه و سلم، إلى الصفا، حسبما تقدم ذكره. و بين الركن اليماني ست و أربعون خطوة، و منهما إلى باب الصفا ثلاثون خطوة. و من باب الصفا إلى الصفا ست و سبعون خطوة.

و للصفا أربعة عشر درجا، و هو على ثلاثة أقواس مشرفة، و الدرجة العليا متسعة كأنها مصطبة، و قد أحدقت به الديار، و في سعته سبع عشرة خطوة.

و بين الصفا و الميل الأخضر ما يأتي ذكره. و الميل سارية خضراء، و هي خضرة صباغية. و هي التي إلى ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم على قارعة المسيل إلى المروة و عن يسار الساعي إليها. و منها يرمل في السعي إلى الميلين الأخضرين، و هما أيضا ساريتان خضراوان على الصفة المذكورة، الواحدة منها بإزاء باب على في جدار الحرم و عن يسار الخارج من الباب، و الميل الآخر يقابله في جدار دار تتصل بدار الأمير مكثر. و على كل واحدة منهما لوح، قد وضع على رأس السارية كالتاج، ألفت فيه منقوشا برسم مذهب: **إِنَّ الصَّفاَ وَ المَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ الآيَةَ.**

و بعدها "أمر بعمارة هذا الميل عبد الله و خليفته أبو محمد المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، أعز الله نصره، في سنة ثلاث و سبعين و خمسمائة". و بين الصفا و الميل الأول ثلاث و تسعون خطوة، و هي مسافة الرمل جائيا و ذاهبا من الميل إلى الميلين. ثم من الميلين إلى الميل و من الميلين إلى المروة ثلاثمائة و خمس و عشرون خطوة. فجميع خطأ الساعي من الصفا إلى المروة أربعمائة خطوة و ثلاث و تسعون خطوة.

و أدراج المروة خمسة، و هي بقوس واحد كبير، و سعتها سعة الصفا سبع عشرة خطوة. و ما بين الصفا و المروة مسيل هو اليوم سوق حافلة بجميع الفواكه و غيرها من الحبوب و سائر المبيعات الطعامية، و الساعون لا يكادون يخلصون من كثرة الزحام، و حوانيت الباعة يمينا و شمالا، و ما للبلدة سوق منتظمة سواها إلا البرازين و العطارين، فهم عند باب بني شيبه تحت السوق المذكورة و بمقربة تكاد تتصل بها.

و يطل على الحرم الشريف جبل أبي قبيس، و هو في الجهة الشرقية، يقابل ركن

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٨٢

الحجر الأسود، و في أعلاه رباط مبارك فيه مسجد و عليه سطح مشرف على البلدة الطيبة، و منه يظهر حسننها و حسن الحرم و اتساعه، و جمال الكعبة المقدسة القائمة وسطه. و قرأت في أخبار مكة.

لأبي الوليد الأزرقى أنه أول جبل خلقه الله عز و جل، و فيه استودع الحجر زمن الطوفان. و كانت قريش تسميه الأمين، لأنه أدى الحجر إلى إبراهيم، صلى الله عليه و سلم، و فيه قبر آدم، صلوات الله عليه. و هو أحد أخشى مكة، و الأخشب الثاني الجبل المتصل بقعيقعان في الجهة الغربية. صعدا جبل أبي قبيس المذكور و صلينا في المسجد المبارك. و فيه موضع موقف النبي، صلى الله عليه و سلم، عند انشقاق القمر له بقدرة الله عز و جل. و ناهيك بهذه الفضيلة و البركة! و الفضل بيد الله يؤتية من يشاء حتى الجمادات من مخلوقاته، لا إله سواه.

و في أعلاه آثار بناء حص مشيد، كان اتخذه معقلا أمير البلد عيسى أبو مكثر المذكور، فهدمه عليه أمير الحاج العراقي لمخالفة صدرت عنه، فغادره خرابا. و ألفت منقوشا على سارية خارج باب الصفا تقابل السارية الواحدة من اللتين أقيمتا علما لطريق النبي - صلى الله عليه و سلم - إلى الصفا داخل الحرم، المتقدمتي الذكر "أمر عبد الله محمد المهدي، أمير المؤمنين، أصلحه الله تعالى، بتوسعة المسجد الحرام مما يلي باب الصفا، لتكون الكعبة في وسط المسجد، في سنة سبع و ستين و مائة". فدل ذلك المكتوب على أن الكعبة المقدسة في وسط المسجد، و كان يظن بها الانحراف إلى جهة باب الصفا، فاخترنا جوانبها المباركة بالكيل، فوجدنا الأمر

صحيحاً حسبما تضمّنه رسم السارية. و تحت ذلك النقش فى أسفل السارية منقوش أيضاً: "أمر عبد الله محمد المهدي، أمير المؤمنين، أصلحه الله، بتوسعة الباب الأوسط، الذي بين هاتين الأسطوانتين، و هو طريق رسول الله، صلى الله عليه و سلم، إلى الصفا". و فى أعلى السارية التى تليها منقوش أيضاً: "أمر عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين، أصلحه الله، بصرف الوادى إلى مجراه على عهد أبيه إبراهيم، صلى الله عليه و سلم، و توسعته بالرحاب التى حول المسجد الحرام لحاج بيت الله و عمّاره". و تحتها أيضاً منقوش ما تحت الأول من ذكر توسعة الباب الأوسط.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٨٣

و الوادى المذكور هو الوادى المنسوب لإبراهيم، صلى الله عليه و سلم، و مجراه على باب الصفا المذكور، و كان السيل قد خالف مجراه فكان يأتى على المسيل بين الصفا و المروة و يدخل الحرم، فكان مدّة مدّة بالأمطار يطاف حول الكعبة سبحاً. فأمر المهدي، رحمه الله، برفع موضع فى أعلى البلد يسمى رأس الردم، فمتى جاء السيل عرج عن ذلك الردم إلى مجراه و استمر على باب إبراهيم الموضع الذى يسمى المسفلة و يخرج عن البلد و لا يجرى الماء فيه إلا عند نزول ديم المطر الكثير. و هو الوادى الذى عنى صلى الله عليه و سلم بقوله حيث حكى الله تبارك و تعالى عنه: رَبَّنَا إِنِّي أَسِيَّكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ، فسبحان من أبقى له الآيات البينات.

ذكر مكة شرفها الله تعالى و آثارها الكريمة و أخبارها الشريفة

إشارة

هى بلدة قد وضعها الله، عز و جل، بين جبال محدقة بها، و هى بطن واد مقدس، كبيرة مستطيلة، تسع من الخلائق ما لا يحصيه إلا الله عز و جل. و لها ثلاثة أبواب: أولها باب المعلى، و منه يخرج إلى الجبانه المباركة، و هى بالموضع الذى يعرف بالحجون. و عن يسار المار إليها جبل فى أعلاه ثنية عليها علم شبيه البرج، يخرج منها إلى طريق المعرة، و تلك الثنية تعرف بكداء، و هى التى عنى حسان بقوله فى شعره:

تشير النقع موعدها كداء

فقال النبى، صلى الله عليه و سلم، يوم الفتح: ادخلوا من حيث قال حسان.

فدخلوا من تلك الثنية. و هذا الموضع الذى يعرف بالحجون هو الذى عناه الحارث بن مضاض الجرهمى بقوله:

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٨٤

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس و لم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى و الجدود العواثر

و بالجبانه المذكورة مدفن جماعة من الصحابة و التابعين و الأولياء و الصالحين قد دثرت مشاهدتهم المباركة و ذهبت عن أهل البلد أسماءهم. و فيه الموضع الذى صلب فيه الحجاج بن يوسف، جازاه الله، جنة عبد الله بن الزبير، رضى الله عنهما. و على الموضع بقية علم ظاهر إلى اليوم، و كان عليه مبنى مرتفع، فهدمه أهل الطائف غيرة منهم على ما كان يجدد من لعنة صاحبهم الحجاج المذكور. و عن يمينك، إذا استقبلت الجبانه المذكورة، مسجد فى مسيل بين جبلين، يقال إنه المسجد الذى بايعت فيه الجن النبى، صلى الله عليه و سلم، و شرف و كرم.

و على هذا الباب المذكور طريق الطائف و طريق العراق و الصعود إلى عرفات، و جعلنا الله ممن يفوز بالموقف فيها. و هذا الباب المذكور بين الشرق و الشمال، و هو إلى المشرق أميل.

ثم باب المسفل: وهو إلى جهة الجنوب، و عليه طريق اليمن، و منه كان دخول خالد بن الوليد، رضى الله عنه، يوم الفتح.
ثم باب الزاهر: و يعرف أيضا بباب العمرة، و هو غربى، و عليه طريق مدينة الرسول، صلى الله عليه و سلم، و طريق الشام و طريق جدة، و منه يتوجه التنعيم، و هو أقرب ميقات المعتمرين، يخرج من الحرم إليه على باب العمرة، و لذلك أيضا يسمى هو بهذا الاسم. و التنعيم من البلدة على فرسخ، و هو طريق حسن فسيح، فيه الآبار العذبة التى تسمى بالشبيكة. و عندما تخرج من البلدة بنحو ميل، تلقى مسجدا يازائه حجر موضوع على الطريق كالمصطبة، يعلوه.

حجر آخر مسند فيه نقش دائر الرسم، يقال إنه الموضوع الذى قعد فيه النبى، صلى الله عليه و سلم، مستريحا عند مجيئه من العمرة. فيتبرك الناس بتقبيله و مسح الخدود فيه، و حق ذلك لهم، و يستندون إليه لتنال أجسامهم بركة لمسه. ثم بعد هذا الموضوع بمقدار غلوة، تلقى على قارعة الطريق، من جهة اليسار للمتوجه إلى العمرة، قبرين قد علتهم أكوام من الصخر عظام، يقال إنهما قبرا أبى لهب و امرأته، لعنهما الله؛ فما زال الناس فى القديم إلى هلم

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٨٥

جرا يتخذون سنة رجمهما بالحجارة حتى علاهما من ذلك جبالان عظيمان.

ثم تسير منها بمقدار ميل و تلقى الزاهر، و هو مبتنى على جانبى الطريق، يحتوى على دار و بساتين، و الجميع ملك أحد المكين، و قد أحدث فى المكان مطاهر و سقاية للمعتمرين. و على جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الماء و مراكن مملوءة للوضوء، و هى القصارى الصغار. و فى الموضوع بئر عذبة يملأ منها المطاهر المذكورة فيجد المعتمرون فيها مرفقا كبيرا للظهور و الوضوء و الشرب. فصاحبها على سبيل معمورة بالأجر و الثواب.

و كثير من الناس المتاجر من يعينه على ما هو بسبيله. و قيل: إن له من ذلك فائدا كبيرا. و عن جانبى الطريق فى هذا الموضوع، جبال أربعة: جبالان من هنا، و جبالان من هنا، عليها أعلام من الحجارة. و ذكر لنا أنها الجبال المباركة التى جعل إبراهيم، عليه السلام، عليها أجزاء الطير ثم دعاهن، حسبما حكى الله، عز و جل، سؤاله إياه، جل و تعالى، أن يريه كيف يحيى الموتى. و حول تلك الجبال الأربعة جبال غيرها، و قيل: إن التى جعل إبراهيم عليها الطير سبعة منها، و الله أعلم.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار؛ ص ٨٥

عند إجازة تك الزاهر المذكور تمر بالوادي المعروف بندى طوى الذى ذكر أن النبى، صلى الله عليه و سلم، نزل فيه عند دخوله مكة، و كان ابن عمر، رضى الله عنهما، يغتسل فيه و حينئذ يدخلها. و حوله آبار تعرف بالشبيكة؛ و فيه مسجد يقال إنه مسجد إبراهيم، عليه السلام. فتأمل بركة هذا الطريق، و مجموع الآيات التى فيه، و الآثار المقدسة التى اكتنفته.

و تجيز الوادى إلى مضيق تخرج منه الأعلام التى وضعت حجرا بين الحل و الحرم، فما دخلها مكة حرم و ما خارجها حل. و هى كالأبراج مصفوفة كبارا و صغارا، واحد يازاء آخر. و على مقربة منه تأخذ، من أعلى الجبل الذى يعترض عن يمين الطريق، فى التوجه إلى العمرة، و تشق الطريق إلى أعلى الجبل عن يساره، و منه ميقات المعتمرين.

و فيها مساجد مبنية بالحجارة يصلى المعتمرون فيها و يحرمون منها. و مسجد عائشة،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٨٦

رضى الله عنها، خارج هذه الأعلام بمقدار غلوتين. و إليه يصل المالكيون، و منه يحرمون. و أما الشافعيون، فيحرمون من المساجد التى حول الأعلام المذكورة. و أمام مسجد عائشة، رضى الله عنها، مسجد ينسب إلى على بن أبى طالب، رضى الله عنه.

و من عجيب ما عرض علينا بباب بنى شيبه المذكور عتب من الحجارة العظام طوال كأنها مصاطب صفت أمام الأبواب الثلاثة المنسوبة لبنى شيبه، ذكر لنا أنها الأصنام التى كانت قريش تعبدتها فى جاهليتها، و كبيرها هبل بينها، قد كبت على وجوهها، تطؤها الأقدام و تمتنها بأنعلتها العوام، و لم تغن عن أنفسها، فضلا عن عابديها، شيئا. فسبحان المنفرد بالوحدانية، لا إله سواه. و الصحيح فى أمر تلك

الحجارة أن النبي، صلى الله عليه وسلم، أمر يوم فتح مكة بكسر الأصنام وإحراقها. وهذا الذي نقل إلينا غير صحيح، وإنما تلك التي على الباب حجارة منقولة، و عنى القوم بتشبيها إلى الأصنام لعظمتها.

ومن جبال مكة المشهورة، بعد جبل أبي قبيس، جبل حراء، وهو في الشرق على مقدار فرسخ أو نحوه، مشرف على منى، وهو مرتفع في الهواء عالى القنّة؛ وهو جبل مبارك، كان النبي، صلى الله عليه وسلم، كثيرا ما ينتابه ويتعبد فيه. و اهتز تحته فقال له النبي، صلى الله عليه وسلم: "اسكن حراء، فما عليك إلا نبى و صديق و شهيد،" و كان معه أبو بكر و عمر، رضى الله عنهما. و يروى: "اثبت فما عليك إلا نبى و صديق و شهيدان،" و كان عثمان، رضى الله عنه معهم. و أول آية نزلت من القرآن على النبي، صلى الله عليه وسلم، فى الجبل المذكور. و هو آخذ من الغرب إلى الشمال، و وراء طرفه الشمالى، جبانة الحجون التي تقدم ذكرها. و سور مكة، إنما كان من جهة المعلى، و هو مدخل البلد؛ و من جهة المسفل، و هو مدخل أيضا إليه. و من جهة باب العمرة و سائر الجوانب، جبال لا يحتاج معها سور.

و سورها اليوم منهدم إلا آثاره الباقية و أبوابه القائمة.

ذكر بعض مشاهدها المعظمة و آثارها المقدسة

مكة، شرفها الله، كلها مشهد كريم. كفاها شرفا ما خصها الله به من مثابة بيته

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٨٧

العظيم، و ما سبق لها من دعوة الخليل إبراهيم، و أنها حرم الله و أمنه. و كفاها أنها منشأ النبي، صلى الله عليه وسلم، الذى آثره الله بالتشريف و التكريم و ابتعثه بالآيات و الذكر الحكيم. فهى مبدأ نزول الوحي و التنزيل، و أول مهبط الروح الأمين جبريل، و كانت مثابة أنبياء الله و رسله الأكرمين. و هى أيضا مسقط رؤوس جماعة من الصحابة القرشيين المهاجرين، الذين جعلهم الله مصابيح الدين و نجوما للمهتدين.

فمن مشاهدها التي عايناها قبة الوحي؛ و هى فى دار خديجة أم المؤمنين، رضى الله عنها، و بها كان ابتناء النبي، صلى الله عليه وسلم، بها؛ و قبة صغيرة أيضا فى الدار المذكورة، فيها كان مولد فاطمة الزهراء، رضى الله عنها؛ و فيها أيضا ولدت سيدة شباب أهل الجنة: الحسن و الحسين، رضى الله عنهما. و هذه المواضع المقدسة المذكورة مغلقة مصنونة، قد بنيت بناء يليق بمثلها. و من مشاهدها الكريمة أيضا مولد النبي، صلى الله عليه وسلم، و التربة الطاهرة التي هى أول تربة مست جسمه الطاهر، بنى عليها مسجد لم ير أحفل بناء منه، أكثره ذهب منزل به. و الموضع المقدس الذى سقط فيه، صلى الله عليه وسلم، ساعة الولادة السعيدة المباركة التي جعلها الله رحمة للأمم أجمعين، محفوف بالفضة. فيا لها تربة شرفها الله بأن جعلها مسقط أطهر الأجسام و مولد خير الأنام، صلى الله عليه و على آله و أهله و أصحابه الكرام و سلم تسليما. يفتح هذا الموضع المبارك، فيدخله الناس كافة متبركين به، فى شهر ربيع الأول و يوم الاثنين منه، لأنه كان شهر مولد النبي، صلى الله عليه وسلم. و فى اليوم المذكور ولد، صلى الله عليه وسلم، و تفتح المواضع المقدسة المذكورة كلها. و هو يوم مشهود بمكة دائما.

و من مشاهدها الكريمة أيضا دار الخيزران، و هى الدار التي كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يعبد الله فيها سرا مع الطائفة الكريمة المبادرة للإسلام من أصحابه، رضى الله عنهم، حتى نشر الله الإسلام منها على يدى الفاروق عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، و كفى بهذه الفضيلة.

و من مشاهدها أيضا دار أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، و هى اليوم دارسة الأثر، و يقابلها جدار فيه حجر مبارك يتبرك الناس بلمسه، يقال: إنه كان يسلم على النبي، صلى الله عليه وسلم، متى اجتاز عليه. و ذكر أنه جاء يوما، صلى الله عليه وسلم دار أبى

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٨٨

بكر، رضى الله عنه، فنأدى به و لم يكن حاضرا فأنطق الله عز و جل الحجر المذكور، و قال: يا رسول الله ليس بحاضر. و كانت إحدى آياته المعجزات، صلى الله عليه و سلم.

و من مشاهدها قبة بين الصفا و المروة تنسب لعمر بن الخطاب، رضى الله عنه، و فى وسطها بئر يقال أنه كان يجلس فيها للحكم، رضى الله عنه. و الصحيح فى هذه القبة أنها قبة حفيده عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، و بإزاء داره المنسوبة إليه، و فيها كان يجلس للحكم أيام توليه مكة. كذلك حكى لنا أحد أشياخنا الموثوقين. و يقال إن البئر كانت فى القديم فيها، و لا بئر فيها الآن، لأننا دخلناها فألفيناها مسطحة، و هى حفيلة الصنعة.

و كانت بمقربة من الدار التى نزلنا فيها، دار جعفر بن أبى طالب، رضى الله عنه، ذى الجناحين. و بجهة المسفل، و هو آخر البلد، مسجد منسوب لأبى بكر الصديق، رضى الله عنه. يحف به بستان حسن، فيه النخل و الرمان و شجر العناب، و عاينا فيه شجر الحناء. و أمام المسجد بيت صغير فيه محراب، يقال: إنه كان مختبأ له، رضى الله عنه، من المشركين الطالبين له.

و على مقربة من دار خديجة، رضى الله عنها، المذكورة، و فى الزقاق الذى الدار المكرمة فيه مصطبة، فيها متكأ يقصد الناس إليها و يصلون فيها و يتمسحون بأركانها، لأن فى موضعها كان موضع قعود النبى، صلى الله عليه و سلم.

و من الجبال التى فيها أثر كريم و مشهد عظيم الجبل المعروف بأبى ثور، و هو فى الجهة اليمينية من مكة، على مقدار فرسخ أو أزيد. و فيه الغار الذى أوى إليه النبى، صلى الله عليه و سلم، مع صاحبه الصديق، رضى الله عنه، حسبما ذكر الله تعالى فى كتابه العزيز. و قرأت فى كتاب أخبار مكة لأبى الوليد الأزرقى: إن الجبل نادى النبى، صلى الله عليه و سلم، فقال: إلى يا محمد! إلى يا محمد! فقد آويت قبلك نبيا. و خص الله، عز و جل، نبيه فيه بآيات فمنها أنه، صلى الله عليه و سلم، دخل مع صاحبه على شق فيه

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٨٩

ثلثا شبر و طوله ذراع، فلما اطمأنا فيه، أمر الله العنكبوت فاتخذت عليه بيتا، و الحمام فصنعت عليه عشا و فرخت فيه. فأنتهى المشركون إليه بدليل قصاص للأثر، مستاف أخلاق الطريق، فوقف لهم على الغار و قال: ههنا انقطع الأثر، فإما صعد بصاحبكم من ههنا إلى السماء، أو غيض به فى الأرض. ورأوا العنكبوت ناسجة على فم الغار و الحمام مفرخة فيه، فقالوا: ما دخل هنا أحد. فأخذوا فى الانصراف. فقال الصديق، رضى الله عنه: يا رسول الله! لو و لجوا علينا من فم الغار ما كنا نصنع؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه و سلم، "لو و لجوا علينا منه كنا نخرج من هناك، و أشار بيده المباركة الجانب الآخر من الغار، و لم يكن فيه شق، فأنفتح للحين فيه باب، بقدرة الله عز و جل، و هو سبحانه قدير على ما يشاء.

و أكثر الناس يتتابون هذا الغار المبارك و يتجنبون دخوله من الباب الذى أحدث الله عز و جل فيه، و يرومون دخوله من الشق الذى دخل النبى، صلى الله عليه و سلم، منه تبركا به. فيمتد المحاول لذلك على الأرض و يبسط حده بإزاء الشق و يولج يديه و رأسه أولا ثم يعالج إدخال سائر جسده. فمنهم من يتأتى له ذلك بحسب قضاة بدنه، و منهم من يتوسط بدنه فم الغار فيعضه، فيروم الدخول أو الخروج فلا يقدر، فينش و يلقى مشقة و صعوبة، حتى يتناول بالجذب العنيف من ورائه.

فالعقلاء من الناس يجتنبونه لهذا السبب، و لا سيما يتصل به سبب آخر مخجل فاضح، و ذلك أن عوام الناس يزعمون أن الذى لا يسع عليه و يمتسك فيه و لا- يلجه ليس لرشدة. جرى هذا الخبر على ألسنتهم حتى عاد عندهم قطعا على صحته لا يشكون. فبحسب المنتشب فيه المتعذر و لوجه عليه ما يكسوه هذا الظن الفاضح المخجل، زائدا ما يكابده بدنه من اللز فى ذلك المضيق و إشرافه منه على المنية توجعا و انقطاع نفس و برح ألم. فالبعض من الناس يقولون فى مثل: ليس يصعد جبل أبى ثور إلا ثور.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٩٠

و على مقربة من هذا الغار فى الجبل بعينه عمود منقطع من الجبل، قد قام شبه الذراع المرتفعة بمقدار شبه القامة، و انبسط له فى أعلاه شبه الكف، خارجا عن الذراع، كأنه القبة المبسوطة، بقدرة الله عز و جل، يستظل تحتها نحو العشرين رجلا، و تسمى قبة جبريل،

صلى الله عليه وسلم.

و مما يجب أن يثبت و يؤثر، لبركة معاينته و فضل مشاهدته: أن في يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى، و هو التاسع من شتبر ، أنشأ الله بحريه فنشأمت فانهلعت عينا غديقه، كما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، و ذلك أثر صلاة العصر و مع العشى من اليوم المذكور، فجاءت بمطر جود. و تبادل الناس إلى الحجر فوقفوا تحت الميزاب المبارك متجردين عن ثيابهم، يتلقون الماء الذى يصبه الميزاب برؤوسهم و أيديهم و أفواههم مزدحمين عليه ازدحاما عظيما، أحدث ضوضاء عظيمة، كل يحرص على أن ينال جسمه من رحمة الله نصيبا، و دعاؤهم قد علا، و دموع أهل الخشوع منهم تسيل، فلا تسمع إلا ضجيج دعاء، أو نشيج بكاء. و النساء قد وقفن خارج الحجر ينظرن بعيون دوامع، و قلوب خواشع، يتمنين ذلك الموقف لو ظفرن به. و كان بعض الحجاج المتأجرين المشفقين يبل ثوبه بذلك الماء المبارك و يخرج إليهن و يعصره فى أيدي البعض منهن، فيتلقينه شربا و مسحاً على الوجوه و الأبدان.

و تمادت تلك السحابة المباركة إلى قريب المغرب، و تمادى الناس على تلك الحال من الازدحام على تلقى ماء الميزاب بالأيدي و الوجوه و الأفواه، و ربما رفعوا الأواني ليقع فيها. فكانت عشية عظيمة استشعرت النفوس فيها الفوز بالرحمة ثقة بفضلها و كرمه لما اقترن بها من القرائن المباركة، فمنها: أنها كانت عشية الجمعة و فضل اليوم فضلها، و الدعاء فيها يرجى من الله تعالى قبوله، لما ورد فيها من الأثر الصحيح، و أبواب السماء تفتح عند نزول المطر. و قد وقف الناس تحت الميزاب، و هو من المواضع التى يستجاب فيها الدعاء، و طهرت أبدانهم رحمة الله النازلة من سمائه إلى سطح بيته العتيق الذى هو

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٩١

حيال البيت المعمور، و كفى بهذا المجتمع الكريم و المنتظم الشريف، جعلنا الله ممن طهر فيه من أرجاس الذنوب، و اختص من رحمة الله تعالى بذنوب، و رحمته سبحانه واسعة تسع عباده المذنبين، إنه غفور رحيم.

و ذكروا أن الإمام أبا حامد الغزالي دعا الله عز و جل بدعوات، و هو فى حرمة الكريم، فى رغبات رفعها إلى الله جل و تعالى، فأعطى بعضا و منع بعضا. و كان مما منع نزول المطر وقت مقامه بمكة، و كان تمنى أن يغتسل به تحت الميزاب و يدعو الله عز و جل عند بيته الكريم فى الساعة التى أبواب سمائه فيها مفتوحة فمنع ذلك و أجيب دعاؤه فى سائر ما سأله. فله الحمد و له الشكر على ما أنعم به علينا. و لعل عبدا من عباده الصالحين الوافدين على بيته الكريم خصه الله بهذه الكرامة، فدخلنا، جميع المذنبين، فى شفاعته، و الله ينفعنا بدعاء المخلصين من عباده و لا تجعلنا ممن شقى بدعائه، إنه منعم كبير.

ذكر ما خص الله تعالى به مكة من الخيرات و البركات

هذه البلدة المباركة سبقت لها و لأهلها الدعوة الخليلية الإبراهيمية، و ذلك أن الله عز و جل يقول حاكيا عن خليله، صلى الله عليه و سلم: فَاجْعَلْ أَفْجِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ، و قال عز و جل: أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ . فبرهان ذلك فيها ظاهر متصل إلى يوم القيامة، و ذلك أن أفئدة الناس تهوى إليها من الأصقاع النائية و الأقطار الشاحطة .

فالطريق إليها ملتقى الصادر و الوارد ممن بلغته الدعوة المباركة. و الثمرات تجبى إليها من كل مكان، فهى أكثر البلاد نعما و فواكه و منافع و مرافق و متاجر.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٩٢

و لو لم يكن لها من المتاجر إلا- أوان الموسم، ففيه مجتمع أهل المشرق و المغرب، فيباع فيها فى يوم واحد- فضلا عما يتبعه من الذخائر النفيسة كالجواهر و الياقوت و سائر الأحجار، و من أنواع الطيب كالمسك و الكافور و العنبر و العود، و العقاقير الهندية، إلى غير ذلك من جلب الهند و الحبشة، إلى الأمتعة العراقية و اليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية، و البضائع المغربية، إلى ما لا

ينحصر ولا ينضب - ما لو فرق على البلاد كلها، لأقام لها الأسواق النافقة، ولعم جميعها بالمنفعة التجارية. كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم، حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام من اليمن وسواها، فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة إلا وهي موجودة فيها مدة الموسم. فهذه بركة لا خفاء بها، وآياتها التي خصها الله بها.

و أما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات، فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد، حتى حللنا بهذه البلاد المباركة، فألفيناها تغص بالنعم والفواكه كالتين والعنب والمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطيخ والقثاء والخيار، إلى جميع البقول كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرب إلى سائرها، إلى غير ذلك من الرياحين العبقرة والمشومات العطرة. وأكثر هذه البقول، كالباذنجان والقثاء والبطيخ، لا يكاد ينقطع مع طول العام. وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره. ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة في حاسة الذوق، يفضل بها نوعها الموجود في سائر البلاد. فالعجب من ذلك يطول.

ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل، وكل فواكهها عجب، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها. يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقرة قد سبقت إليك، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه عن أكلك إياه، حتى إذا ذقته خيل إليك أنه شيب بسكر مذاق أو بجنى النحل اللباب. ولعل متصفح هذه الأحرف يظن أن في الوصف بعض غلو، كلا لعمر الله! إنه لأكثر مما وصفته وفوق ما قلت، وبها عسل أطيب من الماذى

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٩٣

المضروب به المثل يعرف عندهم بالمسعودي. وأنواع اللبن بها في نهاية من الطيب، وكل ما يصنع منها من السمن، فإنه لا تكاد تميزه من العسل طيبا ولذاذة.

ويجلب إليها قوم من اليمن يعرفون بالسرور نوعا من الزبيب الأسود والأحمر في نهاية الطيب، ويجلبون معه من اللوز كثيرا. وبها قصب السكر أيضا كثير، يجلب من حيث تجلب البقول التي ذكرناها، والسكر بها كثير مجلوب، وسائر النعم والطيبات من الرزق، والحمد لله.

و أما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى. إنهم يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة. وفي الأشهر الثلاثة:

رجب، وشعبان، ورمضان، يتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة، ولم يشاهد أحد أكمل منظرا منها لا بمصر ولا بسواها، قد صورت منها تصاوير إنسانية و فاكهية، و جليت في منصات كأنها العرائس، ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة، فتلوح كأنها الأزاهر حسنا، فتقيد الأبصار وتستزل الدراهم والدينار.

و أما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب، قد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق و ضرب نواحي الأقطار، أنها أطيب لحم يؤكل في الدنيا. وما ذاك، والله أعلم، إلا لبركة مراعيها، هذا على إفراط سمنه، ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهي ذلك المنتهى في السمن للفظته الأفواه و دكا و لعافته و تجنبته.

و الأمر في هذا بالضد، كلما ازداد سمننا زادت النفوس فيه رغبة و النفس له قبولا، فتجده هنيئا رخصا يذوب في الفم قبل أن يلاكم مضغا، و يسرع لخفته عن المعدة انهضاما. و ما أرى ذلك إلا من الخواص الغريبة، و بركة البلد الأمين قد تكلفت بطيبه لا شك فيه. و الخبر عنه يضيق عن الخبر له، و الله يجعل فيه رزقا لمن تشوق بلدته الحرام، و تمنى هذه المشاهد العظام، و المناسك الكرام، بعزته و قدرته.

و هذه الفواكه تجلب إليها من الطائف، و هي على مسيرة ثلاثة أيام منها، على الرفق

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٩٤

و التؤدة، و من قرى حولها. و أقرب هذه المواضع يعرف بأدم، هو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد قليلا، و هو من بطن الطائف، و يحتوى على قرى كثيرة؛ و من بطن مر، و هو على مسيرة يوم أو أقل؛ و من نخلة، و هى على مثل هذه المسافة؛ و من أودية بقرب من البلد كعين سليمان و سواها، قد جلب الله إليها من المغاربة ذوى البصارة بالفلاحة و الزراعة فأحدثوا فيه بساتين و مزارع، فكانوا أحد الأسباب فى خصب هذه الجهات.

و ذلك بفضل الله، عز و جل، و كريم اعتناؤه بحرمه الكريم، و بلده الأمين.

و من أغرب ما ألفيناه فاستمتعنا بأكله و أجرينا الحديث باستطابته، و لا سيما لكوننا لم نعهده، الرطب. و هو عندهم بمنزلة التين الأخضر فى شجره يجنى و يؤكل، و هو فى نهاية من الطيب و اللذازة، لا- يسأم التفكه به، و إيّانه عندهم عظيم، يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة، أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين و العنب. ثم بعد ذلك، عند تنهى نضجه، يسط على الأرض قدر ما يجف قليلا، ثم يركم بعضه على بعض فى السلال و الظروف و يرفع.

و من صنع الله الجميل و فضله العليم علينا، أنا وصلنا إلى هذه البلدة المكرمة فألفينا كل من بها من الحجاج المجاورين، ممن قدم عهده فيها و طال مقامه بها، يتحدث على جهة العجب بأمنها من الحراة المتلصصين فيها على الحاج، المختلسين ما بأيديهم و الذين كانوا آفة الحرم الشريف، لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين إلا اختلس من يديه أو من وسطه بحيل عجيبة و لطافة غريبة. فما منهم إلا أحد يد القميص، فكفى الله فى هذا العام شرهم إلا القليل، و أظهر أمير البلاد التشديد عليهم فتوقف شرهم.

و بطيب هوائها فى هذا العام، و فتور حمارة قيطانها المعهود فيها، و انكسار حدة سموها. و كنا نبيت فى سطح الموضع الذى كنا نسكنه، فربما يصيبنا من برد هواء الليل ما نحتاج معه إلى دثار يقينا منه. و ذلك أمر مستغرب بمكة.

و كانوا أيضا يتحدثون بكثرة نعمها فى هذا العام، و لين سعرها، و أنها خارقة

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٩٥

للعوائد السالفة عندهم. كان سوم الحنطة أربعة أصواع بدينار مؤمنى، و هى أوبتان من كيل مصر و جهاتها، و الأوبتان قدحان و نصف قدح من الكيل المغربى. و هذا السعر، فى بلد لا ضيعة فيه و لا قوام معيشة لأهله إلا بالميرة المجلوبة إليه، سعر لإخفاء يمينه و بركته على كثرة المجاورين فيها فى هذا العام، و انجلاب الناس إليها و ترادفهم عليها. فحدثنا غير واحد من المجاورين الذين لهم بها سنون طائفة، أنهم لم يروا هذا الجمع بها قط، و لا سمع بمثله فيها. و الله يجعله جمعا مرحوما معصوما بمنه.

و مازال الناس فيها يسلسلون أوصاف أحوالها فى هذه السنة، و تميزها عما سلف من السنين، حتى لقد زعموا أن ماء زمزم المبارك زاد عدوبه، و لم يكن قبل بصادقها.

و هذا الماء المبارك فى أمره عجب، و ذلك أنك تشربه عند خروجه من قرارته، فتجده فى حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع دفيئا، و تلك فيه من الله تعالى آية و عناية، و بركته أشهر من أن تحتاج لوصف و اصف، و هو لما شرب له كما قال، صلى الله و سلم، أروى الله منه كل ظمئى إليه، بعزته و كرمه. و من الأمور المجربة فى هذا الماء المبارك أن الإنسان ربما وجد مس الإعياء و فتور الأعضاء إما من كثرة الطواف أو من عمرة يعتمرها على قدميه أو من غير ذلك من الأسباب المؤدية إلى تعب البدن، فيصب من ذلك الماء على بدنه فيجد الراحة و النشاط لحينه و يذهب عنه ما كان أصابه.

شهر جمادى الآخرة عرفنا الله يمينه و بركته

استهل هلاله ليلة الأربعاء، و هو الحادى و العشرون من شهر شتنبر العجمى، و نحن بالحرم المقدس، زاده الله تعظيما و تشريفا. و فى صبيحة الليلة المذكورة و افى الأمير مكثر بأتباعه و أشياعه، على العادة السالفة المذكورة فى الشهر الأول، و على ذلك الرسم بعينه، و الزمزمى المغرد بثنائه و الدعاء له فوق قبة زمزم، يرفع عقيرته بالدعاء و الثناء عند كل شوط يطوفه الأمير، و القرء أمامه، إلى أن فرغ

من طوافه، وأخذ في طريق انصرافه.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٩٦

ولأهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة، عند مستهل كل شهر من شهور العام يتصافحون ويهنئ بعضهم بعضا ويتغافرون و يدعو بعضهم لبعض، كفعلهم في الأعياد، هكذا دائما. وتلك طريقته من الخير واقعة في النفوس، تجدد الإخلاص وتتمد الرحمة من الله، عز وجل، بمصافحة المؤمنين بعضهم بعضا وبركة ما يتهدونه من الدعاء. والجماعة رحمة، ودعاؤهم من الله بمكان. ولهذه البلدة المباركة حمامان: أحدهما ينسب للفقير الميانشي، أحد الأسيخ المحلقين بالحرم المكرم؛ والثاني، وهو الأكبر، ينسب لجمال الدين. وكان هذا الرجل كصفته جمال الدين. له، رحمة الله، بمكة والمدينة، شرفهما الله، من الآثار الكريمة والصنائع الحميدة والمصانع المبنية في ذات الله المشيدة، ما لم يسبقه أحد إليه فيما سلف من الزمان، ولا أكابر الخلفاء فضلا عن الوزراء. وكان، رحمه الله، وزير صاحب الموصل، تمادى على هذه المقاصد السنوية المشتملة على المنافع العامة للمسلمين في حرم الله تعالى وحرم رسوله، صلى الله عليه وسلم، أكثر من خمس عشرة سنة. ولم يزل فيها باذلا أموالا لا تحصى في بناء رباع بمكة، مسبله في طرق الخير والبر، مؤيدة، محبسة، واختطاط صهاريج للماء، ووضع جباب في الطرق يستقر فيها ماء المطر، إلى تجديد آثار من البناء في الحرمين الكريمين. وكان من أشرف أفعاله أن جلب الماء إلى عرفات، وقاطع عليه العرب بنى شعبه، سكان تلك النواحي المجلوب منها الماء، بوظيفة من المال كبيرة على أن لا يقطعوا الماء عن الحاج.

فلما توفي الرجل، رحمة الله عليه، عادوا إلى عادتهم الذميمة من قطعه.

ومن مفاخره ومناقبه أيضا أنه جعل مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلم، تحت سورين عتيقين أنفق فيهما أموالا لا تحصى كثرة. ومن أعجب ما وفقه الله تعالى إليه أنه جدد أبواب الحرم كلها. وجدد باب الكعبة المقدسة وغشاه فضة مذهبة، وهو الذي فيها الآن حسبما تقدم وصفه. وجل العتبة المباركة بلوح ذهب إبريز، وقد تقدم ذكره أيضا. فأخذ الباب القديم وأمر بأن يصنع له منه تابوت يدفن فيه. فلما حانت وفاته

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٩٧

أوصى بأن يوضع في ذلك التابوت المبارك، ويحجج به ميتا. فسبق إلى عرفات ووقف به على بعد، وكشف عن التابوت، فلما أفاض الناس أبيض به، وقضيت له المناسك كلها، وطيف به طواف الإفاضة. وكان الرجل، رحمه الله، لم يحجج في حياته. ثم حمل إلى مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وله فيها من الآثار الكريمة ما قدمنا ذكره، وكاد أشرفها يحملونه على رؤوسهم. وبنيت له روضة بإزاء روضة المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وفتح فيها موضع يلاحظ الروضة المقدسة. وأبيح له ذلك على شدة الضنائة بمثله، لسابق أفعاله الكريمة. ودفن في تلك الروضة، وأسعد الله بالجوار الكريم، وخصه بالموارة في تربة التقديس والتعظيم، والله لا يضيع أجر المحسنين. وسنذكر تاريخ وفاته، إذا وقفنا عليه من التاريخ الثابت في روضته، إن شاء الله عز وجل، وهو ولي التيسير، لا رب غيره.

ولهذا الرجل، رحمه الله، من الآثار السنوية والمفاخر العلية التي لم يسبقه إليها الأكابر الأجواد وسراة الأمجاد فيما سلف من الزمان ما يفوت الإحصاء ويستغرق الثناء ويستصحب طول الأيام من الألسنة الدعاء، وحسبك أنه اتسع اعتناؤه بإصلاح عامة طرق المسلمين بجهة المشرق من العراق إلى الشام إلى الحجاز، حسبما نذكره؛ واستنبت المياه، وبنى الجباب؛ واختط المنازل في المفاظات، وأمر بعمارتهما مأوى لأبناء السبيل وجميع المسافرين؛ وابتنى بالمدن المتصلة من العراق إلى الشام فنادق عتيها لنزول الفقراء أبناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية الأكرية؛ وأجرى على قومه تلك الفنادق والمنازل ما يقوم بمعيشتهم، وعين لهم ذلك في وجوه تأبدت لهم. فبقيت تلك الرسوم الكريمة ثابتة على حالها إلى الآن. فسارت بجميل ذكر هذا الرجل الرفاق، وملئت ثناء عليه الآفاق.

وكان مدة حياته بالموصل، على ما أخبرنا به غير واحد من ثقات الحجاج التجار ممن شاهد ذلك، قد اتخذ دار كرامه واسعة الفناء

فسيحة الأرجاء يدعو إليها كل يوم الجفلى من الغرباء فيعمهم شبعاً ورياء، و يرد الصادر و الوارد من أبناء السبيل في ظله عيشاً هنيئاً، لم يزل على ذلك مدة حياته، رحمه الله. فبقيت آثاره مخلدة، و أخباره بألسنة

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٩٨

الذكر مجددة، و قضى حميدا سعيدا، و الذكر الجميل للسعداء حياة باقية، و مدة من العمر ثانية. و الله الكفيل بجزاء المحسنين إلى عباده، فهو أكرم الكرماء، و أكفل الكفلاء.

و من الأمور المحظورة في هذا الحرم الشريف، زاده الله تعظيماً و تكريماً، أن النفقة فيه ممنوعة، لا يجد من ذوى اليسار إليها سبيلاً في تجديد بناء أو إقامة حطيم أو غير ذلك مما يختص بالحرم المبارك. و لو كان الأمر مباحاً في ذلك، لجعل الراغبون في نفقات البر من أهل الجدة حيطانه عسجداً و ترابه عنبراً، لكنهم لا يجدون السبيل إلى ذلك.

فمتى ذهب أحد أرباب الدنيا إلى تجديد أثر من آثاره، أو إقامة رسم كريم من رسومه، أخذ إذن الخليفة في ذلك. فإن كان مما ينقش عليه أو يرسم فيه، طرّز باسم الخليفة و نفّذ أمره بعمله، و لم يذكر اسم المتولى لذلك. و لا بد مع ذلك من بذل حظ وافر من النفقة لأمير البلد، ربما يوازي قدر المنفوق فيه. فتضاعف المؤونة على صاحبه، و حينئذ يصل إلى غرضه من ذلك.

و من أغرب ما اتفق لأحد دهاء الأعاجم، ذوى الملك و الثراء، أنه وصل إلى الحرم الكريم، مدة جدّ هذا الأمير أكثر، فرأى تنور بئر زمزم و قبتها على صفة لم يرضها.

فاجتمع بالأمير، و قال: أريد أن أتأق في بناء تنور زمزم و طيه و تجديد قبتها، و أبلغ في ذلك الغاية الممكنة، و أنفق من صميم مالى، و لك على في ذلك شرط أبلغ بالتزامه لك الغرض المقصود، و هو أن تجعل ثقة من قبلك يقيد مبلغ النفقة في ذلك، فإذا استوفى البناء التمام، و انتهت النفقة منتهاها، و تحصلت محصاة، بذلت لك مثلها جزاء على إباحتك لى ذلك.

فاهتر الأمير طمعا، و علم أن النفقة في ذلك تنتهى إلى آلاف من الدنانير، على الصفة التى وصفها له، فأباح له ذلك، و ألزمه مقيدا يحصى قليل الإنفاق و كثيره.

و شرع الرجل فى بنائه و احتفل و استفرغ الوسع و تأق و بذل المجهود، فعل من يقصد بفعله ذات الله عز و جل و يقرضه قرضاً حسناً. و المقيد يسود طواميره بالتقييد، و الأمير يتطلع إلى ما لديه، و يؤمل لقبض تلك النفقات الواسعة بسط يديه، إلى أن فرغ البناء على الصفة التى تقدم ذكرها أولاً عند ذكر بئر زمزم و قبتها، فلما لم يبق إلا أن يصبح

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٩٩

صاحب النفقة بالحساب و يستقضى منه العدد المجتمع فيها، خلا منه المكان، و أصبح فى خبر كان، و ركب الليل جملاً. و أصبح الأمير يقلب كفيه، و يضرب صدره، و لم يمكنه أن يحدث فى بناء وضع فى حرم الله تعالى حادثاً يحيله، أو نقضا يزيله. و فاز الرجل بثوابه، و تكفل الله به فى انقلابه و تحسين مآبه: **وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** و بقى خبر هذا الرجل مع الأمير يتهادى غراباً و عجباً، و يدعو له كل شارب من ذلك الماء المبارك.

شهر رجب الفرد عرفنا الله بركنه

إشارة

استهل هلاله ليلة الخميس الموفى عشرين لشهر أكتوبر، بشهادة خلق كثير من الحجاج المجاورين و الأشراف أهل مكة، ذكروا أنهم رأوه بطريق العمرة و من جبل قيعقان و جبل أبى قبيس، فثبتت شهادتهم بذلك عند الأمير و القاضى، و أما من المسجد الحرام فلم يبصره أحد.

و هذا الشهر المبارك عند أهل مكة موسم من المواسم المعظمة، و هو أكبر أعيادهم.

و لم يزلوا على ذلك قديما و حديثا، يتوارثه خلف عن سلف متصلا ميراث ذلك إلى الجاهلية، لأنهم كانوا يسمونه منصل السنة. و هو أحد الأشهر الحرم، و كانوا يحرمون القتال فيه، و هو شهر الله الأصم، كما جاء في الحديث عن رسول الله، صلى الله عليه و سلم. و العمرة الرجبية عندهم أخت الوقفة العرفية، لأنهم يحتفلون لها الاحتفال الذي لم يسمع بمثله، و يبادر إليها أهل الجهات المتصلة بها، فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم إلا الله عز و جل. فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهدى ذكره غرابه و عجا،

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٠٠

شاهدنا من ذلك أمرا يعجز الوصف عنه، و المقصود منه الليلة التي يستهل فيها الهلال مع صبيحتها. و يقع الاستعداد لها من قبل ذلك بأيام، فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار. و ذلك لأننا عاينا شوارع مكة و أزقتها، من عصر يوم الأربعاء، و هي العشية التي ارتقب فيها الهلال، قد امتلأت هودج مشدودة على الإبل مكسوة بأنواع كسا الحرير و غيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها و وفرهم. كل يتأتق و يحتفل بقدر استطاعته. فأخذوا في الخروج إلى التنعيم ميقات المعتمرين، فسالت تلك الهودج في أباطح مكة و شعابها، و الإبل قد زينت تحتها بأنواع التزيين، و أشعرت بغير هدى بقلائد رائحة المنظر من الحرير و غيره، و ربما فاضت الأستار التي على الهودج حتى تسحب أذيالها على الأرض.

و من أغرب ما شاهدناه من ذلك هودج الشريفه جمانه بنت فليته، عمه الأمير مكثر، فإن أذيال ستره كانت تنسحب على الأرض انسحابا؛ و غيره من هودج حرم الأمير و حرم قواده، إلى غير ذلك من هودج، لم نستطع تقييد عدتها عجزا عن الإحصاء. فكانت تلوح على ظهور الإبل كالقباب المضروبة، فيخيل للنائر إليها أنها محلة قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق.

و لم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة إلا من خرج للعمرة من أهلها و من المجاورين.

و كنا في جملة من خرج، ابتغاء بركة الليلة العظيمة، فكندا لا نتخلص إلى مسجد عائشه من الزحام و انسداد ثنيات الطريق بالهودج، و النيران قد أشعلت بحافتي الطريق كله، و الشمع يتقد بين أيدي الإبل التي عليها هودج من يشار إليه من عقائل نساء مكة.

فلما قضينا العمرة و طفنا، و جئنا للسعي بين الصفا و المروة، و قد مضى هده من الليل، أبصرناه كله سرجا و نيرانا، و قد غص بالساعين و الساعيات على هودجهم، فكنا لا نتخلص إلا- بين هودجهم و بين قوائم الإبل، لكثرة الزحام و اصطكاك الهودج بعضها على بعض. فعائنا ليلة هي أغرب ليالي الدنيا، فمن لم يعين ذلك لم يعين عجا يحدث به و لا عجا يذكره مرأى الحشر يوم القيامة لكثرة الخلائق فيه، محرمين، ملبين، داعين إلى الله عزّ و جل ضارعين، و الجبال المكرمة التي بحافتي الطريق تجيبهم بصداها حتى سكتت المسامع، و سكبت من هول تلك المعاينة المدامع، و أذابت القلوب الخواشع.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٠١

و في تلك الليلة ملئ المسجد الحرام كله سرجا فتلا نورا. و عند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير، أمر بضرب الطبول و الدبادب و البوقات، إشعارا بأنها ليلة الموسم. فلما كانت صبيحة ليلة الخميس، خرج إلى العمرة في احتفال لم يسمع بمثله، انحشد له أهل مكة على بكرة أبيهم، فخرجوا على مراتبهم قبيلة قبيلة و حارة حارة، شاكين في الأسلحة فرسانا و رجالة، فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة، يتعجب المعانين لهم لوفور عددهم، فلو أنهم من بلاد جمه لكانوا عجا، فكيف و هم من بلد واحد؟ و هذا أدل الدلائل على بركة البلد. فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب، فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم يلعبون بالأسلحة عليها، و الرجالة يتواثبون و يتشاقفون بالأسلحة في أيديهم حرابا و سيوفا و حجفا و هم يظهرون التطاعن بعضهم لبعض و التضارب بالسيوف و المدافعة بالحجف التي يستجنون بها. و أظهروا من الحدق بالثقاف كل أمر مستغرب. و كانوا يرمون بالحراب إلى الهواء، و يبادرون إليها لققا بأيديهم، و هي قد تصوبت أستنها على رؤوسهم، و هم في زحام لا يمكن فيه المجال. و ربما رمى بعضهم بالسيوف في الهواء، فيستلقونها قبضا على قوائمها، كأنها لم تفارق أيديهم. إلى أن خرج الأمير يزحف بين قواده، و أبناؤه أمامه، و قد قاربوا من الشباب. و الرايات تخفق أمامه،

و الطبول و الدبادب بين يديه، و السكينة تفيض عليه. و قد امتلأت الجبال و الطرق و الثنيات بالنظارة من جميع المجاورين. فلما انتهى الميقات و قضى غرضه أخذ في الرجوع، و قد ترتب العسكران بين يديه على لعبهم و مرحهم، و الرجال على الصفة المذكورة من التجاؤل. و قد ركب جملة من أعراب البوادي نجبا صهبا لم ير أجمل منظرا منها، و ركابها يسابقون الخيل بها، بين يدي الأمير، رافعين أصواتهم بالدعاء له و الثناء عليه، إلى أن وصل المسجد الحرام،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٠٢

فظاف بالكعبة، و القراء أمامه، و المؤذن الزمى يغرد في سطح قبة زمزم، رافعا عقيرته بتهنئته بالموسم و الثناء عليه و الدعاء له على العادة. فلما فرغ من الطواف، صلى عند الملتزم، ثم جاء إلى المقام و صلى خلفه، و قد أخرج له من الكعبة و وضع في قبه الخشبية التي يصلى خلفها. فلما فرغ من صلاته رفعت له القبة عن المقام، فاستلمه و تمسح به، ثم أعيدت القبة عليه، و أخذ في الخروج على باب الصفا إلى المسعى. و انجفل بين يديه، فسعى راكبا و القواد مطيفون به، و الرجال الحزابة أمامه، فلما فرغ من السعى استلت السيوف أمامه، و أحدثت الأشباع به، و توجه إلى منزله على هذه الحالة الهائلة مزحوظا به، و بقي المسعى يومه ذلك يموج بالساعين و الساعات.

فلما كان اليوم الثاني، و هو يوم الجمعة، كان طريق العمرة في العمارة قريبا من أمسه، راكبين و ماشين، رجالا و نساء و الماشيات المتأجرات كثير يسابقن الرجال في تلك السبيل المباركة، تقبل الله من جميعهم بمنه. و في أثناء ذلك يلقى الرجال بعضهم بعضا فيتصافحون و يتهدون الدعاء و التواضع بينهم، و النساء كذلك. و الكل منهم قد لبس أفرخ ثيابه، و احتفل احتفال أهل البلاد للأعياد. و أما أهل البلد الأمين فهذا الموسم عيدهم، له يعابون و له يحتفلون، و في المباهاة فيه يتنافسون و له يعظمون، و فيه تنفق أسواقهم و صنائعهم، يقدمون النظر في ذلك و الاستعداد له بأشهر.

سراة اليمن و التزود بالمؤن

و من لطيف صنع الله، عز و جل، لهم فيه اعتناء كريم منه سبحانه بحرمة الأمين، أن قبائل من اليمن تعرف بالسرو، و هم أهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسراة، كأنها مضافة لسراة الرجال، على ما أخبرني به فقيه من أهل اليمن يعرف بابن أبي الصيف، فاشتق الناس لهم هذا الاسم المذكور من اسم بلادهم. و هم قبائل شتى كجيلة و سواها، يستعدون للوصول إلى هذه البلدة المباركة، قبل حلولها بعشرة أيام، فيجتمعون بين النية في العمرة و ميرة البلد بضروب من الأطعمة كالحنطة و سائر الحبوب إلى اللوبياء، إلى مادونها. و يجلبون السمن و العسل و الزبيب و اللوز. فتجمع ميرتهم بين الطعام و الإدام و الفاكهة. و يصلون في آلاف من العدد، رجالا و جمالا

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٠٣

موقرة بجميع ما ذكر. فيرغدون معاش أهل البلد و المجاورين فيه يتقوتون و يدخرون، و ترخص الأسعار، و تعم المرافق. فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم إلى ميرة أخرى. و لو لا هذه الميرة، لكان أهل مكة في شظف من العيش. و من العجب في أمر هؤلاء المائرين أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار و لا بدرهم، إنما يبيعونه بالخرق و العباءات و الشمل. فأهل مكة يعدون لهم من ذلك مع الأقمعة و الملاحف المتان و ما أشبه ذلك، مما يلبسه الأعراب و يبايعونهم به و يشارونهم. و يذكر أنهم متى أقاموا عن هذه الميرة ببلادهم تجذب، و يقع الموتان في مواشيهم و أنعامهم، و بوصولهم بها تخصب بلادهم و تقع البركة في أموالهم. فمتى قرب الوقت و وقعت منهم بعض غفلة في التأهب للخروج، اجتمع نساؤهم فأخرجتهم. و كل هذا لطف من الله تعالى لحرمة البلد الأمين.

و بلادهم على ما ذكر لنا خصيبة متسعة، كثيرة التين و العنب، واسعة المحرث، و افره الغلات. و قد اعتقدوا اعتقادا صحيحا أن البركة كلها في هذه الميرة التي يجلبونها، فهم من ذلك في تجارة رابحة مع الله عز و جل.

و القوم عرب صرحاء فصحاء، جفاة أصحاب، لم تغذهم الرقة الحضرية، و لا هذبتهم السير المدينة، و لا سددت مقاصدهم السنن الشرعية، فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية: فهم إذا طافوا بالكعبة المقدسة، يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم المشفقة، لائذين بجوارها متعلقين بأستارها، فحيثما علقت أيديهم منها تمزق، لشدة اجتذابهم لها و انكبابهم عليها. و فى أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدع لها القلوب، و تنفجر لها الأعين و الجوامد فتصوب. فترى الناس حولهم باسطى أيديهم، مؤمنين على أدعيتهم، متلفنين لها من ألسنتهم، على أنهم طول مقامهم لا يتمكن معهم طواف، و لا يوجد سبيل إلى استلام الحجر. و إذا فتح الباب الكريم فهم الداخولون بسلام، فتراهم فى محاولة دخولهم يتسللون كأنهم بعض ببعض مرتبطون، يتصل منهم على هذه الصفة الثلاثون و الأربعون إلى أزيد من ذلك. و السلاسل منهم يتبع بعضهم بعضا، و ربما انفصمت بواحد منهم، يميل عن المطلع المبارك إلى البيت الكريم، فيقع الكل لوقوعه، فيشاهد الناظر لذلك مرأى يؤدي إلى الضحك.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٠٤

و أما صلاتهم فلم يذكر فى مضحكات الأعراب أظرف منها، و ذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم فيسجدون دون ركوع و ينقرون بالسجود نقرا، و منهم من يسجد السجدة الواحدة و منهم من يسجد الاثنتين و الثلاث و الأربع ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلا و أيديهم مبسوطة عليها، و يلتفتون يمينا و شمالا الثفات المروع، ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم و لا جلوس للتشهد. و ربما تكلموا فى أثناء ذلك، و ربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه و صاح به و وصاه بما شاء، ثم عاد إلى سجوده، إلى غير ذلك من أحوالهم الغريبة.

و لا- ملبس لهم سوى أزر و سخة أو جلود يستترون بها. و هم مع ذلك أهل بأس و نجدة، لهم القسى العربية الكبار كأنها قسى القطانين لا تفارقهم فى أسفارهم، فمتى رحلوا إلى الزيارة هاب أعراب الطريق الممسكون للحاج مقدمهم، و تجنبوا اعتراضهم، و خلوا لهم عن الطريق. و يصحبهم الحجاج الزائرون فيحمدون صحبتهم. و على ما وصفنا من أحوالهم، فهم أهل اعتقاد للإيمان صحيح. و ذكر أن النبى، صلى الله عليه و سلم، ذكرهم و أثنى عليهم خيرا، و قال: "علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء". و كفى بأن دخلوا فى عموم قوله، صلى الله عليه و سلم: "الإيمان يمان" إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة فى اليمن و أهله. و ذكر أن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، كان يحترم وقت طوافهم و يتحرى الدخول فى جملتهم تبركا بأدعيتهم، فشأنهم عجيب كله.

و شاهدنا منهم صبيا فى الحجر قد جلس إلى أحد الحجاج يعلمه فاتحة الكتاب و سورة الإخلاص، فكان يقول له: قل هو الله أحد فيقول الصبى: هو الله أحد فيعيد عليه المعلم، فيقول له: ألم تأمرنى بأن أقول: هو الله أحد؟ قد قلت. فكابد فى تلقينه مشقة، و بعد لآى ما علقت بلسانه. و كان يقول له: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، فيقول الصبى: بسم الله الرحمن الرحيم، و الحمد لله. فيعيد عليه المعلم، و يقول له: لا- تقل: و الحمد لله إنما قل: الحمد لله فيقول الصبى: إذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم، أقول: و الحمد لله، للاتصال، و إذا لم أقل بسم الله، و بدأت قلت:

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٠٥

الحمد لله. فعجبنا من أمره، و من معرفته طبعاً بصله الكلام و فصله، دون تعلم. و أما فصاحتهم فبديعة جدا، و دعاؤهم كثير التشجيع للنفوس، و الله يصلح أحوالهم و أحوال جميع عباده بمنه.

العمرة

و العمرة فى هذا الشهر كله متصله ليلا و نهارا، رجالا و نساء، لكن المجتمع كله إنما كان فى الليلة الأولى، و هى ليلة الموسم عندهم. و البيت الكريم يفتح كل يوم من هذا الشهر المبارك. فإذا كان يوم التاسع و العشرون منه أفرد للنساء خاصة، فيظهر للنساء بمكة فى ذلك اليوم احتفال عظيم، فهو عندهم يوم زينتهم المشهور المستعد له.

و في يوم الخميس الخامس عشر من الشهر المذكور شاهدنا من الاحتفال للعمرة قريبا من المشهد الأول المذكور في أوله، فكان لا يبقى أحد من الرجال و النساء إلا خرج لها. و بالجملة فالشهر المبارك كله معمور بأنواع العبادات من العمرة و سواها، و يختص أوله و نصفه من ذلك بخط متميز، و كذلك السابع و العشرون منه.

و في عشي يوم الخميس المذكور كنا جلوسا بالحجر المكرم، فما راعنا إلا الأمير مكثر طالعا محرما، قد وصل من ميقات العمرة تبركا بذلك اليوم و جريا فيه على الرسم و أبنائه و راءه محرمين و قد حف به بعض خاصته. و بادر المؤذن الزمزمي للحين إلى سطح قبة زمزم، داعيا على عاداته، و متناوبا في ذلك مع أخيه صغيره. و حانت صلاة العشاء، مع فراغ الأمير من طوافه، فصلى خلف الإمام الشافعي، و خرج إلى المسعى المبارك.

و في يوم الجمعة السادس عشر منه خرجت قافلة كبيرة من الحاج في نحو أربعمائه جمل مع الشريف الداودي إلى زيارة الرسول صلى الله عليه و سلم. و في جمادى الثانية قبله كانت أيضا زيارة أخرى لبعض الحجاج في قافلة أصغر من هذه المذكورة. و بقيت الزيارة الشواليية و التي مع الحاج العراقي إثر الوقفة، إن شاء الله عز و جل. و في التاسع عشر من شعبان كان انصراف هذه القافلة الكبيرة في كنف السلامة، و الحمد لله.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٠٦

أكمة ابن الزبير

و في ليلة الثلاثاء السابع و العشرين منه، أعنى من رجب، ظهر لأهل مكة أيضا احتفال عظيم في الخروج إلى العمرة لم يقصر عن الاحتفال الأول، فانجفل الجميع إليها، تلك الليلة، رجالا و نساء على الصفات و الهيئات المتقدمة الذكر تبركا بفضل هذه الليلة لأنها من الليالي الشهيرة الفضل. فكانت مع صبيحتها عجبا في الاحتفال و حسن المنظر، جعل الله ذلك كله خالصا لوجهه الكريم. و هذه العمرة يسمونها عمرة الأكمة، لأنهم يحرمون فيها من أكمة إمام مسجد عائشة، رضى الله عنها، بمقدار غلوة، و هي على مقربة من المسجد المنسوب لعلي، عليه السلام.

و الأصل في هذه العمرة الأكمية عندهم أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما، لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشيا حافيا معتمرا و أهل مكة معه فانتهى إلى تلك الأكمة فأحرم منها، و كان ذلك في اليوم السابع و العشرين من رجب و جعل طريقه على ثنية الحجون المفضية إلى المعلى التي كان دخول المسلمين يوم فتح مكة منها، و حسبما تقدم ذكره. فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة في ذلك اليوم بعينه و على تلك الأكمة بعينها.

و كان يوم عبد الله، رضى الله عنه، مذكورا مشهورا، لأنه أهدى فيه كذا و كذا بدنة، عددا لم تتحصل صحته، فكنت أثبته، لكنه بالجملة كثير. و لم يبق من أشرف مكة و ذوى الاستطاعة فيها إلا من أهدى، و أقام أهلها أياما يطعمون و يطمعون و يتنعمون شكرا لله، عز و جل، على ما وهبهم من المعونة و التيسير في بناء بيته الحرام على الصفة التي كان عليها مدة الخليل إبراهيم، صلى الله عليه و سلم، فنقضها الحجاج، لعنه الله، و أعادها على ما كانت عليه مدة قريش. لأنهم كانوا اقتصروا في بنائه عن قواعد إبراهيم، صلى الله عليه و سلم، و أبقى نبينا محمد صلى الله عليه و سلم، ذلك على حاله، لحدثان عهدهم بالكفر، حسبما ثبت في رواية عائشة، رضى الله عنها، في موطأ مالك بن أنس، رضى الله عنه.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٠٧

طواف النساء و غسل البيت

و في اليوم التاسع و العشرين منه، و هو يوم الخميس، أفرد البيت للنساء خاصة، فاجتمعن من كل أوب. و قد تقدم احتفالهن لذلك

بأيام كاحتفالهن للمشاهد الكريمة، و لم تبق امرأة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم. فلما وصل الشيبون لفتح البيت الكريم، على العادة، وأسرعوا في الخروج منه وأسرعوا للنساء عنه. وأفرج الناس لهن عن الطواف وعن الحجر، و لم يبق حول البيت المبارك أحد من الرجال، تبادر النساء إلى الصعود، حتى كاد الشيبون لا يخلصون بينهن عند هبوطهم من البيت الكريم. و تسلسل النساء بعضهن ببعض، و تشابكن حتى تواقعن، فمن صائحة و معولة و مكبرة و مهللة. و ظهر من تراحمهن ما ظهر من السراة اليمينين مدة مقامهم بمكة، و صعودهم يوم فتح بيت المقدس، و أشبهت الحال الحال، و تمادين على ذلك صدرا من النهار، و انفسحن في الطواف و الحجر، و تشفين من تقبيل الحجر و استلام الأركان. و كان ذلك اليوم عندهن الأكبر، و يومهن الأزهر الأشهر، نفعهن الله به و جعله خالصا لكريم وجهه. و بالجملة فهن مع الرجال مسكينات مغونات، يرين البيت الكريم، و لا يلجنه و يلحظن الحجر المبارك و لا يستلمنه. فحظهن، من ذلك كله، النظر و الأسف المستطير المستشعر. فليس لهن سوى الطواف على البعد، و هذا اليوم الذى هو من عام إلى عام، فهن يرتقبنه ارتقاب أشرف الأعياد، و يكثرن له من التأهب و الاستعداد، و الله ينفعهن فى ذلك، بحسن النيء و الاعتقاد، بمنه و كرمه.

و فى اليوم الثانى منه بكر الشيبون غسله بماء زمزم المبارك، بسبب أن كثيرا من النساء أدخلن أبناءهن الصغار و الرضع معهن، فيتحرى غسله تكريما و تنزيها و إزالة لما يحيك فى النفوس من هواجس الظنون فيمن ليست له ملكة عقلية تمنعه من أن تصدر عنه حادثه نجس فى ذلك الموطن الكريم و المحل المخصوص بالتقديس، و التعظيم، فعند انسياب الماء عنه كان كثير من الرجال و النساء يبادرون إليه تبركا بغسل أوجههم و أيديهم فيه، و ربما جمعوا منه فى أوان قد أعدوها لذلك و لم يراعوا العلة التى غسل لها. و كان منهم من توقف

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٠٨

عن ذلك، و ربما لحظ الحال لحظة من لا يستجيزها و لا يصوب العقل فى ذلك. و ما ظنك بماء زمزم المبارك قد صب داخل بيت الله الحرام و ماج فى جنبات أركانه الكرام ثم انصب بإزاء الملتزم و الركن الأسود المستلم، أليس جديرا بأن تتلقاه الأفواه فضلا عن الأيدي، و تغمس فيه الوجوه فضلا عن الأقدام؟ و حاشا لله أن تعرض فى ذلك علة تمنع منه و شبهة من شبهات الظنون تدفع عنه، و النيات عند الله تعالى مقبولة، و المثابرة على تعظيم حرمانه برضاه موصولة، و هو المجازى على الضمائر و خفيات السرائر، لا إله سواه.

شهر شعبان المكرم عرفنا الله بركته

إشارة

استهل هلال شعبان المكرم ليلة السبت التاسع عشر لشهر نونبر. و فى صبيحته بكر الأمير مكثر إلى الطواف على العادة فى ذلك رأس كل شهر مع أخيه و بنيه و من جرى الرسم باستصحابه من القواد و الأشياع و الأتباع، و على الأسلوب المتقدم الذكر، و الزمزمى يصرخ فى مرقبته على عادته متناوبا مع أخيه صغيره. و فى سحر يوم الخميس الثالث عشر منه، و هو أول يوم من دجنبر، بعد طلوع الفجر، كسف القمر، و بدأ الكسوف و الناس فى صلاة الصبح فى الحرم الشريف، و غاب مكسوبا، و انتهى الكسوف ثلثه، و الله يعرفنا حقيقة الاعتبار بآياته.

و فى يوم الجمعة الثانى من ذلك اليوم أصبح بالحرم أمر عجيب و ذلك أنه لم يبق بمكة صبي إلا و صبحه و اجتمعوا كلهم فى قبة زمزم، و ينادون بلسان واحد: هلولوا و كبروا يا عباد الله، فيهلل الناس و يكبرون. و ربما دخل معهم من عرض العامة من ينادى معهم بندائهم. و الناس و النساء يزدحمون على قبة البئر المباركة لأنهم يزعمون،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٠٩

بل يقطعون قطعاً جهلياً لا قطعاً عقلياً، أن ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان.

و كانوا على ظن من هلال الشهر، لأنه قيل: أنه رثى ليلة الجمعة في جهة اليمن.

فبكر الناس القبّة، و كان فيها من الازدحام ما لم يعهد مثله، و مقصد الناس في ذلك التبرك بذلك الماء المبارك الذي قد ظهر فيضه، و السقاة فوق التنور يستقون و يفيضون على رؤوس الناس الماء بالدلاء قذفاً، فمنهم من يصيبه في وجهه و منهم من يصيبه في رأسه إلى غير ذلك. و ربما تمادى لشدة نفوذه من أيديهم، و الناس مع ذلك يستزيدون و يبكون، و النساء من جهة أخرى يساجلنهم بالبكاء و يطارحنهم بالدعاء، و الصبيان يضجون بالتهليل و التكبير، فكان مرأى هائلاً مسموعاً رائعاً، لم يتخلص للطائفين بسببه طواف و لا للمصلين صلاة لعلو تلك الأصوات و اشتغال الأسماع و الأذهان بها. و دخل إلى القبّة المذكورة أحدنا ذلك اليوم فكابد من لز الزحام عنتاً و مشقة، فسمع الناس يقولون: زاد الماء سبع أذرع. فجعل يقصد إلى من يتوسم فيه بعض عقل و نظر، من ذوى السبال البيض فيسأله عن ذلك، فيقول و أدمعه تسيل: نعم زاد الماء سبع أذرع، لا شك في ذلك، فيقول: أعن خبره و حقيقة؟ فيقول: نعم. و من العجيب أن كان منهم من قال: إنه بكر سحر يوم الجمعة المذكور فألقى الماء قد قارب التنور بنحو القامة. فيا عجباً لهذا الاختراع الكاذب، نعوذ بالله من الفتنة!

و كان من الاتفاق أن اعتنينا بهذا الأمر لغلبة الاستفاضة التي سمعناها في ذلك و استمرارها مع سوائف الأزمنة عند عوام أهل مكة. فتوجه منا ليلة الجمعة من أدلى دلوه في البئر المباركة إلى أن ضرب في صفح الماء و انتهى الجبل إلى حافة التنور و عقد فيه عقداً يصح عندنا القياس به في ذلك. فلما كان في صبيحتها و تنادى الناس بالزيادة، الزيادة الظاهرة، خلص أحدنا في ذلك الزحام على صعوبة، و معه من استصحب الدلو و أدلاه فوجد القياس على حاله لم ينقص و لم يزد، بل كان من العجب أن عاد للقياس ليلة السبت، فألفاه قد نقص يسيراً لكثرة ما امتاح الناس منه ذلك اليوم. فلو امتيح من البحر لظهر النقص فيه، فسبحان من خص به من البركة و وضع فيه من المنفعة.

و في صبيحة يوم السبت الخامس عشر منه، تتبعنا هذا القياس استبراء لصحة الحال فوجدناه على ما كان عليه. و لو أن لافظاً يلفظ ذلك اليوم بأنه لم يزد، لصب في البئر

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١١٠

صبا أو لداسته الأقدام حتى تذيبه، نعوذ بالله من غلبات العوام، و اعتدائها و ركوبها جوامح أهوائها.

ليلة النصف من شعبان

و هذه الليلة المباركة، أعنى ليلة النصف من شعبان، عند أهل مكة معظمه للأثر الكريم الوارد فيها، يبادرون فيها إلى أعمال البر من العمرة و الطواف و الصلاة أفراداً و جماعةً، فينقسمون في ذلك أقساماً مباركةً، فشاهدنا ليلة السبت، التي هي ليلة النصف حقيقةً، احتفالاً عظيماً في الحرم المقدس إثر صلاة العتمة، جعل الناس يصلون فيها جماعات جماعات، تراويح يقرأون فيها فاتحة الكتاب و قل هو الله أحد، عشر مرات في كل ركعة، إلى أن يكملوا خمسين تسليمه بمئة ركعة، قد قدمت كل جماعةً إماماً، و بسطت الحصر و أوقدت الشمع و أشعلت المشاعل و أسرجت المصابيح، و مصباح السماء الأزهر الأقرم قد أفاض نوره على الأرض و بسط شعاعه. فتلاقت الأنوار في ذلك الحرم الشريف الذي هو نور بذاته، فيا لك مرأى لا يتخيله المتخيل و لا يتوهمه المتوهم! فأقام الناس تلك الليلة على أقسام: فطائفة التزمت تلك التراويح مع الجماعة و كانت سبع جماعات أو ثمانياً، و طائفة التزمت الحجر المبارك للصلاة على انفراد، و طائفة خرجت للاعتمار و طائفة آثرت الطواف على هذا كله، أغلبها المالكية، فكانت من الليالي الشهيرة المأمولة أن تكون من غرر القربات و محاسنها، نفع الله به و لا أخلى من بركتها و فضلها، و أوصل هذه المثابة المقدسة كل شيق إليها بمنه.

و في تلك الليلة المباركة شاهد أحمد بن حسان منا أمراً عجيباً، هو من غرائب الأحاديث المأثورات في رقة النفوس. و ذلك أنه

أصابه النوم عند الثلث الباقي من الليل، فأوى إلى المصطبة التي تحف بها قبّة زمزم مما يقابل الحجر الأسود و باب البيت، فاستلقى فيها لينام فإذا بانسان من العجم قد جلس على المصطبة بإزائه مما يلي رأسه.

فجعل يقرأ بتشويق و ترقيق، و يتبع ذلك بزفير و شهيق، أحسن قراءة و أوقعها في النفوس و أشدها تحريكا للساكن، فامتنع المذكور من المنام استمتاعا بحسن ذلك المسموع و ما فيه من التشويق و التخشيع، إلى أن قطع القراءة و جعل يقول:

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١١١

إن كان سوء الفعال أبعدنني فحسن ظني إليك قزبني

و يردد ذلك بلحن يتصدع له الجماد و ينشق عليه الفؤاد. و مضى في ترديد ذلك البيت و دموعه تكف و صوته يرق و يضعف إلى أن وقع في نفس أحمد بن حسان المذكور أنه سيغشى عليه؛ فما كان بين اعتراض هذا الخاطر بنفسه و بين وقوع الرجل مغشيا عليه من المصطبة إلى الأرض إلا كلا و لا، و بقي ملقى كأنه لقي لا حراك به. فقام ابن حسان مذعورا لهول ما عينه، مترددا في حياة الرجل أو موته لشدة تلك الوجبة، و الموضع من الأرض بائن الارتفاع، و قام أحد من كان بإزائه نائما، و أقاما متحيرين و لم يقدموا على تحريك الرجل و لا على الدنو منه، إلى أن أجازت امرأة أعجمية، و قالت: هكذا تتركون هذا الرجل على مثل هذا الحال؟ و بادرت إلى شيء من ماء فنضحت به وجهه. و دنا المذكوران منه و أقاماه، فعند ما أبصرهما زوى وجهه للحين عنهما، مخافة أن تثبت له صفة في أعينهما، و قام من فوره آخذا إلى جهة باب بنى شيبه. و بقيا متعجبين مما شاهدها، و عض ابن حسان بنان الأسف على ما فاته من بركة دعائه، إذ لم يمكنه الحال استدعاءه منه، و على أنه لم تثبت له صورة في نفسه، فكان يتبرك به متى لقيه.

و مقامات هؤلاء الأعاجم، في رقة الأنفس و تأثيرها و سرعة انفعالها و شدة مجاهداتها في العبادات و طول مثابرتها على أفعال البر و ظهور بركاتهما، مقامات عجيبة شريفة، و الفضل بيد الله يؤتية من يشاء. و في سحر يوم الخميس الثالث عشر من الشهر المذكور كسف القمر و انتهى الكسوف منه إلى مقدار ثلثيه، و غاب مكسوبا عند طلوع الشمس، و الله يلهمنا الاعتبار بآياته.

شهر رمضان المعظم عرفنا الله بركته

إشارة

استهل هلاله ليلة الاثنين التاسع عشر لدجنبر، عرفنا الله فضله و حقه و رزقنا القبول فيه. و كان صيام أهل مكة له يوم الأحد بدعوى في رؤية الهلال لم تصح، لكن

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١١٢

أمضى الأمير ذلك و وقع الإيذان بالصوم بضرب دبابه ليلة الأحد المذكور لموافقته مذهبه و مذهب شيعته العلويين و من إليهم، لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضا، حسبما يذكر، و الله أعلم بذلك.

و وقع الاحتفال في المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك، و حق ذلك من تجديد الحصر و تكثير الشمع و المشاعيل و غير ذلك من الآلات حتى تلالأ الحرم نورا و سطع ضياء، و تفرقت الأئمة لإقامة التراويح فرقا؛ فالشافعية فوق كل فرقة منها قد نصبت إماما لها في ناحية من نواحي المسجد؛ و الحنبلية كذلك؛ و الحنفية كذلك، و الزيدية، و أما المالكية فاجتمعت على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة، و هي في هذا العالم أحفل جمعا و أكثر شمعا، لأن قوما من التجار المالكيين تنافسوا في ذلك فجلبوا للإمام الكعبة شمعا كثيرا من أكبره شمعتان نصبتا أمام المحراب فيها قنطار و قد حفت بهما شمع دونهما صغار و كبار. فجاءت جهة المالكية تروق حسنا و ترمى الأبصار نورا، و كاد لا يبقى في المسجد زاوية و لا ناحية إلا و فيها قارئ يصلى بجماعة خلفه، فيرتج المسجد لأصوات القراءة من كل ناحية، فتعاين الأبصار، و تشاهد الأسماع من ذلك مرأى و مستمعا تنخلع له النفوس خشية و رقة.

و من الغرباء من اقتصر على الطواف و الصلاة في الحجر و لم يحضر التراويح، و رأى أن ذلك أفضل ما يغتنم، و أشرف عمل يلتزم، و ما بكل مكان يوجد الركن الكريم و الملتزم.

و الشافعي في التراويح أكثر الأئمة اجتهادا، و ذلك أنه يكمل التراويح المعتادة التي هي عشر تسليمات و يدخل الطواف مع جماعة. فإذا فرغ من الأسبوع و ركع، عاد لإقامة تراويح آخر و ضرب بالفرقة الخطيبية المتقدمة الذكر ضربه يسمعها المسجد لعلو صوتها، كأنها إيدان بالعود الصلاة، فإذا فرغوا من تسليمتين، عادوا لطواف أسبوع، فإذا كملوه ضربت الفرقة و عادوا الصلاة تسليمتين، عادوا لطواف، هكذا إلى أن يفرغوا من عشر تسليمات، فيكمل لهم عشرون ركعة، ثم يصلون الشفع و الوتر و ينصرفون.

و سائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئا، و المتناوبون لهذه التراويح المقامية خمسة

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١١٣

أئمة، أولهم إمام الفريضة، و أوسطهم صاحبنا الفقيه الزاهد الورع أبو جعفر بن علي الفنكي القرطبي، و قراءته ترقّ الجمادات خشوعا. و هذه الفرقة المذكورة تستعمل في هذا الشهر المبارك، و ذلك أنه يضرب بها ثلاث ضربات عند الفراغ من أذان المغرب، و مثلها عند الفراغ من أذان العشاء الآخرة. و هي لا محالة من جميلة البدع المحدثه في هذا المسجد المعظم، قدسه الله.

و المؤذن الزمزمي يتولى التسحير في الصومعة التي في الركن الشرقي من المسجد بسبب قربها من دار الأمير، فيقوم في وقت السحور فيها داعيا و مذكرا و محرضا على السحور و معه أخوان صغيران يجاوبانه و يقاولانه، و قد نصبت في أعلى الصومعة خشبة طويلة في رأسها عود كالذراع و في طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لا يزالان يقدان مدة التسحير. فإذا قرب تبين خيطي الفجر و وقع الإيدان بالقطع مرة بعد مرة، حط المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبة و بدأ بالأذان، و ثوب المؤذنون من كل ناحية بالأذان. و في ديار مكة كلها سطوح مرتفعة، فمن لم يسمع نداء التسحير ممن يبعد مسكنه من المسجد يبصر القنديلين يقدان في أعلى الصومعة، فإذا لم يبصرهما علم أن الوقت قد انقطع.

أخو صلاح الدين

و في ليلة الثلاثاء من الشهر مع العشي، طاف الأمير مكثر بالبيت مودعا، و خرج للقاء الأمير سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، أخى صلاح الدين، و قد تقدم الخبر بوروده من مصر منذ مدة ثم تواتر إلى أن صحّ وصوله إلى ينبوع، و أنه عرج إلى المدينة لزيارة الرسول، صلى الله عليه و سلم، و تقدمت أقاله إلى الصفراء. و المتحدث به في وجهته قصد اليمن لاختلاف وقع فيها و فتنه حدثت من أمرائها. لكن وقع في نفوس المكيين منه إيجاس، خيفة و استشعار خشية، فخرج هذا الأمير المذكور متلقيا و مسلما، و في الحقيقة مستسلما، و الله تعالى عرف المسلمين خيرا.

و في ضحوة يوم الأربعاء الثالث من الشهر المبارك المذكور، كنا جلوسا بالحجر

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١١٤

المكرم، فسمعنا دبابدب الأمير مكثر و أصوات نساء مكة يولولن عليه. فبينما نحن كذلك دخل منصرفا من لقاء الأمير سيف الإسلام المذكور و طائفا بالبيت المكرم طواف التسليم، و الناس قد أظهروا الاستبشار لقدمه، و السرور بسلامته، و قد شاع الخبر بنزول سيف الإسلام الزاهر، و ضرب أبنيته فيه، و مقدمته من العسكر قد وصلت الحرم، و زاحمت الأمير مكثر في الطواف.

فبينما الناس ينظرون إليهم اذ سمعوا ضوضاء عظيمة و زعقات هائلة، فما راعهم إلا الأمير سيف الإسلام داخلا من باب بنى شيبه و لمعان السيوف أمامه يكاد يحول بين الأبصار و بينه، و القاضي عن يمينه و زعيم الشيبين عن يساره، و المسجد قد ارتج و غص بالنظارة و الوافدين، و الأصوات بالدعاء له و لأخيه صلاح الدين قد علت من الناس حتى صكت الأسماع و أذهلت الأذهان. و الزمزمي المؤذن في مرقبته رافعا عقيرته بالدعاء له و الشناء عليه. و أصوات الناس تعلو على صوته، و الهول قد عظم مرأى و مستمعا.

فلحين دنو الأمير من البيت المعظم أعمدت السيوف، و تضاءلت النفوس، و خلعت ملابس العزة، و ذلت الأعناق و خضعت الرقاب، و طاشت الأبواب مهابة و تعظيما لبيت ملك الملوك العزيز الجبار الواحد القهار، مؤتى الملك من يشاء، و نازع الملك ممن يشاء، سبحانه، جلت قدرته و عز سلطانه.

ثم تهافتت هذه العصابة الغزية على بيت الله العتيق تهافت الفراش على المصباح، و قد نكس أذقانهم الخضوع، و بلت سبالهم الدموع. و طاف القاضي أو زعيم الشيبين بسيف الإسلام، و الأمير مكثر قد غمره ذلك الزحام، فأسرع فى الفراغ من الطواف و بادر منزله. و عندما أكمل سيف الإسلام طوافه، صلى خلف المقام ثم دخل قبة زمزم فشرّب من مائها، ثم خرج على باب الصفا إلى السعى، فابتدأه ماشيا على قدميه، تواضعا و تذلا لمن يجب التواضع له، و السيوف مسلولة أمامه، و قد اصطف الناس من أول المسعى إلى آخره سماطين مثل ما صنعوا أيضا فى الطواف، فسعى على قدميه طريقين من الصفا إلى المروة، و منها إلى الصفا، و هرول بين الميلين الأخضرين، ثم قيده الإعياء فركب و أكمل السعى راكبا، و قد حشر الناس ضحى.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١١٥

ثم عاد الأمير إلى المسجد الحرام على حالته من الإرهاب و الهيبة و هو يتهادى بين بروق خواطف السيوف المصلته، و قد بادر الشيبون إلى باب البيت المكرم ليفتحوه، و لم يكن يوم فتحه. و ضم الكرسي الذى يصعد عليه، فرقى الأمير فيه، و تناول زعيم الشيبين فتح الباب، فإذا المفتاح قد سقط من كفه فى ذلك الزحام، فوقف وقفه دهش مذعور، و وقف الأمير على الأدرج. فيسر الله للحين فى وجود المفتاح، ففتح الباب الكريم، و دخل الأمير وحده مع الشيبى و أغلق الباب. و بقى وجوه الأغزاز و أعيانهم مزدحمين على ذلك الكرسي، فبعد لأى ما فتح لأمرائهم المقربين فدخلوا.

و تمادى مقام سيف الإسلام فى البيت الكريم مدة طويلة، ثم خرج، و انفتح الباب للكافة منهم. فيا له من ازدحام و تراكم و انتظام، حتى صاروا كالعقد المستطيل و قد اتصلوا و تسلسلوا. فكان يومهم أشبه شىء بأيام السرو فى دخولهم البيت، حسبما تقدم وصفه. و ركب الأمير سيف الإسلام و خرج إلى مضرب أبنيته بالموضع المذكور. و كان هذا اليوم بمكة من الأيام الهائلة المنظر العجيبة المشهد الغريبة الشأن. فسبحان من لا ينقضى ملكه و لا يبيد سلطانه، لا إله سواه. و سحب هذا الأمير جملة من حجاج مصر و سواها اغتناما لطريق البر و الأمن، فوصلوا فى عافية و سلامة، و الحمد لله.

و فى ضحوه يوم الخميس بعده كنا أيضا بالحجر المكرم، فاذا بأصوات طبول و دباب و بوقات قد قرعت الأذان و ارتجت لها نواحي الحرم الشريف. فبينما نحن نتطلع لاستعلام خبرها، طلع علينا الأمير مكثر و حاشيته الأقربون حوله، و هو رافل فى حله ذهب كأنها الجمر المتقد يسحب أذيالها، و على رأسه عمامة شرب رقيق سحابى اللون قد علا كورها على رأسه، كأنها سحابة مركومة و هى مصفحة بالذهب، و تحت الحلة خلعتان من الدباج المرسوم البديع الصنعة، خلعهما عليه الأمير سيف الإسلام، فوصل بها فرحا جذلان، و الطبول و الدباب تشيعه عن أمر سيف الإسلام إشادة بتكرمه و إعلاما بمأثرة منزلته. فطاف بالبيت المكرم شكرا لله على ما وهبه من كرامة هذا الأمير، بعد أن كان أوجس فى نفسه خيفة منه، و الله يصلحه و يوفقه بمنه.

و فى يوم الجمعة وصل الأمير سيف الإسلام للصلاة أول الوقت و فتح البيت المكرم، فدخله مع الأمير مكثر، و أقاما به مدة طويلة ثم خرجا. و تزامم الغز للدخول

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١١٦

تزامما أبهت الناظرين حتى أزيل الكرسي الذى يصعد عليه فلم يغن ذلك شيئا، و أقاموا على الازدحام فى الصعود بإشالة بعضهم على بعض، و داموا على هذه الحالة إلى أن وصل الخطيب، فخرجوا لاستماع الخطبة، و أغلق الباب. و صلى الأمير سيف الإسلام مع الأمير مكثر فى القبة العباسية. فلما انقضت الصلاة خرج على باب الصفا، و ركب إلى مضرب أبنيته. و فى يوم الأربعاء العاشر منه خرج الأمير المذكور بجنوده إلى اليمن، و الله يعرف أهلها من المسلمين فى مقدمه خيرا بمنه.

و هذا الشهر المبارك قد ذكرنا اجتهاد المجاورين للحرم الشريف في قيامه و صلاة تراويحه و كثرة الأئمة فيه. و كل وتر من الليالي العشر الأواخر يختم فيها القرآن. فأولها ليلة إحدى و عشرين، ختم فيها أحد أبناء أهل مكة، و حضر الختم القاضي و جماعة من الأشياخ. فلما فرغوا منها قام الصبي فيهم خطيبا، ثم استدعاهم أبو الصبي المذكور إلى منزله إلى طعام و حلوى قد أعدهما و احتفل فيهما.

ثم بعد ذلك ليلة ثلاث و عشرين، و كان المختتم فيها أحد أبناء المكيين ذوى اليسار، غلاما لم يبلغ سنه الخمس عشرة سنة، فاحتفل أبوه لهذه الليلة احتفالا بديعا.

و ذلك أنه أعد له ثريا مصنوعة من الشمع مغلصنة، قد انتظمت أنواع الفواكه الرطبة و اليابسة، و أعد لها شمعا كثيرا، و وضع في وسط الحرم، مما يلي باب بنى شيبه، شبه المحراب المربع من أعواد مشرجبة، قد أقيم على قوائم أربع، و ربطت في أعلاه عيدان نزلت منها قناديل و أسرجت في أعلاها مصابيح و مشاعيل. و سمر دائر المحراب كله بمسامير حديدة الأطراف، غرز فيها الشمع، فاستدار بالمحراب كله. و أوقدت الثريا المغلصنة ذات الفواكه، و أمعن الاحتفال في هذا كله. و وضع بمقربة من المحراب منبر مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الألوان. و حضر الإمام الطفل فصلى التراويح و ختم، و قد انحشد أهل المسجد الحرام إليه رجالا و نساء، و هو في محرابه لا يكاد يبصر من كثرة شعاع الشمع المحدق به.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١١٧

ثم برز من محرابه رافلا- في أفرخ ثيابه بهيئة إمامية و سكينه غلامية، مكحل العينين، مخضوب الكفين إلى الزندين، فلم يستطع الخلوص إلى منبره من كثرة الزحام، فأخذ أحد سدنة تلك الناحية في ذراعه حتى ألقاه على ذروة منبره، فاستوى مبتسما و أشار على الحاضرين مسلما. و قعد بين يديه قراء، فابتدروا القراءة على لسان واحد. فلما أكملوا عشرا من القرآن، قام الخطيب فصعد بخطبة تحرك لها أكثر النفوس من جهة الترجيع لا من جهة التذكير و التخشيع، و بين يديه في درجات المنبر نفر يمكسون أتوار الشمع في أيديهم و يرفعون أصواتهم ب "يا رب، يا رب،" عند كل فصل من فصول الخطبة يكررون ذلك. و القراء يتدرون القراءة في أثناء ذلك، فيسكت الخطيب إلى أن يفرغوا ثم يعود لخطبته. و تمادى فيها متصرفا في فنون من التذكير.

و في أثناءها اعترضه ذكر البيت العتيق، كرمه الله، فحسر عن ذراعيه مشيرا إليه، و أردفه بذكر زمزم و المقام فأشار إليهما بكلتا إصبعيه، ثم ختمها بتوديع الشهر المبارك و ترديد السلام عليه. ثم دعا للخليفة و لكل من جرت العادة بالدعاء له من الأمراء، ثم نزل. و انفض ذلك الجمع العظيم، و قد استظرف ذلك الخطيب و استنبل، و إن لم تبلغ الموعظة من النفوس ما أمل، و التذكرة إذا خرجت من اللسان لم تتعد مسافة الآذان. ثم ذكر أن المعينين من ذلك الجمع، كالقاضي و سواه، خصوا بطعام حفيل و حلوى على عادتهم في مثل هذا المجتمع. و كانت لأبى الخطيب في تلك الليلة، نفقة واسعة في جميع ما ذكر.

ثم كانت ليلة خمس و عشرين، فكان المختتم فيها الإمام الحنفى، و قد أعد ابنا لذلك سنه نحو من سن الخطيب الأول المذكور. فكان احتفال الإمام الحنفى لابنه في هذه الليلة عظيما، أحضر فيها من ثريات الشمع أربعا مختلفات الصنعة: منها مشجرة مغلصنة مثمرة بأنواع الفواكه الرطبة و اليابسة، و منها غير مغلصنة. فصفت أمام حطيمه، و توج الحطيم بخشب و ألواح وضعت أعلاه و جلل كله سرجا و مشاعيل و شمعا، فاستنار الحطيم كله حتى لاح في الهواء كالتاج العظيم من النور. و أحضر الشمع في أتوار الصفر، و وضع المحراب العودى المشرجب، فجلل دائره الأعلى كله

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١١٨

شمعا، و أحدق الشمع في الأتوار به، فاكتنفته هالامت من نور، و نصب المنبر قبالته مجللا- أيضا بالكسوة الملونة. و احتفل الناس

لمشاهدة هذا المنظر النير أعظم من الاحتفال الأول. فختم الصبي المذكور، ثم برز من محرابه إلى منبره يسحب أذيال الخفر في أثواب راقية المنظر، فتسور منبره وأشار بالسلام على الحاضرين وابتدأ خطبته بسكينة و لين و لسان على حالة الحياء مبين. فكأن الحال على طفولتها كانت أو قر من الأولى و أخشع، و الموعظة أبلغ، و التذكرة أنفع.

و حضر القراء بين يديه على الرسم الأول، و في أثناء فصول الخطبة يتدرون القراءة، فيسكت خلال إكمالهم الآية التي انتزعوها من القرآن. ثم يعود إلى خطبته و بين يديه في درجات المنبر طائفة من الخدمة يمسكون أتوار الشمع بأيديهم و منهم من يمسك المجرمة تسطع بعرف العود الرطب الموضوع فيها مرة بعد أخرى. فعند ما يصل إلى فصل من تذكير أو تخشيع يرفعون أصواتهم ب " يا رب يا رب " يكررونها ثلاثا أو أربعاً. و ربما جاراهم في النطق بعض الحاضرين، إلى أن فرغ من خطبته و نزل. و جرى الإمام إثره على الرسم من الإطعام لمن حضر من أعيان المكان، إما باستدعائهم إلى منزله تلك الليلة أو بتوجيه ذلك إلى منازلهم.

ثم كانت ليلة سبع و عشرين، و هي ليلة الجمعة بحساب يوم الأحد، فكانت الليلة الغراء، و الختمة الزهراء، و الهيبة و الموفرة الكهلاء، و الحالة التي تمكن عند الله تعالى في القبول و الرجاء. و أي حالة توازي شهود ختم القرآن، ليلة سبع و عشرين من رمضان، خلف المقام الكريم، و تجاه البيت العظيم؟ و إنها لنعمة تتضاءل لها النعم تضائل سائر البقاع للحرم. و وقع النظر و الاحتفال لهذه الليلة المباركة، قبل ذلك بيومين أو ثلاثة.

و أقيمت إزاء حطيم إمام الشافعية خشب عظام، بائنة الارتفاع، موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الأعواد الوثيقة، فاتصل منها صف كاد يمسك نصف الحرم عرضاً، و وصلت بالحطيم المذكور. ثم عرضت بينها ألواح طوال، مدت على الأذرع المذكورة، و علت طبقة منها طبقة أخرى حتى استكملت ثلاث طبقات: فكانت الطبقة العليا منها خشباً مستطيلاً، مغروزة كلها مسامير محددة الأطراف، لاصقا بعضها ببعض كظهر

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١١٩

الشيهم نصب عليها الشمع، و الطبقتان تحتها ألواح مثقوبة ثقباً متصلاً، وضعت فيها زجاجات المصايح ذوات الأنابيب المنبعثة من أسافلها.

و تدلت من جوانب هذه الألواح و الخشب و من جميع الأذرع المذكورة قناديل كبار و صغار، و تخللها أشباه الأطباق المبسوطة من الصفر، قد انتظم كل طبق منها ثلاث سلاسل تقلها في الهواء، و خرقت كلها ثقباً، و وضعت فيها الزجاجات ذوات الأنابيب من أسفل تلك الأطباق الصفرية، لا يزيد منها أنبوب على أنبوب في القدر. و أوقدت فيها المصايح، فجاءت كأنها موائد ذوات أرجل كثيرة تشتعل نورا، و وصلت بالحطيم الثاني، الذي يقابل الركن الجنوبي من قبة زمزم، خشب على الصفة المذكورة، اتصلت إلى الركن المذكور. و أوقد المشعل الذي في رأس فحل القبة المذكورة، و صفت طرة شباكها شمعا، مما يقابل البيت المكرم. و حف المقام الكريم بمحراب من الأعواد المشرجبة المخرمة محفوفة الأعلى بمسامير حديدة الأطراف، على الصفة المذكورة، جللت كلها شمعا. و نصب عن يمين المقام و يساره شمع كبير الجرم، في أتوار تناسبها كبراً، و صفت تلك الأتوار على الكراسي التي يصرفها السدنة مطالع عند الإيقاد، و جليل جدار الحجر المكرم كله شمعا في أتوار من الصفر فجاءت كأنها دائرة نور ساطع، و أحدقت بالحرم المشاعيل. و أوقد جميع ما ذكر.

و أحدق بشرفات الحرم كلها صبيان مكة، و قد وضعت بيد كل منهم كرة من الخرق المشبعة سليطا، فوضعوها متقدمة في رؤوس الشرفات. و أخذت كل طائفة منهم ناحية من نواحيها الأربعة فجعلت كل طائفة تبارى صاحبته في سرعة إيقادها.

فيخيل للناظر أن النار تشب من شرفة إلى شرفة لخفاء أشخاصهم وراء الضوء المرتمي الأبصار. و في أثناء محاولتهم لذلك يرفعون أصواتهم ب " يا رب " على لسان واحد، فيرتج الحرم لأصواتهم. فلما كمل إيقاد الجميع بما ذكر كاد يعشى الأبصار شعاع تلك

الأنوار، فلا- تقع لمحفة طرف إلا على نور يشغل حاسة البصر عن استمالة النظر. فيتوهم المتوهم، لهول ما يعاينه من ذلك، أن تلك الليلة المباركة نزهت لشرفها عن لباس الظلماء فزيت بمصايح السماء.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٢٠

و تقدم القاضي فصلي فريضة العشاء الآخرة، ثم قام و ابتدأ بسورة القدر. و كان أئمة الحرم في الليلة قبلها قد انتهوا في القراءة إليها. و تعطل في تلك الساعة سائر الأئمة من قراءة التراويح، تعظيما لختمة المقام، و حضروا متبركين بمشاهدتها. و قد كان المقام المطهر أخرج من موضعه المستحدث في البيت العتيق، حسبما تقدم الذكر أولا له، فيما سلف من هذا التقييد، و وضع في محله الكريم المتخذ مصلى مستورا بقبته التي يصلى الناس خلفها، فحتم القاضي بتسليمتين، و قام خطيبا مستقبلا المقام و البيت العتيق. فلم يتمكن من سماع الخطبة للازدحام و وضوء العوام.

فما فرغ من خطبته عاد الأئمة لإقامة تراويحهم، و انفض الجمع و نفوسهم قد استطارت خشوعا، و أعينهم قد سالت دموعا، و الأنفس قد أشعرت من فضل القدر المشرف ذكرها في التنزيل، و الله، عزّ و جل، لا يخلو الجميع من بركة مشاهدتها و فضل معاينتها، انه كريم منان، لا إله سواه. ثم ترتبت قراءة أئمة المقام الخمسة المذكورين أولا، بعد هذه الليلة المذكورة، بآيات ينتزعونها من القرآن على اختلاف السور، تتضمن التذكير و التحذير و التبشير، بحسب اختيار كل واحد منهم. و رسم طوافهم، إثر كل تسليمتين، باق على حاله. و الله ولى القبول من الجميع.

ثم كانت ليلة تسع و عشرين منه، فكان المختتم فيها سائر أئمة التراويح ملتزمين رسم الخطبة إثر الختمة، و المشار إليه منهم المالكى. فتقدم بإعداد أعواد بإزاء محرابه، نصبها ستة على هيئة دائرة محراب مرتفعة عن الأرض بدون القامة، يعترض على كل اثنين منها عود مبسوط، فأدير بالشمع أعلاها و أحرق أسفلها بقايا شمع كثير، قد تقدم ذكره عند أول الشهر المبارك. و أحرق أيضا داخل تلك الدائرة شمع آخر متوسط، فكان منظرا مختصرا و مشهدا عن احتفال المباحة منزها موقرا، رغبة في احتفال الأجر و الثواب، و مناسبة لموضع هيئة المحراب، نصبت للشمع فيه عوضا من الأتوار أثافي من الأحجار. فجاءت الحال غريبة في الاختصار، خارجة عن محفل التعظيم و الاستكبار، داخله مدخل التواضع و الاستصغار.

و احتفل جميع المالكية للختمة، فتناوبها أئمة التراويح، ففضوا صلاتهم سراعا عجلا،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٢١

كاد يلتقى طرفاها خفوقا و استعجالا. ثم تقدم احدهم فعقد حوته بين تلك الأثافي و صدع بخطبة منترعة من خطبة الصبي ابن الإمام الحنفى فأرسلها معادة إلى الأسماع ثقيلًا لحنها على الطباع، ثم انفض الجمع، و قد جمد في شؤونه الدمع، و اختطف للحين من أثافيه ذلك الشمع، أطلقت عليه أيدى الانتهاب، و لم يكن في الجماعة من يستحى منه أو يهاب. و عند الله تعالى في ذلك الجزاء و الثواب، إنه سبحانه الكريم الوهاب.

و انتهت ليالى الشهر ذاهبة عنا بسلام، جعلنا الله ممن طهر فيها من الآثام، و لا أخلانا من فضل القبول ببركة صومه في جوار الكعبة البيت الحرام، و حتم الله لنا و لجميع أهل الملة الحنفية بالوفاء على الإسلام، و أوزعنا حمدا يحق هذه النعمة و شكرا، و جعلها للمعاد لنا ذخرا، و وفانا عليها ثوبا من لديه و أجرا يرجى بفضله و كرمه، أنه لا يضيع لديه أيام اتخذ لصيامها ماء زمزم فطرا، إنه الحنان المنان، لا رب سواه.

شهر شوال عرفنا الله بركته

إشارة

استهل هلاله ليلة الثلاثاء السادس عشر من ينير، يمن الله مطلعته، و رزقنا بركتته، و هذا الشهر المبارك هو فاتحة شهر الحج المعلومات، و بعده تتصل ثلاثة الأشهر الحرم المباركات. و كانت ليلة استهلال هلاله من الليالي الحفيلة في المسجد الحرام، زاده الله تكريما. جرى الرسم المذكور ليلة سبع و عشرين من رمضان المعظم، و أوقدت الصوامع من أربع الجهات من الحرم، و أوقد سطح المسجد الذي في أعلى جبل أبي قيس. و أكثر الأئمة تلك الليلة أحياء، و أكثر الناس على مثل تلك الحال بين طواف و صلاة و تهليل و تكبير، يقبل الله من جميعهم، إنه سميع الدعاء كليل بالرجاء، سبحانه لا إله سواه.

فلما كان صبيحتها و قضى الناس صلاة الفجر، لبس الناس أثواب عيدهم و بادروا لأخذ مصافهم لصلاة العيد بالمسجد الحرام، لأن السنة جرت بالصلاة فيه دون مصلى يخرج الناس إليه، رغبة في شرف البقعة و فضل بركتها و فضل صلاة الإمام خلف تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٢٢

المقام، و من يأت به. فأول من بكر الشيبون، و فتحوا باب الكعبة المقدسة، و أقام زعيمهم جالسا في العتبة المقدسة، و سائر الشيبين داخل الكعبة إلى أن أحسوا بوصول الأمير مكثرت فنزلوا إليه، و تلقوه بمقربة من باب النبي، صلى الله عليه و سلم، فانتهى إلى البيت المكرم، و طاف حوله أسبوعا، و الناس قد احتفلوا لعيدهم، و الحرم قد غص بهم، و المؤذن الزمزمى فوق سطح القبة على العادة رافعا صوته بالثناء عليه و الدعاء له، متناوبا في ذلك مع أخيه. فلما أكمل الأمير الأسبوع، عمد إلى مصطبة قبة زمزم، مما يقابل الركن الأسود، فقعد بها، و بنوه يمينه و يساره، و وزيره و حاشيته و قوف على رأسه. و عاد الشيبون لمكانهم من البيت المكرم يلحظهم الناس بأبصار خاشعة للبيت غابطة لمحلهم منه و مكانهم من حجابته و سدائته، فسبحان من خصهم بالشرف في خدمته. و حضر الأمير من خاصته شعراء أربعة، فأنشده واحد اثر واحد إلى أن فرغوا من إنشادهم.

و في أثناء ذلك تمكن وقت الصلاة، و كان ضحى من النهار، فأقبل القاضى الخطيب يتهدى بين رايتيه السوداوين، و الفرقة المتقدمة ذكرها أمامه، و قد صك الحرم صوتها. و هو لابس ثياب سواده، فجاء المقام الكريم، و قام الناس للصلاة، فلما قضوا رقى المنبر، و قد ألقى موضعه المعين له كل جمعة، من جدار الكعبة المكرمة، حيث الباب الكريم شارعا، فخطب خطبة بليغة، و المؤذنون قعود دونه في أدراج المنبر، فعند افتتاحه فصول الخطبة بالتكبير يكبرون بتكبيره، إلى أن فرغ من خطبته.

و أقبل الناس بعضهم على بعض بالمصافحة و التسليم و التغافر و الدعاء، مسرورين جليلين فرحين بما آتاهم الله من فضله. و بادروا إلى البيت الكريم فدخلوا بسلام آمنين، مزدحمين عليه فوجا فوجا. فكان مشهدا عظيما و جمعا، بفضل الله تعالى، مرحوما، جعله الله ذخيرة للمعاد، كما جعل ذلك العيد الشريف في العمر أفضل الأعياد، بمنه و كرمه، إنه ولى ذلك و القادر عليه. و أخذ الناس عند انتشارهم من مصلاهم و قضاء سنة السلام بعضهم على بعض في زيارة الجبانة بالمعلى، تبركا باحتساب الخطا إليها، و الدعاء بالرحمة لمن فيها من عباد الله الصالحين من الصدر

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٢٣

الأول و سواه، رضى الله عن جميعهم، و حشرنا في زمرتهم، و نفعنا بمحبتهم. فالمرء، كما قال صلى الله عليه و سلم، مع من أحب.

مناسك الحج

و في يوم السبت التاسع عشر منه، و الثالث لفبرير، صعدا إلى منى لمشاهدة المناسك المعظمة بها و لمعاينة منزل اكترى لنا فيها، إعدادا لمقام بها أيام التشريق، إن شاء الله، فألفيناها تملأ النفوس بهجة و انشراحا، مدينة عظيمة الآثار، واسعة الاختطاط، عتيقة الوضع، قد درست منازل يسيرة متخذة للنزول تحف بجانبى طريق كأنه ميدان انبساطا و انفساحا، ممتد الطول. فأول ما يلقي المتوجه إليها عن يساره، و بمقربة منها، مسجد البيعة المباركة، التي كانت أول بيعة في الإسلام، عقدها العباس، رضى الله عنه، للنبي، صلى الله عليه و سلم، على الأنصار، حسب المشهور من ذلك. ثم يفضى منه إلى جمرة العقبة، و هى أول منى للمتوجه من مكة و عن يسار المار إليها.

و هي على قارعة الطريق، مرتفعة للمتراكم فيها من حصى الجمرات. و لو لا- آيات الله البينات فيها لكانت كالجبال الرواسي، لما يجتمع فيها على تعاقب الدهور و توالي الأزمنة. لكن لله، عز و جل، فيها سر كريم من أسراره الخفيات، لا إله سواه. و عليها مسجد مبارك، و بها علم منصوب شبه أعلام الحرم التي ذكرناها، فيجعلها الرامي عن يمينه مستقبلا مكة، شرفها الله، و يرمى بها سبع حصيات. و ذلك يوم النحر إثر طلوع الشمس، ثم ينحر أو يذبح و يخلق. و الملحق حولها، و المنحر في كل موضع من منى، لأن منى كلها منحر، كما قال، صلى الله عليه و سلم. و قد حل له كل شيء إلا النساء و الطيب حتى يطوف طواف الإفاضة. و بعد هذه الجمرة العقبية موضع الجمرة الوسطى، و لها أيضا علم منصوب، و بينهما قدر الغلوة، ثم بعدها يلقي الجمرة الأولى و مسافتها منها كمسافة الأخرى.

و في وقت الزوال من ثاني يوم النحر، ترمى في الأولى سبع حصيات، و في الوسطى كذلك، و في العقبية كذلك، فتلك إحدى و عشرون حصاة. و في اليوم الثالث من يوم النحر، في الوقت بعينه، كذلك على الترتيب المذكور، فتلك اثنتان و أربعون حصاة في اليومين، و سبع رميت في العقبية يوم النحر، وقت طلوع الشمس، كما ذكرناه. و هي تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٢٤

المحلات للحاج ما حرم عليه سوى النساء و الطيب، فتلك تكملته تسع و أربعين جمرة. و في إثر ذلك ينفصل الحاج إلى مكة من ذلك اليوم. و اختصر في هذا الزمان إحدى و عشرون، كانت ترمى في اليوم الرابع على الترتيب المذكور، و ذلك لاستعجال الحاج خوفا من العرب الشعبيين، إلى غير ذلك من محذورات الفتن المغيرات لآثار السنن. فمضى العمل اليوم على تسع و أربعين حصاة، و كانت في القديم سبعين، و الله يهب القبول لعباده.

و الصادر من عرفات إلى منى أول ما يلقي الجمرة الأولى ثم الوسطى، ثم جمرة العقبية. و في يوم النحر تكون جمرة العقبية أولى منفردة بسبع حصيات، حسبما تقدم ذكره. و لا يشترك معها سواها في ذلك اليوم، ثم في اليومين بعده ترجع الآخرة، على الترتيب حسبما و صفناه، بحول الله عز و جل.

و بعد الجمرة الأولى يعرج عن الطريق يسيرا و يلقي منحر الذبيح، صلى الله عليه و سلم، حيث فدى بالذبيح العظيم. و على الموضع المبارك مسجد مبني، و هو بمقربة من سفح ثبير. و في موضع المنحر المذكور حجر قد ألصق بالجدار المبني، فيه أثر قدم صغيرة، يقال: إنه أثر قدم الذبيح، صلى الله عليه و سلم، عند تحركه، فلان الحجر له بقدره الله، عز و جل، إشفافا و حنانا، فيتبرك الناس بلمسه و تقبيله.

و يفضى من ذلك إلى مسجد الخيف المبارك، و هو آخر منى في توجهك، أعنى من المعمورة منها بالبيان. و أما الآثار القديمة فأخذة إلى أبعد غاية أمام المسجد. و هذا المسجد المبارك متسع الساحة كأكبر ما يكون من الجوامع. و الصومعة وسط رحبة المسجد. و له في القبلة أربع بلاطات يشملها سقف واحد. و هو من المساجد الشهيرة بركة و شرف بقعة. و كفى بما ورد في الأثر الكريم من أن بقعته الطاهرة مدفن كثير من الأنبياء، صلوات الله عليهم.

و بمقربة منه عن يمين المار في الطرق، حجر كبير مسند إلى صفح الجبل مرتفع عن الأرض يظل ما تحته، ذكر أن النبي، صلى الله عليه و سلم، قعد تحته مستظلا و مس رأسه المكرم فيه فلان له حتى أثر فيه تأثيرا بقدر دور الرأس. فيبادر الناس لوضع رؤوسهم في ذلك الموضع تبركا و استجارة لها بموضع مسه الرأس المكرم أن لا تمسها النار بقدره الله، عز و جل. فلما قضينا معاينة هذه المشاهد الكريمة أخذنا في الانصراف مستبشرين بما وهبنا

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٢٥

الله من فضله في مباشرتها. و وصلنا مكة قريب الظهر، و الحمد لله على ما من به.

و في يوم الأحد بعده، و هو الموفى عشرين لشوال، صعدنا إلى الجبل المقدس حراء، و تبركنا بمشاهدة الغار في أعلاه الذي كان

النبي، صلى الله عليه وسلم، يتعبد فيه. وهو أول موضع نزل فيه الوحي عليه، صلى الله عليه وسلم، و رزقنا شفاعته، و حشرنا في زمرة، و أماتنا على سنته و محبته، بمنه و كرمه، لا رب سواه.

و في ضحوة يوم الثلاثاء الثاني و العشرين منه، و هو السادس من فبراير، اجتمع الناس كافة للاستسقاء تجاه الكعبة المعظمة، بعد أن ندبهم القاضي إلى ذلك و حرضهم على صيام ثلاثة أيام قبله. فاجتمعوا في هذا اليوم الرابع المذكور، و قد أخلصوا النيات لله عز و جل، و بكر الشيبون ففتحوا الباب المكرم من البيت العتيق، ثم أقبل القاضي بين رايته السوداوين لابثا ثياب البياض، و أخرج مقام الخليل إبراهيم، صلى الله عليه وسلم، و على نبينا، و وضع على عتبة باب البيت المكرم، و أخرج مصحف عثمان، رضى الله عنه، من خزائنه، و نشر بإزاء المقام المطهر، فكانت دفته الواحدة عليه و الثانية على الباب الكريم. ثم نودي في الناس بالصلاة جامعة، فصلى القاضي بهم خلف موضع المقام المتخذ مصلى ركعتين، قرأ في إحداهما "سبح اسم ربك الأعلى"، و في الثانية "الغاشية"، ثم صعد المنبر، و قد ألصق إلى موضعه المعهود من جدار الكعبة المقدسة. فخطب خطبة بليغة، و الى فيها الاستغفار و وعظ الناس و ذكرهم و خشعهم و حرضهم على التوبة و الإنابة لله عز و جل، حتى نزت دمعها العيون و استنفدت ماءها الشؤون، و علا الضجيج و ارتفع الشيق و النشيج، و حول رداءه، و حول الناس أرويتهم اتباعا للسنة.

ثم انفض الجميع راجين رحمة الله عز و جل غير قانطين منها، و الله يتلافى عباده بلطفه و كرمه. و تمادى استسقاؤه بالناس ثلاثة أيام متواليه، على الصفة المذكورة، و قد نال الجهد من أهل الحجاز، و أضربهم القحط، و أهلك مواشيم الجذب، لم يمتطروا في الربيع و لا الخريف و لا الشتاء إلا مطرا طلا غير كاف و لا شاف. و الله عز و جل لطيف بعباده، غير مؤاخذهم بجرائمهم، إنه الحنان المنان، لا رب سواه.

و في يوم الخميس الرابع و العشرين من شوال صعدنا إلى جبل ثور لمعاينة الغار المبارك الذي أوى إليه النبي، صلى الله عليه وسلم، مع صاحبه الصديق، رضى الله

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٢٦

عنه، حسبما جاء في محكم التنزيل العزيز. و قد تقدم ذكر هذا الغار و صفته أولا في هذا التقييد. و ولجناه من الموضع الذي يعسر الولوج منه على البعض من الناس تبركا بمس بشرة البدن بموضع مسه الجسم المبارك، قدسه الله لأن مدخل النبي صلى الله عليه وسلم، كان منه. و كان لأحد الصاعدين إليه ذلك اليوم من المصريين موقف خجلة و فضيحة، و ذلك أنه رام الولوج فيه على ذلك الموضع الضيق فلم يقدر بحيلة، و عاود ذلك مرارا فلم يستطع حتى استوقف الناس ما عاينوه من ذلك و بكوا له إشفاقا و لجأوا إلى الله عز و جل في الدعاء، فلم يغن ذلك شيئا. و كان فيهم من هو أضخم منه فيسر الله عليه. و طال تعجب الناس منه و اعتبارهم. و أعلمنا بعد انفصالنا في ذلك اليوم بأن هذا الموقف المخجل وقع لثلاثة أناس في ذلك اليوم بعينه، عصمنا الله من مواقف الفضيحة في الدنيا و الآخرة.

و هذا الجبل صعب المرتقى جدا، يقطع الأنفاس تقطيعا، لا يكاد يبلغ منتهاه إلا و قد ألقى بالأيدي إعياء و كلالا. و هو من مكة على مقدار ثلاثة أميال، و على ذلك القدر هو جبل حراء منها، و الله تعالى لا يخلينا من بركة هذه المشاهد بمنه و كرمه.

و طول الغار ثمانية عشر شبرا، و سعته أحد عشر شبرا في الوسط منه، و في حافته ثلثا شبرا، و على الوسط منه يكون الدخول. و سعته الباب الثاني المتسع مدخله خمسة أشبار أيضا، لأن له بايين، حسبما ذكرناه أولا.

و في يوم الجمعة بعده وصل السر و اليمينون في عدد كثير، مؤملين زيارة قبر الرسول، صلى الله عليه وسلم. و جلبوا ميرة مكة على عادتهم، فاستبشر الناس بقدمهم استبشارا كبيرا، حتى إنهم أقاموه عوض نزول المطر. و لطائف الله لسكان حرمه الشريف واسعة، إنه سبحانه لطيف بعباده لا إله سواه.

شهر ذي القعدة عرفنا الله يمنه و بركنه

استهل شهر ذى القعدة هلاله ليلة الأربعاء، بموافقة الرابع عشر من شهر فبراير،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٢٧

بشهادة ثبتت عند القاضى فى رؤيته. و أما الأكثر الأغلب من أهل المسجد الحرام فلم يبصروا شيئاً، و طال ارتفاعهم إثر صلاة المغرب. و كان منهم من يتخيله فيشير إليه، فإذا حققه تلاشى عنده نظره و كذب خبره، و الله أعلم بصحة ذلك. و هذا الشهر المبارك ثانى الأشهر الحرم و ثانى أشهر الحج، أطلع الله هلاله على المسلمين بالأمن و الإيمان و المغفرة و الرضوان، بعزته و رحمته.

و فى يوم الاثنين الثالث عشر منه دخلنا مولد النبى، صلى الله عليه و سلم. و هو مسجد حفيل البنيان، و كان داراً لعبد الله بن عبد المطلب، أبى النبى، صلى الله عليه و سلم، و قد تقدم ذكره. و مولده، صلى عليه و سلم، صفة صهريج صغير سعته ثلاثة أشبار و فى وسطه رخامة خضراء سعته ثلاثا شبر مطوقة بالفضة، فتكون سعته مع الفضة المتصلة بها شبرا. و مسحنا الخدود فى ذلك الموضع المقدس الذى هو مسقط لأكرم مولود على الأرض و ممس لأظهر سلالة و أشرفها، صلى الله عليه و سلم، و نفعنا ببركة مشاهدة مولده الكريم. و بإزائه محراب حفيل القرنصة، مرسومة طرته بالذهب.

و قد تقدم الوصف لهذا كله.

و هذا الموضع المبارك هو شرقى الكعبة متصل بصفح الجبل. و يشرف عليه بمقربة منه جبل أبى قبيس، و على مقربة منه أيضا مسجد، عليه مكتوب: هذا المسجد هو مولد على بن أبى طالب، رضوان الله عليه؛ و فيه تربي رسول الله، صلى الله عليه و سلم، و كان داراً لأبى طالب عم النبى، صلى الله عليه و سلم، و كافله.

دار خديجة الكبرى

و دخلت أيضا فى اليوم المذكور دار خديجة الكبرى، رضوان الله عليها، و فيها قبة الوحى، و فيها أيضا مولد فاطمة، رضى الله عنها. و هو بيت صغير مائل للطول.

و المولد شبه صهريج صغير و فى وسطه حجر أسود. و فى البيت المذكور مولد الحسن و الحسين ابنيها، رضى الله عنهما، و مسقط شلو الحسن و لاصق بمسقط شلو الحسين و عليهما حجران مائلان إلى السواد كأنهما علامتان للمولدين المباركين الكريمين.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٢٨

و مسحنا الخدود فى هذه المساقط المكرمة المخصوصة بمس بشرات المواليد الكرام، رضوان الله عليهم.

و فى الدار المكرمة أيضا مختبأ النبى، صلى الله عليه و سلم، شبيه القبة، و فيه مقعد فى الأرض عميق شبيه الحفرة داخل فى الجدار قليلا، و قد خرج عليه من الجدار حجر مبسوط كأنه يظل المقعد المذكور، قيل: إنه كان الحجر الذى كان غطى النبى، صلى الله عليه و سلم، عند اختبائه فى الموضع المذكور، صلوات الله عليه و على أهل بيته الطاهرين.

و على كل واحد من هذه الموالد المذكورة، قبة خشب صغيرة تصون الموضع غير ثابتة فيه.

فإذا جاء المبصر لها نحاهها و لمس الموضع الكريم و تبرك به ثم أعادها عليه.

و فى يوم الجمعة الرابع و العشرين من الشهر المذكور، نفذ أمر الأمير مكثر بالقبض على زعيم الشيبين محمد بن إسماعيل، و انتهاب منزله، و صرفه عن حجابة البيت الحرام، طهره الله، و ذلك لهنات نسبت إليه لا تليق بمن نيظت به سدانة البيت العتيق:

وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، أعادنا الله من سوء القضاء، و نفوذ سهام الدعاء، بمنه.

و فى هذه الأيام السالفة من الشهر المذكور توالى مجيء السرويين اليمينيين فى رفاق كثيرة بالميرة من الطعام و سواه و ضروب الإدام و

الفواكه اليابسة فأرغدوا البلد. ولولاهم لكان من اتصال الجذب و غلاء السعر فى جهد و مشقة، فهم رحمة لهذا البلد الأمين. ثم توجهوا إلى الزيارة المباركة، إلى التربة المباركة، طيبة مدفن رسول الله، صلى الله عليه و سلم، و وصلوا فى أسرع مدة، قطعوا الطريق من مكة إلى المدينة فى يسير أيام، و من صحبتهم من الحاج حمد صحبتهم. و فى أثناء مغيبهم وصلت طوائف آخر منهم للحج، خاصة لضيق الوقت عن الزيارة فأقاموا بمكة، و وصل الزوار منهم فضايق بهم المتسع.

فلما كان يوم الاثنين السابع و العشرين من الشهر المذكور فتح البيت العتيق، و تولى فتحه من الشيبين ابن عم الشيبى المعزول، و هو أمثل طريقة منه، على ما يذكر.

فازدحم السرو للدخول على العادة، فجاءوا بأمر لم يعهد فيما سلف: يصعدون أفواجا

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٢٩

حتى يغص الباب الكريم بهم فلا يستطيعون تقدما و لا تأخرا إلى أن يلجوا على أعظم مشقة ثم يسرعون الخروج، فيضيق الباب الكريم بهم، فينحدر الفوج منهم على المصعد و فوج آخر صاعد، فيلتقيان و قد ارتبط بعضهم إلى بعض، فربما حمل المنحدرون فى صدور الصاعدين، و ربما وقف الصاعدون للمنحدرين و تضاغطوا إلى أن يميلوا فيقع البعض على البعض. فيعابن النظارة منهم مرأى هائلا: فمنهم سليم، و غير سليم، و أكثرهم إنما ينحدرون و ثبا على الرؤوس و الأعناق. و من أعجب ما شاهدناه فى يوم الاثنين المذكور، أن صعد بعض من الشيبين أثناء ذلك الزحام، يرومون الدخول إلى البيت الكريم فلم يقدروا على التخلص، فتعلقوا بأستار حافتي عضادتي الباب. ثم إن أحدهم تمسك بإحدى الشرائط القنبية الممسكة للأستار إلى أن علا الرؤوس و الأعناق، فوطئها و دخل البيت فلم يجد موثنا لقدمه سواها، لشدة تراصهم و تراكمهم و انضمام بعضهم إلى بعض. و هذا الجمع الذى وصل منهم فى هذا العام لم يعهد قط مثله فيما سلف من الأعوام، و لله القدرة المعجزة، لا إله سواه.

و فى هذا اليوم المذكور الذى هو السابع و العشرون من ذى القعدة، شممت أستار الكعبة المقدسة نحو قامه و نصف من الجدر من الجوانب الأربعة، و يسمون ذلك إحراما لها، فيقولون: أحرمت الكعبة. و بهذا جرت العادة دائما فى الوقت المذكور من الشهر. و لا تفتح من حين إحرامها إلا بعد الوقفة. فكان ذلك التشمير إيدان بالتشمير للسفر، و إيدان بقرب وقت وداعها المنتظر، لا جعله الله آخر وداع، و قضى لنا إليها بالعودة و تيسير سبيل الاستطاعة بعزته و قدرته.

و فى يوم الجمعة الرابع و العشرين قبل هذا اليوم المذكور، كان دخولنا إلى البيت الكريم على حال اختلاس و انتهاز فرصة أوجدت بعض فرجة من الزحام، فدخلناه دخول وداع إذ لا يتمكن دخوله بعد ذلك، لترادف الناس عليه و لا سيما الأعاجم الواصلون مع الأمير العراقى، فإنهم يظهرون من التهافت عليه، و البدار إليه، و الازدحام فيه، ما ينسى أحوال السرو اليمينين، لفظاظتهم و غلظتهم. فلا يتمكن لأحد منهم النظر فضلا عن غير ذلك، و الله عز و جل لا يجعله آخر العهد بيته الكريم، و يرزقنا العود إليه على خير و عافية، بمنه و لطيف صنعه.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٣٠

و فى يوم إحرام الكعبة المذكور أقلت من موضع المقام المقدس القبة الخشبية التى كانت عليه و وضعت عوضها قبة الحديد إعدادا للأعاجم المذكورين، لأنها لو لم تكن حديدا لأكلوها أكلا فضلا عن غير ذلك، لماهم عليه من صحة النفوس شوقا إلى هذه المشاهد المقدسة و تطارحهم بأجرامهم عليها، و الله ينفعهم بنياتهم، بمنه و كرمه.

و فى يوم الثلاثاء الثامن و العشرين من الشهر المذكور، جاء زعيم الشيبين المعزول يتهادى بين بنيه زهوا و إعجابا، و مفتاح الكعبة المقدسة بيده قد أعيد إليه، ففتح الباب الكريم و صعد مع بنيه السطح المبارك الأعلى بأمراس من القنب غليظة، يوثقونها فى أوتاد الحديد المضروبة فى السطح و يرسلونها إلى الأرض، فيربط فيها شبيه محمل من العود و يجلس فيه أحد سدنة البيت من الشيبين، فيصعد به على بكرة معدة لذلك فى أعلى السطح المذكور، فيتولى خياطة ما مزقته الريح من الأستار. فسألنا عن كيفية صرف هذا

الشيبي المعزول خطته على صحة الهنات المنسوبة إليه، فأعلمنا أنه صودر عليها بخمسائة دينار مكية استقرضها ودفعها. فطال التعجب من ذلك والاعتبار، وتحققنا أن إظهار القبض عليه لم يكن غيره ولا أنفة على حرمان الله المنتهكة على يديه، مع كونها في خطة دونها الخلافة رفعة، والحال تشبه بعضها بعضاً "، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض، " ...و إلى الله المشتكى من فساد ظهر حتى في أشرف بقاع الأرض، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هنا نشأ الإسلام

وفي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي القعدة المذكور دخلنا دار الخيزران التي كان منها منشأ الإسلام. وهي بإزاء الصفا، ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل إليها، كان مسكن بلال، رضى الله عنه. ويدخل إليها على حلق كبير شبيه الفندق، قد أحدثت به البيوت للكراء من الحاج. والدار المكرمة دار صغيرة يجدها الداخل إلى الحلق المذكور عن يساره، وهي مجددة البناء، أنفق في بنائها جمال الدين،

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٣١

المذكور أثره الكريم في هذا المكتوب، نحو الألف دينار، نفعه الله بما أسلفه من العمل الصالح. وعن يمين الداخل الدار المباركة باب يدخل منه إلى قبة كبيرة بديعة البناء، فيها مقعد النبي، صلى الله عليه وسلم، والصخرة التي كان إليها مستنده. وعن يمينه موضع أبي بكر الصديق، وعن يمين أبي بكر موضع علي بن أبي طالب، والصخرة التي كان إليها مستنده، هي داخله في الجدار كشبه المحراب. وفي هذه الدار كان إسلام عمر ابن الخطاب، ومنها ظهر الإسلام على يديه، وأعزه الله به. نفعنا الله ببركة هذه المشاهد المكرمة والآثار المعظمة، وأماتنا على محبة الذين شرفت بهم ونسبت إليهم، صلوات الله عليهم أجمعين.

شهر ذي الحجة عرفنا الله ببركته

إشارة

استهل هلاله ليلة الخميس بموافقته الخامس عشر من مارس. وكان للناس في ارتقابه أمر عجيب، وشأن من البهتان غريب، ونطق من الزور كاد يعارضه من الجماد، فضلا عن غيره رد وتكذيب. وذلك أنهم ارتقبوه ليلة الخميس الموفى ثلاثين، والأفق قد تكاثف نوءه وتراكم غيمه، إلى أن علت مع المغيب بعض حمرة من الشفق. فطمع الناس في فرجة من الغيم لعل الأبصار تلتقطه فيها. فبينما هم كذلك، إذ كبر أحدهم، فكبر الجمع الغفير لتكبيره، ومشوا قياما ينتظرون ما لا يبصرون، ويشيرون إلى ما يتخيلون، حرصا منهم على أن تكون الوقفة بعرفات يوم الجمعة، كأن الحج لا يرتبط إلا بهذا اليوم بعينه. فاختلفوا شهادات زوريه، ومشت منهم طائفة من المغاربة، أصلح الله أحوالهم، ومن أهل مصر وأربابها، فشهدوا عند القاضي برؤيته، فردهم أقبح رد، وجرّح شهاداتهم أسوأ تجريح، وفضحهم في تزييف أقوالهم أخزى فضيحة، وقال: يا للعجب! لو أن أحدهم يشهد برؤيته الشمس تحت ذلك الغيم الكثيف النسخ، لما قبلته. فكيف برؤيته هلال هو ابن تسع وعشرين ليلة! وكان أيضا مما حكى من قوله:

تشوشت المغارب، وتعرضت شعرة من الحاجب، فأبصروا خيالا ظنوه هلالا. وكان

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٣٢

لهذا القاضي جمال الدين، في أمر هذه الشهادة الزورية مقام من التوقف والتحرى، حمده له أهل التحصيل وشكره عليه ذوو العقول. وحق لهم ذلك، فإنها مناسك الحج للمسلمين عظيمة، أتوا لها من كل فج عميق. فلو تسومح فيها بطل السعي، وقال الرأي، والله يرفع الالتباس والبأس بمنه.

فلما كانت ليلة الجمعة المذكورة، ظهر الهلال أثناء فرج السحاب وقد اكتسى نورا من الثلاثين ليلة، فزعقت العامة زعقات هائلة و تنادت بوقفه الجمعة. وقالت: الحمد لله الذي لم يخيب سعينا، ولا ضيع قصدنا. كأنهم قد صح عندهم أن الوقفة إذا لم تكن توافق يوم الجمعة ليست مقبولة، ولا الرحمة فيها من الله مرجوة مأمولة؛ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ثم إنهم يوم الجمعة المذكور اجتمعوا إلى القاضى فأدوا شهادات بصحة الرؤية تبكى الحق و تضحك الباطل، فردها و قال: يا قوم حتام هذا التمادى فى الشهوة، و إلام تستنون فى طرق الهفوة؟ و أعلمهم أنه قد استأذن الأمير مكثرا فى أن يكون الصعود إلى عرفات صبيحة يوم الجمعة فيقفوا عشية بها، ثم يقفوا صبيحة يوم السبت بعده و يبيتوا ليلة الأحد بمزدلفة، فإن كانت الوقفة يوم الجمعة فما عليهم فى تأخير المبيت بمزدلفة بأس، إذ هو جائز عند أئمة المسلمين، و إن كانت يوم السبت فيها و نعمت. و أما أن يقع القطع بها يوم الجمعة فتغريز بالمسلمين و إفساد لمناسكهم، لأن الوقفة يوم التروية عند الأئمة غير جائزة، كما أنها عندهم جائزة يوم النحر. فشكر جميع من حضر للقاضى هذا المنزع من التحقيق و دعوا له، و أظهر من حضر من العامة الرضى بذلك و انصرفوا عن سلام، و الحمد لله على ذلك.

و هذا الشهر المبارك هو ثالث الأشهر الحرم، و عشره الأولى مجتمع الأمم و موسم الحج الأعظم، شهر العج و الشج، و ملتقى و فود الله من كل أوب و فج، مصاب الرحمة و البركات، و محل الموقف الأعظم بعرفات، جعلنا الله ممن فاز فيه بالحسنات، و تعرى به من ملابس الأوزار و السيئات، بمنه و كرمه، إنه أهل التقوى، و أهل المغفرة.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٣٣

و الأمير العراقى منتظر لكشف هذا الإلباس عن الناس فى أمر الهلال لعله قد اتضح له اليقين فيه، إن شاء الله. و فى سائر هذه الأيام كلها إلى هلم جرا، تصل رفاق من السرو اليمينيين و سائر حجاج الآفاق لا يحصى عددها إلا محصى آجالها و أرزاقها، لا إله سواه. فمن الآيات البينات أن يسع هذا الجمع العظيم هذا البلد الأمين الذى هو بطن واد سعته غلوة أو دونها. و لو أن المدن العظيمة حمل عليها هذا الجمع لضاقت عنه. و ما هذه البلدة المكرمة، فيما تختص به من الآيات البينات فى اتساعها لهذا البشر المعجز إحصاؤه، إلا كما شبهتها العلماء حقيقة بأنها تتسع لو فودها اتساع الرحم لمولودها.

و كذلك عرفات و سائر المشاهد المعظمة بهذا البلد الحرام، عظم الله حرمة و رزقنا الرحمة فيه بكرمه و فضله.

و من أول هذا الشهر المبارك ضربت دبابدب الأمير بكرة و عشية و فى أوقات الصلوات كأنها إشعار بالموسم. و لا يزال كذلك يوم الصعود إلى عرفات، عرفنا الله بها القبول و الرحمة.

و فى يوم الاثنين الخامس أو الرابع من هذا الشهر وصل الأمير عثمان بن على صاحب عدن، خرج منها فارا أمام سيف الإسلام المتوجه إلى اليمن، و ركب البحر فى جلاب كثيرة مشحونة بأحوال عظيمة و أموال لا تحصى كثرة لأنه طال مقامه فى تلك الولاية و اتسع كسبه. و عند خروجه من البحر بموضع يعرف بالصريم، لحقت جلبيه حراريق الأمير سيف الإسلام فأخذت جميع ما فيها من الأثقال. و كان قد استصحب الخف النفيس الخطير مع نفسه البر و هو فى جملة من رجاله و عبيده، فسلم به و وصل مكة بعير موقرة متاعا و مالا دخلت أعين الناس داره التى ابتناها بها بعد أن قدم نفيس ذخائره و ناض ماله و جملة رقيقة و خدمه ليلا.

و بالجملة فحاله لا توصف كثرة و اتساعا، و الذى انتهب له أكثر، لأنه كان فى ولايته يوصف بسوء السيرة مع التجار، و كانت المنافع التجارية كلها راجعة إليه،

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٣٤

و الذخائر الهندية المجلوبة كلها واصلت إلى يديه، فاكسب سحتا عظيما، و حصل على كنوز قارونية، لكن حوادث الأيام قد ابتدأت بالخسف به، و لا يدرى حال أمره مع صلاح الدين لم يكون، و الدنيا مفنية محيها، و اكله بنيتها، و ثواب الله خير ذخيرة، و طاعته أشرف غنيمه، لا إله سواه.

و بقيت الشهادة مضطربة في أمر هذا الهلال المبارك الميمون، إلى أن تواصلت الأخبار برؤيته ليلة الخميس الذي يوافق الخامس عشر من مارس، شهد بذلك ثقات من أهل الزهد والورع يمتيون وسواهم من الواصلين من المدينة المكرمة. لكن بقي القاضي على ثباته وتوقفه في القبول، وإرجاء الأمر إلى وصول المبشر المعلم بوصول الأمير العراقي، ليتعرف من قبله ما عند أمير الحاج في ذلك. فلما كان يوم الأربعاء السابع من الشهر المذكور وصل المبشر، وكانت نفوس أهل مكة قد أوجست خيفة لبطئه حذرا من حقد الخليفة على أميرهم مكثرا، لمذموم فعل صدر عنه. فكان وصول هذا البشير أمانا وتسكينا للنفوس الشاردة، فوصل مبشرا ومؤنسا، وأعلم برؤية الهلال ليلة الخميس المذكور. وتواترت الأنباء بذلك، فصح الأمر عند القاضي بذلك صحة أوجبت خطبته في ذلك اليوم، على ما جرت به العادة في اليوم السابع من ذي الحجة إثر صلاة الظهر، علم الناس فيها مناسكهم. ثم أعلمهم أن غداهم هو يوم الصعود إلى منى، وهو يوم التروية، وأن وقتهم يوم الجمعة، وأن الأثر الكريم فيها عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بأنها تعدل سبعين وقفه، ففضل هذه الوقفة في الأعوام كفضل يوم الجمعة على سائر الأيام.

الأمان في عرفات

فلما كان يوم الخميس بكر الناس بالصعود إلى منى وتمادوا منها إلى عرفات. وكانت السنة المبيت بها، لكن ترك الناس ذلك اضطرارا بسبب خوف بني شعبة المغيرين على تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٣٥

الحجاج في طريقهم إلى عرفات. و صدر عن هذا الأمير عثمان المتقدم ذكره في ذلك اجتهاد بل جهاد يرجي له به المغفرة لجميع خطاياهم، إن شاء الله. وذلك أنه تقدم بجميع أصحابه شاكين في الأسلحة إلى المضيق الذي بين مزدلفة و عرفات، وهو موضع ينحصر الطريق فيه بين جبلين فينحدر الشعيون من أحدهما، وهو الذي عن يسار المار إلى عرفات، فينتهبون الحاج انتهابا، فضرب هذا الأمير قبه في ذلك المضيق بين الجبلين بعد أن قدم أحد أصحابه فصعد رأس الجبل بفرسه، وهو جبل كؤود، فعجبنا من شأنه، وأكثر التعجب من أمر الفرس وكيف تمكن له الصعود إلى ذلك المرتقى الصعب الذي لا يرتقيه... فأمن جميع الحاج بمشاركة هذا الأمير لهم، فحصل على أجر جهاد وحج، لأن تأمين وفد الله عز وجل في مثل ذلك اليوم من أعظم الجهاد. واتصل صعود الناس ذلك اليوم كله والليله كلها إلى يوم الجمعة كله. فاجتمع بعرفات من البشر جمع لا يحصى عدده إلا الله عز وجل. ومزدلفة بين منى و عرفات، من منى إليها ما من مكة إلى منى، وذلك نحو خمسة أميال، ومنها إلى عرفات، مثل ذلك أو أشف قليلا، وتسمى المشعر الحرام، وتسمى جمعا، فلها ثلاثة أسماء، وقبلها بنحو الميل وادى محسر، و جرت العادة بالهرولة فيه، وهو حد بين مزدلفة و منى لأنه معترض بينهما.

مزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين و حوله مصانع و صهاريج كانت للماء في زمان زبيدة، رحمها الله. وفي وسط ذلك البسيط من الأرض حلق في وسطه قبة في أعلاها مسجد يصعد إليه على أدراج من جهتين، يزدحم الناس في الصعود إليه و الصلاة فيه عند مبيتهم بها. و عرفات أيضا بسيط من الأرض مد البصر، لو كان محشرا للخلائق لوسعهم، يحدق بذلك البسيط الأفيح جبال كثيرة. وفي آخر ذلك البسيط جبل الرحمة، وفيه و حوله موقف الناس، والعلمان قبله بنحو الميلين، فما أمام العلمين إلى عرفات حل، و ما دونهما حرم. و بمقربة منهما، مما يلي عرفات، بطن عرنة الذي أمر النبي، صلى الله عليه وسلم، بالارتفاع عنه في قوله، صلى الله عليه وسلم "عرفات كلها موقف، و ارتفعوا عن بطن عرنة،" فالواقف فيه لا يصح حجه، فيجب التحفظ من ذلك، لأن الجمالين عشية الوقفة ربما استحثوا كثيرا

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٣٦

من الحاج و حذروهم الزحمة في النفر و استدرجوهم بالعلمين اللذين أمامهم إلى أن يصلوا بهم بطن عرنة أو يجيزوه فيبطلوا على

الناس حجهم. و المتحفظ لا ينفر من الوقف حتى يتمكن سقوط القرصه من الشمس.

و جبل الرحمة المذكور منقطع عن الجبال قائم في وسط البسيط، و هو كله حجارة منقطعة بعضها عن بعض. و كان صعب المرتقى، فأحدث فيه جمال الدين المذكورة مآثره في هذا التقييد أدراجا وطيئه من أربع جهاته، يصعد فيها بالدواب المذكورة، و أنفق فيها مالا عظيما. و في أعلى الجبل قبة تنسب إلى أم سلمة، رضى الله عنها، و لا يعرف صحه ذلك. و في وسط القبة مسجد يتراحم الناس للصلاة فيه. و حول ذلك المسجد المكرم سطح محدد به، فسيح الساحة جميل المنظر، يشرف منه على بسيط عرفات. و في جهة القبلة منه جدار، و قد نصبت فيه محاريب يصلى الناس فيها.

و في أسفل هذا الجبل المقدس، عن يسار المستقبل للقبلة فيه، دار عتيقة البنيان في أعلاها غرف لها طيقان تنسب إلى آدم، صلى الله عليه و سلم. و عن يسار هذه الدار في استقبال القبلة الصخرة التي كان عندها موقف النبي، صلى الله عليه و سلم، و هي في جبل متظان. و حول جبل الرحمة و الدار المكرمة صهاريج للماء و جباب. و عن يسار الدار أيضا، على مقربة منها، مسجد صغير. و بمقربة من العلمين، عن يسار مستقبل القبلة، مسجد قديم فسيح البناء، بقى منه الجدار القبلي، ينسب إلى إبراهيم، صلى الله عليه و سلم، فيه يخطب الخطيب يوم الوقفة، ثم يجمع بين الظهر و العصر. و عن يسار العلمين أيضا، في استقبال القبلة، وادى الأراك، و هو أراك أخضر يمتد في ذلك البسيط مع البصر امتدادا طويلا.

فتكامل جمع الناس بعرفات يوم الخميس و ليلة الجمعة كلها. و في نحو الثلث الباقي من ليلة الجمعة المذكورة وصل أمير الحاج العراقي، فضرب أبيته في البسيط الأفيح، مما يلي الجانب الأيمن من جبل الرحمة في استقبال القبلة. و القبلة في عرفات هي مغرب الشمس، لأن الكعبة المقدسة في تلك الجهة منها.

فأصبح يوم الجمعة المذكورة في عرفات جمع لا شبيه له إلا الحشر، لكنه إن شاء الله تعالى حشر للثواب، مبشر بالرحمة و المغفرة يوم الحشر للحساب؛ زعم المحققون من

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٣٧

الأشياخ المجاورين أنهم لم يعاينوا قط في عرفات جمعا أحفل منه، و لا كان من عهد الرشيد، الذي هو آخر من حج من الخلفاء، جمع في الإسلام مثله، جعله الله جمعا مرحوما معصوما بعزته.

فلما جمع بين الظهر و العصر يوم الجمعة المذكور وقف الناس خاشعين باكين، و إلى الله عز و جل في الرحمة متضرعين، و التكبير قد علا، و ضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع فما رثى يوم أكثر مدامع، و لا قلوبا خواشع، و لا أعناقا لهيبه الله خواشع من ذلك اليوم. فما زال الناس على تلك الحالة، و الشمس تلفح وجوههم إلى أن سقط قرصها و تمكن وقت المغرب. و قد وصل أمير الحاج مع جملة من جنده الدارعين و وقفوا بمقربة من الصخرات عند المسجد الصغير المذكور. و أخذ السرو اليمينيون موافقهم بمنزلهم المعلومه لهم في جبال عرفات المتوارثة عن جدّ جدّ من عهد النبي، صلى الله عليه و سلم، لا تتعدى قبيلة على منزل أخرى.

موكب الأمير العراقي

و كان المجتمع منهم في هذا العام عددا لم يجتمع قط مثله. و كذلك وصل الأمير العراقي في جمع لم يصل قط مثله، و وصل معه من أمراء الأعاجم الخراسانيين و من النساء العقائل المعروفات بالخواتين، و احدثهن خاتون، و من السيدات بنات الأمراء كثير، و من سائر العجم عدد لا يحصى. فوقف الجميع و قد جعلوا قدوتهم في النفر الإمام المالكي، لأنه مذهب مالك، رضى الله عنه، يقتضى أن لا ينفر حتى يتمكن سقوط القرص و يحين وقت المغرب. و من السرو اليمينيين من نفر قبل ذلك. فلما أن حان الوقت أشار الإمام المالكي بيديه و نزل عن موقفه، فدفع الناس بالنفر دفعا، ارتجت له الأرض و وجفت الجبال. فيا له موقفا ما أهون مرآه و أرجى في النفوس عقباه! جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه، و تغمده بنعماه، إنه منعم كريم، حنان منان.

و كانت محللة هذا الأمير العراقي جميلة المنظر، بهيئة العدة، رائقة المضارب و الأبنية، عجيبه القباب و الأروقة، على هينات لم ير أبدع منها منظرا. فأعظمها مرأى مضرب

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٣٨

الأمير، و ذلك أنه أحدق به سرادق كالسور من كتان كأنه حديقة بستان أو زخرفة بستان. و في داخله القباب المضروبة، و هي كلها سواد في بياض، مرقشة ملونة كأنها أزاهير الرياض. و قد جللت صفحات ذلك السرادق، من جوانبه الأربعة كلها، أشكال درقية من ذلك السواد المنزل في البياض يستشعر الناظر إليها مهابة يتخيلها درقا لمطية قد جللتها مزخرفات الأغشية. و لهذا السرادق الذي هو كالسور المضروب أبواب مرتفعة كأنها أبواب القصور المشيدة، يدخل منها دهاليز و تعاريج ثم يفضى منها الفضاء الذي فيه القباب. و كأن هذا الأمير ساكن في مدينة قد أحدق بها سورها تنتقل بانتقاله و تنزل بنزوله، و هي من الأبهات الملوكية المعهودة التي لم يعهد مثلها عند ملوك المغرب.

و دخل تلك الأبواب حجاج الأمير و خدمه و حاشيته، و هي أبواب مرتفعة، يجيء الفارس برايته فيدخل عليها دون تنكيس و لا تطأطؤ، قد أحكمت إقامة ذلك كله أمراس وثيقة من الكتان تتصل بأوتاد مضروبة، أدير ذلك كله بتدبير هندسي غريب. و لسائر الأمراء الواصلين صحبة هذا الأمير مضارب دون ذلك لكنها على تلك الصفة، و قباب بديعة المنظر عجيبه الشكل قد قامت كأنها التيجان المنصوبة، ما يطول وصفه و يتسع القول فيه من عظيم احتفال هذه المحلة في الآلة و العدة و غير ذلك مما يدل على سعة الأحوال و عظيم الانخراق في المكاسب و الأموال.

و لهم أيضا في مراكزهم على الإبل قباب تظلمهم بديعة المنظر عجيبه الشكل قد نصبت على محامل من الأعواد يسمونها القشاوات، و هي كالتوايت المجوفة، هي لركابها من الرجال و النساء كالأمهدة للأطفال، تملأ بالفرش الوثيرة، و يقعد الراكب فيها مستريحا كأنه في مهاد لين فسيح و بإزائه معادله أو معادلته في مثل ذلك من الشقة الأخرى، و القبة مضروبة عليهما، فيسار بهما و هما نائمان لا يشعران، أو كيفما أحبا، فعند ما يصلان المرحلة التي يحطان بها ضرب سرادقهما للحين أن كانا من أهل الترفه و النعم فيدخل بهما راكبين و ينصب لهما كرسي ينزلان عليه، فينتقلان من ظل قبة

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٣٩

المحمل إلى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما و لا خطفة شمس تصيبهما. و ناهيك من هذا الترفيه! فهؤلاء لا يلقون لسفرهم، و إن بعدت شقته، نصبا، و لا يجدون على طول الحل و الترحال تعباً.

و دون هؤلاء في الراحة راكبو المحارات و هو شبيهة الشقادف التي تقدم وصفها في ذكر صحراء عيذاب، لكن الشقادف أبسط و أوسع، و هذه أضمر و أضيق، و عليها أيضا ظلال تقي حر الشمس. و من قصرت حاله عنها في هذه الأسفار فقد حصل على نصب السفر الذي هو قطعة من العذاب.

ثم يرجع القول إلى استيفاء حال النفر عشية الوقفة المذكورة بعرفات، و ذلك أن الناس نفروا منها بعد غروب الشمس، كما تقدم الذكر، فوصلوا مزدلفة مع العشاء الآخرة، فجمعوا بها بين العشاءين، حسبما جرت به سنة النبي، صلى الله عليه و سلم، و اتقد المشعر الحرام تلك الليلة كلها مشاعيل من الشمع المسرج، و أما مسجده المذكور فعاد كله نورا، فيخيل للناظر إليه أن كواكب السماء كلها نزلت به. و على هذا الصفة كان جبل الرحمة و مسجده ليلة الجمعة؛ لأن هؤلاء الأعاجم الخراسانيين و سواهم من العراقيين أعظم الناس هممة في استجلاب هذا الشمع و الاستكثار منه إضاءة لهذه المشاهد الكريمة. و على هذه الصفة عاد الحرم بهم مدة مقامهم فيه، فيدخل منهم كل إنسان بشمعة في يده، و أكثر ما يقصدون بذلك حطيم الإمام الحنفي لأنهم على مذهبه.

و شاهدنا منه شمعا عظيما أحضر منه، تنوء الشمعة منه بالعصبة كأنه السرو، و وضع أمام الحنفي.

فبات الناس بالمشعر الحرام هذه الليلة، و هي ليلة السبت، فلما صلوا الصبح غدوا منه إلى منى بعد الوقوف و الدعاء، لأن مزدلفة كلها

موقف إلى وادي محسر، ففيه تقع الهرولة في التوجه إلى منى حتى يخرج عنه. و من مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار، و هو المستحب، و منهم من يلتقطها حول مسجد الخيف بمنى، و كل ذلك واسع. فلما انتهى الناس إلى منى بادروا الرمي بجمرة العقبة بسبع حصيات ثم نحرُوا أو ذبحوا و حلوا من كل شيء إلا النساء و الطيب حتى يطوفوا طواف الإفاضة.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٤٠

و رمى هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر. ثم توجه أكثر الناس لطواف الإفاضة، و منهم من أقام اليوم الثاني، و منهم من أقام اليوم الثالث، و هو يوم الانحدار إلى مكة. فلما كان اليوم الثاني من يوم النحر، عند زوال الشمس، رمى الناس بالجمرة الأولى سبع حصيات، و بالجمرة الوسطى كذلك، و بهاتين الجمرتين يقفون للدعاء، و بجمرة العقبة كذلك و لا يقفون بها، اقتداء في ذلك كله بفعل النبي، صلى الله عليه و سلم. فتعود جمرة العقبة في هذين اليومين أخيرة، و هي يوم النحر أولى منفردة لا يخلط معها سواها.

و في اليوم الثاني من يوم النحر، بعد رمي الجمرات، خطب الخطيب بمسجد الخيف، ثم جمع بين الظهر و العصر، و هذا الخطيب وصل مع الأمير العراقي مقداً من عند الخليفة للخطبة و القضاء بمكة على ما يذكر، و يعرف بتاج الدين. و ظاهر أمره البلادة و البله لأن خطبته أعربت عن ذلك، و لسانه لا يقيم الإعراب.

العودة إلى مكة

فلما كان اليوم الثالث تعجل الناس في الانحدار إلى مكة، بعد أن كمل لهم رمى تسع و أربعين جمرة: سبع منها يوم النحر بالعقبة، و هي المحللة؛ ثم إحدى و عشرون في اليوم الثاني، بعد زوال الشمس، سبعا سبعا في الجمرات الثلاث؛ و في اليوم الثالث كذلك، و نفروا إلى مكة؛ فمنهم من صلى العصر بالأبطح، و منهم من صلاها بالمسجد الحرام، و منهم من تعجل فصلى الظهر بالأبطح. و مضت السنة قديماً بإقامة ثلاثة أيام، بعد يوم النحر، بمنى لإكمال رمى سبعين حصاة، فوقع التعجيل في هذا الزمان في اليومين كما قال الله تبارك و تعالى: **فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**، و ذلك مخافة بني شعبه و ما يطرأ من حزابه المكيين.

و قد كانت في يوم الانحدار المذكور، بين سودان أهل مكة و بين الأتراك العراقيين، جولة و هوشة وقعت فيها جراحات و سلت السيوف و فوقت القسي و رميت السهام

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٤١

و انتهب بعض أمتعة التجار، لأن منى في تلك الأيام الثلاثة سوق من أعظم الأسواق يباع فيها من الجواهر النفيس إلى أدنى الخرز، إلى غير ذلك من الأمتعة و سائر سلع الدنيا، لأنها مجتمع أهل الآفاق. فوقى الله شر تلك الفتنة بتسكينها سريعاً. و كانت عين الكمال في تلك الوقفة الهنيئة، و كمل للناس حجهم، و الحمد لله رب العالمين.

و في يوم السبت، يوم النحر المذكور، سقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الأمير العراق إلى مكة على أربعة جمال، تقدمها القاضي الجديد بكسوة الخليفة السوادية، و الرايات على رأسه، و الطبول تهر وراءه، و ابن عمّ الشيبى محمد بن إسماعيل معها، لأنه ذكر أن أمر الخليفة نفذ بعزله عن حجاب البيت لهنات اشتهرت عنه، و الله يطهر بيته المكرم بمن يرضى من خدامه بمنه. و هذا ابن العم المذكور هو أشبه طريقة منه و أمثل حالاً، و قد تقدم ذكر ذلك في العزلة الأولى. فوضعت الكسوة في السطح المكرم أعلى الكعبة.

فلما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور، اشتغل الشيبون بإسبالها خضراء يانعة تقيد الأبصار حسناً، في أعلاها رسم أحمر واسع مكتوب في الصفح الموجه إلى المقام الكريم حيث الباب المكرم، و هو وجهها المبارك، بعد البسمة: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ الْآيَةَ**، و في سائر الصفحات اسم الخليفة و الدعاء له، و تحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صغار بيض فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن و ذكر الخليفة أيضاً. فكملة كسوتها، و شممت أذيالها الكريمة صونا من أيدي الأعاجم و شدة اجتذابها و قوة تهافتها عليها و انكبابها. فلاح للناظرين منها أجمل منظر، كأنها عروس جلوت في السندس الأخضر، أمتع الله بالنظر

إليها كل مشتاق لقائها حريص على المثول بفنائها بمنه.

وفي هذه الأيام يفتح البيت الكريم كل يوم للأعاجم العراقيين و الخراسانيين و سواهم من الواصلين مع الأمير العراقي. فظهر من تراحمهم و تطارحهم على الباب الكريم، و وصول بعضهم على بعض، و سباحة بعضهم على رؤوس بعض كأنهم في غدير من الماء، أمر لم ير أهول منه، يؤدي إلى تلهف المهج و كسر الأعضاء. و هم في خلال ذلك لا يباليون و لا يتوقفون، بل يلقون بأنفسهم على ذلك البيت الكريم، من

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٤٢

فرط الطرب و الارتياح، إلقاء الفراش بنفسه على المصباح. فعادت أحوال السرو اليمينين في دخولهم البيت المبارك على الصفة المتقدمة الذكر، حال تودة و وقار بالإضافة إلى هؤلاء الأعاجم الأغنام، نفعهم الله بنياتهم، و قد فقد منهم في ذلك المزدحم الشديد من دنا أجله، و الله يغفر للجميع. و ربما زاحمهم في تلك الحال بعض نسائهم فيخرجن و قد نضجت جلودهن طبخا في مضيق ذلك المعترك الذي حمى بأنفاس الشوق و طيشه، و الله ينفع الجميع بمعتقده و حسن مقصده بعزته.

و في ليلة الخميس الخامس عشر من الشهر المبارك، إثر صلاة العتمة، نصب منبر الوعظ أمام المقام، فصعد واعظ خراساني حسن الشارة مليح الإشارة، يجمع بين اللسانين عربي و عجمي، فأتى في الحالين بالسحر الحلال من البيان، فصيح المنطق، بارع الألفاظ، ثم يقبل لسانه للأعاجم بلغتهم فيزههم إطرابا و يذيبهم زفرات و انتحابا.

فلما كانت الليلة الأخرى بعدها وضع منبر آخر خلف حطيم الحنفي، فصعد إثر صلاة العتمة أيضا شيخ أبيض السبال، رائع الجلال، بارع التمام في الفضل و الكمال، فصعد بخطبة انتظمت آية الكرسي كلمة كلمة، ثم تصرف في أساليب الوعظ و أفانين من العلم باللسانين أيضا، حرك بها القلوب حتى أطارها و أورثها احتداما بالخشية بعد استعارها. و في أثناء ذلك ترشقه سهام من المسائل فيتلقاها بمجن من الجواب السريع البليغ، فتحار له الألباب، و يملك كل نفس منه الإغراب و الإعجاب، فكأنما هو وحى يوحى. و هذا الذي مشى به و عاظ هذه الجهات المشرقية من إلقاء المسائل إليهم و إفاضة شآبيب الامتحان عليهم، من أعجب الأمور المعربة عن غريب شأنهم و الناطقة بسحر بيانهم. و ليست في فن واحد، إنما هي من فنون شتى. و ربما قصد بها التعنيت و التنكيب فيأتون بالجواب كخطفة البرق و ارتداد الطرف، و الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء.

و بين أيدي هؤلاء الوعاظ قراء ينغمون بالقراءة فيأتون بألحان تكسب الجماد طربا

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٤٣

و أريحية كأنها المزامير الداودية. فلا تدرى من أي أحوال هذا المجتمع تعجب، و الله يؤتى الحكمة من يشاء، لا إله سواه، و سمعت هذا الشيخ الواعظ يسند الحديث إلى خمسة من أجداده: جد عن جد، نسقا مسلسلا من أبيه إليهم على اتصال، كلهم له لقب يدل على منزلته من العلم و مكاتته من التذكير و الوعظ، فهو معرق في الصنعة الشريفة، تليد المجد فيها.

و في أيام الموسم كلها عاد المسجد الحرام، نزهه الله و شرفه، سوقا عظيمة يباع فيه من الدقيق العقيق، و من التبر إلى الدر، غير ذلك من السلع. فكان مبيع الدقيق بدار الندوة إلى جهة باب بنى شيبه، و معظم السوق في البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال، و في البلاط الآخذ من الشمال إلى الشرق، و في ذلك من النهى الشرعى ما هو معلوم، و الله غالب على أمره، لا إله سواه.

المسير إلى العراق

و في عشي يوم الأحد الموفى عشرين من الشهر المذكور و هو أول أبريل، كان مسيرنا إلى محلة الأمير العراقي بالزاهر و هو على نحو الميلين من البلد، و قد كمل اكترأونا إلى الموصل، و هو أمام بغداد بعشرة أيام، عرفنا الله الخير و الخيرة بمنه. فأقمنا بالزاهر ثلاثة أيام نجدد العهد كل يوم بالبيت العتيق، و نعيد وداعه. فلما كان ضحوه يوم الخميس الثاني و العشرين من ذى الحجة المذكور، أقلعت

المحلّة على تودّه و رفق بسبب البطء و التأخر و نزلت على نحو ثمانية أميال من الموضوع الذى أقلعت منه بمقربة من بطن مرة، و الله كفيل بالسلامة و العصمة بمنه.

فكانت مدة مقامنا بمكة، قدسها الله، من يوم وصولنا إليها، و هو يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر من سنة تسع و سبعين، إلى إقلاعنا من الزاهر، و هو يوم الخميس الثانى و العشرين لذى الحجة من السنة المذكورة، ثمانية أشهر و ثلث شهر، التى هى بحسب الزائد و الناقص من الأشهر مئتا يوم اثنتان و خمسة و أربعون يوما

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٤٤

سعيدات مباركات، جعلها الله لذاته، و جعل القبول لها موافقا لمرضاته، بمنه، غنا عن رؤية البيت الكريم فيها ثلاثة أيام: يوم عرفه، و ثانى يوم النحر، و يوم الأربعاء الذى هو الحادى و العشرون لذى الحجة، قبل يوم الخميس، يوم إقلاعنا من الزاهر، و الله لا يجعله آخر العهد بحرمه الكريم بمنه.

ثم أقلعنا من ذلك الموضوع إثر صلاة الظهر من يوم الخميس، إلى بطن مر، و هو واد خصيب كثير النخل ذو عين فوارة سياله الماء تسقى منها أرض تلك الناحية. و على هذا الوادى قطر متسع و قرى كثيرة و عيون، و منه تجلب الفواكه إلى مكة، حرسها الله.

فأقمنا به يوم الجمعة لسبب عجيب، و ذلك أن الملكة خاتون بنت الأمير مسعود، ملك الدروب و الأرمن و ما يلى بلاد الروم، و هى إحدى الخواتين الثلاث اللاتى و صلن للحج، مع أمير الحاج أبى المكارم طاشتكين، مولى أمير المؤمنين، و الموجه كل عام من قبل الخليفة. و له بتولى هذه الخطّة نحو الثمانية أعوام أو أزيد، و خاتون هذه أعظم الخواتين قدرا، بسبب سعة مملكة أبيها. و المقصود من ذكر أمرها أنها أسرت من بطن مر ليلة الجمعة إلى مكة فى خاصة من خدمها و حشمها، فتفقد موضعها يوم الجمعة المذكور، فوجه الأمير ثقات من خاصة أصحابه يستطلعونها فى الانصراف، و أقام بالناس منتظرا لها. فوصلت عتمه يوم السبت، و أجليت فى سبب انصراف هذه الملكة المترفة قداح الظنون، و سلت الخواطر على استخراج سرها المكنون، فمنهم من يقول: إنها انصرفت أنفة لبعض ما انتقدته على الأمير، و منهم من قال: إن نوازع الشوق للمجاورة عطفت بها إلى المثابة المكرمة، و لا يعلم الغيب إلا الله. و كيفما كان الأمر فقد كفى الله العطلّة بسببها، و أطلق سبيل الحاج، و لله الحمد على ذلك.

و أبو هذه المرأة المذكورة الأمير مسعود، كما ذكرناه، و هو فى بسطة من ملكه و اتساع من إمرته، على ما حقق عندنا، أكثر من مئة ألف فارس. و صهره عليها، نور الدين صاحب آمد و ما سواها؛ و يركب له أيضا نحو اثنى عشر ألف فارس. و لخاتون هذه أفعال من البر كثيرة فى طريق الحاج: منها سقى الماء للسبيل، عينت لذلك نحو الثلاثين ناضحة، و مثلها للزاد، و استجلبت لما تختص به من الكسوة و الأزودة و غير

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٤٥

ذلك نحو المائة بعير. و أمورها يطول وصفها، و سنها نحو خمسة و عشرين عاما.

و لخاتون الثانية، أم عز الدين صاحب الموصل، زوج قطب الدين ابن أتابك أخى نور الدين الذى كان صاحب الشام، رحمه الله، و لهذه أفعال كثيرة من البر.

و خاتون الثالثة ابنة الدقوس، صاحب أصبهان من بلاد خراسان، و هى أيضا كبيرة القدر، عظيمة الشأن، منافسة فى أفعال البر. و شأنهن جمع عجيب جدا فيما هن بسيله من الخيل و الاحتفال فى الأبهة الملوكية.

ثم أقلعنا ظهر يوم السبت الرابع و العشرين لذى الحجة المذكور و نزلنا بمقربة من عسفان، ثم أسرينا إليها نصف الليل و صبحناها بكره يوم الأحد. و هى فى بسيط من الأرض بين جبال، و بها آبار معينة تنسب لعثمان، رضى الله عنه، و شجر المقل فيها كثير. و بها حصن عتيق البنيان، ذو أبراج مشيدة، غير معمور، قد أثر فيه القدم، و أوهته قلة العمارة و لزوم الخراب. فاجتزناها بأميال و نزلنا مريحين قائلين. فلما كان إثر صلاة الظهر أقلعنا إلى خليص، فوصلناها عشى النهار. و هى أيضا فى بسيط من الأرض، كثيرة حدائق النخل، لها جبل فيه

حصن مشيد في قنته. و في البسيط حصن آخر قد أثر فيه الخراب. و بها عين فواره قد أحدثت لها أخايد في الأرض مسربة، يستقى منها على أفواه كالأبار، يجدد الناس بها الماء لقلته في الطريق بسبب القحط المتصل، و الله يغيث بلاده و عباده. و أصبح الناس بها مقيمين يوم الاثنين لإرواء الإبل و استصحاب الماء.

و هذه الجملة العراقية، و من انضاف إليها من الخراسانية و الموصلية و سائر جهات الآفاق، من الواصلين صحبة أمير الحاج المذكور جمع لا يحصى عدده إلا الله تعالى، يغص بها البسيط الأفيح، و يضيق عنهم المهمة الصحاح، فترى الأرض تميد بهم ميذا، و تموج بجمعهم موجا، فتبصر منهم بحرا طامى العباب، مأوه السراب، و سفنه الركاب، و شرعه الظلائل المرفوعة و القباب، تسيير سير السحب المتركمة، يتداخل بعضها على بعض، و يضرب بعضها جوانب بعض. فتعاین لها تراحما في البراح المنفسح
تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٤٦

يهول و يروع، و اصطكاكا نبع المحارات فيه بعضه ببعض مقروع. فمن لم يشاهد هذا السفر العراقي لم يشاهد من أعاجيب الزمان ما يحدث به، و يتحف السامع بغرابته، و القدرة و القوة لله وحده، و حسبك أن النازل في منزل من منازل هذه المحلة متى خرج عنها لبعض حاجة، و لم تكن له دلالة يستدل بها على موضعه ضل و تلف، و عاد منشودا في جملة الضوال. و ربما اضطرت له الحال إلى الوصول إلى مضرب الأمير، و رفع مسألته إليه، فيأمر أحد المنشدين بريحه و الهاتفين بأوامره ممن قد أعد لذلك أن يردفه خلفه على جمل و يطوف به المحلة العجاجة، و هو قد ذكر له اسمه، و اسم جملته، و اسم البلد الذي هو منه، فيرفع عقيرته بذلك معرفا بهذا الضال، و مناديا باسم الجمال و بلده، إلى أن يقع عليه، فيؤديه إليه. و لو لم يفعل ذلك لكان آخر عهده بصاحبه إلا أن يلتقطه التقاطا أو يقع عليه اتفاقا. فهذا من بعض عجائب شؤون هذه المحلة، و عجائبها أكثر من أن يحيط بها الوصف. و لأهلها من قوة الجدة و اليسار ما يعينهم على ما هم بسبيله، و الملك بيد الله يؤتیه من يشاء.

و لهؤلاء النسوة الخواتين في كل عام، إذا لم يحجن بأنفسهن، نواضح مسبله مع الحاج يرسلنها مع ثقات يسقون أبناء السبيل في المواضع المعروف فيها الماء، و في الطريق كله، و بعرفات، و بالمسجد الحرام، في كل يوم و ليلة. فلهن في ذلك أجر عظيم، و ما التوفيق إلا- بالله جل جلاله. فتسمع المنادى على النواضح يرفع صوته بالماء للسبيل، فيهطع إليه المرملون من الزاد، و الماء بقرهم و أباريقهم فيملأونها، و يقول المنادى في إشادته بصوته: أبقى الله الملكة خاتون، ابنة الملك الذي من أمره كذا، و من شأنه كذا. و يحليه بحلاه، إعلانا باسمها، و إظهارا لفعالها، و استجلابا للدعاء لها من الناس، و الله لا يضيع أجر من أحسن عملا. و قد تقدم تفسير هذه اللفظة خاتون، و أنها عندهم بمنزلة السيدة أو ما يليق بهذا اللفظ الملوكي النسائي.

و من عجيب هذه المحلة أيضا، على عظمتها و كبرها، و كونها وجود دنيا بأسرها،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٤٧

أنها إذا حطت رحالها، و نزلت منزلها، ثم ضرب الأمير طبله للإنداز بالرحيل، و يسمونه الكوس، لم يكن بين استقلال الرواحل بأوقارها و رحالها و ركابها إلا كلا و لا. فلا يكاد يفرغ الناقر من الضربة الثالثة إلا و الركائب قد أخذت سبيلها. كل ذلك من قوة الاستعداد، و شدة الاستظهار على الأسفار، و الحول و القوة لله وحده، لا إله سواه.

و إسراؤها بالليل بمشاعيل موقدة يمسكها الرجال بأيديهم، فلا تبصر قشاوة من القشاوات إلا و أمامها مشعل. فالناس يسرون منها بين كواكب سيارة توضح غسق الظلماء، و تباهى بها الأرض أنجم السماء. و المرافق الصناعية و غيرها من المصالح الدينية و المنافع الحيوانية كلها موجودة بهذه المحلة غير معدومة، و وصفها يطول، و الأخبار عنها لا تنحصر.

فلما كان ظهر يوم الاثنين إثر الصلاة، أقلعنا من خليص مرتحلين، و تمادى سيرنا إلى العشاء الآخرة، ثم نزلنا و نمنا نومة خفيفة. ثم ضرب الكوس، فأقلعنا و أسرينا إلى ضحى من النهار. ثم نزلنا مريحين إلى أول الظهر من يوم الثلاثاء. ثم أقلعنا من منزلنا ذلك إلى واد يعرف بوادي السمك، اسم يكاد يكون واقعا على غير مسمى فنزلناه مع العشاء الآخرة، و أصبحنا به مقيمين يوم الأربعاء لتجديد

حمل الماء، و هو بهذا الوادى فى مستنقعات، و ربما حفر عليه فى الرمل. فأقلعنا منه أول ظهر يوم الأربعاء المذكور، ثم أجزنا مع الليل عقبه.

محجرة كؤودا، ذهب فيها من الجمال كثير. و نزلنا فى بسيط من الأرض، و نمنا إلى نصف الليل، ثم رحلنا فى مهمه أفيح بسيط ممتد مد البصر، و رمله مثاله، فمشت الجمال فيها دون

مقطرة لانفساح طريقها.

ثم نزلنا مريحين قائلين يوم الخميس التاسع و العشرين من ذى الحجة، و بيننا و بين بدر مقدار مرحلتين، فلما كان أول الظهر رحلنا إلى مقربة من بدر فنزلنا بائتين. ثم قمنا

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٤٨

قبل نصف الليل فوصلنا بدرا و قد ارتفع النهار. و هى قرية فيها حدائق نخل متصلة، و بها حصن فى ربوة مرتفعة، و يدخل إليها على بطن واد بين جبال. و ببدر عين فوارة، و موضع القلب الذى كان بإزائه الواقعة الإسلامية التى أعزت الدين و أذلت المشركين، هو اليوم نخيل، و موضع الشهداء خلفه، و جبل الرحمة الذى نزلت فيه الملائكة عن يسار الداخل منها إلى الصفراء، و بإزائه جبل الطبول، و هو شبيه كتيب رمل ممتد. و هذه التسمية لإشاعة لهج بها أكثر المسلمين، و ذلك أنهم يزعمون أن أصوات الطبول تسمع بها كل يوم جمعة، كأنها آثار إنذارات باقية بما سلف من النصر النبوى فى ذلك الموضع، و الله أعلم بغيبه.

و موضع عريش النبى، صلى الله عليه و سلم، يتصل بسفح جبل الطبول المذكور، و موضع الوقعة أمامه. و عند نخيل القلب مسجد، يقال: أنه مبرك ناقة النبى، صلى الله عليه و سلم. و صح عندنا، على زعم أحد الأعراب الساكنين ببدر، أنهم يسمعون أصوات الطبول بالجبل المذكور، لكن عين لذلك كل يوم اثنين و يوم خميس. فعجبنا من زعمه كل العجب و لا يعلم حقيقة ذلك إلا الله تعالى. و بين بدر و الصفراء بريد، و الطريق إليها فى واد بين جبال تتصل بها حدائق النخيل، و العيون فيها كثيرة: منها حصنان يعرفان بالتوأمين، و حصن يعرف بالحسنية، و آخر يعرف بالجديد، إلى حصون كثيرة، و قرى متصلة.

شهر محرم سنة ثمانين و خمس مائة عرفنا الله بركته و بركة سنته

إشارة

استهل هلاله ليلة السبت بموافقة الرابع عشر لشهر أبريل و نحن مقلعون من بدر إلى الصفراء، فبتنا باستهلاله بهذه البقعة الكريمة: بدر، حيث نصر الله المسلمين و قهر المشركين، و الحمد لله على ذلك. و كان نزولنا بالصفراء إثر صلاة العشاء الآخرة.

فأصبحنا يوم السبت، مستهل الهلال المذكور، مقيمين مريحين بها، ليتزود الناس منها

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٤٩

الماء و يأخذوا نفس استراحة إلى الظهر. و منها إلى المدينة المكرمة إن شاء الله ثلاثة أيام، فأقلعنا منها ظهر يوم السبت المذكور، و تمادى السير بنا إلى إثر صلاة العشاء الآخرة، و الطريق فى واد متصل بين جبال، فنزلنا ليلة الأحد، ثم أقلعنا نصف الليل، و تمادى سيرنا ضحى من النهار، فنزلنا مريحين قائلين ببئر ذات العلم، و يقال: إن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قاتل الجن بها، و تعرف أيضا بالروحاء. و البئر المذكورة متناهية بعد الرشاء لا يكاد يلحق قعرها، و هى معينة.

و رحلنا منها إثر صلاة الظهر من يوم الأحد، و تمادى بنا السير إلى إثر صلاة العشاء الآخرة، فنزلنا شعب على، رضى الله عنه، و أقلعنا منه نصف الليل إلى تربة، إلى البيداء. و منها تبصر المدينة المكرمة، فنزلنا ضحى يوم الاثنين الثالث لمحرم المذكور بوادى العقيق، و

على شفيره مسجد ذى الحليفة من حيث أحرم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، و المدينة من هذا الموضع على خمسة أميال. و من ذى الحليفة، حرم المدينة، إلى مشهد حمزة إلى قباء، و أول ما يظهر للعين منارة مسجدتها بيضاء مرتفعة. ثم رحلنا منها إثر صلاة الظهر من يوم الاثنين المذكور، و هو السادس عشر لأبريل، فنزلنا بظاهر المدينة الزهراء، و التربة البيضاء، و البقعة المشرفة بمحمد سيد الأنبياء، صلى الله عليه وسلم صلاة تتصل مع الأحيان و الآناء.

و فى عشى ذلك اليوم دخلنا الحرم المقدس لزيارة الروضة المكرمة المطهرة، فوقفنا بإزائها مسلمين، و لترب جنباتها المقدسة مستلمين، وصلينا بالروضة التى بين القبر المقدس و المنبر، و استلمنا أعواد المنبر القديمة التى كانت موطئ الرسول، صلى الله عليه وسلم، و القطعة الباقية من الجذع الذى حن إليه، صلى الله عليه وسلم، و هى ملصقة فى عمود قائم أمام الروضة الصغيرة التى بين القبر و المنبر، و عن يمينك إذا استقبلت القبلة فيها، ثم صلينا صلاة المغرب مع الجماعة. و كان من الاتفاق السعيد لنا أن وجدنا بعض فسحة فى تلك الحال لاشتغال الناس بإقامة مضاربهم، و ترتيب رحالهم، فتمكنا من الغرض المقصود، و فزنا بالمشهد المحمود، و أدينا حق السلام على الصاحبين الضجيعين: صديق الإسلام و فاروقه، و انصرفنا إلى رحالنا مسرورين،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٥٠

و لنعمة الله علينا شاكرين. و لم يبق لنا أمل من آمال و جهتنا المباركة، و لا وطر إلا و قد قضيناها، و لا غرض من أغراضنا المأمولة إلا و بلغناه. و تفرغت الخواطر للإياب للوطن، نظم الله الشمل، و تمم علينا الفضل، و الحمد لله على ما أولاه و أسداه، و أعاده من جميل صنعه و أبداه، فهو أهل الحمد و الشكر و مستحقه، لا إله سواه.

ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم و ذكر روضته المقدسة المطهرة

المسجد المبارك مستطيل، و تحفه من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به، و وسطه كله صحن مفروش بالرمال و الحصى، فالجهة القبليّة منها لها خمس بلاطات مستطيلة من غرب إلى شرق، و الجهة الجوفية لها أيضا خمس بلاطات على الصفة المذكورة، و الجهة الشرقية لها ثلاث بلاطات، و الجهة الغربية لها أربع بلاطات. و الروضة المقدسة مع آخر الجهة القبليّة بما يلي الشرق؛ و انتظمت من بلاطاته مما يلي الصحن فى السعة اثنين و نيفت إلى البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار، و لها خمسة أركان بخمس صفحات، و شكلها شكل عجيب، لا يكاد يتأتى تصويره و لا تمثيله، و الصفحات الأربع محرفة من القبلة تحريفا بديعا، لا يتأتى لأحد معه استقبالها فى صلاته لأنه ينحرف عن القبلة.

و أخبرنا الشيخ الإمام العالم الورع، فقيه العلماء، و عمدة الفقهاء، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم التونسي، رضى الله عنه، أن عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، اخترع ذلك فى تدبير بنائها مخافة أن يتخذها الناس مصلى.

و أخذت أيضا من الجهة الشرقية سعة بلاطين فانتظم داخلها من أعمدة الأبلطة ستة. و سعة الصفحة القبليّة منها أربعة و عشرون شبرا، و سعة الصفحة الشرقية ثلاثون شبرا، و ما بين الركن الشرقى إلى الركن الجوفى صفحة سعتها خمسة و ثلاثون شبرا. و من الركن الجوفى إلى الغربى صفحة سعتها أربعة و عشرون شبرا.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٥١

و فى هذه الصفحة صندوق آبنوس، مختم بالصندل، مصفح بالفضة، مكوكب بها، هو قبالة رأس النبى، صلى الله عليه وسلم، و طوله خمسة أشبار، و عرضه ثلاثة أشبار، و ارتفاعه أربعة أشبار. و فى الصفحة التى بين الركن الجوفى و الركن الغربى موضع عليه ستر مسبل، يقال: إنه كان مهبط جبريل، عليه السلام. فجميع سعة الروضة المكرمة من جميع جهاتها متتا شبر و اثنان و سبعون شبرا. و هى مؤزرّة بالرخام البديع النحت، الرائع النعت. و ينتهى الإزار منها إلى نحو الثلث أو أقل يسيرا، و عليه من الجدار المكرم ثلث آخر، و قد علاه تضميح المسك و الطيب بمقدار نصف شبر، مسودا، مشققا، متراكما مع طول الأزمنة و الأيام. و الذى يعلوه من الجدار شبابيك

عود متصله بالسّمك الأعلى، لأن أعلى الروضة المباركة متصل بسمك المسجد. و إلى حيز إزار الرخام تنتهي الأستار، و هي لازوردية اللون، مختمة بخواتيم بيض مثنى و مربعة. و في داخل الخواتيم دوائر مستديرة و نقط بيض تحف بها، فمنظرها منظر بديع الشكل. و في أعلاها رسم مائل إلى البياض. و في الصفحة القبليّة أمام وجه النبي، صلى الله عليه و سلم، مسمار فضة، هو أمام الوجه الكريم فيقف الناس أمامه للسلام. و إلى قدميه، صلى الله عليه و سلم، رأس أبي بكر الصديق، رضى الله عنه، و رأس عمر الفاروق مما يلي كتفى أبي بكر الصديق، رضى الله عنهما فيقف المسلم مستدبر القبلة و مستقبل الوجه الكريم، فيسلم ثم ينصرف يمينا إلى وجه أبي بكر، ثم إلى وجه عمر، رضى الله عنهما. و أمام هذه الصفحة المكرمة نحو العشرين قنديلا معلقة من الفضة، و فيها اثنان من ذهب. و في جوفى الروضة المقدسة حوض صغير مرخم، في قبلته شكل محراب، قيل: إنه كان بيت فاطمة، رضى الله عنها، و يقال: هو قبرها، و الله أعلم بحقيقة ذلك.

و عن يمين الروضة المكرمة المنبر الكريم، و منه إليها اثنتان و أربعون خطوة، و هو في الحوض المبارك الذى طوله أربع عشرة خطوة، و عرضه ست خطا، و هو مرخم كله، و ارتفاعه شبر و نصف، و بينه و بين الروضة الصغيرة، التى بين القبر الكريم و المنبر، و فيها جاء الأثر أنها روضة من رياض الجنة، ثمانى خطوات. و فى هذه الروضة يتراحم الناس للصلاة، و حق لهم ذلك. و بإزائها لجهة القبلة عمود، يقال: إنه مطبق على بقية الجذع الذى حن للنبي، صلى الله عليه و سلم، و قطعته منه فى وسط العمود

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٥٢

ظاهرة يقبلها الناس و يبادرون للتبرك بلمسها و مسح خدودهم فيها، و على حافتها فى القبلة منها الصندوق. و ارتفاع المنبر الكريم نحو القامة أو أزيد، و سعته خمسة أشبار، و طوله خمس خطوات، و أدراجه ثمانية، و له باب على هيئة الشباك مقفل يفتح يوم الجمعة، و طوله أربعة أشبار و نصف شبر.

و المنبر مغشى بعود الآبنوس، و مقعد الرسول صلى الله عليه و سلم، من أعلاه ظاهر قد طبق عليه بلوح من الآبنوس غير متصل به، يصونه من القعود عليه، فيدخل الناس أيديهم إليه و يتمسحون به تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم. و على رأس رجل المنبر اليمنى، حيث يضع الخطيب يده إذا خطب، حلقة فضة مجوفة تشبه حلقة الخياط التى يضعها فى إصبعه صفة لا صغرا لأنها أكبر منها، لآعبة تستدير فى موضعها، يزعم الناس أنها لعبة الحسن و الحسين، رضى الله عنهما، فى حال خطبة جدّهما، صلوات الله و سلامه عليه.

و طول المسجد الكريم مئة خطوة و ست و تسعون خطوة، و سعته مئة و ست و عشرون خطوة، و عدد سواريه مئتان و تسعون. و هي أعمدة متصله بالسّمك دون قسى تنعطف عليها، فكأنها دعائم قوائم. و هي من حجر منحوت قطعاً قطعاً ململمة، مثقبة، توضع أنثى فى ذكر، و يفرغ بينهما الرصاص المذاب إلى أن تتصل عموداً قائماً، و تكسى بغلالة خيار، و يبالح فى صقلها و دلكتها فتظهر كأنها رخام أبيض. و البلاط المتصل بالقبلة، من خمس البلاطات المذكورة، تحف به مقصورة تكتنفه طولاً من غرب إلى شرق، و المحراب فيها. و يصلى الإمام فى الروضة الصغيرة المذكورة إلى جانب الصندوق، و بينهما و بين الروضة و القبر المقدس محمل كبير مدهون، عليه مصحف كبير فى غشاء مقفل عليه هو أحد المصاحف الأربعة التى وجه بها عثمان بن عفان، رضى الله عنه، إلى البلاد. و بإزاء المقصورة إلى جهة الشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب و مصاحف موقوفة على المسجد المبارك.

و يليهما فى البلاط الثانى لجهة الشرق أيضا دفة مطبقة على وجه الأرض، مقفلة هي على سرداب يهبط إليه على أدراج تحت الأرض يفضى إلى خارج المسجد إلى دار أبي

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٥٣

بكر الصديق، رضى الله عنه، و هو كان طريق عائشة إليها. و بإزائها دار عمر بن الخطاب، و دار ابنه عبد الله، رضى الله عنهما: و لا شك أن ذلك الموضع هو موضع الخوخة المفضية لدار أبي بكر التى أمر النبي، صلى الله عليه و سلم، بإبقائها خاصة.

و أمام الروضة المقدسة أيضا صندوق كبير هو للشمع و الأنوار التى توقد أمام الروضة كل ليلة. و فى الجهة الشرقية بيت مصنوع من

عود هو موضع مبيت بعض السدنة الحارسين للمسجد المبارك، و سدنته فتیان أحابيش و صقالب ظراف الهيئات نظاف الملابس و الشارات، و المؤذن الراتب فيه أحد أولاد بلال، رضى الله عنه. و فى جهة جوف الصحن قبة كبيرة محدثة جديدة تعرف بقبة الزيت، هى مخزن لجميع آلات المسجد المبارك و ما يحتاج إليه فيه. و بإزائها فى الصحن خمس عشرة نخلة. و على رأس المحراب، الذى فى جدار القبة داخل المقصورة، حجر مربع أصفر قدر شبر فى شبر، ظاهر البريق و البصيص، يقال: إنه كان مرآة كسرى، و الله أعلم بذلك. و فى أعلاه داخل المحراب مسمار مثبت فى جداره، فيه شبه حق صغير لا يعرف من أى شىء هو، و يزعم أيضا أنه كان كأس كسرى، و الله أعلم بحقيقته ذلك كله.

و نصف جدار القبلة الأسفل رخام، موضوع إزارا على إزار، مختلف الصنعة و اللون، مجزع أبداع تجزيع. و النصف الأعلى من الجدار منزل كله بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء، قد أنتج الصناعات فيه نتائج من الصنعة غريبة تضمنت تصاوير أشجار مختلفات الصفات مائلة الأغصان بثمرها. و المسجد كله على تلك الصنعة، لكن الصنعة فى جدار القبلة أحفل. و الجدار الناظر إلى الصحن من جهة القبلة كذلك، و من جهة الجوف أيضا. و الغربى و الشرقى الناظران إلى الصحن مجردان أبيضان و مقرنصان قد زينا برسم يتضمن أنواعا من الأصبغة، إلى ما يطول وصفه و ذكره من الاحتفال فى هذا المسجد المبارك المحتوى على التربة الطاهرة المقدسة، و موضعها أشرف، و محلها أرفع من كل ما تزين به.

و للمسجد المبارك تسعة عشر بابا، لم يبق منها مفتحا سوى أربعة فى الغرب: منها اثنان، يعرف أحدهما باب الرحمة، و الثانى باب الخشية، و فى الشرق اثنان: يعرف أحدهما باب جبريل، عليه السلام، و الثانى باب الرجاء. و يقابل باب جبريل، عليه تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٥٤

السلام، دار عثمان، رضى الله عنه، و هى التى استشهد بها. و يقابل الروضة المكرمة، من هذه الجهة الشرقية، روضة جمال الدين الموصلى، رحمه الله، المشهور خبره و أثره، و قد تقدم ذكر مآثره. و أمام الروضة المكرمة شباك حديد مفتوح روضة، تنسم منها روحا و ريحانا. و فى القبلة باب صغير واحد مغلق، و فى الجوف أربعة مغلقة، و فى الغرب خمسة مغلقة أيضا، و فى الشرق خمسة أيضا مغلقة؛ فكملت بالأربعة المفتوحة تسعة عشر بابا. و للمسجد المبارك ثلاث صوامع: إحداها فى الركن الشرقى المتصل بالقبلة، و الاثنان فى ركنى الجهة الجوفية صغيرتان كأنهما على هيئة برجين، و الصومعة الأولى المذكورة على هيئة الصوامع.

ذكر المشاهد المكرمة التى ببقية الغرقد و صفح جبل أحد

فأول ما نذكر من ذلك مسجد حمزة، رضى الله عنه، و هو بقبلى الجبل المذكور، و الجبل جوفى المدينة، و هو على مقدار ثلاثة أميال. و على قبره، رضى الله عنه، مسجد مبنى. و القبر برحبة جوفى المسجد. و الشهداء، رضى الله عنهم، بإزائه، و الغار الذى أوى إليه النبى، صلى الله عليه و سلم، بإزاء الشهداء أسفل الجبل. و حول الشهداء تربة حمراء هى التربة التى تنسب إلى حمزة، و يتبرك الناس بها.

و ببقية الغرقد شرقى المدينة، تخرج إليه على باب يعرف باب البقية. و أول ما تلقى عن يسارك عند خروجك، من الباب المذكور، مشهد صافية عمه النبى، صلى الله عليه و سلم، أم الزبير بن العوام، رضى الله عنه. و أمام هذه التربة قبر مالك بن أنس الإمام المدنى، رضى الله عنه، و عليه قبة صغيرة مختصرة البناء. و أمامه قبر السلالة الطاهرة، إبراهيم ابن النبى، صلى الله عليه و سلم، و عليه قبة بيضاء. و على اليمين منها تربة ابن لعمر بن الخطاب، رضى الله عنه، اسمه عبد الرحمن الأوسط، و هو المعروف بأبى شحمة، و هو الذى جلده أبوه الحد، فمرض و مات، رضى الله عنهما. و بإزائه قبر عقيل بن أبى طالب، رضى الله عنه، و عبد الله بن جعفر الطيار، رضى الله عنه. و بإزائهم

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٥٥

روضه فيها أزواج النبي، صلى الله عليه وسلم، و بإزائها روضه صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبي، صلى الله عليه وسلم. و يليها روضه العباس بن عبد المطلب و الحسن بن علي، رضى الله عنهما، و قبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع إصاق، مرصعة بصفائح الصفر، و مكوكبة بمساميره على أبدع صفة، و أجمل منظر. على هذا الشكل قبر إبراهيم ابن النبي، صلى الله عليه وسلم. و يلي هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت الرسول، صلى الله عليه وسلم، و يعرف بيت الحزن، يقال: إنه الذى أوت إليه و التزمت فيه الحزن على موت أبيها المصطفى، صلى الله عليه وسلم. و فى آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذى النورين، رضى الله عنه، و عليه قبة صغيرة مختصرة. و على مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد أم علي، رضى الله عنها و عن بنيتها. و مشاهد هذا البقيع أكثر من أن تحصى، لأنه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين و الأنصار، رضى الله عنهم أجمعين. و على قبر فاطمة المذكورة مكتوب: "ما ضم قبر أحد كفاطمة بنت أسد". رضى الله عنها و عن بنيتها.

و قباء قبلى المدينة، و منها إليها نحو الميلىن. و كانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة المكرمة. و الطريق إليها بين حدائق النخل المتصلة. و النخيل محدد بالمدينة من جهاتها، و أعظمها جهة الغرب. و المسجد المؤسس على التقوى بقاء مجدد، و هو مربع مستوى الطول و العرض، و فيه مثذنة طويلة بيضاء تظهر على بعد. و فى وسطه مبرك الناقة بالنبي، صلى الله عليه وسلم، و عليه حلق قصير شبه روضه صغيرة يتبرك الناس بالصلاة فيه. و فى صحنه، مما يلي القبلة، شبه محراب على مصطبة، هو أول موضع ركع فيه النبي، صلى الله عليه وسلم. و فى قبلته محاريب، و له باب واحد من جهة الغرب.

و هو سبع بلاطات فى الطول، و مثلها فى العرض.

و فى قبلة المسجد دار لبني النجار، و هى دار أبى أيوب الأنصارى. و فى الغرب من المسجد رحبة فيها بئر، و بإزائها على الشفير حجر متسع شبيه البيلة يتوضأ الناس فيه.

و يلي دار بنى النجار دار عائشة، رضى الله عنها، و بإزائها دار عمر، و دار فاطمة، و دار أبى بكر، رضى الله عنهم. و بإزائها بئر أريس حيث تغل النبي، صلى الله عليه وسلم، فعاد

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٥٦

ماؤها عذبا بعد ما كان أجاجا و فيه وقع خاتمه من يد عثمان، رضى الله عنه، و الحديث مشهور. و فى آخر القرية تل مشرف يعرف بعرفات، يدخل إليه على دار الصفة حيث كان عمار و سلمان و أصحابهما المعروفون بأهل الصفة. و سمي ذلك التل عرفات لأنه كان موقف النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم عرفة. و منه زويت له الأرض، فأبصر الناس فى عرفات. و آثار هذه القرية المكرمة و مشاهداتها كثيرة لا تحصى.

و للمدينة المكرمة أربعة أبواب، و هى تحت سورين، فى كل سور باب يقابله آخر، الواحد منها كله حديد، و يعرف باسمه باب الحديد؛ و يليه باب الشريعة ثم باب القبلة، و هو مغلق؛ ثم باب البقيع، و قد تقدم ذكره. و قبل و صولك سور المدينة من جهة الغرب بمقدار غلوة، تلقى الخندق الشهير ذكره الذى صنع النبي، صلى الله عليه وسلم، عند تحزب الأحزاب. و بينه و بين المدينة، عن يمين الطريق، العين المنسوبة للنبي، صلى الله عليه وسلم، و عليها حلق عظيم مستطيل. و منبع العين وسط ذلك الحلق كأنه الحوض المستطيل. و تحته سقايتان مستطيلتان باستطالة الحلق. و قد ضرب بين كل سقاية و بين الحوض المذكور بجدار، فحصل الحوض محدقا بجدارين. و هو يمد السقايتين المذكورتين، و يهبط إليهما على أدراج عددها نحو الخمسة و العشرين درجا. و ماء هذه العين المباركة يعم أهل الأرض فضلا عن أهل المدينة، فهى لتطهر الناس و استقائهم و غسل أثوابهم. و الحوض المذكور لا يتناول فيه غير الاستقاء خاصة صونا له و محافظة عليه.

و بمقربة منه، مما يلي المدينة، قبة حجر الزيت، يقال: إن الزيت رشح للنبي، صلى الله عليه وسلم، من ذلك الحجر. و لجهة الجوف منه بئر بضاعة، و بإزائها لجهة اليسار جبل الشيطان حيث صرخ، لعنه الله، يوم أحد، حين قال: قتل نبيكم.

و على شفير الخندق المذكور حصن يعرف بحصن العزّاب، و هو خرب، قيل: إن عمر، رضى الله عنه، بناه لعزّاب المدينة. و أمامه، لجهة الغرب على البعد، بئر رومة التى اشترى نصفها عثمان، رضى الله عنه، بعشرين ألفا. و فى طريق أحد مسجد عليّ، رضى الله عنه، و مسجد سلمان، رضى الله عنه، و مسجد الفتح الذى أنزلت فيه على النبي، صلى الله عليه و سلم، سورة الفتح.

و للمدينة المكرمة سقاية ثالثة داخل باب الحديد يهبط إليها على أدراج و ماؤها

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٥٧

معين. و هى بمقربة من الحرم الكريم. و قبلى هذا الحرم المكرم، أمام دار الهجرة، دار مالك بن أنس، رضى الله عنه. و يطيف بالحرم كله شارع مبلط بالحجر المنحوت المفروش. فهذا ذكر ما تمكن على الاستعجال من آثار المدينة المكرمة و مشاهدتها على جهة الاقتضاب و الاختصار، و الله ولى التوفيق.

و من عجب ما شاهدناه من الأمور البديعة الداخلة مدخل السمعة و الشهرة، أن إحدى الخواتين المذكورات، و هى بنت الأمير مسعود المتقدم ذكرها و ذكر أبيها، وصلت عشى يوم الخميس السادس لمحرم، و رابع يوم وصولنا المدينة، إلى مسجد رسول الله، صلى الله عليه و سلم، راقبة فى قبتها، و حولها قباب كرائمها و خدمها، و القراء أمامها، و الفتیان و الصقالب بأيديهم مقامع الحديد يطوفون حولها، و يدفعون الناس أمامها، إلى أن وصلت باب المسجد المكرم، فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها، و مشت إلى أن سلمت على النبي، صلى الله عليه و سلم، و الخول أمامها، و الخدام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها، إشادة بذكرها، ثم وصلت إلى الروضة الصغيرة التى بين القبر الكريم و المنبر فصلت فيها تحت الملحفة، و الناس يتزاحمون عليها، و المقامع تدفعهم عنها. ثم صلت فى الحوض بإزاء المنبر، ثم مشت الصفحة الغربية من الروضة المكرمة فقعدت فى الموضع الذى يقال: انه كان مهبط جبريل، عليه السلام، و أرخى الستر عليها، و أقام فتيانها و صقالبها و حجابها على رأسها خلف الستر تأمرهم بأمرها، و استجلبت معها إلى المسجد حملين من المتاع للصدقة. فما زالت فى موضعها إلى الليل.

فى مجلس رئيس العلماء

و قد وقع الإيذان بوصول صدر الدين، رئيس الشافعية الأصبهاني الذى ورث النباهة و الوجاهة فى العلم كابرا عن كابر، لعقد مجلس وعظ تلك الليلة، و كانت ليلة الجمعة السابع من المحرم. فتأخر وصوله إلى هدى من الليل و الحرم قد غص بالمنتظرين، و الخاتون جالسة موضعها. و كان سبب تأخره تأخر أمير الحاج لأنه كان على عدة من وصوله، إلى أن وصل و وصل الأمير، و قد أعد لرئيس العلماء المذكور و هو يعرف بهذا الاسم، توارثه عن أب فأب، كرسى بإزاء الروضة المقدسة، فصعده،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٥٨

و حضر قرائه أمامه، فابتدروا القراءة بنغمات عجيبة و تلاحين مطربة مشجية، و هو يلحظ الروضة المقدسة فيعلن بالبكاء. ثم أخذ فى خطبة من إنشائه سحرية البيان. ثم سلك فى أساليب من الوعظ باللسانين، و أنشد أبياتا بديعة من قوله، منها هذا البيت، و كان يردده فى كل فصل من ذكره صلى الله عليه و سلم، و يشير إلى الروضة:

هايتك روضته تفوح نسيماصلوا عليه و سلموا تسليما

و اعتذر من التقصير لهول ذلك المقام، و قال: عجا للألكن الأعجم، كيف ينطق عند أفصح العرب! و تمادى فى وعظه إلى أن أطار النفوس خشية ورقة، و تهافتت عليه الأعاجم معلنين التوبة، و قد طاشت ألبابهم، و ذهلت عقولهم، فيلقون نواصيهم بين يديه، فيستدعى جلمين و يجزّها ناصية ناصية، و يكسو عمامته المجزوز الناصية، فيوضع عليه للحين عمامة أخرى من أحد قرائه أو جلسائه، ممن قد عرف منزعه الكريم فى ذلك. فبادر بعمامته لاستجلاب العرض النفيس لمكارمه الشهيرة عندهم، فلا زال يخلع واحدة بعد أخرى، إلى أن خلع منها عدة و جزّ نواصي كثيرة. ثم ختم مجلسه بأن قال: معشر الحاضرين، قد تكلمت لكم ليلة بحرم الله عزّ و جل، و هذه الليلة

بحرم رسوله، صلى الله عليه وسلم، ولا بد للواعظ من كدية، و أنا أسألكم حاجة إن ضمنتموها لي أرت لكم ماء وجهي في ذكرها. فأعلن الناس كلهم بالإسعاف، و شهيقهم قد علا، فقال: حاجتي أن تكشفوا رؤوسكم، و تبسطوا أيديكم، ضارعين لهذا النبي الكريم في أن يرضى عني، و يسترضى الله عز و جل لي. ثم أخذ في تعداد ذنوبه و الاعتراف بها، فأطار الناس عمائمهم، و بسطوا أيديهم للنبي، صلى الله عليه وسلم، داعين له، باكين متضرعين، فما رأيت ليلة أكثر دموعا، و لا أعظم خشوعا، من تلك الليلة. ثم انفض المجلس، و انفض الأمير، و انفضت الخاتون من موضعها. و عند وصول صدر الدين المذكور، أزيل الستر عنها، و بقيت بين خدمها و كرائمها متلفعة في رداها فعاينا من أمرها في الشهرة الملوكية عجا.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٥٩

و أمر هذا الرجل صدر الدين عجيب في قعدده و أبهته و ملوكيته، و فخامة آله، و بهاء حالته، و ظاهر مكتبته و وفور عدته، و كثرة عبيده و خدمته، و احتفال حاشيته و غاشيته، فهو من ذلك على حال يقصر عنها الملوك. و له مضرب كالتاج العظيم في الهواء، مفتوح على أبواب على هيئة غريبة الوضع، بديعة الصنعة و الشكل، تطل على المحلة من بعد، فتبصره ساميا في الهواء. و شأن هذا الرجل العظيم لا يستوعبه الوصف، شاهدنا مجلسه فرأينا رجلا يذوب طلاقه و بشرًا، و يخف للزائر كرامة و برا، على عظيم حرمة و فخامة بنيته، و هو أعطى البسطتين علما و جسما، استجزناه فأجازنا نثرا و نظما. و هو أعظم من شاهدنا بهذه الجهات.

و في يوم الجمعة المذكور، و هو السابع من محرم، شاهدنا من أمور البدعة أمرا ينادى له الإسلام: يا لله يا للمسلمين. و ذلك أن الخطيب وصل للخطبة، فصعد منبر النبي، صلى الله عليه وسلم، و هو، على ما يذكر، على مذهب غير مرضى، ضد الشيخ الإمام العجمي الملازم صلاة الفريضة في المسجد المكرم. فذلك على طريقة من الخير و الورع، لاثقة بأمام مثل ذلك الموضع الكريم. فلما أذن المؤذنون قام هذا الخطيب المذكور للخطبة، و قد تقدمته الرايتان السوداوان و قد ركزتا بجانب المنبر الكريم، فقام بينهما، فلما فرغ من الخطبة الأولى، جلس جلسة خالف فيها جلسة الخطباء المضروب بها المثل في السرعة، و ابتدر الجمع مرده من الخدمة يخترقون الصفوف، و يتخطون الرقاب، كدية على الأعاجم و الحاضرين لهذا الخطيب القليل التوفيق، فمنهم من يطرح الثوب النفيس، و منهم من يخرج الشقة الغالية من الحرير فيعطئها، و قد أعدها لذلك، و منهم من يخلع عمامته فيبذها، و منهم من يتجرد عن برده فيلقى به، و منهم من لا يتسع حاله لذلك فيسمح بفضله من الخام، و منهم من يدفع القراضه من الذهب، و منهم من يمد يده بالدينار و الدينارين إلى غير ذلك، و من النساء من تطرح خلخالها و تخرج خاتمها فتلقيه، إلى ما يطول الوصف له من ذلك. و الخطيب، في أثناء هذه الحال كلها، جالس على المنبر يلحظ هؤلاء المستجدين المستسعين على النار بلحظات يكرها الطمع و يعيدها الرغبة و الاستزادة، إلى أن كاد الوقت ينقضي،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٦٠

و الصلاة تفوت، و قد ضج من له دين و صحة من الناس، و أعلن بالصياح و هو قاعد ينتظر اشتفاف صباة الكدية و قد أراق عن وجهه ماء الحياء، فاجتمع له من ذلك السحت المؤلف كوم عظيم أمامه، فلما أرضاه قام و أكمل الخطبة و صلى بالناس. و انصرف أهل التحصيل باكين على الدين، يائسين من فلاح الدنيا متحققين أشراف الآخرة. و لله الأمر من قبل و من بعد. و في عشي ذلك اليوم المبارك، كان وداعنا للروضه المباركة و التربة المقدسه، فياله وداعا عجا ذهلت له النفوس ارتياحا حتى طارت شعاعا، و استشرت به النفوس التياحا حتى ذابت انصداعا! و ما ظنك بموقف يناجي بالتوديع فيه سيد الأولين و الآخرين، و خاتم النبيين، و رسول رب العالمين؟ إنه لموقف تنفطر له الأفئدة، و تطيش به الألباب الثابتة المتشده، فوا أسفاه و أسفاه! كل ييوح لديه بأشواقه، و لا يجد بدا من فراقه، فما يستطيع إلى الصبر سيلا، و لا تسمع في هول ذلك المقام إلا رنة و عويلا، و كل بلسان الحال ينشد:

محبتى تقتضى مقامى و حالتي تقتضى الرحيل

بؤنا الله بزيارة هذا النبي الكريم منزل الكرامة، وجعله شفيعا لنا يوم القيامة و أحلنا من فضله في جواره دار المقامة، برحمته إنه غفور رحيم، جواد كريم. و كان مقامنا بالمدينة المكرمة خمسة أيام، أو لها يوم الاثنين و آخرها يوم الجمعة.

الرحيل إلى العراق

و في ضحوه يوم السبت الثامن لمحرم المذكور، و الحادي و العشرين من شهر أبريل، كان رحيلنا من المدينة المكرمة إلى العراق، قَرَبَ اللهُ لنا المرام و سهل علينا السبيل.

و استصبحنا منها الماء لثلاثة أيام، فزلنا يوم الاثنين، ثالث يوم رحيلنا المذكور، بوادي العروس، فتزود الناس منها الماء، يحفرون عليه في الأرض بئرا فينبع منها ماء عذب معين يروى الأمة التي لا يحصى لها عدد من هذه المحلة مع جمالها التي تنيف على عددها، و لله القدرة سبحانه. و سعدنا من وادي العروس إلى أرض نجد، و خلفنا

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٦١

تهامة و راءنا، و مشينا في بسطة من الأرض ينحسر الطرف دون أدناها و لا يبلغ مداها، و تنسمنا نسيم نجد و هواءها المضروب به المثل، فانتعشت النفوس و الأجسام ببرد نسيمه و صحة هوائه. و نزلنا يوم الثلاثاء، رابع يوم رحيلنا، على ماء يعرف بماء العسيلة. ثم نزلنا يوم الأربعاء، خامس يوم رحيلنا، بموضع يعرف بالنقرة، و فيها آبار و مصانع كالصهاريج العظام، وجدنا أحدها مملوءا بماء المطر، فعم جميع المحلة و لم ينضب على كثرة المحلة و استماحتها.

و صفة مراحل هذا الأمير بالحاج أن يسرى من نصف الليل إلى ضحيه، ثم ينزل أول الظهر، ثم يرحل و ينزل مع العشاء الآخرة. ثم يقوم نصف الليل. هذا دأبه.

و نزلنا ليلة الخميس الثالث عشر لمحرم، و سادس يوم رحيلنا، على ماء يعرف بالقارورة، و هي مصانع مملوءة بماء المطر. و هذا الموضع هو وسط أرض نجد. و ما أرى أن في المعمور أرضا أفسح بسيطا، و لا أوسع أنفا، و لا أطيب نسима و لا أصح هواء، و لا أمد استواء، و لا أصفى جوا، و لا أنقى تربة، و لا أنعش للنفوس و الأبدان، و لا أحسن اعتدالا، في كل الأزمان، من أرض نجد. و وصف محاسنها يطول، و القول فيها يتسع.

و في يوم الخميس المذكور، مع ضحوه النهار، نزلنا بالحاجر، و الماء فيه في مصانع، و ربما حفروا عليه حفرا قريبة العمق يسمونها أحفارا، واحدها حفر. و كنا نتخوف في هذا الطريق قلة الماء، لا سيما مع عظم هذا الجمع الأنامي و الأنعامي، الذين لو وردوا البحر لأنزفوه و استقوه، فأنزل الله من سحب رحمته ما أعاد الغيطان غدراننا، و أجرى المسول سيولا، و صير الوهاد مملوءة عهادا. فكنا نبصر مذائب الماء سائحة على وجه الأرض فضلا من الله و نعمه، و لطفنا من الله بعباده و رحمة، و الحمد لله على ذلك.

و في اليوم المذكور أجزنا بالحاجر واديين سيالين، و أما البرك و القرارات فلا تحصى.

و في يوم الجمعة بعده نزلنا ضحوه النهار سميرة، و هي موضع معمور، و في بسطها شبه حصن يطيف به حلق كبير مسكون، و الماء فيه في آبار كثيرة إلا أنها زعاق

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٦٢

و مستقعات و برك، و تباع العرب فيها مع الحاج فما أخرجوه من لحم و سمن و لبن، و وقع الناس على قرم و عيمه، فبادروا الابتاع لذلك بشقق الخام التي يستصبحونها لمشاركة الأعراب لأنهم لا يبايعونهم إلا بها.

و في ضحوه يوم السبت بعده نزلنا بالجبل المخروق، و هو جبل في بيدا من الأرض، و في صفحه الأعلى ثقب نافذ تخترقه الرياح. ثم رحنا من ذلك الموضع و بتنا بوادي الكروش على غير ماء، ثم أرينا منه و أصبحنا على فيد يوم الأحد، و هي حصن كبير مبرج مشرف في بسط من الأرض، يمتد حوله ربض يطيف به سور عتيق البنيان. و هو معمور بسكان من الأعراب، ينتعشون مع الحاج في التجارات

و المبيعات و غير ذلك من المرافق. و هناك يترك الحاج بعض زادهم، إعدادا للإرمال من الزاد عند انصرافهم، و لهم بها معارف يتركون أزودتهم عندهم. و هذا نصف الطريق من بغداد إلى مكة على المدينة، شرفها الله، أو أقل يسيرا، و منها إلى الكوفة اثنا عشر يوما في طريق سهلة طيبة، و المياه فيها بحمد الله موجودة في مصانع كثيرة. و دخل أمير الحاج هذا الموضع المذكور على تعبئة و أهبة، إرهابا للمجتمعين به من الأعراب لثلاث. يداخلهم الطمع في الحاج، فهم يلحظونهم مستشرفين مكانهم لكنهم لا يجدون إليهم سيلا، و الحمد لله. و الماء بهذا الموضع كثير في آبار تمدها عيون تحت الأرض، و وجد الحاج فيها مصنعا قد اجتمع فيه الماء من المطر، فانترف للحين، و امتلأت أيدي الحاج القرمين من أغنام العرب بالمبايعه المذكورة، فلم يبق مضرب و لا خيمة و لا ظلاله إلا و جانبها كبش أو كبشان، بحسب القدرة و الوجد. فعم جميع المحلة غنم العرب. و كان ذلك اليوم عيدا من الأعياد، و كذلك عمتهم أيضا جمالهم لمن أرد الابتياح منهم من الجمالين و سواهم للاستظهار على الطريق. و أما السمن و العسل و اللبن فلم يبق إلا من تحمل أو استعمل منها بقدر حاجته.

و أقام الناس يومهم ذلك مريحين بها ظهر يوم الاثنين بعده، ثم أسروا نصف الليل ترتيب سيرهم المذكور قبل، و نزلوا ضحوة يوم الثلاثاء الثامن عشر لمحرم، و هو أول يوم من مايه، بموضع يعرف بالأجفر، و هو مشتهر عندهم بموضع جميل و بثينة تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٦٣

العذريين. ثم أقلعنا ظهر يوم الثلاثاء المذكور على العادة و نزلنا بالبيداء مع العشاء الآخرة، ثم أسرينا منها و نزلنا ضحوة يوم الأربعاء بزود، و هي و هدة في بسيط من الأرض فيها رمال منهاله، و بها حلق كبير داخله دويرات صغار هو شبيه الحصن، يعرف بهذه الجهات بالقصر. و الماء بهذا الموضع في آبار غير عذبة، فنزلنا ضحوة يوم الخميس الموفى عشرين لمحرم، و الثالث لمايه، بموضع يعرف بالثعلبية. و لها مبنى شبه الحصن خرب لم يبق منه إلا-الحلق، و بإزائه مصنع كبير الدور من أوسع ما يكون من الصهاريج و أعلاها، و المهبط إليه على أدراج كثيرة من ثلاث جهات، و كان فيه من ماء المطر ما عم جميع المحلة. و وصل إلى هذا الموضع جمع كثير من العرب، رجالا و نساء و اتخذوا به سوقا عظيمة حافلة للجمال و الكباش و السمن و اللبن و علف الإبل، فكان يوم سوق نافقة. و بقي من هذا الموضع إلى الكوفة من المناهل التي تعم جميع المحلة ثلاثة: أحدها زباله، و الثاني واقصة، و الثالث منهل من ماء الفرات على مقربة من الكوفة. و بين هذه المناهل مياه موجودة لكنها لا تعم، و هذه الثلاثة المذكورة هي التي تعم الناس و الإبل و هي التي تردها رफها. و في هذا المنهل الذي للثعلبية شاهدنا من غلبة الناس على الماء أمرا هائلا، لا يكاد يشاهد مثله في تغلب المدن و الحصون بالقتال. و حسبك أن مات في ذلك الموضع، ضغطا بشدة الزحام و غطا تحت الماء بالأقدام، سبعة رجال بادروا لمورد الماء فحصلوا على مورد الفناء، رحمهم الله و غفر لهم.

و في ضحوة يوم الجمعة بعده نزلنا بموضع يعرف ببركة المرجوم، و هي مصنع و قد بنى له فيما يعلوه من الأرض مصب يؤدي الماء إليه على بعد، و أحكم ذلك إحكاما يدل على قدرة الاتساع و قوة الاستطاع. و لهذا المرجوم المذكور مشهد على قارعة الطريق، و قد علا كأنه هضبة شماء، و كل مجتاز عليه لا بد أن يلقي عليه حجرا. و يقال:

إن أحد الملوك رحمه لأمر استوجب به ذلك، و الله أعلم. و بهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب. و بادروا للحين بما لديهم من مرافق الأدم يبيعونها من الحاج. و كان هذا المصنع مملوءا من ماء المطر، فغمر الناس و عمهم، و الحمد لله. و هذه المصانع و البرك و الآبار و المنازل التي من بغداد إلى مكة هي آثار زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر

تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٦٤

المنصور، زوج هارون الرشيد و ابنة عمه؛ انتدبت لذلك مدة حياتها، فأبقت في هذا الطريق مرافق و منافع تعم و فد الله تعالى كل سنه، من لدن وفاتها إلى الآن. و لو لا آثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هذه الطريق، و الله كليل بمجازاتها، و الرضى عنها. و في ضحوة يوم السبت بعده، نزلنا بموضع يعرف بالشقوق، و فيه مصنعان ألفيناهما مملوءين ماء عذبا صافيا. فأراق الناس مياههم، و

جددوا مياهها طيبة، و استبشروا بكثرة الماء، و جددوا شكر الله على ذلك. و أحد هذين المصنعين صهرج عظيم الدائرة كبيرها لا يكاد يقطعه السابح إلا عن جهد و مشقة. و كان الماء قد علا فيه أزيد من قاتين. فتنعم الناس من مائه سباحة، و اغتسالا، و تنظيف أثواب، و كان يومهم فيه من أيام راحة السفر.

و من لطائف صنع الله تعالى بوفده و زوار حرمه أن كانت هذه المصانع كلها عند صعود الحاج من بغداد إلى مكة دون ماء، فأرسل الله من سحب رحمته ما أترعها ماء معدا لصدر الحاج، فضلا من الله، و لطفًا بوفده المنقطعين إليه.

و رحنا من ذلك الموضع المذكور و بتنا بموضع يعرف بالتنانير، و كان فيه أيضا مصنع مملوء ماء. و أسرينا منه ليلة يوم الأحد الثالث و العشرين لمحرم، و اجتزنا سحرا بزبالة، و هي قرية معمورة، و فيها قصر مشيد من قصور الأعراب و مصنعان للماء و آبار، و هي من مناهل الطريق الشهيرة. و نزلنا عندما ارتفع النهار من اليوم المذكور بالهيثمين، و فيها مصنعان للماء، و لا نكاد نمر بحول الله يوما بموضع إلا و الماء يوجد فيه، و الشكر لله على ذلك. و بتنا ليلة الاثنين الرابع و العشرين لمحرم المذكور على مصنع مملوء ماء، فسقى الناس بالليل و استقوا. و هذا الموضع هو دون العقبة المعروفة بعقبه الشيطان. و مع الصباح من يوم الاثنين المذكور صعدا العقبة، و ليست بالطويلة الكؤود، و لكن ليس بالطريق و عر غيرها، فهي شهيرة بهذا السبب. و نزلنا عند ارتفاع النهار على مصنع دون ماء، و أجزنا مصانع كثيرة، و ما منها مصنع إلا. و جانبه قصر مبنى من قصور الأعراب، و الطريق كلها مصانع. و رضى الله عن التي اعتنت بسبيل وفد الله هذا الاعتناء.

ثم نزلنا ضحوة يوم الثلاثاء بعده بواقصة. و هي و هدة من الأرض منفسحة فيها مصانع للماء مملوءة، و قصر كبير و بإزائه أثر بناء. و هي معمورة بالأعراب، و هي آخر

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٦٥

مناهل الطريق، و ليس بعدها إلى الكوفة منها مشهور إلا مشارع ماء الفرات. و منها إلى الكوفة ثلاثة أيام، و بها يتلقى الحاج كثير من أهل الكوفة، و هم مستجلبون إليهم الدقيق و الخبز و التمر و الأدم و الفواكه الحاضرة في ذلك الوقت. و يهنئ الناس بعضهم بعضا بالسلامة، و الحمد لله عز و جل، على ما من به من التيسير و التسهيل حمدا يستوجب المزيد، و يستصحب من كريم صنعه المعهود.

و بتنا ليلة الأربعاء السادس و العشرين بموضع يعرف بلورة، و فيها مصنع كبير و جده الناس مملوءا فجددوا الاستسقاء و رفوها الإبل. ثم أسرينا منها، و أجزنا سحر يوم الأربعاء المذكور بموضع فيه آثار بناء يعرف بالقرعاء، و فيه أيضا مصنع ماء، و له ستة مخازن، و هي صهاريج صغار، تؤدي الماء إلى المصانع، استقى الناس فيها و سقوا. و كثرت المصانع حتى لا تكاد الكتب تحصرها و لا تضبطها، و الحمد لله على منته و سابغ نعمته.

و بتنا ليلة الخميس بعده على مصنع عظيم مملوء ماء، ثم نزلنا ضحوة اليوم المذكور بمنارة تعرف بمنارة القرون، و هي منارة في بيدا من الأرض، لا بناء حولها قد قامت في الأرض كأنها عمود مخروط من الآجر، و قد تداخل فيها من الخواتيم الآجرية مثنى و مربعة أشكال بديعة. و من غريب أمرها أنها مجللة كلها قرون غزلان مثبتة فيها، فتلوح كظهر الشيهم. و للناس فيها خبر يمنع ضعف سنده من إثباته. و على مقربة من هذه المنارة قصر ذو بروج مشيدة، و بإزائه مصنع عظيم وجد مملوء ماء، و الحمد لله على ما من به.

و اجتزنا عشى يوم الخميس المذكور على العذيب، و هو واد خصيب، و عليه بناء، و حوله فلاة خصيبة، فيها مسرح للعيون و فرجة. و أعلمنا أن بمقربة منه بارقا.

و وصلنا منه إلى الرحبة، و هي بمقربة منه، و فيها بناء و عمارة، و يجرى الماء فيها من عين نابعة في أعلى القرية المذكورة. و بتنا أمامها بمقدار فرسخ، ثم أسرينا ليلة الجمعة الثامن و العشرين لمحرم المذكور نصف الليل و اجتزنا على القادسية، و هي قرية كبيرة، فيها حدائق من النخيل، و مشارع من ماء الفرات و أصبحنا بالنجف، و هو بظهر الكوفة كأنه حد بينها و بين الصحراء، و هو صلب من الأرض منفسح متسع، للعين فيه مراد استحسان و انشراح. و وصلنا الكوفة مع طلوع الشمس من يوم الجمعة المذكور، و الحمد لله على

ما أنعم به من السلامة.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٦٦

ذكر مدينة الكوفة حرسها الله تعالى

هي مدينة كبيرة عتيقة البناء، قد استولى الخراب على أكثرها، فالغامر منها أكثر من العامر. و من أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها، فهي لا تزال تضربها، و كفاك بتعاقب الأيام و الليالي محييا و مفييا. و بناء هذه المدينة بالآجر خاصة، و لا سور لها. و الجامع العتيق آخرها مما يلي شرقي البلد، و لا عمارة تتصل به من جهة الشرق. و هو جامع كبير، في الجانب القبلي منه خمسة أبلطة، و في سائر الجوانب بلاطان. و هذه البلاطات على أعمدة من السواري الموضوعه من صم الحجارة، المنحوتة قطعة على قطعة، مفرغة بالرصاص، و لا- قسى عليها، على الصفة التي ذكرناها في مسجد رسول الله، صلى الله عليه و سلم. و هي في نهاية الطول، متصلة بسقف المسجد، فتحار العيون في تفاوت ارتفاعها. فما أرى في الأرض مسجدا أطول منه و لا أعلى سقفا.

و لهذا الجامع المكرم آثار كريمة: فمنها بيت بإزاء المحراب عن يمين المستقبل القبلة، يقال: إنه كان مصلى إبراهيم الخليل، صلى الله عليه و سلم، و عليه ستر أسود صونا له، و منه خرج الخطيب لابسا ثياب السواد للخطبة. فالناس يزدحمون على هذا الموضع المبارك للصلاة فيه. و على مقربة منه، مما يلي الجانب الأيمن من القبلة، محراب محلق عليه بأعواد الساج، مرتفع عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير، و هو محراب أمير المؤمنين على بن أبي طالب، رضى الله عنه. و في ذلك الموضع ضربه الشقى اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف، فالناس يصلون فيه باكين داعين. و في الزاوية من آخر هذا البلاط القبلي، المتصل بآخر البلاط الغربي، شبيه مسجد صغير محلق عليه أيضا بأعواد الساج، هو موضع مفار التنور الذي كان آية لنوح، عليه السلام. و في ظهره، خارج المسجد، بيته الذي كان فيه؛ و في ظهره بيت آخر يقال إنه كان متعب إدريس، صلى الله عليه و سلم؛ و يتصل بهما فضاء متصل بالجدار القبلي من المسجد، يقال: إنه منشأ السفينة. و مع آخر هذا الفضاء دار على بن أبي طالب، رضى الله عنه، و البيت الذي غسل فيه. و يتصل به بيت يقال إنه كان بيت ابنه نوح، صلى الله عليه و سلم.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٦٧

و هذه الآثار الكريمة تلقيناها من ألسنة أشياخ من أهل البلد، فأثبتناها حسبما نقلوها إلينا، و الله أعلم بصحة ذلك كله. و في الجهة الشرقية من الجامع بيت صغير يصعد إليه، فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب، رضى الله عنه. و في جوفى الجامع على بعد منه يسير سقاية كبيرة من ماء الفرات فيها ثلاثة أحواض كبار. و في غربي المدينة على مقدار فرسخ منها المشهد الشهير الشأن المنسوب لعلى بن أبي طالب، رضى الله عنه، حيث بركت ناقته و هو محمول عليها مسجى ميتا على ما يذكر. و يقال: إن قبره فيه، و الله أعلم بصحة ذلك.

و في هذا المشهد بناء حفيل على ما ذكر لنا، لأننا لم نشاهده بسبب أن وقت المقام بالكوفة ضاق عن ذلك، لأننا لم نبت فيها سوى ليلة يوم السبت. و في غدائه رحلنا، و نزلنا قريب الظهر على نهر منسرب من الفرات. و الفرات من الكوفة على مقدار نصف فرسخ، مما يلي الجانب الشرقي. و الجانب الشرقي كله حدائق نخيل ملتفة، يتصل سوادها و يمتد امتداد البصر. و رحلنا من ذلك الموضع، و بتنا ليلة الأحد منسلخ محرم بمقربة من الحلة، ثم جئناها يوم الأحد المذكور.

ذكر مدينة الحلة حرسها الله تعالى

هي مدينة كبيرة، عتيقة الوضع، مستطيلة، لم يبق من سورها إلا حلق من جدار ترابي مستدير بها. و هي على شط الفرات، يتصل بها من جانبها الشرقي و يمتد بطولها و لهذه المدينة أسواق حافلة جامعة للمرافق المدنية و الصناعات الضرورية. و هي قوية العمارة، كثيرة

الخلق، متصله حدائق النخيل داخلا و خارجا، فديارها بين حدائق النخيل. و ألفينا بها جسرا عظيما معقودا على مراكب كبار متصله من الشط، تحف بها من جانبها سلاسل من حديد كالأذرع المفتولة عظما و ضخامة، ترتبط إلى خشب مثبتة في كلا الشطين، تدل على عظم الاستطاع و القدرة، أمر الخليفة بعقده على الفرات، اهتماما بالحاج و اعتناء بسبيله. و كانوا قبل ذلك يعبرون في المراكب، فوجدوا هذا الجسر قد عقده الخليفة في مغيهم، و لم يكن عند شخوصهم إلى مكة، شرفها الله.

و عبرنا الجسر ظهر يوم الأحد المذكور و نزلنا بشط الفرات على مقدار فرسخ من البلد.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٦٨

و هذا النهر كاسمه فرات، هو من أعذب المياه و أخفها، و هو نهر كبير زخار، تصعد فيه السفن و تنحدر.

و الطريق من الحلة إلى بغداد أحسن طريق و أجملها، في بسائط من الأرض و عمائر، تتصل بها القرى يمينا و شمالا. و يشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرب بها و تسقيها، فمحرثها لاحد لاتساعه و انفساحه. فللعين في هذا الطريق مسرح انشراح، و للنفس مراح انبساط و انفساح، و الأمن فيها متصل، بحمد الله سبحانه و تعالى.

شهر صفر سنة ثمانين عرفنا الله يمنه و بركته

إشارة

هلاله على الكمال من ليلة الاثنين، بموافقة الرابع عشر من مايه، استهل هلاله و نحن على شط الفرات بظاهر مدينة الحلة. و في ضحوة يوم الاثنين المذكور رحلنا و أجزنا جسرا على نهر يسمى النيل، و هو فرع متشعب من الفرات، و كان عليه ازدحام، فغرق كثير من الناس و الدواب في الماء. ففتحنا مريحين إلى أن انفرج ذلك المزدحم، و عبرنا على سلامة و عافية، و الحمد لله.

و من مدينة الحلة يتسلسل الحاج أرسالا و أفواجا أفواجا: فمنهم المتقدم، و المتوسط، و المتأخر، لا يعرج المستعجل على المتعذر، و لا المتقدم على المتأخر، فحيثما شأوا من طريقهم نزلوا و أراحوا و استراحوا، و سكنت نفوسهم من روعة نقر الكوس الذي كانت الافئدة ترجف له بدارا للرحيل و استعجالا للقيام، فربما كان النائم منهم يهدى بنقر الكوس فيقوم عجلا و جلا ثم يتحقق أنها من أضغاث أحلامه فيعود إلى منامه.

و من جملة الدواعي لافتراقهم كثرة القناطير المعترضة في طريقهم إلى بغداد، فلا تكاد تمشى ميلا إلا و تجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات، فتلك الطريق أكثر الطرق سواقي و قناطير، و على أكثرها خيام فيها رجال محترسون للطريق، اعتناء من الخليفة بسبيل الحاج، دون اعتراض منهم لاستنفاع بكديه أو سواها. فلو زاحم ذلك البشر

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٦٩

تلك القناطير دفعة لما فرغوا من عبورها و لتراكموا وقوعا بعض على بعض.

و الأمير طشتكين المتقدم الذكر يقيم بالحلة ثلاثة أيام إلى أن يتقدم جميع الحاج، ثم يتوجه إلى حضرة خليفته. و هذه الحلة المذكورة طاعة بيده للخليفة. و سيرة هذا الأمير بالرفق بالحاج و الاحتياط عليهم و الاحتراس لمقدمتهم و ساقتهم و ضم نشر ميمنتهم و مسيرتهم سيرة محمودة، و طريقته في الحزم و حسن النظر طريقه سديدة، و هو من التواضع و لين الجانب و قرب المكان على و تيرة سعيدة، نفعه الله و نفع المسلمين به.

و في عصر يوم الاثنين المذكور نزلنا بقرية تعرف بالقنطرة كثيرة الخصب، كبيرة الساحة، متدفقة جداول الماء، وارفة الظلال بشجرات الفواكه، من أحسن القرى و أجملها، و بها قنطرة على فرع من فروع الفرات كبيرة محدودة، يصعد إليها و ينحدر عنها، فتعرف القرية بها، و تعرف أيضا بحصن بشير. و ألفينا حصاد الشعير بهذه الجهات في هذا الوقت الذي هو نصف مايه. و رحلنا من القرية المذكورة

سحر يوم الثلاثاء الثاني لصفري، فنزلنا قائلين ضحوته بقرية تعرف بالفراش، كثيرة العمارة، يشقها الماء، و حولها بسيط أخضر جميل المنظر. و قرى هذه القرية المذكورة خان كبير يحدق به جدار عال له شرفات صغار.

ثم رحلنا منها و نزلنا عشي النهار بقرية تعرف بزيران، و هذه القرية من أحسن قرى الأرض، و أجملها منظرا، و أفسحها ساحة، و أوسعها اختطاطا، و أكثرها بساتين و رياحين و حدائق نخيل. و كان بها سوق تقصر عنه أسواق المدن. و حسبك من شرف موضعها أن دجلة تسقى شريقها، و الفرات يسقى غريبها، و هي كالعروس بينهما، و البساتين و القرى و المزارع متصله بين هذين النهرين الشريفيين المباركين.

و من شرف هذه القرية أيضا أن بإزائها، لجهة الشرق منها، إيوان كسرى و أمامها بيسير مدائنه. و هذا الإيوان بناء عال في الهواء، شديد البياض، لم يبق من قصوره إلا البعض، فعابناها على مقدار الميل سامية مشرفة مشرقة، و أما المدائن فخراب، اجتزنا عليها سحر يوم الأربعاء الثالث لصفري فعابنا من طولها و اتساعها مرأى عجيبا. و من فضائل هذه القرية أيضا أن بالشرق منها بمقدار نصف فرسخ مشهد سلمان الفارسي، رضى الله عنه. فما اختصت تربتها بهذا الدفين المبارك، رضى الله عنه، إلا لفضل تربتها.

و القرية على شط دجلة، و هي تعترض بينها و بين المشهد الكريم المذكور، و كنا

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٧٠

سمعنا أن هواء بغداد ينبت السرور في القلب، و يبعث النفس دائما على الانبساط و الأنس، فلا تكاد تجد فيها إلا جلدان طربا، و إن كان نازح الدار مغتربا، حتى حللنا بهذا الموضع المذكور، و هو على مرحلة منها، فلما نفحطنا نوافح هوائها، و نفعنا الغلة ببرد مائها، أحسنا من نفوسنا، على حال وحشة الاغتراب، دواعى من الاضطراب، و استشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغياب بالإياب، و هبت بنا محركات من الاضطراب، أذكرتنا معاهد الأحباب، في ريعان الشباب. هذا للغريب النازح الوطن، فكيف للوافد فيها على أهل و سكن!

سقى الله باب الطاق صوب غمامة ورد إلى الأوطان كل غريب

و في سحر يوم الأربعاء المذكور رحلنا من القرية المذكورة و اجتزنا على مدائن كسرى حسبا ذكرناه و انتهينا إلى صرصر و هي أخت زيران المذكورة حسنا أو قريب منها. و يمر بجانبها القبلى نهر كبير متفرع من الفرات، عليه جسر معقود على مراكب، تحف بها من الشط إلى الشط سلاسل حديد عظام، على الصفة التي ذكرناها في جسر الحلة، فعبرناه و أجزنا القرية و نزلنا قائلين، و بيننا و بين بغداد نحو ثلاثة فراسخ. و بهذه القرية سوق حافلة و مسجد جامع كبير جديد. و هي من القرى التي تملأ النفوس بهجة و حسنا. و هذان النهران الشريفيان دجلة و الفرات قد أعنت شهرتهما عن وصفهما، و ملتقاهما ما بين واسط و البصرة، و منها انصباهما إلى البحر، و مجراهما من الشمال إلى الجنوب، و حسبهما ما خصهما الله به من البركة هما و أخاهما النيل، مما هو مذكور مشهور، و رحلنا من ذلك الموضع قبيل الظهر من يوم الأربعاء المذكور و جئنا بغداد قبيل العصر، و المدخل إليها على بساتين و بساتين يقصر الوصف عنها.

ذكر مدينة السلام بغداد حرسها الله تعالى

هذه المدينة العتيقة، و إن لم تزل حضرة الخلافة العباسية، و مثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية، قد ذهب أكثر رسمها، و لم يبق منا إلا شهير اسمها. و هي بالإضافة

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٧١

إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها، و التفات أعين النوائب إليها، كالظل المدارس و الأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص. فلا حسن فيها يستوقف البصر و يستدعى من المستوفز العقل و النظر إلا دجلتها التي هي بين شريقها و غريبها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين. فهي تردها و لا-تظما، و تتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ، و الحسن الحریمی بين هوائها و

مائها ينشأ، هو من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة، ففتن الهوى، إلا أن يعصم الله منها، مخوفة.

و أما أهلها فلا- تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء، و يذهب بنفسه عجا و كبرياء، يزدرون الغرباء، و يظهرون لمن دونهم الأنفة و الإباء، و يستصغرون عمن سواهم الأحاديث و الأنباء، قد تصور كل منهم في معتقده و خلده أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده. فهم لا يستكرومون في معمر البسيطة مثوى غير ماثوهم، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا أو عبادا سواهم. يسحبون أذيالهم أشرا و بطرا، و لا يغيرون في ذات الله منكرًا. يظنون أن أسنى الفخار في سحب الإزار، و لا يعلمون أن فضله، بمقتضى الحديث المأثور، في النار. يتبايعون بينهم بالذهب قرضا، و ما منهم من يحسن الله فرضا. فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه، و على يدي مخسر للميزان تعرضه.

لا- تكاد تظفر من خواص أهلها بالورع العفيف، و لا تقع من أهل موازينها و مكاييلها إلا على من ثبت له الويل في سورة التطيف. لا يبالون في ذلك بعب، كأنهم من بقايا مدين قوم النبي شعيب. فالغريب فيهم معدوم الإرفاق، متضاعف الإنفاق، لا يجد من أهلها إلا من يعامله بنفاق، أو يهش إليه هشاشة انتفاع و استرفاق. كأنهم من الترام هذه الخلقة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم و اتفاق. فسوء معاشره أبنائها يغلب على طبع هوائها و مائها، و يعلل حسن المسموع من أحاديثها و أنبائها، أستغفر الله إلا فقهاءهم المحدثين، و عاظمهم المذكرين. لا جرم أن لهم في طريقة الوعظ و التذكير، و مداومة التنبيه و التبصير، و المثابرة على الإنذار المخوف و التحذير، مقامات تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحط كثيرا من أوزارهم، و يسحب ذيل العفو على سوء آثارهم، و يمنع القارعة الصماء أن تحل بديارهم. لكنهم معهم يضربون في حديد بارد، و يرومون تفجير الجلامد، فلا يكاد يخلو يوم من أيام جمعاتهم من واعظ يتكلم فيه،

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٧٢

فالموفق فيهم لا يزال في مجلس ذكر أيامه كلها، لهم في ذلك طريقة مباركة ملتزمة.

مجالس العلماء

فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الإمام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية، و فقيه المدرسة النظامية، و المشار إليه بالتقديم في العلوم الأصولية. حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر المذكور، فصعد المنبر، و أخذ القراء أمامه في القراءة على كراسى موضوعه، فتوقوا و شوقوا، و أتوا بتلاحين معجبه، و نغمات محرجه مطربة. ثم اندفع الشيخ الإمام المذكور فخطب خطبة سكون و وقار و تصرف في أفانين من العلوم، من تفسير كتاب الله عز و جل، و إيراد حديث رسوله، صلى الله عليه و سلم، و التكلم على معانيه. ثم رشقته شأبيب المسائل من كل جانب، فأجاب، و ما قصر، و تقدم و ما تأخر، و دفعت إليه عدة رقاع منها، فجمعها جملة في يده، و جعل يجاوب على كل واحدة منها، و ينبذ بها إلى أن فرغ منها.

و حان المساء فنزل و افترق الجمع. فكان مجلسه مجلس علم و وعظ، و قورا هينا لينا، ظهرت فيه البركة و السكينة و لم تقصر عن إرسال عبرتها فيه النفس المستكينة، و لا سيما آخر مجلسه، فإنه سرت حميا وعظه إلى النفوس حتى أطارتها خشوعا، و فجرتها دموعا. و بادر التائبون إليه سقوطا على يده و وقوعا، فكم ناصية جز، و كم مفصل من مفاصل التائبين طبق بالموعظة و حز. فبمثل مقام هذا الشيخ المبارك ترحم العصاة، و تتغمد الجناة، و تستدام العصمة و النجاة، و الله يجازى كل ذى مقام عن مقامه، و يتغمد ببركة العلماء الأولياء عباده العاصين من سخطه و انتقامه برحمته و كرمه، إنه المنعم الكريم، لا رب سواه، و لا معبود إلا إياه.

و شهدنا له فيها مجلسا ثانيا إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثانى عشر من الشهر المذكور. و حضر ذلك اليوم مجلسه سيد العلماء الخراسانية، و رئيس الأئمة الشافعية، و دخل المدرسة النظامية بهز عظيم و تطريف آماق، تشوقت له النفوس. فأخذ الإمام المتقدم الذكر في وعظه مسرورا بحضوره، و متجملا به، فأتى بأفانين من العلوم، على حسب مجلسه المتقدم الذكر. و رئيس العلماء المذكور

هو صدر الدين الخجندی المتقدم الذكر في هذا التقييد، المشتهر المآثر و المكارم، المقدم بين الأكابر و الأعظم.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٧٣

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه، الإمام الأوحده، جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي، بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي و في آخره على اتصال من قصور الخليفة و بمقره من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي، و هو يجلس به كل يوم سبت، فشهدنا مجلس رجل ليس من عمرو و لا زيد، و في جوف الفرا كل الصيد، آية الزمان، و قرء عين الإيمان، رئيس الحنبلية، و المخصوص في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، و فارس حلبة هذه الصناعة، و المشهود له بالسبق الكريم في البلاغة و البراعة، و مالك أزمه الكلام في النظم و النثر، و الغائص في بحر فكره على نفائس الدر. فأما نظمه فرضى الطباع، مهيارى الانطباع، و أما نثره فيصعد بسحر البيان، و يعطل المثل بقس و سحبان.

و من أبهر آياته، و أكبر معجزاته، أنه يصعد المنبر و يبتدئ القراء بالقرآن، و عددهم نيف على العشرين قارنا، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القراءة يتلونها على نسق بتطريب و تشويق، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية، و لا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة، و قد أتوا بآيات مشتبهات، لا يكاد المتقدم الخاطر يحصلها عددا أو يسميها نسقا. فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته، عجلا مبتدرا، و أفرغ في أصداق الأسماع من ألفاظه دررا، و انتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته فقرا، و أتى بها على نسق القراءة لها، لا مقدا و لا مؤخرا. ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها. فلو أن أبدع من في مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء، آية آية على الترتيب، لعجز عن ذلك، فكيف بمن ينظمها مرتجلا، و يورد الخطبة الغراء بها عجلا! أفسح خبر هذا أم أنتم لا تبصرون و إن هذا لهو الفضل المبين، فحدث و لا حرج عن البحر، و هيهات ليس الخبر عنه كالخبر!

ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائيق من الوعظ و آيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقا، و ذابت بها الأنفس احتراقا، إلى أن علا الضجيج، و تردد بشهقاته النسيج، و أعلن التائبون بالصياح، و تساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها، و يمسح على رأسه داعيا له. و منهم من يغشى

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٧٤

عليه فيرفع في الأذرع إليه، فشهدنا هولاء يملأ النفوس إنابة و ندامة، و يذكروها هول يوم القيامة. فلو لم نركب ثبج البحر، و نعتسف مفازات القفر إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل، لكانت الصفقة الرابعة و الوجهة المفلحة الناجحة، و الحمد لله على أن من لقاء من تشهد الجمادات بفضله، و يضيق الوجود عن مثله. و في أثناء مجلسه ذلك يتبدرون المسائل، و تطير إليه الرقاع، فيجاوب أسرع من طرفه عين. و ربما كان أكثر مجلسه الراق من نتائج تلك المسائل، و الفضل بيد الله يؤتية من يشاء، لا إله سواه.

ثم شاهدنا مجلسا ثانيا له، بكرة يوم الخميس الحادي عشر لصفرة، بباب بدر في ساحة قصور الخليفة، و مناظره مشرفة عليه. و هذا الموضوع المذكور هو من حرم الخليفة، رخص بالوصول إليه و التكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة و والدته و من حضر من الحرم. و يفتح الباب للعمامة فيدخلون ذلك الموضوع، و قد بسط بالحصر. و جلوسه بهذا الموضوع كل يوم خميس. فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور، و قعدنا إلى أن وصل هذا الحبر المتكلم، فصعد المنبر، و أرخى طيلسانه عن رأسه تواضعا لحرمة المكان، و قد تسطر القراء أمامه على كراسي موضوعه، فابتدروا القراءة على الترتيب، و شوقوا ما شاءوا، و أطربوا ما أرادوا. و بدرت العيون بإرسال الدموع.

فلما فرغوا من القراءة، و قد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات، صدع بخطبته الزهراء الغراء، و أتى بأوائل الآيات في أثنائها منتظما، و مشى الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب إلى أن أكملها، و كانت الآية الله الذي جعل لكم الليل لتيكفون فيه فتمادى على هذا السين و حسن أي تحسين، فكان يومه في ذلك أعجب من أمسه، ثم أخذ في الثناء على الخليفة و الدعاء له و

لوالدته، و كنى عنها بالستر الأشرف، و الجنب الأرف. ثم سلك سبيله فى الوعظ، كل ذلك بديهة لا روية؛ و يصل كلامه فى ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى. فأرسلت و ابلاها العيون، و أبدت النفوس سر شوقها المكنون، و تطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين، و بالتوبة معلنين، و طاشت الألباب و العقول، و كثر الوله و الدهول، و صارت النفوس لا تملك تحصيلها،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٧٥

و لا تميز معقولا، و لا تجد للصبر سيلا.

ثم فى أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسب مبرحة التشويق، بديعة الترقيق، تشعل القلوب وجدا، و يعود موضعها النسيب زهدا. و كان آخر ما أنشده من ذلك، و قد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام، و أصابت المقاتل سهام ذلك الكلام:

أين فؤادى أذابه الوجدو أين قلبى فما صحا بعد

يا سعد زدنى جوى بذكرهم بالله قل لى فديت يا سعد

و لم يزل يرددتها و الانفعال قد أثر فيه و المدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه، إلى أن خاف الإفحام، فابتدر القيام، و نزل عن المنبر دهشا عجلا، و قد أطار القلوب وجلا، و ترك الناس على أحر من الجمر، يشيعونه بالمدامع الحمر. فمن معلى بالانتحاب، و من متعفر فى التراب. فيا له من مشهد ما أهول مرآه، و ما أسعد من رآه! نفعنا الله ببركته، و جعلنا ممن فاز به بنصيب من رحمته، بمنه و فضله. و فى أول مجلسه أنشد قصيدا تير القبس، عراقى النفس، فى الخليفة أوله:

فى شغل من الغرام شاغل من هاجه البرق بسفح عاقل

يقول فيه عند ذكر الخليفة:

يا كلمات الله كوني عوذة من العيون للإمام الكامل

ففرغ من إنشاده و قد هز المجلس طربا، ثم أخذ فى شأنه و تمادى فى إيراد سحر بيانه، و ما كنا نحسب أن متكلما فى الدنيا يعطى من ملكة النفوس و التلاعب بها ما أعطى هذا الرجل، فسبحان من يخص بالكمال من يشاء من عباده لا إله غيره.

و شاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بغداد ممن نستغرب شأنه، بالإضافة إلى ما عهدناه من متكلمى الغرب. و كنا قد شاهدنا بمكة و المدينة، شرفها الله، مجالس من قد ذكرناه فى هذا التقييد، فصغرت، بالإضافة لمجالس هذا الرجل الفذ، فى نفوسنا قدرا، و لم نستطع لها ذكرا. و أين تقعان مما أريد و شتان بين اليزيدى، و هيهات! الفتان كثير،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٧٦

و المثل بمالك يسير. و نزلنا بعده بمجلس يطيب سماعه، و يروق استطلاع.

و حضرنا له مجلسا ثالثا، يوم السبت الثالث عشر لصفري، بالموضع المذكور بإزاء داره على الشط الشرقى، فأخذت معجزاته البيانية مأخذها، فشهدنا من أمره عجا، صعده بوعظه أنفاس الحاضرين سحبا، و أسال من أدمعهم و ابلا سكبا، ثم جعل يردد فى آخر مجلسه أبياتا من النسيب شوقا زهديا و طربا، إلى أن غلبته الرقة فوثب من أعلى منبره والهيا مكتثبا، و غادر الكل متندما على نفسه منتحبا، لهفان ينادى: يا حسرتا و احربا. و المنادون يدورون بنحيبهم دور الرحى، و كل منهم بعد من سكرته ما صحا، فسبحان من خلفه عبرة لأولى الألباب، و جعله لتوبة عباده أقوى الأسباب، لا إله سواه.

ثم نرجع إلى ذكر بغداد. هى كما ذكرناه جانبان: شرقى و غربى، و دجلة بينهما فأما الجانب الغربى فقد عمه الخراب و استولى عليه، و كان المعمور أولا. و عمارة الجانب الشرقى محدثة، لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوى على سبع عشرة محلة، كل محلة منها مدينة مستقلة. و فى كل واحدة منها الحمامان و الثلاثة و الثمانية منها بجوامع يصلى فيها الجمعة. فأكبرها القرية، و هى التى نزلنا فيها بربض منها يعرف بالمربعة، على شط دجلة بمقربة من الجسر، فحملته دجلة بمدى السيلى، فعاد الناس يعبرون بالزوارق. و الزوارق فيها لا تحصى كثرة، فالناس ليلا- و نهارا من تمادى العبور فيها فى نزهة متصلة رجالا و نساء. و العادة أن يكون لها جسران: أحدهما مما

يقرب من دور الخليفة و الآخر فوكة لكثرة الناس. و العبور فى الزوارق لا ينقطع منها.

ثم الكرخ، و هى مدينة مسورة. ثم محلة باب البصرة، و هى أيضا مدينة، و بها جامع المنصور و هو جامع كبير عتيق البنيان حفيله. ثم الشارع، و هى أيضا مدينة، فهذه الأربع أكبر المحلات. و بين الشارع و محلة باب البصرة سوق المارستان، و هى مدينة صغيرة، فيها المارستان الشهير ببغداد، و هو على دجلة. و تتفقد الأطباء كل يوم اثنين و خميس، و يطالعون أحوال المرضى به، و يرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، و بين أيديهم قومه يتناولون طبخ الأدوية و الأغذية، و هو قصر كبير فيه المقاصر و البيوت و جميع مرافق المساكن الملوكية، و الماء يدخل إليه من دجلة.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٧٧

و أسماء سائر المحلات يطول ذكرها، كالوسيطه، و هى بين دجلة و نهر يتفرع من الفرات و ينصب فى دجلة، يجىء فيه جميع المرافق التى فى الجهات التى يسقيها الفرات.

و يشق على باب البصرة الذى ذكرنا محلته نهر آخر منه و ينصب أيضا فى دجلة. و من أسماء المحلات العتاييه، و بها تصنع الثياب العتاييه، و هى حرير و قطن مختلفات الألوان. و منها الحربيه، و هى أعلاها، و ليس وراءها إلا القرى الخارجة عن بغداد أسماء يطول ذكرها.

و ياحدى هذه المحلات قبر معروف الكرخى، و هو رجل من الصالحين مشهور الذكر فى الأولياء. و فى الطريق إلى باب البصرة مشهد حفيلى البنيان، داخله قبر متسع السنام، عليه مكتوب: هذا قبر عون و معين، من أولاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب، رضى الله عنه. و فى الجانب الغربى أيضا قبر موسى بن جعفر، رضى الله عنهما، إلى مشاهد كثيرة ممن لم تحضرنا تسميته من الأولياء و الصالحين و السلف الكريم، رضى الله عن جميعهم.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار؛ ص ١٧٧

بأعلى الشريفة خارج البلد محلة كبيرة يازاء محلة الرصافه، و بالرصافه كان باب الطاق المشهور على الشط، و فى تلك المحلة مشهد حفيلى البنيان، له قبة بيضاء سامية فى الهواء، فيه قبر الإمام أبى حنيفة، رضى الله عنه، و به تعرف المحلة. و بالقرب من تلك المحلة قبر الإمام أحمد بن حنبل، رضى الله عنه. و فى تلك الجهة أيضا قبر أبى بكر الشبلبى، رحمه الله، و قبر الحسين بن منصور الحلاج. و ببغداد من قبور الصالحين كثير، رضى الله عنهم. و بالغبية هى البساتين و الحدائق، و منها تجلب الفواكه إلى الشريفة.

دار الخلافة العباسية

و أما الشريفة فهى اليوم دار الخلافة، و كفاها بذلك شرفا و احتفالا! و دور الخليفة مع آخرها، و هى تقع منها فى نحو الربع أو أزيد، لأن جميع العباسيين فى تلك الديار معتقلون اعتقالاتا جميلا لا يخرجون و لا يظهرون، و لهم المرتبات القائمة بهم. و للخليفة من تلك الديار جزء كبير، قد اتخذ فيها المناظر المشرفة و القصور الرائقة و البساتين

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٧٨

الأنيقة. و ليس له اليوم وزير إنما له خديم يعرف بنائب الوزراء، يحضر الديوان المحتوى على أموال الخلافة و بين يديه الكتب فينفذ الأمور؛ و له قيم على جميع الديار العباسية، و أمين على سائر الحرم الباقيات من عهد جده و أبيه و على جميع من تضمنه الحرمه الخلافيه، يعرف بالصاحب مجد الدين أستاذ الدار، هذا لقبه. و يدعى له إثر الدعاء للخليفة، و هو قلما يظهر للعامه، اشتغالا بما هو بسبيله من أمور تلك الديار و حراستها و التكفل بمغالقتها و تفقدها ليلا و نهارا. و رونق هذا الملك إنما هو على الفتیان و الأحابش المجاييب، منهم فتى اسمه خالص، و هو قائد العسكرية كلها.

أبصرناه خارجا أحد الأيام و بين يديه و خلفه أمراء الأجناد من الأتراك و الديلم و سواهم، و حوله نحو خمسين سيفا مسلولة فى

أيدي رجال قد احتفوا به فشهدنا من أمره عجا في الدهر، و له القصور و المناظر على دجلة.

وقد يظهر الخليفة في بعض الأحيان بدجلة راكبا في زورق. وقد يصيد في بعض الأوقات في البرية، و ظهوره على حالة اختصار تعمية لأمره على العامة، فلا- يزداد أمره مع تلك التعمية إلا- اشتهارا. و هو مع ذلك يحب الظهور للعامة و يؤثر التجب لهم، و هو ميمون النقية عندهم، قد استسعدوا بأيامه رخاء و عدلا و طيب عيش، فالكبير و الصغير منهم داع له. أبصرنا هذا الخليفة المذكور- و هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله، ابن المستضيء بنور الله محمد الحسن، ابن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف، و يتصل نسبه إلى أبي الفضل جعفر المقتدر بالله، إلى السلف فوqe من أجداده الخلفاء، رضوان الله عليهم- بالجانب الغربي أمام منظرته به، و قد انحدر عنها صاعدا في الزورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرقي على الشط، و هو في فناء من سنه، أشقر اللحية صغيرها، كما اجتمع بها وجهه، حسن الشكل، جميل المنظر، أبيض اللون، معتدل القامة، رائق الرواء، سنه نحو الخمس و العشرين سنة، لابسا ثوبا أبيض شبه القباء برسوم ذهب فيه، و على رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للباس مما هو كالفنك و أشرف، متمعدا بذلك زى الأتراك تعمية لشأنه، لكن

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٧٩

الشمس لا تخفى و إن سترت، و ذلك عشية يوم السبت السادس لصفرة سنة ثمانين.

و أبصرناه أيضا عشى يوم الأحد بعده متلعا من منظرته المذكورة بالشط الغربي، و كنا نسكن بمقربة منها.

و الشرقية حافلة الأسواق عظيمة الترتيب، تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم إلا الله تعالى الذي أحصى كل شيء عددا. و بها من الجوامع ثلاثة، كل يجتمع فيها: جامع الخليفة متصل بداره، و هو جامع كبير، و فيه سقايات عظيمة و مرافق كثيرة كاملة، مرافق الوضوء و الطهور؛ و جامع السلطان، و هو خارج البلد، و يتصل به قصور تنسب للسلطان أيضا المعروف بشاه شاه، و كان مدبر أمر أجداد هذا الخليفة، و كان يسكن هنالك، فابتنى الجامع أمام مسكنه؛ و جامع الرصافة، و هو على الجانب الشرقي المذكور، و بينه و بين جامع هذا السلطان المذكور مسافة نحو الميل. و الرصافة تربة الخلفاء العباسيين، رحمهم الله.

فجميع جوامع البلد ببغداد، المجمع فيها، أحد عشر.

و أما حماماتها فلا تحصى عدة، ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية و الغربية نحو الألفى حمام، و أكثرها مطلية بالقار مسطحة به، فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل. و حمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم، لأن شأنه عجيب، يجلب من عين بين البصرة و الكوفة، و قد أنبت الله ماء هذه العين ليتولد منه القار، فهو يصير في جوانبها كالصلصال، فيجرف و يجلب و قد انعقد، فسبحان خالق ما يشاء لا إله سواه. و أما المساجد بالشرقية و الغربية فلا يأخذها التقدير فضلا عن الإحصاء. و المدارس بها نحو الثلاثين، و هي كلها بالشرقية، و ما منها مدرسة إلا و هي يقصر القصر البديع عنها و أعظمها و أشهرها النظامية و هي التي ابتناها نظام الملك، و جددت سنة أربع و خمس مئة. و لهذه المدارس أوقاف عظيمة و عقارات محبسة تتصير إلى الفقهاء المدرسين بها، و يجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم، و لهذه البلاد في أمر هذه المدارس و المارستانات شرف عظيم و فخر مخلد، فرحم الله واضعها الأول و رحم من تبع ذلك السنن الصالح.

و للشرقية أربعة أبواب: فأولها، و هو في أعلى الشط، باب السلطان، ثم باب الظفريه، ثم يليه باب الحلبه، ثم باب البصليه. هذه الأبواب التي هي في السور المحيط

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٨٠

بها من أعلى الشط إلى أسفله، هو يعطف عليها كصنف دائرة مستطيلة. و داخلها في الأسواق أبواب كثيرة. و بالجملة فشان هذه البلدة أعظم من أن يوصف، و أين هي مما كانت عليه؟ هي اليوم داخله تحت قول حبيب:

لا أنت أنت و لا الديار ديار

و اتفق رحيلنا من بغداد إلى الموصل إثر صلاة العصر من يوم الاثنين الخامس عشر لصفر، و هو الثامن و العشرون لمايه، فكان مقامنا بها ثلاثة عشر يوما، و نحن في صحبة الخاتونين: خاتون بنت مسعود المتقدمة الذكر في هذا التقييد، و خاتون أم عز الدين صاحب الموصل. و صحبتها حاج الشام و الموصل و أرض الأعاجم المتصلة بالدروب التي إلى طاعة الأمير مسعود والد إحدى الخاتونين المذكورتين. و توجه حاج خراسان و ما يليها صحبة الخاتون الثالثة ابنة الملك الدقوس، و طريقهم على الجانب الشرقي من بغداد، و طريقنا نحن إلى الموصل على الجانب الغربي منها. و هاتان الخاتونان هما أميرتا هذا العسكر الذي توجهنا فيه و قائداته، و الله لا يجعلنا تحت قول القائل :

ضاع الرعيل و من يقوده

و لهما أجناد برسمهما، و زادهما الخليفة جندا يشيعونهما، مخافة العرب الخفاجيين المضرين بمدينة بغداد. و في تلك العشي التي رحلنا فيها فجأتنا خاتون المسعودية المترفة شبابا و ملكا، و هي قد استقلت في هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين الواحدة أمام الأخرى و عليهما الجلال المذهبة، و هما تسيران بها سير النسيم سرعة و لينا، و قد فتح لها أمام الهودج و خلفه بابان، و هي ظاهرة في وسطه متنقبة، و عصابة ذهب على رأسها، و أمامها رعيل من فتانها و جندها، و عن يمينها جنائب

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٨١

المطايا و الهماليج العتاق، و وراءها ركب من جواريتها قد ركب المطايا و الهماليج على السروج المذهبة و عصب رؤوسهن بالعصائب الذهبيات و النسيم يتلاعب بعذباتهن، و هن يسرن خلف سيدتهن سير السحاب. و لها الرايات و الطبول و البوقات تضرب عند ركوبها و عند نزولها. و أبصرنا من نخوة الملك النسائي و احتفاله رتبة تهز الأرض هزا، و تسحب أذيال الدنيا عزا. و يحق أن يخدمها العز، و يكون لها هذا الهز، فان مسافة مملكة أبيها نحو أربعة الأشهر، و صاحب القسطنطينية يؤدي إليه الجزية، و هو من العدل في رعيته على سيرة عجيبة، و من موالاة الجهاد على سنة مرضية.

و أعلمنا أحد الحجاج من أهل بلدنا أن في هذا العام الذي هو عام تسعة و سبعين الخالي عنا، استفتح من بلاد الروم نحو الخمسة و العشرين بلدا، و لقبه عز الدين، و اسم أبيه مسعود، و هذا الاسم غلب عليه، و هو عريق في المملكة عن جدّ فجدّ. و من شرف خاتون هذه، و اسمها سلجوقه، أن صلاح الدين استفتح آمد بلد زوجها نور الدين، و هي من أعظم بلاد الدنيا، فترك البلد لها كرامة لأبيها و أعطاها المفاتيح، فبقى ملك زوجها بسببها. و ناهيك من هذا الشأن! و الملك ملك الحى القيوم، يؤتى الملك من يشاء لا إله سواه.

فكان مبيتنا تلك الليلة بإحدى قرى بغداد، نزلناها مضى هده من الليل، و بمقربة منها دجيل، و هو نهر يتفرع من دجلة يسقى تلك القرى كلها. و غدونا من ذلك الموضع، ضحى يوم الثلاثاء السادس عشر لصفر المذكور، و القرى متصلة في طريقنا.

فاتصل سيرنا إثر صلاة الظهر، و نزلنا و أقمنا باقى يومنا ليلحق من تأخر من الحجاج و من تجار الشام و الموصل. ثم رحلنا قبيل نصف الليل، و تمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار، فنزلنا قائلين و مريحين على دجيل. و أسرينا الليل كله، فنزلنا مع الصباح بمقربة من قرية تعرف بالحربة، من أخصب القرى و أفسحها. و رحلنا من ذلك الموضع و أسرينا الليل كله، و نزلنا مع الصباح من يوم الخميس الثامن عشر لصفر على شط دجلة بمقربة من حصن يعرف بالمعشوق، و يقال: إنه كان متفرجا لزيدة ابنة عم الرشيد و زوجته. و على قبالة هذا الموضع في الشط الشرقي مدينة سرّ من رأى، و هي

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ١٨٢

اليوم عبرة من رأى: أين معتصمها، و واثقها، و متوكّلها؟! مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها إلا بعض جهات منها هي اليوم معمورة. و قد أطنب المسعودى، رحمه الله، في وصفها و وصف طيب هوائها و رائق حسنها. و هي كما وصف، و إن لم يبق إلا الأثر من

محاسنها. و الله وارث الأرض و من عليها، لا إله غيره. فأقمنا بهذا الموضع طول يومنا مستريحين، و بيننا و بين مدينة تكريت مرحلة، ثم رحلنا منه و أسرينا الليل كله، فصبحنا تكريت مع الفجر من يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر، و هو أول يوم من يونيه، فنزلنا ظاهرها مستريحين ذلك اليوم.

ذكر مدينة تكريت حرسها الله تعالى

هي مدينة كبيرة واسعة الأرجاء، فسيحة الساحة، حافلة الأسواق، كثيرة المساجد، غاصة بالخلق، أهلها أحسن أخلاقا و قسطا في الموازين من أهل بغداد. و دجلة منها في جوفها، و لها قلعة حصينة على الشط هي قصبتها المنيعه. و يطيف بالبلد سور قد أثر الوهن فيه. و هي من المدن العتيقة المذكورة. و رحلنا مع عشي اليوم المذكور و أسرينا طول الليل، و أصبحنا يوم السبت الموفى عشرين منه بشط دجلة، فنزلنا مريحين. و من ذلك الموضع يستحب الماء ليوم و ليلة، فاستصحبناه. و رحلنا ذلك اليوم ضحوة، فأسرنا إلى الليل، و نزلنا لأخذ نفس راحة و اختلاس سنة نوم، فهو منا هنيهة، و رحلنا و أسأدنا إلى الصباح. و تمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار من يوم الأحد بعده، فنزلنا قائلين بقرية على شط دجلة تعرف بالجديدة، و بمقربة منها قرية كبيرة اجترنا عليها تعرف بالعقر و على رأسها ربوة مرتفعة كانت حصنا لها، و أسفلها خان جديد بأبراج و شرف حفيل البنيان و ثيقه. و القرى و العمار من هذا الموضع إلى الموصل متصله. و من هنا ينتشر انتظام الحاج في المشى فينسط كل في طريقه متقدما و متأخرا، و بطيئا و مستعجلا، آمنا مطمئنا. فرحلنا منها قريب العصر، و تمادى سيرنا إلى المغرب، و نزلنا آخذين غفوة سنة خلال ما تتعشى الإبل.

و رحلنا قبل نصف الليل و أدلجنا إلى الصباح.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٨٣

و في ضحوة هذا اليوم، و هو يوم الاثنين الثاني و العشرين لصفري، و الرابع ليونيه، مررنا بموضع يعرف بالقيارة من دجلة، و بالجانب الشرقي منها، و عن يمين الطريق إلى الموصل، فيه و هده من الأرض سوداء كأنها سحابة قد أنبط الله فيها عيونا كبارا و صغارا تنبع بالقار. و ربما يقذف بعضها بحباب منه كأنها الغليان، و يصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطا على الأرض أسود أملس، صقيلا و رطبا، عطر الرائحة، شديد التعلق، فيلصق بالأصابع لأول مباشرة من اللمس. و حول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه إلى جوانبها فيرسب قارا، فشاهدنا عجا كنا نسمع به فنستغرب سماعه.

و بمقربة من هذه العيون على شط دجلة عين أخرى منه كبيرة، أبصرنا على البعد منها دخانا، فقيل لنا: إن النار تشعل فيه إذا أرادوا نقله فتتشف النار رطوبته المائية و تعقده، فيقطعونه قطرات و يحملونه، و هو يعم جميع البلاد إلى الشام، إلى عكة، إلى جميع البلاد البحرية، و الله يخلق ما يشاء، سبحانه تعالى جدّه و جلت قدرته، لا رب غيره. و لا شك أن على هذه الصفة هي العين التي ذكر لنا أنها بين الكوفة و البصرة، و قد ذكرنا أمرها في هذا التقييد، و من هذا الموضع إلى الموصل مرحلتان.

و أجزنا تلك العيون القارية و نزلنا قائلين، ثم رحنا و سرنا العشى، و نزلنا بقرية تعرف بالعقبة، و منها تصبح الموصل إن شاء الله فأسرنا منها بعد نصف الليل و وصلنا الموصل عند ارتفاع النهار من يوم الثلاثاء الثالث و العشرين لصفري، و الخامس من يونيه، و نزلنا بربضها في أحد الخانات بمقربة من الشط.

ذكر مدينة الموصل حرسها الله تعالى

هذه المدينة عتيقة ضخمة، حصينة فخمة، قد طالت صحبتها للزمن، فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن، قد كادت أبراجها تلتقي انتظاما لقرب مسافة بعضها

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٨٤

من بعض. و باطن الداخل منها بيوت، بعضها على بعض، مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله، كأنه قد تمكن فتحها فيه لغلط بنيتها وسعة وضعه. و للمقاتلة في هذه البيوت حرز وقاية، و هي من المرافق الحربية. و في أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها رصا، ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج، و تتصل بها دور السلطان. و قد فصل بينهما و بين البلد شارع متسع يمتد من أعلى البلد إلى أسفله. و دجلة شرقي البلد، و هي متصله بالسور، و أبراجه في مائها.

و للبلدة ربح كبير فيه المساجد و الحمامات و الخانات و الأسواق، و أحدث فيه بعض أمراء البلدة، و كان يعرف بمجاهد الدين، جامعاً على شط دجلة، ما أرى وضع جامع أحفل منه، بناء يقصر الوصف عنه و عن تزيينه و ترتيبه، و كل ذلك نقش في الآجر. و أما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة، و يطيف به شبائيك حديد، تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد أشرف منها و لا أحسن. و وصفه يطول، و إنما وقع الإلماع بالبعض جريا إلى الاختصار، و أمامه مارستان حفيل من بناء مجاهد الدين المذكور. و بنى أيضا داخل البلد و في سوقه قيسارية للتجار، كأنها الخان العظيم، تنغلق عليها أبواب حديد، و تطيف بها دكاكين و بيوت، بعضها على بعض، قد جلى ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف الذي لا مثيل له. فما أرى في البلاد قيسارية تعدلها.

و للمدينة جامعان: أحدهما جديد، و الآخر من عهد بنى أمية. و في صحن هذا الجامع قبة، داخلها سارية رخام قائمة، قد خلخل جيدها بخمسة خلاخل مفتولة فتل السوار من جرم رخامها، و في أعلاها خصه رخام مثنى يخرج عليها أنبوب من الماء خروج انزعاج و شدة، فيرتفع في الهواء أزيد من القامة كأنه قضيب من البلور معتدل ثم ينعكس إلى أسفل القبة. و يجمع في هذين الجامعين القديم و الحديث، و يجمع أيضا في جامع الربض. و في المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة، فتلوح كأنها القصور المشرفة. و لها مارستان حاشا الذي ذكرناه في الربض.

و خص الله هذه البلدة بترية مقدسة فيها مشهد جرجيس، صلى الله عليه و سلم، و قد بنى فيه مسجد، و قبره في زاوية من أحد بيوت المسجد عن يمين الداخل إليه.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٨٥

و هذا المسجد هو بين الجامع الجديد و باب الجسر، يجده المار إلى الجامع من باب الجسر عن يساره. فتبركنا بزيارة هذا القبر المقدس و الوقوف عنده، نفعنا الله بذلك. و مما خص الله به هذه البلدة أن في الشرق منها إذا عبرت دجلة على نحو الميل تل التوبة، و هو التل الذي وقف به يونس، عليه السلام، بقومه و دعا و دعوا حتى كشف الله عنهم العذاب. و بمقربة منه على قدر الميل أيضا العين المباركة المنسوبة إليه، و يقال: إنه أمر قومه بالتطهر فيها و إضمار التوبة، ثم صعدوا على التل داعين.

و في هذا التل بناء عظيم هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة و مقاصر و مطاهر و سقايات، يضم الجميع باب واحد، و في وسط ذلك البناء بيت ينسدل عليه ستر و يتغلق دونه باب كريم مرصع كله، يقال: إنه كان الموضع الذي وقف فيه يونس، صلى الله عليه و سلم، و محراب هذا البيت يقال إنه كان بيته الذي كان يتعبد فيه.

و يطيف بهذا البيت شمع كأنه جذوع النخل عظما، فيخرج الناس إلى هذا الرباط كل ليلة جمعة و يتعبدون فيه. و حول هذا الرباط قرى كثيرة، و يتصل بها خراب عظيم، يقال: إنه كان مدينة نينوى، و هي مدينة يونس عليه السلام. و أثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر، و فرج الأبواب فيه بينه، و أكوام أبراجه مشرفة. بتنا بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعة السادس و العشرين لصفر، ثم صبحنا العين المباركة، و شربنا من مائها و تطهرنا فيها وصلينا في المسجد المتصل بها، و الله ينفع بالنية في ذلك بمنه و كرمه.

و أهل هذه البلدة على طريقة حسنة، يستعملون أعمال البر، فلا تلقى منهم إلا ذا وجه طلق و كلمة لينة. و لهم كرامة للغرباء و إقبال عليهم، و عندهم اعتدال في جميع معاملاتهم. فكان مقامنا في هذه البلدة أربعة أيام.

أبهة استقبال الخاتون

و من أحفل المشاهد الدنيوية المريية بروز شاهدناه يوم الأربعاء ثانی يوم وصولنا الموصل للخاتونين: أم عز الدين صاحب الموصل، و بنت الأمير مسعود المتقدم ذكرها، فخرج الناس على بكره أبيهم ركبانا و مشاء، و خرج النساء كذلك، و أكثرهن تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٨٦

راكبات، و قد اجتمع منهن عسكر جرار. و خرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته. فدخل الحاج المواصله صحبه خاتونهم على احتفال و أبهه قد جلولوا أعناق إبلمهم بالحرير المللون، و قلدوها القلائد المزوقه.

و دخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواربها و أمامها عسكر رجالها يطوفون بها، و قد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغه أهله و دنانير سعه الأكف و سلاسل و تماثيل بديعه الصفات، فلا تكاد تبين من القبه موضعا، و مطيها ترحفان بها زحفا، و صخب ذلك الحلى يسد المسامع، و مطاياها مجلله الأعناق بالذهب، و مراكب جواربها كذلك؛ مجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره. و كان مشهدا أبهت الأبصار، و أحدث الاعتبار، و كل ملك يفنى إلا ملك الواحد القهار، لا شريك له. و أخبرنا غير واحد من الثقات، ممن يعرف حال خاتون هذه، و أنها موصوفة بالعبادة و الخير، مؤثرة لأفعال البر. فمنها أنها أنفقت في طريقها هذا إلى الحجاز، في صدقات و نفقات في السبيل، مالا عظيما، و هي تحب الصالحين و الصالحات تزورهم متكره رغبه في دعائهم. و شأنها عجيب كله على شبابها و انغماسها في نعيم الملك. و الله يهدي من يشاء من عباده.

و في عشي اليوم الرابع من المقام بهذه البلده، و هو يوم الجمعة السادس و العشرين لصفرة المذكور، رحلنا منها على دواب اشتريناها بالموصل تفاديا من معامله الجمالين.

على أن القدر المحمود لم يسبب لنا إلا صحبه الأشبه منهم، و من شكرناه على طول الصحبه، و تماديا من مكه، شرفها الله، إلى الموصل. فأسرنا ليلة السبت إلى بعيد نصف الليل، ثم نزلنا بقرية من قرى الموصل. و رحلنا منها ضحوة يوم السبت المذكور، و قلنا بقرية تعرف بعين الرصد، و كان مقيلا تحت جسر معقود على واد يتحدر فيه الماء، و كان مقيلا مباركا. و في تلك القرية خان كبير جيد. و في محلات الطريق كلها خانات. و اتفق مبيتنا تلك الليلة بالقرية المذكورة، و أسرنا منها و أصبحنا يوم الأحد بقرية تعرف بالمويلحه، و أسرنا منها و بتنا بقرية كبيرة تعرف بجدار لها حصن عتيق. و في يومنا هذا رأينا، عن يمين الطريق، جبل الجودي المذكور في كتاب الله تعالى الذي استوت عليه سفينة نوح، عليه السلام، و هو جبل عال مستطيل. ثم رحلنا في السحر الأعلى من يوم الاثنين التاسع و العشرين لصفرة، فكان مبيتنا في قرية من قرى نصيبين، و منها إليها مرحلة، و يعرف الموضع المذكور بالكلابى.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٨٧

شهر ربيع الأول من سنة ثمانين عرفنا الله بركته

إشارة

استهل هلاله ليلة الثلاثاء، بموافق الثاني عشر من يونيه، و نحن بالقرية المذكورة، فرحلنا منها سحر يوم الثلاثاء المذكور و وصلنا نصيبين قبل الظهر من اليوم المذكور.

ذكر مدينة نصيبين حرسها الله

شهيرة العتاقة و القدم، ظاهرها شباب، و باطنها هرم، جميلة المنظر، متوسطة بين الكبر و الصغر، يمتد أمامها و خلفها بسيط أخضر مد البصر، قد أجرى الله فيه مذائب من الماء تسقيه، و تطرد في نواحيه، و تحف بها عن يمين و شمال بساتين ملتفة الأشجار، يانع الثمار، ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار، و الحدائق تنتظم بحافتيه، و تفيء ظلها الوارفة عليه، فرحم الله أبا نواس

الحسن بن هانئ حيث يقول:

طابت نصيبين لى يوما فطبت لها يا ليت حظى من الدنيا نصيبين

فخارجها رياضى الشمال، أندلسى الخمائل، يرف غضارة و نضارة، و يتألق عليه رونق الحضارة، و داخلها شعث البادية باد عليه، فلا مطمح للبصر إليه، لا تجد العين فيه فسحة مجال، و لا مسحة جمال. و هذا النهر ينسرب إليها من عين معينه منبعها بجبل قريب منها، تنقسم منها مذانب تخترق بسائطها و عمائرها و يتخلل البلد منها جزء، فيتفرق على شوارعها و يلجج في بعض ديارها، و يصل إلى جامعها المكرم منه سرب يخترق صحنه، و ينصب في صهريجين:

أحدهما وسط الصحن، و الآخر عند الباب الشرقى منه، و يفضى إلى سقايتين حول الجامع.

و على النهر المذكور جسر معقود من صم الحجارة، يتصل بباب المدينة القبلى. و فيها

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٨٨

مدرستان و مارستان واحد، و صاحبها معين الدين أخو عز الدين صاحب الموصل، ابنا أتابك. و لمعين الدين أيضا مدينة سنجان، و هى عن يمين الطريق إلى الموصل.

و يسكن فى إحدى الزوايا الجوفية من جامعها المكرم الشيخ أبو اليقظان الأسود الجسد الأبيض الكبد، أحد الأولياء الذين نور الله بصائرهم بالإيمان، و جعلهم من الباقيات الصالحات فى الزمان، الشهير المقامات، الموصوف بالكرامات، نضو التبتل و الزهادة، و من أخلقت جدته العبادة، قد اكتفى بنسج يده، و لا يدخر من قوت يومه لغده، أسعدنا الله بلاقائه. و أصبحنا من بركة دعائه، عشى يوم الثلاثاء مستهل ربيع الأول، فحمدنا الله عز و جل على أن من علينا برؤيته، و شرفنا بمصافحته، و الله ينفعنا بدعائه، إنه سميع مجيب، لا إله سواه.

فكان نزولنا بها فى خان خارجها، و بتنا بها ليلة الأربعاء الثانى من ربيع الأول.

و رحلنا صبيحته فى قافلة كبيرة من البغال و الحمير: حرانيين و حلبين و سواهم من أهل البلاد، بلاد بكر و ما يليها، و تركنا حاج هذه الجهات وراء ظهورنا على الجمال، فتمادى سيرنا أول الظهر، و نحن على أهبة و حذر من إغارة الأكراد الذين هم آفة هذه الجهات من الموصل إلى نصيبين مدينة دنيصر يقطعون السبيل و يسعون فسادا فى الأرض، و سكناهم فى جبال منيعه على قرب من هذه البلاد المذكورة، و لم يعن الله سلاطينها على قمعهم و كف عاديتهم، فهم ربما و صلوا فى بعض الأحيان إلى باب نصيبين و لا دافع لهم و لا مانع إلا الله، عز و جل. فقلنا يوم الأربعاء المذكور، و رأينا ذلك اليوم، عن يمين طريقنا، بقرب من صفح الجبل، مدينة دارى العتيقة، و هى بيضاء كبيرة، لها قلعة مشرفة. و يليها بمقدار نصف مرحلة مدينة ماردين، و هى فى صفح جبل فى قنته لها قلعة كبيرة هى من قلاع الدنيا الشهيرة، و كلتا المدينتين معمورة.

ذكر مدينة دنيصر حرسها الله

هى فى بسيط من الأرض فسيح، و حولها بساتين الرياحين و الخضر، تسقى

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٨٩

بالسواقى. و هى مائلة الطبع إلى البادية، و لا سور لها، و هى مشحونة بشرا، و لها الأسواق الحفيلة، و الأرزاق الواسعة، و هى مخطر لأهل بلاد الشام و ديار بكر و آمد و بلاد الروم التى تلى طاعة الأمير مسعود و ما يليها، و لها المحرث الواسع، و لها مرافق كثيرة. فكان نزولنا مع القافلة براح ظاهرها، و أصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع الأول بها مريحين، و خارجها مدرسة جديدة بقية البناء فيها، و يتصل بها حمام، و البساتين حولها، فهى مدرسة و مأنسة. و صاحب هذه البلدة قطب الدين، و هو أيضا صاحب مدينة دارى و مدينة ماردين و رأس العين، و هو قريب لا بنى أتابك.

و هذه البلدة لسلاطين شتى كملوك طوائف الأندلس، كلهم قد تحلى بحلية تنسب إلى الدين، فلا تسمع إلا ألقابا هائلة، و صفات لذي التحصيل غير طائفة، قد تساوى فيها السوق و الملوک، و اشترك فيها الغنى و الصعلوك. ليس فيهم من اتسم بسمه به تليق، أو اتصف بصفه هو بها خليق، إلا صلاح الدين صاحب الشام و ديار مصر و الحجاز و اليمن، المشتهر الفضل و العدل، فهذا اسم وافق مسماه، و لفظ طابق معناه.

و ما سوى ذلك فى سواه فزعازع ریح، و شهادات يردھا التجريح، و دعوى نسبة للدين برحت به أى تبریح!

ألقاب مملكة فى غير موضعها كالمهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

و نرجع إلى حديث المراحل، قربها الله: فكان مقامنا بدينصر إلى أن صلينا الجمعة، و هو اليوم الرابع لربيع الأول، تلوم أهل القافلة بها لشهود سوقها، لأن بها يوم الخميس و يوم الجمعة و يوم السبت و يوم الأحد بعدها سوق حفيئة، يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها و القرى المتصلة بها، لأن الطريق كلها يمينا و شمالا قرى متصلة و خانات مشيدة، و يسمون هذه السوق المجتمع إليها من الجهات البازار، و أيام كل سوق معلومة.

و رحلنا إثر صلاة الجمعة فاجتازنا على قرية كبيرة لها حصن تعرف بتل العقاب، هى للنصارى المعاهدين الهميين، ذكرتنا هذه القرية بقرى الأندلس حسنا و نضارة، تحفها

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٩٠

البساتين و الكروم و أنواع الأشجار، و ينسرب بإزائها نهر ترف الظلال عليه، و خطها متسع، و البساتين قد انتظمت، و شاهدنا بها من الخنايص أمثال الغنم كثرة و أنسا بأهلها.

ثم وصلنا عشى النهار إلى قرية أخرى تعرف بالجرس، هى الآن لناس من المعاهدين، و هم فرقة من فرق الروم، فكان مبيتنا بها ليلة السبت الخامس لربيع المذكور، ثم أسحرنا منها و وصلنا مدينة رأس العين قبيل الظهر من يوم السبت المذكور.

ذكر مدينة رأس العين حرسها الله

هذا الاسم لها من أصدق الصفات، و موضوعها به أشرف الموضوعات، و ذلك أن الله تعالى فجر أرضها عيونا و أجزاها ماء معيناً، فتقسمت مذانب و انساب جداول تنبسط فى مروج خضر، فكأنها سبائك اللجين ممدودة فى بساط الزبرجد، تحف بها أشجار و بساتين قد انتظمت حافتيها إلى آخر انتهائها من عمارة بطحائها. و أعظم هذه العيون عينان: إحداهما فوق الأخرى، فالعليا منهما نابعة فوق الأرض فى صم الحجارة، كأنها فى جوف غار كبير متسع يبسط الماء فيه حتى يصير كالصهريج العظيم، ثم يخرج و يسيل نهرا كبيرا كأكبر ما يكون من الأنهار، و ينتهى إلى العين الأخرى و يلتقى بمائها. و هذه العين الثانية عجب من عجائب مخلوقات الله عز و جل، و ذلك أنها نابعة تحت الأرض من الحجر الصلد بنحو أربع قامات أو أزيد، و يتسع منبعها حتى يصير صهريجا فى ذلك العمق، و يعلو بقوة نبعه حتى يسيل على وجه الأرض.

فربما يروم السابح القوى السباحة الشديدة الغوص فى أعماق المياه أن يصل بغوصه إلى قعره فيمجه الماء بقوة انبعاثا من منبعه، فلا يتناهى فى غوصه مقدار نصف مسافة العمق أو أقل شيئا؛ شاهدنا ذلك عيانا. و ماؤها أصفى من الزلال و أعذب من السلسيل، يشف عما حواه، فلو طرح الدينار فيه فى الليلة الظلماء لما أخفاه، و يصاد فيها سمك جليل من أطيب ما يكون من السمك.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٩١

و ينقسم ماء هذه العين نهرين: أحدهما آخذ يمينا، و الآخر يسارا. فالأيمن يشق خانقة مبنية للصوفية و الغرباء بإزاء العين، و هى تسمى الرباط أيضا، و الأيسر ينسرب على جانب الخانقة و تفضى منه جداول إلى مطاها و مرافقها المعدة للحاجة البشرية، ثم يلتقيان أسفلها مع نهر العين الأخرى العليا. و قد بنيت على شط نهرها المجتمع بيوت أرحى تتصل على شط موضوع وسط النهر كأنه سد. و

من مجتمع ماء هاتين العينين منشأ نهر الخابور. و بمقربة من هذه الخانقة بحيث تناظرها مدرسة بإزائها حمام، و كلاهما قد وهى و أخلق و تعطل. و ما أرى كان فى موضوعات الدنيا مثل موضوع هذه المدرسة، لأنها فى جزيرة خضراء و النهر يستدير بها من ثلاثة جوانب و المدخل إليها من جانب واحد، و أمامها و وراءها بستان، و بإزائها دولا ب يلقى الماء إلى بساتين مرتفعة عن مصب النهر. و شأن هذا الموضع كله عجيب جدا: فغاية حسن القرى بشرقى الأندلس أن يكون لها مثل هذا الموضع جمالا أو تتحلى بمثل هذه العيون، و لله القدرة فى جميع مخلوقاته.

و أما المدينة فللبداوة بها اعتناء، و للحضارة عنها استغناء لا سور يحصنها، و لا دور أنيقة البناء تحسنها. قد ضحيت فى صحرائها، كأنها عوذة لبطحائها. و هى مع ذلك كاملة مرافق المدن، و لها جامعان حديث و قديم، فالقديم بموضع هذه العيون، و تتفجر أمامه عين معينة هى دون اللتين ذكرناهما. و هو من بنيان عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، لكنه قد أثر القدم فيه حتى آذن بتداعيه. و الجامع الآخر داخل البلد، و فيه يجمع أهله. فكان مقامنا بها ذلك اليوم نزهة لم نختلس فى سفرنا كله مثلها.

فلما كان عند المغيب من يوم السبت الخامس لربيع المذكور، و هو السادس عشر ليونيه، رحلنا منها رغبة فى الإسآد و برد الليل و تفاديا من حر هجيرة التأويب، لأن منها إلى حران مسيرة يومين لا عمارة فيها. فتمادى سيرنا إلى الصباح ثم نزلنا فى الصحراء على ماء جب و أرحنا قليلا، ثم رفعنا ضحوه النهار من يوم الأحد و سرنا و نزلنا قريب العصر على ماء بئر بموضع فيه برج مشيد و آثار قديمة يعرف ببرج حواء،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٩٢

فبتنا به، ثم رفعنا منه بعد تهويم ساعة و أسرينا إلى الصباح، فوصلنا مدينة حران مع طلوع الشمس من يوم الاثنين السابع لربيع المذكور، و الثامن عشر ليونيه، و الحمد لله على تيسيره.

ذكر مدينة حران كلاًها الله

بلد لا حسن لديه، و لا ظل يتوسط برديه، قد اشتق من اسمه هواؤه، فلا يألف البرد مأؤه، و لا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته و أرجاؤه، و لا تجد فيه مقبلا، و لا تتنفس منه إلا نفسا ثقيلًا، قد نبذ بالعراء، و وضع فى وسط الصحراء، فعدم رونق الحضارة، و تعرت أعطافه من ملابس النضارة.

أستغفر الله! كفى بهذا البلد شرفا و فضلا أنه البلدة العتيقة المنسوبة لأبينا إبراهيم، صلى الله عليه و سلم، و له بقليها بنحو ثلاثة فراسخ مشهد مبارك فيه عين جارية كان مأوى له و لساره، صلوات الله عليهما، و متعبدا لهما. ببركة هذه النسبة قد جعل الله هذه البلدة مقرا للصالحين المترهدين، و مثابة للسائحين المتبتلين. لقينا من أفرادهم الشيخ أبا البركات حيان بن عبد العزيز، حذاء مسجده المنسوب إليه. و هو يسكن منه فى زاوية بناها فى قبلته، و تتصل بها فى آخر الجانب زاوية لابنه عمر قد التزمها و أشبه طريقة أبيه فما ظلم، و تعرفت منه شنشنة أعرفها من أخزم. فوصلنا إلى الشيخ و هو قد نيف على الثمانين، فصافحنا و دعا لنا و أمرنا بلقاء ابنه عمر المذكور، فملنا إليه و لقيناه، و دعا لنا، ثم و دعناهما و انصرفنا مسرورين بلقاء رجلين من رجال الآخرة.

و لقينا أيضا بمسجد عتيق الشيخ الزاهد سلمة، فلقينا رجلا من الزهاد الأفراد فدعا لنا و سألنا، و ودعنا و انصرفنا. و بالبلد سلمة آخر يعرف بالمكشوف الرأس، لا

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٩٣

يغطفى رأسه تواضعا لله عز و جل حتى عرف بذلك. وصلنا إلى منزله، فأعلمنا أنه خرج للبرية سائحا.

و بهذه البلدة كثير من أهل الخير، و أهلها هينون معتدلون، محبوبون للغرباء مؤثرون للفقراء. و أهل هذه البلاد، من الموصل لديار بكر و ديار ربيعة إلى الشام، على هذا السبيل من حب الغرباء و إكرام الفقراء، و أهل قراها كذلك. فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زادا،

لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة. و شأن أهل هذه الجهات في هذا السبيل عجيب، و الله ينفعهم بما هم عليه. و أما عبادهم و زهادهم و السائحون في الجبال منهم فأكثر من أن يقيدهم الإحصاء، و الله ينفع المسلمين ببركاتهم و صوالح دعواتهم، بمنه و كرمه. لهذه البلدة المذكورة أسواق حافلة الانتظام، عجيبة الترتيب، مسقفة كلها بالخشب. فلا يزال أهلها في ظل ممدود، فتخترقها كأنك تخترق دارا كبيرة الشوارع، قد بنى عند كل ملتقى أربع سوكك أسواق، منها قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الجص هي كالمفرق لتلك السوكك. و يتصل بهذه الأسواق جامعها المكرم، و هو عتيق مجدد قد جاء على غاية الحسن. و له صحن كبير، فيه ثلاث قباب مرتفعة على سوار رخام، و تحت كل قبة بئر عذبة. و في الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة قد قامت على سوار من الرخام، دور كل سارية تسعة أشبار، و في وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم، دوره خمسة عشر شبرا.

و هذه القبة من بنيان الروم، و أعلاها مجوف كأنه البرج المشيد، يقال: إنه كان مخزنا لعدتهم الحربية، و الله أعلم. و الجامع المكرم سقف بجوائز الخشب و الحنايا. و خشبه عظام طوال لسعة البلاط، و سعته خمس عشرة خطوة، و هو خمسة أبطه، و ما رأينا جامعا أوسع حنايا منه. و جداره المتصل بالصحن، الذي عليه المدخل إليه، مفتوح كله أبوابا، عددها تسعة عشر بابا: تسعة يمينا، و تسعة شمالا، و التاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الأبواب، يمسك قوسه من أعلى الجدار إلى أسفله، بهي المنظر، جميل الوضع، كأنه باب من أبواب المدن الكبار. و لهذه الأبواب كلها أغلاق من الخشب

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٩٤

البديع الصنعة و النقش، تنطبق عليها على شبه أبواب مجالس القصور. فشاهدنا من حسن بناء هذا الجامع و حسن ترتيب أسواقه المتصلة به مرأى عجيبا قلما يوجد في المدن مثل انتظامه.

و لهذه البلدة مدرسة و مارستان، و هي بلدة كبيرة، و سورها متين حصين مبنى بالحجارة المنحوتة المرصوص بعضها على بعض في نهاية من القوة، و كذلك بنيان الجامع المكرم. و لها قلعة حصينة مما يلي الجهة الشرقية منها منقطعة عنها بفضاء واسع بينهما، و منقطعة أيضا عن سورها بحفير عظيم يستدير بها قد شيدت حافته بالحجارة المكرمة، فجاء في نهاية الوثاقه و القوة. و سور القلعة وثيق الحصانة. و لهذه البلدة نهر مجراه بالجهة الشرقية أيضا منها بين سورها و جباتها، و مصبه من عين هي على بعد من البلد.

و البلد كثير الخلق، واسع الرزق، ظاهر البركة، كثير المساجد، جم المرافق، على أحفل ما يكون من المدن. و صاحبه مظفر الدين بن زين الدين، و طاعته إلى صلاح الدين و هذه البلاد كلها من الموصل إلى نصيبين إلى الفرات، المعروفة بديار ربيعة، و حدها من نصيبين إلى الفرات مع ما يلي الجنوب من الطريق، و ديار بكر التي تليها في الجانب الجوفي كآمد و ميافارقين و غيرها مما يطول ذكره، ليس في ملوكها من يناهض صلاح الدين، فهم إلى طاعته و إن كانوا مستبدين، و فضله يبقى عليهم، و لو شاء نزع الملك منهم لفعله بمشيئة الله.

فكان نزولنا ظاهر البلد بشقيه على نهيره المذكور، و أقمنا مريحين يوم الاثنين و يوم الثلاثاء بعده، و إثر الظهر منه كان اجتماعنا بسلمة المكشوف الرأس الذي فاتنا لقاؤه يوم الاثنين، فلقيناه بمسجده، فرأينا رجلا عليه سيما الصالحين و سمت المحبين مع طلاقة و بشر، و كرم لقاء و بر، فأنسنا و دعا لنا، و ودعنا و انصرفنا حامدين لله عز و جل على ما من به علينا من لقاء أوليائه الصالحين و عبادهم المقربين.

و في ليلة الأربعاء التاسع لربيع المذكور كان رحيلنا بعد تهويم ساعة، فأسرنا إلى الصباح و نزلنا مريحين بتل عبدة، و هو موضع عمارة، و هذا التل مشرف متسع كأنه المائدة المنصوبة، و فيه أثر بناء قديم، و بهذا الموضع ماء جار. و كان رحيلنا منه عند المغرب، و أسرنا الليل كله، و اجتزنا على قرية تعرف بالبيضاء فيها خان كبير جديد،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٩٥

و هو نصف الطريق من حران إلى الفرات، و يقابلها على اليمين من الطريق، في استقبالك الفرات إلى الشام، مدينة سروج التي شهر

ذكرها الحريري بنسبة أبي زيد إليها، وفيها البساتين و المياه المطردة حسبما وصفها به في مقاماته.

فكان وصولنا الفرات ضحوه النهار، و عبرنا في الزوارق المقله المعده للعبور إلى قلعه جديده على الشط تعرف بقلعه نجم، و حولها ديار بادية، و فيها سويقه يوجد فيها المهم من علف و خبز، فأقمنا بها يوم الخميس العاشر لربيع الأول المذكور مريحين خلال ما تكمل القافله بالعبور. و إذا عبرت الفرات حصلت في حد الشام و سرت في طاعه صلاح الدين إلى دمشق.

و الفرات حد بين ديار الشام و ديار ربيعه و بكر. و عن يسار الطريق، في استقبالك الفرات إلى الشام، مدينة الرقه، و هي على الفرات، و تليها رحبه مالك بن طوق و تعرف برحبه الشام، و هي من المدن الشهيره. ثم رحلنا منها عند مضي ثلث الليل الأول و أسرينا و وصلنا مدينة منبج مع الصباح من يوم الجمعة الحادي عشر لربيع المذكور، و الثاني و العشرين ليونيه.

ذكر مدينة منبج حرسها الله

بلده فسيحه الأرجاء، صحيحة الهواء، يحف بها سور عتيق ممتد الغايه و الانتهاء، جوها صقيل و مجتلاها جميل، و نسيمها أرج النسر عليل، نهارها يندى ظله، و ليها كما قيل فيه: سحر كله؛ تحف بغريها و بشرقها بساتين ملتفه الأشجار، مختلفه الثمار.

و الماء يطرد فيها، و يتخلل جميع نواحيها، و خصص الله داخلها بآبار معينه، شهديه العذوبه، سلسيليه المذاق، تكون في كل دار منها البئر و البثران. و أرضها أرض كريمه، تستنبط مياها كلها. و أسواقها و سككها فسيحه متسعه، و دكاينها و حوانيتها كأنها الخانات و المخازن اتساعا و كبراً، و أعالي أسواقها مسقفه. و على هذا الترتيب أسواق أكثر مدن هذه الجهات. لكن هذه البلده تعاقبت عليها الأحقاب، حتى أخذ

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٩٦

منها الخراب. كانت من مدن الروم العتيقه، و لهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها. و لها قلعه حصينه في جوفها تنقطع عنها و تنحاز منها. و مدن هذه الجهات كلها لا تخلو من القلاع السلطانيه و أهلها أهل فضل و خير، سنيون شافعيون، و هي مطهرة بهم من أهل المذاهب المنحرفه، و العقائد الفاسده، كما تجده في الأكثر من هذه البلاد. فمعاملاتهم صحيحة، و أحوالهم مستقيمه، و جادتهم الواضحه في دينهم من اعتراض بنيات الطريق سليمه. فكان نزولنا خارجها، في أحد بساتينها، و أقمنا يوماً مريحين ثم رحلنا نصف الليل، و وصلنا بزاعه ضحوه يوم السبت الثاني عشر لربيع المذكور.

ذكر بلدة بزاعه كلاًها الله عز و جل

بقعه طبيه الثرى، واسعه الذرى، تصغر عن المدن و تكبر عن القرى، بها سوق تجمع بين المرافق السفرية، و المتاجر الحضريه. و في أعلاها قلعه كبيره حصينه، رامها أحد ملوك الزمن فغاضته باستصعابها، فأمر بثلثم بنائها، حتى غادرها عوره منبوذه بعرائها. و لهذه البلده عين معينه يخترق ماؤها بسيط بطحاء ترف بساتينها خضرة و نضاره، و تريك برونقها الأنيق حسن الحضاره.

و يناظرها في جانب البطحاء قرية كبيره تعرف بالباب، هي باب بين بزاعه و حلب، و كان يعمرها منذ ثمانى سنين قوم من الملاحده الإسماعيليه لا يحصى عددهم إلا الله، فطار شرارهم، و قطع هذه السبيل فسادهم و أضرارهم، حتى داخلت أهل هذه البلاد العصبيه، و حرّكتهم الأنفه و الحميه، فتجمعوا من كل أوب عليهم، و وضعوا السيوف فيهم، فاستأصلوهم عن آخرهم، و عجلوا بقطع دابرهم، و كومت بهذه البطحاء جماجمهم، و كفى الله المسلمين عاديتهم و شرهم، و أحاق بهم مكرهم، و الحمد لله رب العالمين. و سكانها اليوم قوم سنيون، فأقمنا بها يوم السبت ببطحاء هذه البلده مريحين، و رحلنا منها في الليل و أسرينا إلى الصباح، و وصلنا مدينة حلب ضحوه يوم الأحد الثالث عشر لربيع الأول، و الرابع و العشرين ليونيه.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٩٧

بلدة قدرها خطير، و ذكرها في كل زمان يطير، خطابها من الملوك كثير، و محلها من التقديس أثير، فكم هاجت من كفاح، و سلت عليها من بيض الصفاح، لها قلعة شهيرة الامتاع، بانه الارتفاع، معدومة الشبه و النظير في القلاع، تنزهت حصانه أن ترام أو تستطاع، قاعدة كبيرة، و مائدة من الأرض مستديرة منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة اعتدال و استواء، فسبحان من أحكم تقديرها و تدبيرها، و أبدع كيف شاء تصويرها و تدويرها، عتيقة في الأزل، حديثه و إن لم تزل، قد طاولت الأيام و الأعوام، و شيعت الخواص و العوام، هذه منازلها و ديارها، فأين سكانها قديما و عمارها؟ و تلك دار مملكتها و فناؤها، فأين أمراؤها الحمدانيون و شعراؤها؟ أجل، فني جميعهم، و لم يثن بعد فناؤها! فيا عجباً للبلاد تبقى و تذهب أملاكها، و يهلكون و لا- يقضى هلاكها، تخطب بعدهم فلا يتعذر ملاكها، و ترام فيتيسر بأهون شيء إدراكها.

هذه حلب، كم أدخلت من ملوكها في خبر كان، و نسخت ظرف الزمان بالمكان، أنث اسمها فتحلت بزينة الغوان، و دانت بالغدر فيمن خان، و تجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان، هيهات! هيهات! سيهرم شبابها، و يعدم خطابها و يسرع فيها بعد حين خرابها، و تتطرق جنبات الحوادث إليها، حتى يرث الله الأرض و من عليها، لا اله سواه، سبحانه جلت قدرته.

و قد خرج بنا الكلام عن مقصده، فلنعد ما كنا بصدده، فنقول: ان من شرف هذه القلعة أنه يذكر أنها كانت قديما في الزمان الأول ربوة يأوى إليها إبراهيم الخليل، عليه و على نبينا الصلاة و التسليم، بغنيمات له فيحلبها هنالك و يتصدق بلبنها فلذلك سميت حلب، و الله أعلم. و بها مشهد كريم له يقصده الناس و يتبركون بالصلاة فيه.

و من كمال خلالها المشترطة في حصانه القلاع أن الماء بها نابع، و قد صنع عليه جبان، فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أبد الدهر، و الطعام يصبر فيها الدهر كله، و ليس في شروط الحصانه أهم و لا أكد من هاتين الحلتين. و يطيف بهذين الجبين المذكورين سوران حصينان من الجانب الذي ينظر للبلد، و يعترض دونهما خندق لا

تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٩٨

يكاد البصر يبلغ مدى عمقه و الماء ينبع فيه. و شأن هذه القلعة في الحصانه و الحسن أعظم من أن تنتهي إلى وصفه. و سورها الأعلى كله أبراج منتظمة، فيها العلالى المنيفة، و القصاب المشرفة، قد تفتحت كلها طيقانا. و كل برج منها مسكون، و داخلها المساكن السلطانية، و المنازل الرفيعة الملوكية. و أما البلد فموضوعه ضخمة جدا، حفيلا التركيب، بديع الحسن، واسع الأسواق كبيرها، متصله الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعه إلى سماط صنعه أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، و كلها مسقف بالخشب، فسكانها في ظلال و ارفة. فكل سوق منها تقيد الأبصار حسنا و تستوقف المستوفز تعجبا.

و أما قيساريتها فحديقة بستان نظافة و جمالا، و مطيفة بالجامع المكرم، لا- يتشوق الجالس فيها مرأى سواها و لو كان من المرأى الرياضية. و أكثر حوائثها خزائن من الخشب البديع الصنعة، قد اتصل السماط خزانه واحدة و تخللتها شرف خشبية بديعة النقش و تفتحت كلها حوائث، فجاء منظرها أجمل منظر، و كل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم.

و هذا الجامع من أحسن الجوامع و أجملها، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع مفتوح كله أبوابا قصرية الحسن إلى الصحن، عددها ينيف على الخمسين بابا، فيستوقف الأبصار حسن منظرها، و في صحنه بئران معينان. و البلاط القبلى لا- مقصورة فيه، فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح. و قد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره، فما أرى في بلد من البلاد منبرا على شكله و غرابه صنعه، و اتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب، فتجلت صفحاته كلها حسنا على تلك الصفة الغريبة.

و ارتفع كالتاج العظيم على المحراب و علا حتى اتصل بسمك السقف، و قد قوس أعلاه و شرف بالشرف الخشبية القرنصية، و هو مرصع كله بالعاج و الآبنوس. و اتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليها من جدار القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال،

فتجتلى العيون منه أبداع منظر يكون فى الدنيا، و حسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف. و يتصل به من الجانب الغربى مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنا و إتقان صنعة، فهما فى الحسن روضة تجاور أخرى. و هذه المدرسة من أحفل ما تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ١٩٩

شاهدناه من المدارس بناء و غرابه صنعة، و من أطرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلى مفتوح كله بيوتا و غرفا و لها طيقان يتصل بعضها ببعض، و قد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنب، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متديا أمامها، فيمد الساكن فيها يده و يجتنيه متكئا دون كلفه و لا مشقة. و للبلدة سوى هذه المدرسة نحو أربع مدارس أو خمس. و لها مارستان. و أمرها فى الاحتفال عظيم، فهى بلدة تليق بالخلافة، و حسنها كله داخل لا- خارج لها إلا نهير يجرى من جوفها إلى قبليها و يشق ربضها المستدير بها، فإن لها ربضا كبيرا فيه من الخانات ما لا يحصى عدده. و بهذا النهر الأرحاء، و هى متصلة بالبلد و قائمة وسط ربضه. و بهذا الربض بعض بساتين تتصل بطوله. و كيفما كان الأمر فيه داخلا و خارجا فهو من بلاد الدنيا التى لا نظير لها، و الوصف فيه يطول.

فكان نزولنا فى خان يعرف بخان أبى الشكر، فأقمنا به أربعة أيام و رحلنا ضحوه يوم الخميس السابع عشر لربيع المذكور، و الثامن والعشرين ليونيه. و وصلنا قنسرين قبيل العصر، فأرحنا بها قليلا ثم انتقلنا إلى قرية تعرف بتل تاجر، فكان مبيتنا بها ليلة الجمعة الثامن عشر منه. و قنسرين هذه هى البلدة الشهيرة فى الزمان، لكنها خربت و عادت كأن لم تغن بالأمس، فلم يبق إلا آثارها الدارسة، و رسومها الطامسة، و لكن قراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضا و طولا. و تشبهها من البلاد الأندلسية جيان، و لذلك يذكر أن أهل قنسرين عند استفتاح الأندلس نزلوا جيان تأنسا بشبه الوطن و تعللا به مثلما فعل فى أكثر بلادها، حسب ما هو معروف.

ثم رحلنا من ذلك الموضع، عند الثلث الماضى من الليل، فأسرينا و سرنا ضحوه من النهار، ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف بباقدين فى خان كبير يعرف بخان التركمان، و ثيق الحصانة. و خانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعا و حصانة، و أبوابها حديد، و هى من الوثاقه فى غاية. ثم رحلنا من هذا الموضع و بتنا بموضع يعرف بتمنى فى خان و ثيق على الصفة المذكورة. ثم أسحرنا منه يوم السبت التاسع عشر لربيع الأول المذكور، و هو آخر يوم من يونيه، و رأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين، يوم الجمعة المذكور، بلاد المعرة، و هى سواد كلها بشجر الزيتون و التين و الفستق و أنواع الفواكه،

تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٠٠

و يتصل التفاف بساتينها و انتظام قراها مسيرة يومين، و هى من أخصب بلاد الله و أكثرها أرزاقا. و وراءها جبل لبنان و هو سامى الارتفاع، ممتد الطول، يتصل من البحر إلى البحر، و فى صفحته حصون للملاحدة الإسماعيلية، فرقه مرقى من الإسلام و ادعت الإلهية فى أحد الأنام، قيص لهم شيطان من الإنس يعرف بسنان خدعهم بأباطيل و خيالات مؤه عليهم باستعمالها، و سحرهم بمحالها، فاتخذوه إلهاء يعبدونه و يبذلون الأنفس دونه، و حصلوا من طاعته و امتثال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردى من شاهقة جبل فيتردى و يستعجل فى مرضاته الردى، و الله يضل من يشاء و يهدى من يشاء بقدرته، نعوذ به سبحانه من الفتنة فى الدين، و نسأله العصمة من ضلال الملحدين، لا رب غيره، و لا معبود سواه.

و جبل لبنان المذكور هو حد بين بلاد المسلمين و الإفرنج، لأن وراءه أنطاكية و اللاذقية و سواهما من بلادهم، أعادها الله للمسلمين، و فى صفح الجبل المذكور حصن يعرف بحصن الأكراد، هو للإفرنج، و يغيرون منه على حماة و حمص، و هو بمرأى العين منهما. فكان وصولنا إلى مدينة حماة فى الضحى الأعلى من يوم السبت المذكور، فنزلنا بربضها فى أحد خاناته.

ذكر مدينة حماة حماها الله تعالى

مدينة شهيرة في البلدان، قديمة الصحة للزمان، غير فسيحة الفناء، ولا رائحة البناء، أقطارها مضمومة، وديارها مركومة، لا يهش البصر إليها، عند الإطلال عليها، كأنها تكن بهجتها وتخفيها، فتجد حسنها كامنا فيها، حتى إذا جست خلالها، ونقرت ظلالها، أبصرت بشرقيها نهرا كبيرا، تتسع في تدفقه أساليبه، وتتناظر بشطيه دواليبه، قد انتظمت طريته، بساتين تتهدل أغصانها عليه، وتلوح خضرتها عذارا بصفتيه، ينسرب في ظلالها، وينساب على سمت اعتدالها، وبأحد شطيه المتصل بربضها مطاهر منتظمة بيوتا عدة، يخترق الماء من دواليبه جميع نواحيها، فلا يجد المغتسل أثر أذى فيها

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٠١

وعلى شطه الثاني المتصل بالمدينة السفلى جامع صغير قد فتح جداره الشرقي عليه طيقانا تجتلي منها منظرا تراح النفس إليه، وتتقيد الأبصار لديه. وبإزاء ممر النهر بجوفى المدينة قلعة حليية الوضع، وإن كانت دونها في الحصانة والمنع، سرب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها، فهي لا تخاف الصدى، ولا تنهيب مرام العدى.

وموضوع هذه المدينة في وهدء من الأرض عريضة مستطيلة، كأنها خندق عميق، يرتفع لها جانبان: أحدهما كالجبل المطل، والمدينة العليا متصلة بصفح ذلك الجانب الجبلي، والقلعة في الجانب الآخر في ربوة منقطعة كبيرة مستديرة قد تولى نحتها الزمان، وحصل لها بحصانتها من كل عدو الأمان، والمدنين السفلى تحت القلعة متصلة بالجانب الذي يصب النهر عليه، وكلتا المدينتين صغيرتان. وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العلى الجبلي يطيف بها.

وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب، لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج إلى سور. وعلى النهر جسر كبير معقود بصم الحجارة، يتصل من المدينة السفلى إلى ربضها. وربضها كبير فيه الخانات والديار، وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجاته إلى أن يفرغ لدخول المدينة. وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى، وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات، وموضوعها حسن التنظيم، بديع الترتيب والتقسيم، ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل، ولها ثلاث مدارس ومارستان على شط النهر بإزاء الجامع الصغير.

وبخارج هذه البلدة بسيط فسيح عريض قد انتظم أكثره شجيرات الأعناب وفيه المزارع والمحارث، وفي منظره انشراح للنفس وانشراح. والبساتين متصلة على شطى النهر، وهو يسمى العاصى، لأن ظاهر انحداره من سفلى إلى علو، ومجراه من الجنوب إلى الشمال، وهو يجتاز على قبلى حمص ومقربة منها.

فكان مقامنا بحماه عشى يوم السبت المذكور، ثم رحلنا منها وأسرينا الليل كله واجتزنا في نصفه هذا النهر العاصى المذكور على جسر كبير معقود من الحجارة، وعليه مدينة رستن التي خرّبها عمر بن الخطاب، رضى الله عنه. وآثارها عظيمة. ويذكر الروم القسطنطينيون أن بها أموالا جمّة مكنوزة، والله أعلم بذلك، فوصلنا إلى مدينة

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٠٢

حمص مع شروق الشمس من يوم الأحد الموفى عشرين لربيع الأول، وهو أول يولييه، فنزلنا بظاها بخان السيل.

مدينة حمص حرسها الله تعالى

هي فسيحة الساحة، مستطيلة المساحة، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة، موضوعه في بسيط من الأرض عريض مداه، لا يخترقه النسيم بمسراه، يكاد البصر يقف دون منتهاه، أفيح أغبر، لا ماء ولا شجر، ولا ظل ولا ثمر، فهي تشكى ظمأها، وتستقى على البعد ماءها، فيجلب لها من نهيرها العاصى، وهو منها بنحو مسافة الميل، وعليه طرة بساتين تجتلي العين خضرتها، وتستغرب نضرتها، ومنبعه في مغارة يصفح جبل فوقها بمرحلة بموضع يقابل بعلبك، أعادها الله، وهي عن يمين الطريق إلى دمشق. وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو لمجاورتهم إياه، وبعدهم في ذلك أهل حلب. فأحمد خلال هذه البلدة هواؤها الرطب، ونسيمها

الميمون تخفيفه و تجسيمه، فكان الهواء النجدي في الصحة شقيقه و قسيمه.

و بقبلى هذه المدينة قلعة حصينة منيعة، عاصية غير مطيعة، قد تميزت و انحازت بموضوعها عنها. و بشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد، رضى الله عنه، هو سيف الله المسلول، و معه قبر ابنه عبد الرحمن، و قبر عبيد الله بن عمر، رضى الله عنهم.

و أسوار هذه المدينة غاية في العتاقة و الوثاقة، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود.

و أبوابها أبواب حديد، سامية الإشراف، هائلة المنظر، رائعة الإطلال و الأناقة تكتنفها الأبراج المشيدة الحصينة. و أما داخلها فما شئت من بادية شعناء، خلقه الأرجاء، ملفقة البناء، لا إشراق لآفاقها، و لا رونق لأسواقها، كاسدة لا عهد لها بنفاقها. و ما ظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة، و هو معقل العدو، فهو منه تتراعى ناره، و يحرق إذا يطير شراره، و يتعهد إذا شاء كل يوم مغارة.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٠٣

و سألنا أحد الأشياخ بهذه البلدة: هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات؟

فقال، و قد أنكر ذلك: حمص كلها مارستان! و كفاك تبييناً شهادة أهلها فيها! و بها مدرسة واحدة، و تجد في هذه البلدة عند إطلالك عليها من بعد في بسيطها و منظرها و هيئة موضوعها، بعض شبه بمدينة إشبيلية من بلاد الأندلس، يقع للحين في نفسك خياله، و بهذا الاسم سميت في القديم، و هى العلة التى أوجبت نزول الأعراب أهل حمص فيها، حسبما يذكر. و هذا التشبيه و إن لم يكن بذاته، فله لمحة من إحدى جهاته.

و أقمنا بها يوم الأحد المذكور و يوم الاثنين بعده، و هو الثانى ليوليه، إلى أول الظهر، و رحلنا منها و تمادينا إلى العشى، و نزلنا بقرية خربة تعرف بالمشعر فعشينا بها الدواب، ثم رحلنا عند المغرب و أسرينا طول ليلتنا، و تمادى سيرنا إلى الضحى الأعلى من يوم الثلاثاء الثانى و العشرين من الشهر المذكور، و نزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين تعرف بالقارة، ليس فيها من المسلمين أحد، و بها خان كبير كأنه الحصن المشيد فى وسطه صهريج كبير مملوء ماء يتسرب له تحت الأرض من عين على البعد، فهو لا يزال ملائناً، فأرحنا بالخان المذكور الظهر ثم رحلنا منه إلى قرية تعرف بالنبيك، بها ماء جار و محرث متسع، فنزلنا بها للتعشيه، ثم رحلنا منها بعد اختلاس تهويمة خفيفة.

و أسرينا الليل كله، فوصلنا إلى خان السلطان مع الصباح، و هو خان بناه صلاح الدين صاحب الشام. و هو فى نهاية الوثاقة و الحسن، بباب حديد على سبيلهم فى بناء خانات هذه الطرق كلها و احتفالها فى تشييدها، و فى هذا الخان ماء جار يتسرب إلى سقاية فى وسط الخان كأنها صهريج، و لها منافس ينصب منها الماء فى سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ثم يغوص فى سرب فى لأرض.

و الطريق من حمص إلى دمشق قليل العمارة إلا فى ثلاثة مواضع أو أربعة، منها هذه الخانات المذكور مريحين و مستدركين للنوم أول الظهر، ثم رحلنا و جزنا بثنية العقاب و منها يشرف على بسيط دمشق و غوطتها، و عند هذه الثنية مفرق طريقين: أحدهما التى جئنا منها، و الثانية آخذة شرقاً فى البرية على السماوة إلى العراق، و هى طريق قصد لكنها لا تدخل إلا فى الشتاء. فأنحدرنا منها بين جبال فى بطن واد إلى البسيط و نزلنا منه بموضع يعرف بالقصير، فيه خان كبير و النهر جار أمامه، ثم رحلنا منه مع الصبح

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٠٤

و سرنا فى بساتين متصله لا- يوصف حسنهما، و وصلنا دمشق فى الضحى الأعلى من يوم الخميس الرابع و العشرين لربيع الأول و الخامس ليوليه، و الحمد لله رب العالمين.

شهر ربيع الآخر ... استهل هلاله يوم الأربعاء بموافقة الحادى عشر ليوليه، و نحن بدمشق، نازلين فيها بدار الحديث غربى جامعها المكرم.

ذكر مدينة دمشق حرسها الله تعالى

جنة المشرق و مطلع حسنه المؤنق المشرق، و هي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، و عروس المدن التي اجتليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، و تجلت في حلل سندسية من البساتين، و حلت من موضوع الحسن بالمكان المكين، و تزينت في منصتها أجمل تزيين، و تشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح و أمه، صلى الله عليهما، منها ربوة ذات قرار و معين. ظل ظليل، و ماء سلسيل، تنساب مذانبه انسياب الأرقام بكل سبيل، و رياض يحيى النفوس نسيمها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل، و تناديهم: هلموا إلى معرّس للحسن و مقيل. قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظماء، فتكاد تناديك بها الصم الصلاب: اركض برجلك هذا معتسل بارد و شراب. قد أهدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، و اكتفتها اكتناف الكمامة للزهر، و امتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرتة اليانعة قيد النظر، و لله صدق القائلين عنها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، و إن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها و تحاذيها.

ذكر جامعها المكرم عمره الله تعالى

هو من أشهر جوامع الإسلام حسنا، و إتقان بناء، و غرابة صنعة، و احتفال تنميق و تزيين. و شهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه. و من عجيب شأنه تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٠٥

أنه لا تنسج به العنكبوت و لا تدخله، و لا تلم به الطير المعروفة بالخطاف. انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك، رحمه الله، و وجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بإشخاص اثني عشر ألفا من الصناع من بلاده، و تقدم إليه بالوعيد في ذلك إن توقف عنه. فامثل أمره مدعنا بعد مراسلة جرت بينهما في ذلك مما هو مذكور في كتب التاريخ. فشرع في بنائه، و بلغت الغايات في التأتق فيه، و أنزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء، و خلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة، قد مثلت أشجارا، و فرعت أغصانا منظومة بالفصوص، ببدايع من الصنعة الأنيقة المعجزة و وصف كل و اصف، فجاء يغشى العيون و ميضا و بصيصا. و كان مبلغ النفقة فيه، حسبما ذكره ابن المعلى الأسدي في جزء وضعه في ذكر بنائه، مائة صندوق، في كل صندوق ثمانية و عشرون ألف دينار و مائتا ألف دينار، فكان مبلغ الجميع أحد عشر ألف ألف دينار و مائتي ألف دينار .

و الوليد هذا الذي أخذ نصف الكنيسة الباقية منه في أيدي النصارى و أدخلها فيه، لأنه كان قسمين: قسما للمسلمين و هو الشرقي، و قسما للنصارى و هو الغربي، لأن أبا عبيدة بن الجراح، رضى الله عنه، دخل البلد من الجهة الغربية، فانتهى إلى نصف الكنيسة، و قد وقع الصلح بينه و بين النصارى، و دخل خالد بن الوليد، رضى الله عنه، عنوة من الجانب الشرقي و انتهى إلى النصف الثاني و هو الشرقي، فاجتازه المسلمون و صيروه مسجدا، و بقى النصف المصالح عليه و هو الغربي كنيسة بأيدي النصارى، إلى أن عوضهم منه الوليد، فأبوا ذلك، فانتزعه منهم قهرا و طلع لهدمه بنفسه، و كانوا يزعمون أن الذي يهدم كنيستهم يجن، فبادر الوليد و قال: أنا أول من يجن في الله، و بدأ الهدم بيده، فبادر المسلمون و أكملوا هدمه. و استعدوا عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، أيام خلافته و أخرجوا العهد الذي بأيديهم من الصحابة، رضى الله عنهم، في إبقائه عليهم، فهم بصرفه إليهم، فأشفق المسلمون من ذلك ثم عوضهم منه بمال عظيم أرضاهم به، فقبلوه.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٠٦

و يقال: إن أول من وضع جداره القبلى هود النبى، عليه السلام. و كذلك ذكر ابن المعلى فى تاريخه، و الله أعلم بذلك، لا إله سواه، و قرأنا فى فضائل دمشق عن سفيان الثورى، رضى الله عنه، أنه قال: إن الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة. و فى الحديث عن النبى، صلى الله عليه و سلم، أنه يعبد الله عز و جل فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة.

ذكر تذييعه و مساحته و عدد أبوابه و شمسياته

ذرعته فى الطول من الشرق إلى الغرب مئتا خطوة، و هما ثلاث مئة ذراع، و ذرعه فى السعة من القبلة إلى الجوف مئة خطوة و خمس و ثلاثون خطوة، و هى مئتا ذراع. فيكون تكسيره من المراجع الغربية أربعة و عشرين مرجعا. و هو تكسير مسجد رسول الله، صلى الله عليه و سلم، غير أن الطول فى مسجد رسول الله، صلى الله عليه و سلم، من القبلة إلى الشمال. و بلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق إلى الغرب، سعة كل بلاط منها ثمانى عشرة خطوة، و الخطوة ذراع و نصف، و قد قامت على ثمانية و ستين عمودا، منها أربع و خمسون سارية، و ثمانى أرجل جصية تتخللها، و اثنتان مرخمة ملصقة معها فى الجدار الذى يلي الصحن، و أربع أرجل مرخمة أبداع ترخيم، مرصعة بفصوص من الرخام ملونة، قد نظمت خواتيم، و صورت محاريب و أشكالا غريبة، قائمة فى البلاط الأوسط، تقل قبة الرصاص مع القبة التى تلى المحراب، سعة كل رجل منها ستة عشر شبرا، و طولها عشرون شبرا، و بين كل رجل و رجل فى الطول سبع عشرة خطوة، و فى العرض ثلاث عشرة خطوة فيكون دور كل رجل منها اثنين و سبعين شبرا. و يستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهات: الشرقية و الغربية و الشمالية؛ سعته عشر خطا، و عدد قوائمه سبع و أربعون:

منها أربع عشرة من الجص، و سائرهما سوار. فيكون سعة الصحن، حاشا المسقف القبلى و الشمالى، مئة ذراع. و سقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٠٧

أعظم ما فى هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه، سامية فى الهواء، عظيمة الاستدارة، قد استقل بها هيكل عظيم هو غارب لها، يتصل من المحراب إلى الصحن، و تحته ثلاث قباب: قبة تتصل بالجدار الذى إلى الصحن، و قبة تتصل بالمحراب، و قبة تحت قبة الرصاص بينهما. و القبة الرصاصية قد أغضت الهواء وسطه، فإذا استقبلتها أبصرت منظرا رائعا، و رأى هائلا، يشبهه الناس بنسر طائر، كأن القبة رأسه، و الغارب جؤجؤه، و نصف جدار البلاط عن يمين، و نصف الثانى عن شمال، جناحاه. و سعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة، فهم يعرفون الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه. و من أى جهة استقبلت البلد ترى القبة فى الهواء منيفه على كل علو كأنها معلقة من الجو.

و الجامع المكرم مائل إلى الجهة الشمالية من البلد. و عدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة أربع و سبعون: منها فى القبة التى تحت قبة الرصاص عشر، و فى القبة المتصلة بالمحراب مع مايلها من الجدار أربع عشرة شمسية، و فى طول الجدار عن يمين المحراب و يساره أربع و أربعون، و فى القبة المتصلة بجدار الصحن ست، و فى ظهر الجدار إلى الصحن سبع و أربعون شمسية.

و فى الجامع المكرم ثلاث مقصورات: مقصورة الصحابة، رضى الله عنهم، و هى أول مقصورة وضعت فى الإسلام، وضعها معاوية بن أبى سفيان، رضى الله عنهما، و بإزاء محرابها عن يمين مستقبل القبلة باب حديد، كان يدخل معاوية، رضى الله عنه، المقصورة منه إلى المحراب. و بإزاء محرابها لجهة اليمين صلى أبى الدرداء، رضى الله عنه، و خلفها كانت دار معاوية، رضى الله عنه، و هى اليوم سماط عظيم للصفارين، يتصل بطول جدار الجامع القبلى، و لا سماط أحسن منظرا منه و لا أكبر طولاً و عرضاً. و خلف هذا السماط على مقربة منه دار الخليل برسمه، و هى اليوم مسكونة، و فيها مواضع للكمادين. و طول المقصورة الصحابية المذكورة أربعة و أربعون شبرا، و عرضها نصف الطول. و يليها لجهة الغرب، فى وسط الجامع، المقصورة التى أحدثت عند إضافة النصف المتخذ كنيسة إلى

الجامع؛ حسبما تقدم ذكره، وفيها منبر الخطبة و محراب الصلاة.

و كانت مقصورة الصحابة أولا في نصف الحظ الإسلامي من الكنيسة، و كان

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٠٨

الجدار حيث أعيد المحراب في المقصورة المحدثه، فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجدا صارت مقصورة الصحابة طرفا في الجانب الشرقي، و أحدثت المقصورة المحدثه أكبر من الصحابة. و بالجانب الغربي يازاء الجدار مقصورة أخرى، هي برسم الحنفية يجتمعون فيها للتدريس، و بها يصلون. و يازائها زاوية محدقة بالأعواد المشرجة كأنها مقصورة صغيرة. و بالجانب الشرقي زاوية أخرى على هذه الصفة هي كالمقصورة، كان وضعها للصلاة فيها أحد أمراء الدولة التركية، و هي لا صفة بالجدار الشرقي.

و بالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب يتخذها الطلبة للنسخ و الدرس و الانفراد عن ازدحام الناس، و هي من جملة مرافق الطلبة.

و في الجدار المتصل بالصحن، المحيط بالبلاطات القبلية، عشرون بابا متصله بطول الجدار قد علتها قسي جصية مخزومة كلها على هيئة الشمسيات، فتبصر العين من اتصالها أجمل منظر و أحسنه. و البلاط المتصل بالصحن، المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات، على أعمدة، و على تلك الأعمدة أبواب مقوسة تقلها أعمدة صغار تظيف بالصحن كله. و منظر هذا الصحن من أجمل المناظر و أحسنها، و فيه مجتمع أهل البلد، و هو متفرجهم و متزههم كل عشية، تراهم فيه ذاهبين و راجعين من شرق إلى غرب، من باب جيرون إلى باب البريد. فمنهم من يتحدث مع صاحبه، و منهم من يقرأ، لا يزالون على هذه الحال من ذهاب و رجوع إلى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ثم ينصرفون. و لبعضهم بالغداه مثل ذلك، و أكثر الاحتفال إنما هو بالعشى فيخيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع و عشرين من رمضان المعظم لما يرى من احتفال الناس و اجتماعهم، لا يزالون على ذلك كل يوم. و أهل البطالة من الناس يسمونهم الحرائين.

و للجامع ثلاث صوامع: واحدة في الجانب الغربي، و هي كالبرج المشيد، يحتوي على مساكن متسعة و زوايا فسيحة راجعة كلها إلى أغلاق يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير. و البيت الأعلى منها كان معتكف أبي حامد الغزالي، رحمه الله، و يسكنه اليوم الفقيه الزاهد أبو عبد الله بن سعيد من أهل قلعة يحصب المنسوبة لهم، و هو قريب لبني سعيد المشتهرين بالدينا و خدمتها؛ و ثانية بالجانب الغربي على هذه الصفة؛ و ثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناظفين.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٠٩

و في الصحن ثلاث قباب: إحداها في الجانب الغربي منه و هي أكبرها، و هي قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام، مستطيلة كالبرج، مزخرفة بالفصوص و الأصبغة الملونة، كأنها الروضة حسنا، و عليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة، يقال: إنها كانت مخزنا لمال الجامع، و له مال عظيم من خراجات و مستغلات تنيف، على ما ذكر لنا، على الثمانية آلاف دينار صورية في السنة، و هي خمسة عشر ألف دينار مؤمنية أو نحوها. و قبة أخرى صغيرة في وسط الصحن مجوفة مثنى من رخام قد ألصق أبداع إصاق، قائمة على أربعة أعمدة صغار من الرخام، و تحتها شباك حديد مستدير، و في وسطه أنبوب من الصفر يمج الماء إلى علو، فيرتفع و ينثني كأنه قضيب لجين، يشربه الناس لوضع أفواهم فيه للشرب استظرافا و استحسانا، و يسمونه قفص الماء. و القبة الثالثة في الجانب الشرقي قائمة على ثمانية أعمدة، على هيئة القبة الكبيرة لكن أصغر منها.

و في الجانب الشمالي من الصحن باب كبير يفضى إلى مسجد كبير، في وسطه صحن، قد استدار فيه صهريج من الرخام كبير، يجري الماء فيه دائما من صحفة رخام أبيض مثنى قد قامت وسط الصهريج على رأس عمود مثقوب، يصعد الماء منه إليها، و يعرف هذا الموضع بالكلاسة، و يصلى فيه اليوم صاحبنا الفقيه الزاهد المحدث أبو جعفر الفنكي القرطبي، و يتزاحم الناس على الصلاة فيه خلفه، التماسا لبركته و استماعا لحسن صوته.

و في الجانب الشرقي من الصحن باب يفضى إلى مسجد من أحسن المساجد و أبدعها وضعها و أجملها بناء؛ يذكر الشيعة أنه مشهد

لعلى بن أبى طالب، رضى الله عنه. وهذا من أغرب مختلقاتهم. و من العجيب أنه يقابله، فى الجهة الغربية فى زاوية البلاط الشمالى من الصحن، موضع هو ملتقى آخر البلاط الشمالى مع أول البلاط الغربى، مجلل بستر فى أعلاه، و أمامه ستر أيضا منسدل، يزعم أكثر الناس أنه موضع لعائشة، رضى الله عنها، و أنها كانت تسمع الحديث فيه. و عائشة، رضى الله عنها، فى دخول دمشق كعلى، رضى الله عنه، لكن لهم فى على، رضى الله عنه، مندوحة من القول. و ذلك أنهم يزعمون أنه رأى فى المنام مصليا فى ذلك الموضع، فبنت الشيعة فيه مسجدا. و أما الموضع المنسوب لعائشة، رضى الله عنها، فلا مندوحة فيه و إنما ذكرناه لشهرته فى الجامع.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢١٠

و كان هذا الجامع المبارك، ظاهرا و باطنا، منزلا- كله بالفصوص المذهبة، مزخرفا بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة، فأدرکه الحريق مرتين، فتهدم و جدد، و ذهب أكثر رخامه، فاستحال رونقه، فأسلم ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها. و محرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حسنا و غرابة صنعة، يتقد ذهابا كله. و قد قامت فى وسط محاريب صغار متصلة بجداره تحفها سويريات مفتولات فتل الأسورة كأنها مخروطة، لم ير شىء أجمل منها، و بعضها حمر كأنها مرجان. فشان قبله هذا الجامع المبارك، مع ما يتصل من قبابه الثلاث، و إشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه، و اتصال شعاع الشمس بها، و انعكاسه إلى كل لون منها، حتى ترمى الأبصار منه أشعة ملونة، يتصل ذلك بجداره القبلى كله، عظيم لا يلحق وصفه و لا تبلغ العبارة بعض ما يتصوره الخاطر منه، و الله يعمره بشهادة الإسلام و كلمته بمنه.

و فى الركن الشرقى من المقصورة الحديثة فى المحراب خزنة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان رضى الله عنه، و هو المصحف الذى وجه به إلى الشام و تفتح الخزنة كل يوم إثر الصلاة فيتبرك الناس بلمسه و تقبيله و يكثر الازدحام عليه.

و له أربعة أبواب: باب قبلى، و يعرف بباب الزيادة، و له دهليز كبير متسع، له أعمدة عظام، و فيه حوانيت للخرزيين و سواهم، و له مرأى رائع، و منه يفضى إلى دار الخيل، و عن يسار الخارج منه سماط الصفارين و هى كانت دار معاوية، رضى الله عنه، و تعرف بالخضراء؛ و باب شرقى، و هو أعظم الأبواب، و يعرف بباب جيرون؛ و باب غربى، و يعرف بباب البريد؛ و باب شمالى، و يعرف بباب الناطقين. و للشرقى و الغربى و الشمالى أيضا من هذه الأبواب دهاليز متسعة، يفضى كل دهليز منها إلى باب عظيم، كانت كلها مداخل للكنيسة فبقيت على حالها. و أعظمها منظرا الدهليز المتصل بباب جيرون. يخرج من هذا الباب إلى بلاط طويل عريض، قد قامت أمامه خمسة أبواب مقوسة، لها ستة أعمدة طوال. و فى وجه اليسار منه مشهد كبير حفيلى، كان فيه رأس الحسين بن على، رضى الله عنهما، ثم نقل إلى القاهرة. و بإزائه مسجد صغير ينسب لعمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه. و بذلك المشهد ماء جار. و قد انتظمت أمام البلاط أدرج، ينحدر عليها إلى الدهليز، و هو كالخندق العظيم، يتصل إلى باب عظيم الارتفاع، ينحسر الطرف دونه سماء، قد حفته أعمدة كالجدوع طولا و كالأطواد ضخامة.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢١١

و بجانبى هذا الدهليز أعمدة قامت عليها شوارع مستديرة، فيها الحوانيت المنتظمة للعطارين و سواهم، و عليها شوارع أخر مستطيلة فيها الحجر و البيوت. و فى وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام عليه قبة تقلها أعمدة من الرخام، و يستدير بأعلاها طرة من الرصاص واسعة، مكشوفة للهواء، لم يعطف عليها تعيب. و فى وسط الحوض الرخامى أنبوب صفر يزعج الماء بقوة فيرتفع إلى الهواء أزيد من القامة لم (... و حوله أنابيب صغار ترمى الماء إلى علو فيخرج عنها كقضبانات اللجين، فكانها أغصان تلك الدوحة المائية و منظرها أعجب و أبدع من أن يلحقه الوصف.

و عن يمين الخارج من باب جيرون، فى جدار البلاط الذى أمامه، غرفة، و لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار و دبرت تدييرا هندسيا. فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمى بازيين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما:

أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب، والثاني تحت آخرها؛ والطاستان مثقوبتان، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة، و تبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين إلى الطاستين و يقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تتخلله الأوهام سحرا؛ وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوى، و ينغلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر. و لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تتغلق الأبواب كلها تنقضى الساعات، ثم تعود إلى حالها الأول. و لها بالليل تدبير آخر، و ذلك أن فى القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة، و تعترض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة. مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة. و خلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت عمّ الزجاجة ضوء المصباح، و فاض على الدائرة أمامها شعاعها، فلاحت للأبصار دائرة محمرة، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل و تحمر الدوائر كلها. و قد وكل بها فى الغرفة متفقد لحالها، درب بشأنها و انتقلها، يعيد فتح الأبواب و صرف الصنج إلى موضعها. و هى التى يسميها الناس المنجاة.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢١٢

و دهليز الباب الغربى فيه حوانيت البقالين و العطارين، و فيه سماط لبيع الفواكه.

و فى أعلاه باب عظيم يصعد إليه على أدراج، و له أعمدة سامية فى الهواء. و تحت الأدراج سقايتان مستديرتان: سقاية يمينا، و سقاية يسارا، لكل سقاية خمسة أنابيب ترمى الماء فى حوض رخام مستطيل. و دهليز الباب الشمالى فى زوايا على مصاطب محدقة بالأعواد المشرجبة، و هى محاضر لمعلى الصبيان. و عن يمين الخارج فى الدهليز خانقة مبنية للصوفية، فى وسطها صهريج، و يقال: إنها كانت دار عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، و لها خبر سيأتى ذكره بعد هذا. و الصهريج الذى فى وسطها يجرى الماء فيه، و لها مطاهر يجرى الماء فى بيوتها. و عن يمين الخارج أيضا من باب البريد مدرسة للشافعية، فى وسطها صهريج يجرى الماء فيه، و لها مطاهر على الصفة المذكورة.

و فى الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان يسيرا، لهما رأسان من الصفر مستطيلان مشرجبان، قد خرما أحسن تخريم، يسرجان ليلة النصف من شعبان، فيلوحان كأنهما ثريتان مشتعلتان. و احتفال أهل هذه البلدة، لهذه الليلة المذكورة، أكثر من احتفالهم ليلة سبع و عشرين من رمضان المعظم.

و فى هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم، كل يوم إثر صلاة الصبح، لقراءة سبع من القرآن دائما. و مثله إثر صلاة العصر، لقراءة تسمى الكوثريه، يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى الخاتمة. و يحضر فى هذا المجتمع الكوثرى كل من لا يجيد حفظ القرآن. و للمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمسمائة إنسان. و هذا من مفاخر هذا الجامع المكرم. فلا تخلو القراءة منه صباحا و لا مساء. و فيه حلقات للتدريس للطلبة، و للمدرسين فيها إجراء واسع. و للمالكية زاوية للتدريس فى الجانب الغربى، يجتمع فيها طلبة المغاربة، و لهم إجراء معلوم.

و مرافق هذا الجامع المكرم للغرباء و أهل الطلب كثيرة واسعة. و أغرب ما يحدث به أن سارية من سواريه، هى بين المقصورتين القديمة و الحديثة، لها وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة و التدريس. أبصرنا بها فقيها من أهل إشبيلية يعرف بالمرادى. و عند فراغ المجتمع السبعى من القراءة صباحا، يستند كل إنسان منهم إلى سارية و يجلس أمامه صبى يلقيه القرآن. و للصبيان أيضا على قراءتهم جراية معلومة. فأهل

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢١٣

الجدة من آبائهم يتزهون أبناءهم عن أخذها و سائرهم يأخذها و هذا من المفاخر الإسلامية.

و للأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير، يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به و ينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم و بكسوتهم؛ و هذا أيضا من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد.

و تعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها انما هو تلقين، و يعلمون الخط في الأشعار و غيرها، تنزيها لكتاب الله عز و جل عن ابتذال الصبيان له بالإثبات و المحو.

و قد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة و المكتب على حدة فينفضل من التلقين إلى التكتيب، لهم في ذلك سيرة حسنة. و لذلك ما يتأتى لهم حسن الحظ، لأن المعلم له لا يشتغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم و الصبي في التعلم كذلك، و يسهل عليه لأنه بتصوير يحذو حذوه.

و يستدير بهذا الجامع المكرم أربع سقايات، في كل جانب سقاية، كل واحدة منها كالدار الكبيرة محدقة بالبيوت الخلائية، و الماء يجرى في كل بيت منها. و بطول صحنها حوض من الحجر مستطيل تصب فيه عدة أنابيب منتظمة بطوله. و إحدى هذه السقايات في دهليز باب جيرون، و هي أكبرها و فيها من البيوت ما ينيف على الثلاثين، و فيها زائدا على السقاية المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران مستديران يكادان لمسكن لسعتهما عرض الدار المحتوية على هذه السقاية، و الواحد بعيد من الآخر، و دور كل واحد منهما نحو الأربعين شبرا، و الماء نابع فيهما. و الثانية في دهليز باب الناطفين بإزاء المعلمين، و الثالثة عن يسار الخارج من باب البريد، و الرابعة عن يمين الخارج من باب الزيادة. و هذه أيضا من المرافق العظيمة للغرباء و سواهم. و البلد كله سقايات قلما تخلو سكة من سككه أو سوق من أسواقه، من سقاية، و المرافق به أكثر من أن توصف، و الله يقيه دار إسلام بقدرته.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢١٤

ذكر مشاهدته المكرمة و آثاره المعظمة

فأولها مشهد رأس يحيى بن زكرياء، عليهما السلام، و هو مدفون بالجامع المكرم في البلاط القبلي قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية، رضى الله عنهم، و عليه تابوت خشب معترض من الأسطوانة، و فوقه قنديل كأنه من بلور مجوف كأنه القدح الكبير، لا يدري أمن زجاج عراقى أم صورى هو أم من غير ذلك. و مولد إبراهيم، صلى الله عليه و سلم و على نبينا الكريم، و هو بصفح جبل قاسيون عند قرية تعرف ببرزة، و هي من أجمل القرى. و هذا الجبل مشهور بالبركة في القديم لأنه مصعد الأنبياء، صلوات الله عليهم، و مطلعهم و هو في الجهة الشمالية من البلد و على مقدار فرسخ. و هذا المولد المبارك غار مستطيل ضيق، و قد بنى عليه مسجد كبير مرتفع، مقسم على مساجد كثيرة كالغرف المطلية، و عليه صومعة عالية. و من ذلك الغار رأى، صلى الله عليه و سلم، الكوكب ثم القمر ثم الشمس، حسبما ذكره الله تعالى في كتابه عز و جل. و في ظهر الغار مقامه الذى كان يخرج إليه. و هذا كله ذكره الحافظ محدث الشام أبو القاسم بن هبة الله بن عساكر الدمشقى في تاريخه في أخبار دمشق، و هو ينيف على مئة مجلد. و ذكر أيضا أن بين باب الفراديس، و هو أحد أبواب البلد، و في الجهة الشمالية من الجامع المبارك، على مقربة منه إلى جبل قاسيون، مدفن سبعين ألف نبى، و قيل:

سبعون ألف شهيد، و أن الأنبياء المدفونين به سبعمائة نبى، و الله أعلم.

قاسيون و ما حوله

و خارج هذا البلد الجبانة العتيقة، و هي مدفن الأنبياء و الصالحين، و بركتها شهيرة. و في طرفها مما يلي البساتين و هذه من الأرض متصلبة بالجبانة، ذكر أنها مدفن سبعين نبيا. و عصمها الله و نزهها من أن يدفن فيها أحد، و القبور محيطة بها، و هي لا تخلو من الماء حتى عادت قراره له، كل ذلك تنزيه من الله تعالى لها.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢١٥

و بجبل قاسيون أيضا لجهة الغرب، على مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك، مغارة تعرف بمغارة الدم، لأن فوقها في الجبل دم هابيل قتيل أخيه قابيل ابني آدم، صلى الله عليه وسلم، يتصل من نحو نصف الجبل إلى المغارة. وقد أبقى الله منه في الجبل آثارا حمرا في الحجارة تحك فتستحيل، و هي كالطريق في الجبل، و تنقطع عند المغارة. و ليس يوجد في النصف الأعلى من المغارة آثار تشبهها، فكان يقال: إنها لون حجارة الجبل، و إنما هي من الموضع الذي جر منه القاتل لأخيه حيث قتله حتى انتهى إلى المغارة، و هي من آيات الله تعالى، و آياته لا تحصى.

و قرأنا في تاريخ ابن المعلى الأسدي أن تلك المغارة صلى فيها إبراهيم و موسى و عيسى و لوط و أيوب، عليهم و على نبينا الكريم أفضل الصلاة و السلام. و عليها مسجد قد أتقن بناؤه، و يصعد إليه على أدراج، و هو كالغرفة المستديرة، و حولها أعواد مشرجة مطيفة بها، و به بيوت و مرافق للسكنى. و هو يفتح كل يوم خميس و السرج من الشمع و الفتائل تقد في المغارة، و هي متسعة. و في أعلى الجبل كهف منسوب لآدم، صلى الله عليه وسلم، و عليه بناء، و هو موضع مبارك. و تحته في حضيض الجبل مغارة تعرف بمغارة الجوع، ذكر أن سبعين نبيا ماتوا فيها جوعا. و كان عندهم رغيف فلم يزل كل واحد منهم يؤثر به صاحبه، و يدور عليهم من يد إلى يد حتى لحقتهم المنية، صلوات الله عليهم. و على هذه المغارة أيضا مسجد مبني، و أبصرنا فيه السرج تقد نهارا.

و لكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين و أرض بيضاء و رباغ، حتى أن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه. و كل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقة يعين لها السلطان أوقافا تقوم بها و بساكنيها و الملتزمين لها و هذه أيضا من المفخر المخلدة. و من النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، و تنفق فيها الأموال الواسعة، و تعين لها من مالها الأوقاف. و من الأمراء من يفعل مثل ذلك، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عز و جل.

و بآخر هذا الجبل المذكور، في آخر البسيط البستاني الغربي من هذه البلد، الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى: مأوى المسيح و أمه، صلوات الله عليهما، و هي من أبداع مناظر الدنيا حسنا و جمالا و إشراقا و إتقان بناء و احتفال تشييد و شرف وضع؛ هي تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢١٦

كالقصر المشيد، و يصعد إليها على أدراج. و المأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها، و هي كالبيت الصغير. و يازائها بيت يقال: إنه مصلى الخضر، صلى الله عليه وسلم، فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين، و لا سيما المأوى المبارك، و له باب حديد صغير ينغلق دونه. و المسجد يطيف بها، و لها شوارع دائرة، و فيها سقاية لم ير أحسن منها، قد سيق إليها الماء من علو، و مأوها ينصب على شاذروان في الجدار متصل بحوض من رخام، يقع الماء فيه، لم ير أحسن من منظره. و خلف ذلك مظاهر يجرى الماء في كل بيت منها، و يستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان.

و هذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد و مقسم مائه، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار، يأخذ كل نهر طريقه، و أكبر هذه الأنهار نهر يعرف بثورا، و هو يشق تحت الربوة، و قد نقر له في الحجر الصلد أسفلها حتى انفتح له متسرب واسع كالغار، و ربما انغمس الجسور من سباح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة في النهر و اندفع تحت الماء حتى يشق متسربا تحت الربوة و يخرج أسفلها، و هي مخاطرة كبيرة.

و يشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد، و لا إشراف كإشرافها حسنا و جمالا و اتساع مسرح للأبصار. و تحتها تلك الأنهار السبعة تتسرب و تسيح في طرق شتى، فتحار الأبصار في حسن اجتماعها و افتراقها و اندفاع انصبابها. و شرف موضوع هذه الربوة و مجموع حسناتها أعظم من أن يحيط به وصف و اصف في غلو مدحه. و شأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطيرة كبير.

و يتصل بها أسفل منها، بمقربة من المسافة، قرية كبيرة تعرف بالنيرب، قد غطتها البساتين، فلا يظهر منها إلا ما سما بناؤه. و بها جامع لم ير أحسن منه، مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون، فيخيل لناظره أنه ديباج مبسوط. و فيه سقاية ماء راتقة الحسن، و مطهرة لها عشرة أبواب، يجرى الماء فيها و يطيف بها. و فوقها لجهة القبلة قرية كبيرة، هي من أحسن القرى، تعرف بالمزة، و بها جامع كبير و

سقاية معينة، و بقرية النيرب حمام، و أكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات.

و فى الجهة الشرقية من البلد، عن يمين الطريق إلى مولد إبراهيم، عليه السلام، قرية تعرف ببيت لاهية، يريدون الآلهة. و كانت فيها كنيسة هي الآن مسجد مبارك، و كان

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢١٧

آزر أبو إبراهيم ينحت فيها الآلهة و يصورها، فيجىء الخليل إبراهيم، صلوات الله عليه و على نبينا الكريم، فيكسرها. و هي اليوم مسجد يجتمع فيه أهل القرية، و سطحه كله مفروش بفصوص الرخام الملونة، منتظم كله خواتيم و أشكالاً بديعة، يخيل لمبصرها أنها فرش متقنة مزخرفة، و هو من المشاهد الكريمة.

و للربوة المباركة أوقاف كثيرة من بساتين و أرض بيضاء و رباع. و هي معينة التقسيم لوظائفها. فمنها ما هو معين باسم النفقة فى الأدم للباتين فيها من الزوار، و منها ما هو معين للأكسية برسم التغطية بالليل، و منها ما هو معين للطعام، إلى تقاسيم تستوفى جميع مؤناتها، و مؤن الأمين الراتب فيها برسم الإمامة، و المؤذن الملتزم خدمتها، و لهم على ذلك كله مرتب معلوم فى كل شهر. و هي خطة من أعظم الخطط.

و الأمين فيها الآن من بقية المرابطين المسوفيين و من أعيانهم، يعرف بأبى الربيع سليمان بن إبراهيم بن مالك، و له مكانة من السلطان و وجوه الدولة و له فى الشهر خمسة دنانير حاشا فائدة الربوة. و هو متمس بالخير و مرتسم به، و هو متعلق بسبب من أسباب البر فى إيواء أهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات، يسبب لهم وجوه المعاش من إمامة فى مسجد، أو سكنى بمدرسة تجرى عليه فيها النفقة، أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يجبى إليه فيها رزقه، أو حضور فى قراءة سبع، أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه، و يجرى عليه ما يقوم به من أوقافه، إلى غير ذلك من الوجوه المعاشية على هذه السبيل المباركة، مما يطول شرحه. فالغريب المحتاج هنا، إذا كان على طريقة الخير، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه.

و سائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال، ممن عهد الخدمة و المهنة، يسبب له أيضا أسباب غريبة من الخدمة. إما بستانا يكون ناطورا فيه، أو حماما يكون عينا على خدمته، و حافظا لأثواب داخلية، أو طاحونة يكون أمينا عليها، أو كفالة صبيان يؤديهم إلى محاضرهم و يصرفهم إلى منازلهم، غير ذلك من الوجوه الواسعة.

و ليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء، لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صيت فى

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢١٨

الأمانة، و طار لهم فيها ذكر، و أهلها لا يأتمنون البلديين. و هذا من أطاف الله تعالى بالغرباء، و له الحمد و الشكر على ما يولى عباده. و إن شاء أحد المتعلقين بأسباب المعارف التعرض هنالك للسلطان يقبله و يكرمه و يرتبه و يجرى عليه بحسب قدره و منصبه، و قد طبعت هذه البلاد.

و ملوكها على هذه الفضائل قديما و حديثا. و قد تسلسل بنا القول إلى غير الباب الذى نحن فيه، و الحديث ذو شجون، و الله كفيل بحسن العون، لا رب سواه.

و بغربى البلد جبانة كبيرة تعرف بقبور الشهداء، فيها كثير من الصحابة و التابعين الأئمة الصالحين، رضى الله عنهم. فالمشهور بها من قبور الصحابة، رضى الله عنهم، قبر أبى الدرداء و قبر زوجته أم الدرداء، رضى الله عنهما؛ و موضع مبارك فيه تاريخ قديم مكتوب عليه فى هذا الموضع قبر جماعة من الصحابة، رضى الله عنهم، منهم فضالة بن عبيد، و سهل بن الحنظلية، من الذين بايعوا رسول الله، صلى الله عليه و سلم، تحت الشجرة، و خال أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان، رضى الله عنه، و قبره مسنم فى الموضع المذكور.

و قرأت فى فضائل دمشق: أن أم المؤمنين أم حبيبة أخت معاوية، رضى الله عنهما، مدفونة بدمشق. و قبر واثلة بن الأسقع من أهل الصفة. و فى الجهة التى تلى هذا الموضع المبارك تاريخ فيه مكتوب: هذا قبر أوس بن أوس الثقفى. و حول هذا الموضع المذكور،

على مقربة منه، قبر بلال بن حمارة مؤذن رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

و في رأس القبر المبارك تاريخ باسمه، رضى الله عنه. و الدعاء في هذا الموضع المبارك مستجاب، قد جرب ذلك كثير من الأولياء و أهل الخير المتبركين بزيارتهم، إلى قبور كثيرة من الصحابة و سواهم من الصالحين، ممن قد ذهب اسمه و غير ذكره، و مشاهد كثيرة لأهل البيت، رضى الله عنهم، رجالا و نساء. و قد احتفل الشيعة في البناء عليهم، و لها الأوقاف الواسعة.

و من أحفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلى بن أبى طالب، رضى الله عنه، قد بنى

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢١٩

عليه مسجد حفيل رائق البناء، و بإزائه بستان كله نارنج، و الماء فيه من سقاية معينة.

و المسجد كله ستور معلقة في جوانبه صغار و كبار. و في المحراب حجر عظيم قد شق بنصفين و التحم بينهما و لم بين النصف عن النصف بالكيفية، يزعم الشيعة أنه انشق لعلى، رضى الله عنه، إما بضربه بسيفه أو بأمر من الأمور الإلهية على يديه. و لم يذكر عن على، رضى الله عنه، أنه دخل قط هذا البلد، اللهم إلا أن زعموا أنه كان في النوم، فلعل جهة الرؤيا تصح لهم إذ لا تصح لهم جهة اليقظة. و هذا الحجر أوجب بنیان هذا المشهد.

و للشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة، و هم أكثر من السنين بها. و قد عمروا البلاد بمذاهبهم، و هم فرق شتى: منهم الراضية، و هم السبأون؛ و منهم الإمامية و الزيدية، و هم يقولون بالفضل خاصة؛ و منهم الإسماعيلية و النصيرية و هم كفره فإنهم يزعمون الإلهية لعلى، رضى الله عنه، تعالى الله عن قولهم؛ و منهم الغرابية، و هم يقولون: أن عليا رضى الله عنه، كان أشبه بالنبي، صلى الله عليه وسلم، من الغراب بالغراب، و ينسبون إلى الروح الأمين، عليه السلام، قولا تعالى الله عنه علوا كبيرا؛ فرق كثيرة يضيق عنهم الإحصاء، قد أضلهم الله و أضل بهم كثيرا من خلقه، نسأل الله العصمة في الدين، و نعوذ به من زيغ الملحدين. و سلط الله على هذه الراضية طائفة تعرف بالنبوية، سنيون يدينون بالفتوة و بأمر الرجل كلها. و كل من أحقوه بهم، لخصلة يرونها فيه منها، يحزموه سراويل فيلحقونه بهم، و لا يرون أن يستعدى أحد منهم في نازلة تنزل به، لهم في ذلك مذاهب عجيبة. و إذا أقسم أحدهم بالفتوة بر قسمه. و هم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم. و شأنهم عجيب في الأنفة و الائتلاف.

و من المشاهد المكرمة مشهد سعد بن عبادة رئيس الخزرج، صاحب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، و هو بقرية تعرف بالمنيحة شرقى البلد و على مقدار أربعة أميال منه. و على قبره مسجد صغير حسن البناء، و القبر في وسطه، و عند رأسه مكتوب: هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج، صاحب رسول الله، صلى الله عليه وسلم. و من مشاهد أهل البيت، رضى الله عنهم: مشهد أم كلثوم ابنة على بن أبى طالب، رضى الله عنهما، و يقال لها زينب الصغرى، و أم كلثوم، كنية أوقعها عليها النبي، صلى الله عليه وسلم، لشبهها بابنته أم كلثوم، رضى الله عنها، و الله أعلم بذلك. و مشهدها الكريم

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٢٠

بقرية قبلى البلد تعرف براوية على مقدار فرسخ، و عليه مسجد كبير، و خارجه مساكن، و له أوقاف. و أهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم، مشينا إليه و بتنا به و تبركنا برؤيته، نفعنا الله بذلك.

و بالجبانة التى بغربى البلد، من قبور أهل البيت، كثير، رضى الله عنهم، منها قبران عليهما مسجد يقال إنهما من ولد الحسن و الحسين، رضى الله عنهما؛ و مسجد آخر فيه قبر يقال إنه لسكينة بنت الحسين، رضى الله عنهما، أو لعلها سكينة أخرى من أهل البيت. و من المشاهد أيضا قبر بجامع النيرب، فى بيت بالجهة الشرقية منه، يقال إنه لأم مريم، رضى الله عنها. و بقرية دارية قبر أبى مسلم الخولانى، رضى الله عنه، و عليه قبة هى علامة القبر. و بها أيضا قبر أبى سليمان الدارانى، رضى الله عنه. و بين هذه القرية و بين البلد مقدار أربعة أميال، و هى لجهة الغرب منه. و من المشاهد الكريمة التى لم نعاينها و وصفت لنا قبرا شيث و نوح، عليهما السلام، و هما بالبقاع، و هى على يومين من البلد. و حدثنا من ذرع قبر شيث، فألقى فيه أربعين باعا، و فى قبر نوح ثلاثين.

و بإزاء قبر نوح قبر ابنه له. و على هذه القبور بناء، و لها أوقاف كثيرة، و لها قيم يلتزمها. و من المشاهد المباركة أيضا، بالجبانة الغربية و بمقبرته من باب الجابية، قبر أويس القرنى، رضى الله عنه، و قبور خلفاء بنى أمية، رحمهم الله. يقال: إنها بإزاء باب الصغير، بمقبرته من الجبانة المذكورة، و عليها اليوم بناء يسكن فيه. و المشاهد المباركة فى هذه البلدة أكثر من أن تنضب بالتقييد، و إنما رسم من ذلك ما هو مشهور و معلوم. و من المشاهد الشهيرة أيضا مسجد الأقدام، و هو على مقدار ميلين من البلد مما يلى القبّة على قارعة الطريق الأعظم الآخذ إلى بلاد الحجاز و الساحل و ديار مصر. و فى هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه: كان بعض الصالحين يرى النبى، صلى الله عليه و سلم، فى النوم، فيقول: ههنا قبر أخى موسى، صلى الله عليه و سلم. و الكتيب الأحمر على الطريق بمقبرته من هذا الموضع، و هو بين غالية و غوليه كما ورد فى الأثر، و هما موضعان. و شأن هذا المسجد فى البركة عظيم، و يقال: إن النور ما خلا قط من هذا الموضع الذى يذكر أن القبر فيه حيث الحجر المكتوب. و له أوقاف كثيرة. فأما الأقدام ففى حجارة فى الطريق إليه معلم عليها، تجد أثر القدم فى كل حجر. تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٢١ و عدد الأقدام تسع، و يقال إنها أثر قدم موسى، عليه السلام، و الله أعلم بحقيقته ذلك، لا إله سواه.

شهر جمادى الأولى عرفنا الله بركته

إشارة

استهل هلاله ليلة الجمعة بموافقة العاشر لشهر أغوش (أغسطس) العجمى.

ذكر جمل من أحوال البلد عمره الله بالإسلام

لهذه البلدة ثمانية أبواب: باب شرقى، و هو شرقى و فيه منارة بيضاء يقال: إن عيسى ينزل فيها، كما جاء فى الأثر أنه ينزل بالمنارة البيضاء شرقى دمشق. و يلى هذا الباب باب توما، و هو أيضا فى حيز الشرق. ثم باب السلام، ثم باب الفراديس، و هو شمالى. ثم باب الفرج، ثم باب النصر، و هو غربى، ثم باب الجابية كذلك. ثم باب الصغير، و هو بين الغرب و القبلة. و المسجد الجامع مائل إلى الجهة الشمالية من البلد، و الأرباض به مطيفة إلا من جهة الشرق مع ما يتصل بها من القبلة يسيرا. و الأرباض كبار، و البلد ليس بمفرط الكبر، و هو مائل للطول، و سكه ضيقة مظلمة، و بناؤه طين و قصب، طبقات بعضها فوق بعض، و لذلك ما يسرع الحريق إليه. و هو كله ثلاث طبقات، فيحتوى من الخلق على ما تحتوى ثلاث مدن، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقا، و حسنه كله خارج لا داخل.

و فى داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم، تعرف بكنيسة مريم، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها. و هى حافلة البناء، تتضمن من التصاوير أمرا عجيبا تبهت الأفكار، و تستوقف الأبصار، و مرآها عجيب، و هى بأيدى الروم، و لا اعتراض عليهم فيها.

تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٢٢

و بهذه البلدة نحو عشرين مدرسة، و بها مارستانان قديم و حديث، و الحديث أحفلهما و أكبرهما، و جرايته فى اليوم نحو الخمسة عشر دينارا، و له قومه بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى و على النفقات التى يحتاجون إليها فى الأدوية و الأغذية و غير ذلك.

و الأطباء يبكرون إليه فى كل يوم، و يتفقدون المرضى، و يأمرن بإعداد ما يصلحهم من الأدوية و الأغذية، حسبما يليق بكل إنسان

منهم. و المارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفال في الجديد أكثر. و هذا القديم هو غربي الجامع المكرم. و للمجانين المعتقلين أيضا ضرب من العلاج، و هم في سلاسل موثقون، نعوذ بالله من المحنة و سوء القدر. و تندر من بعضهم النوارد الظريفة، حسبما كنا نسمع به. و من أعجب ما حدثت به من ذلك: أن رجلا كان يعلم القرآن، و كان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ممن أوتى مسحة جمال، و اسمه نصر الله، و كان المعلم يهيم به، فزاد كلفه حتى اختبل و أدى إلى المارستان.

و اشتهرت علتة و فضيحتة بالصبي، و ربما كان يدخله أبوه إليه، فقيل له: اخرج، و عد لما كنت عليه من القرآن. فقال متماجنا تماجن المجانين: و أى قراءة بقيت لي؟ ما بقي في حفظي من القرآن شىء سوى "إذا جاء نصر الله فضحك منه و من قوله. و نسأل الله العافية له و لكل مسلم، فلم يزل كذلك حتى توفى، سمح الله له.

و هذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام، و المدارس كذلك. و من أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين، رحمه الله، و بها قبره، نوره الله. و هى قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار. فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين، رحمه الله. و أما الرباطات التى يسمونها الخوانق فكثيرة، و هى برسم الصوفية. و هى قصور مزخرفة، يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر.

و هذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا و فضولها، و فرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعاش، و أسكنهم في قصور تذكروهم قصور الجنان. فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا و الآخرة. و هم على طريقة شريفة، و سنه في المعاشرة عجيبة، و سيرتهم في التزام

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٢٣

رتب الخدمة غريبة، و عوائدهم من الاجتماع للسمع المشوق جميلة، و ربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل المثابر رقة و تشوقا. و بالجملة فأحوالهم كلها بديعة، و هم يرجون عيشا طيبا هنيئا.

و من أعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر، و هو صرح عظيم مستقل في الهواء، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشرافا منها، و هو من البلد بنصف الميل، له بستان عظيم يتصل به، و كان منتزها لأحد ملوك الأتراك. فيقال: إنه كان فيه إحدى الليالي على راحة، فاجتاز به قوم من الصوفية، فهريق عليهم من النيذ الذى كانوا يشربونه في ذلك القصر. فرفعوا الأمر لنور الدين، فلم يزل حتى استوبه من صاحبه و وقفه برسم الصوفية مؤبدا لهم. فطال العجب من السماحة بمثله، و بقى أثر الفضل فيه مخلدا لنور الدين، رحمه الله.

و مناقب هذا الرجل الصالح كبيرة، و كان من الملوك الزهاد. و توفى في شوال سنة تسع و ستين و خمس مئة، و استولى بعده على الأمر صلاح الدين، و هو على طريقة من الفضل شهيرة، و شأنه في الملوك كبير، و له الأثر الباقي شرفه من إزالة المكوس بطريق الحجاز، و دفعه عوضا عنها لصاحب الحجاز. و كانت الأيام قد استمرت قديما بهذه الضريبة اللعينة إلى أن محا الله رسمها على يدى هذا الملك العادل، أصلحه الله. و من مناقب نور الدين، رحمه الله تعالى، أنه كان عين للمغاربة الغرباء، و الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك، أوقافا كثيرة، منها طاحونتان و سبعة بساتين و أرض بيضاء و حمام و دكانان بالعطارين. و أخبرنى أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه، و هو أبو الحسن على بن سردال الجياني المعروف بالأسود: أن هذا الوقف المغربى يغل، إذا كان النظر فيه جيدا، خمسمائة دينار في العام. و كان له، رحمه الله، بجانب فضل كبير، نفعه الله بما أسلف من الخير، و هيا ديارا موقوفة لقراء كتاب الله عز و جل يسكنونها.

إكرام الغرباء

و مرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء، و لا سيما لحفاظ كتاب

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٢٤

الله، عزّ وجل، و المتتمين للطلب. فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جدا. و هذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر و الاتساع أوجد. فمن شاء الفلاح من نشأه مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد و يتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، و هو أكبر الأعوان و أهمها.

فاذا كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، و لا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز و التسويف، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه، و إنما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه و بين مقصده في وطنه من الطلب العلمي. فهذا المشرق باب مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام، و تغنم الفراغ و الانفراد قبل علق الأهل و الأولاد، و تفرغ سن الندم على زمن التضييع، و الله يوفق و يرشد، لا إله سواه. قد نصحت أن ألفت سامعا، و ناديت أن أسمع مجيبا، [و من يهد الله فهو المهتد]، جلت قدرته، و تعالى جده. و لو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء و إثارة الفقراء، و لا سيما أهل باديتها، فإنك تجد من بدار إلى بر الضيف عجا، كفى بذلك شرفا لها. و ربما يعرض أحدهم كسرتة على فقير فيتوقف عن قبولها، فيبكي الرجل و يقول: لو علم الله فيّ خيرا لأكل الفقير طعامي، لهم في ذلك سرّ شريف.

و من عظيم أمرهم تعظيمهم للحاج، على قرب مسافة الحج منهم، و تيسير ذلك لهم، و استطاعتهم لسييله. فهم يتمسحون بهم عند صدورهم، و يتهافتون عليهم تبركا بهم. و من أغرب ما حدثنا من ذلك: أن الحاج الدمشقي مع من انضاف إليهم من المغاربة عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام، الذي هو عام ثمانين، خرج الناس لتلقيهم: الجّم الغفير نساء و رجالا، يضافونهم و يتمسحون بهم، و أخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها، و أخرجوا إليهم الأعممة. فأخبرني من أبصر كثيرا من النساء يتلقين الحاج و يناولنهم الخبز، فإذا عض الحاج فيه اختطفنه من أيديهم و تبادرن لأكله تبركا بأكل الحاج له و دفعن له عوضا منه دراهم، غير ذلك من الأمور العجيبة ضد ما اعتدنا في المغرب في ذلك، و صنع بنا في بغداد عند تلقى الحاج بها، مثل ذلك أو قريب منه. و لو شئنا استقصاء هذه الأمور لخرجت بنا عن مقصد التقييد، و إنما وقع الإلماع

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٢٥

بلمحة دالة يكتفى بها عن التطويل. و كل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم، إن أحب، ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال، و يتثال الخبز عليه من أهل الضيعة، و يلتزم الإمامة أو التعليم أو ماشاء. و متى سئم المقام خرج ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي فيلقى بها المريدين المنقطعين إلى الله، عزّ وجل، فيقيم معهم ماشاء، و ينصرف إلى حيث شاء.

نصارى جبل لبنان

و من العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت و أحسنوا إليهم، و يقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى الله عزّ وجل فتجب مشاركتهم.

و هذا الجبل من أخصب جبال الدنيا، فيه أنواع الفواكه، و فيه المياه المطردة و الظلال الوارفة، و قلما يخلو من التبتيل و الزهادة. و اذا كانت معاملة النصارى لصد ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض.

و من أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين و نصارى، و ربما يلتقى الجمعان و يقع المصاف بينهم و رفاق المسلمين و النصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم. شاهدنا في هذا الوقت، الذى هو شهر جمادى الأولى، من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، و هو من أعظم حصون النصارى، و هو المعترض في طريق الحجاز و المانع لسبيل المسلمين على البر، بينه و بين القدس مسيرة يوم أو أشف قليلا، و هو سرارة أرض فلسطين، و له نظر عظيم الاتساع متصل

العمارة، يذكر أنه ينتهي إلى ربع مئة قرية، فنازله هذا السلطان و ضيق عليه و طال حصاره. و اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع. و اختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك. و تجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم و لا يعترض. و للنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، و هي من الآمنة على تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٢٦

غاية. و تجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، و الاتفاق بينهم و الاعتدال في جميع الأحوال. و أهل الحرب مشتغلون بحربهم، و الناس في عافية، و الدنيا لمن غلب.

هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم و في الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين و ملوكهم كذلك. و لا تعترض الرعايا و لا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلما أو حربا. و شأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه، و الله يعلى كلمة الإسلام بمنه.

دمشق و آثارها

و لهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة في الجهة الغربية من البلد، و هي بإزاء باب الفرج من أبواب البلد، و بها جامع السلطان يجمع فيه، و على مقربة منها، خارج البلد في جهة الغرب، ميدانان كأنهما مبسوطان خزا لشدة خضرتهما، و عليهما حلق، و النهر بينهما، و غيضة عظيمة من الحور متصلة بهما، و هما من أبداع المناظر، يخرج السلطان إليهما و يلعب فيهما بالصوالجة و يسابق بين الخيل فيهما، و لا مجال للعين كمجالها فيهما. و في كل ليلة يخرج أبناء السلطان إليهما للرماية و المسابقة و اللعب بالصوالجة.

و بهذه البلدة أيضا قرب مئة حمام فيها و في أرباضها، و فيها نحو أربعين دارا للوضوء يجرى الماء فيها كلها. و ليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغرب، لأن المرافق بها كثيرة. و في الذي ذكرناه من ذلك كفاية، و الله يبقياها دار إسلام.

و أسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد و أحسنها انتظاما و ابداعها و ضعا، و لا سيما قيسارياتها، و هي مرتفعات كأنها الفنادق مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور، و كل قيسارية منفردة بضبتها و أغلاقها الجديدة. و لها أيضا سوق، يعرف بالسوق الكبير، يتصل من باب الجابية إلى باب شرقي. و فيه بيت صغير جدا قد اتخذ مصلى، و في قبلته حجر يقال: إن إبراهيم، صلى الله عليه و سلم، كان يكسر عليه الآلهة التي كان يسوقها أبوه للبيع.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٢٧

و حديث الدار المنسوبة لعمر بن عبد العزيز، التي هي اليوم خانقة للصوفية، و هي في الدهليز الذي في الباب الشمالي المعروف بباب الناطفين، و قد تقدم التنبيه عليها قبل هذا، حديث عجيب، و ذلك أن الذي اشتراها و بناها و جعل لها الأوقاف الواسعة و أمر بأن يدفن فيها و أن يختم على قبره القرآن كل جمعة و عين من تلك الأوقاف لمن يحضر ذلك كل جمعة رطلا من خبز الحواري، و هو ثلاثة أرطال من أرطال المغرب، رجل من العجم يعرف بالسميساطي، و سمي ساط بلده من بلاد العجم، و كان موصوفا بالورع و الزهد، و أصل يساره و تموله، فيما ذكر لنا، أنه الفى يوما من الأيام بالدهليز المذكور إزاء الدار المذكورة رجلا أسود مريضا مطروحا بموضعه غير ملتفت اليه و لا معتنى به، فتأجر فيه و التزم تريضه و خدمته و النظر له اغتناما للثواب من الله عز و جل، فحانت وفاة الرجل، فاستدعى ممرضه السمي ساطي المذكور فقال له: أنت قد أحسنت الي و خدمتني و لطفت في تريضتي و اشفقت لحالي و غربتي، فأنا أريد أن أكافئك على فعلك بي زائدا إلى مكافأة الله عز و جل عنى في الآجل، إن شاء الله. و ذلك أنى كنت من أحد فتیان الخليفة المعتضد العباسي، و معروفا بزمام الدار، و كانت لي حظوة و مكانة، فعتب على في بعض الأمر، فخرجت طريدا، فانتهيت إلى هذه البلدة، فأصابني فيها من أمر الله ما أصابني، فسبيك الله لي رحمة، فأنا أقدك أمانة و أعهد إليك فيها عهدا، إذا أنا مت و غسلتني فانفض على بركة الله تعالى إلى بغداد و تطف في السؤال عن دار صاحب الزمام فتى الخليفة، فإذا أرشدت إليها فصرف

الحيلة في اكتراثها، و أرجو أن الله يعينك على ذلك. و إذا سكنتها فاعمد إلى موضع، سماه له فيها و ذكر له أماره عليه، فاحفر فيه مقدار كذا و انزع اللوح الذي تجده معترضا تحت الأرض، و خذ الذي تجده مدفونا تحت الأرض و صرفه في منافعك و ما يوفقك الله إليه من وجوه البر و الخير مباركا لك في ذلك، إن شاء الله.

ثم توفي الرجل الموصى، رحمه الله، و توجه الموصى إليه بعهدته إلى بغداد، فيسر الله له في اكتراء الدار و انتهى إلى الموضع المذكور فاستخرج منه ذخائر لا قيمة لها، عظيمة الشأن، كبيرة القدر، فدهسها في أحمال متاع ابتاعها و خرج إلى دمشق من بغداد، فابتاع

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٢٨

الدار المذكورة المنسوبة لعمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، و بناها خانقة للصوفية و احتفل فيها و ابتاع لها الأوقاف ضياعا و رباعا و جعلها برسم الصوفية، و أوصى بأن يدفن فيها و أن يختم القرآن على قبره كل جمعة، و عين لكل من يحضر ذلك ما ذكرناه. فوجد الغرباء و الفقراء في ذلك مرفقا كثيرا، فتغص الخانقة بالقرأة كل جمعة. فإذا ختموا القرآن دعوا له و انصرفوا و اندفع لكل واحد منهم رطل من الخبز، على الصفة المذكورة. و بقي للمتوفى جميل الأثر و الخير، رحمه الله و رضوانه عليه.

و الكوثرية التي ذكرناها أيضا بالجامع المكرم، و المقروءة كل يوم بعد العصر، المعينة لمن لا يحفظ القرآن كان أصلها أيضا أن أحد ذوى اليسار توفى و أوصى بأن يدس قبره في الجامع المكرم و أوقف وقفًا يغل مئة و خمسين دينارًا في السنة برسم من لا يحفظ القرآن و يقرأ من سورة الكوثر الخاتمة، فينقسم له أربعون دينارًا، في كل ثلاثة أشهر من السنة. و يذكر أن أحد الملوك السالفين توفى أيضا و أوصى بأن يجعل قبره الجامع المكرم بحيث لا يظهر، و عين أوقافا عظيمة تغل نحو الألف دينار و أربع مئة دينار في السنة و زائد لقراء سبع القرآن كل يوم.

و موضع الاجتماع لقراءة هذا السبع المبارك كل يوم، إثر صلاة الصبح، بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة، رضى الله عنهم، و يقال: إن في ذلك الموضع هو القبر المذكور.

و قراءة السبع لا تتعدى ذلك الموضع متصلا مع جدار القبلة إلى الجدار الشرقى، و الله عز و جل لا يضيع أجر المحسنين. و بقيت هذه الرسوم الشريفة مخلدة مع الأيام، نفع الله بها راسمياها. و ناهيك فيها من بلاد يهدى فيها لهذه الصنائع الزلفة لرضوان الله، عز و جل، و للفقراء الملتزمين الجلوس في الجانب الشرقى من الجامع المكرم، الذين ليس لهم مأوى يأوون إليه، وقف وصعه بعض المتأجرين الموفقين برسمهم، ما يطول ذكره من المآثر الاخرافية الصديقة التي كفل الله بها غرباء هذه الجهات.

و من عادة أهل دمشق و سائر تلك البلاد المستحسنة، المرجو لهم فيها من الله عز و جل قبول، أنهم في كل سنة يتوخون الوقوف يوم عرفه بجوامعهم إثر صلاة العصر، يقف بهم أئمتهم كاشفى رؤوسهم داعين إلى ربهم التماسا لبركة الساعة التي يقف فيها

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٢٩

وفد الله عز و جل و حجيج بيته الحرام بعرفات، فلا يزالون واقفين داعين متضرعين إلى الله عز و جل، و بحجاج بيته الحرام متوسلين، إلى أن يسقط قرص الشمس و يقدروا نفر الحاج فينصلوا باكين على ما حرموه من ذلك الموقف العظيم بعرفات و داعين إلى الله عز و جل في أن يوصلهم إليها و لا يخليهم من بركة القبول في فعلهم ذلك.

الصعود إلى سطح قبة الرصاص

و من أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغربية الشأن، و היאكلها الهائلة البنيان، المعجزة الصنعة و الإتقان، المعترف لوصفها بالتقصير لسان كل بيان، الصعود إلى أعلى قبة الرصاص المذكورة في هذا التقييد، القائمة وسط الجامع المكرم، و الدخول في جوفها، و إحالة لحظ الاعتبار في بديع وضعها، مع القبة التي في وسطها كأنها كرة مجوفة داخله وسط كرة أخرى أعظم منها؛ سعدنا إليه في جملة من

الأصحاب المغاربة ضحوة يوم الاثنين الثامن عشر لجمادى الأولى المذكورة من مرقى فى الجانب الغربى من بلاط الصحن كان صومعة فى القديم، و تمشينا على سطح الجامع المكرم، و كله ألواح رصاص منتظمة، كما قد تقدم الذكر لذلك، و طول كل لوح أربعة أشبار، و عرضه ثلاثة أشبار، و ربما اعترض فى الألواح نقص أو زيادة، حتى انتهينا إلى القبة المذكورة، فصعدنا إليها على سلم منصوب، و ريح الميد تكاد تطير بنا، فحبونا فى المشى المطيف بها، و هو من رصاص، وسعته ستة أشبار، فلم نستطع القيام عليه لهول الموقف فيه، فأسرعنا الولوج فى جوف القبة على أحد شراحيبها المفتحة فى الرصاص، فأبصرنا مرأى تحار فيه العقول، و تقف دون إدراك هيبه وصفه الأفهام، و جلنا فى فرش من الخشب العظام حول القبة الصغيرة الداخلة فى جوف القبة الرصاصية على الصفة التى ذكرناها، و لها طيقان يبصر منها الجامع و من فيه، فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان فى المحاضر.

و هذه القبة مستديرة كالكرة، و ظاهرها من خشب قد شد بأضلاع من الخشب الضخام موثقة بنطق من الحديد، ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة و تجتمع الأضلاع كلها فى مركز دائرة من الخشب أعلاها. و داخل هذه القبة، و هو ما يلى الجامع المكرم، خواتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالا عجيبا، و هى كلها مذهبة تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٣٠

بأبدع صنعة من التذهيب، مزخرفة التلوين، بديعة القرنصة، يرتقى الأبصار شعاع ذهبها، و تتحير الأبواب فى كيفية عقدها و وضعها لإفراط سموها؛ أبصرنا من تلك الخواتيم الخشبية خاتما مطروحا جوف القبة، لم يكن طوله أقل من ستة أشبار فى عرض أربعة. و هى تلوح فى انتظامها للعين كأن دور كل واحدة منها شبرا أو شبران الغاية لعظم سموها.

و القبة الرصاص محتوية على هذه القبة المذكورة و قد شدت أيضا بأضلاع عظيمة من الخشب الضخام، موثقة الأوساط بنطق الحديد، و عددها ثمان و أربعون ضلعا، بين كل ضلع و ضلع أربعة أشبار، قد انعطفت انعطافا عجيبا، و اجتمعت أطرافها فى مركز دائرة من الخشب أعلاها، و دور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة، و هى مئتا شبر و ستون شبرا، و الحال فيها أعظم من أن يبلغ وصفها، و إنما هذا الذى ذكرناه نبذة يستدل بها على ما وراءها.

و تحت الغارب المستطيل المسمى النسرة، الذى تحت هاتين القبتين، مدخل عظيم هو سقف للمقصورة، بينه و بينها سماء جص مزينة، و قد انتظم فيه من الخشب ما لا يحصى عدده، و انعقد بعضها ببعض، و تقوس بعضها على بعض، و تركبت تركيبا هائلا منظره. و قد أدخلت فى الجدار كله دعائم للقبتين المذكورتين. و فى ذلك الجدار حجارة، كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة، لا تنقلها الفيلة فضلا عن غيرها. فالعجب كل العجب من تطليعها ذلك الموضع المفرط السمو، و كيف تمكنت القدرة البشرية لذلك، فسبحان من ألهم عباده إلى هذه الصنائع العجيبة، و معينهم على التأتى لما ليس موجودا فى طبائعهم البشرية، و مظهر آياته على أيدي من يشاء من خلقه، لا إله سواه.

و القبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة قد قامت فوقها أرجل قصار ضخام من الحجارة الصم الكبار، و قد فتح بين كل رجل و رجل شمسية، و استدارت الشمسيات باستدارتها، و القبتان فى رأى العين واحدة، و كنيها عنها بائتين لكون الواحدة فى جوف الأخرى، و الظاهر منها قبة الرصاص.

و من جملة عجائب ما عايناه فى هاتين القبتين أن لم نجد فيهما عنكبوتا ناسجا على بعد العهد من التفقد لهما من أحد و التعاهد لتنظيف مساحتهما، و العنكبوت فى أمثالهما

تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٣١

موجود كثير. و قد كان حقيق عندنا أن الجامع المكرم لا تنسج فيه العنكبوت، و لا يدخله الطير المعروف بالخطاف، و قد تقدم ذكرنا لذلك فى هذا التقييد. فانصرفنا منحدرين، و قد قضينا عجا عجا من هذا المنظر العظيم شأنه، المعجز وضعه، المرتفع عن الإدراك وصفه، و يقال: إنه ما على ظهر المعمور أعجب منظرا و لا- أبعد سموا و لا- أغرب بنيانا من هذه القبة إلا- ما يحكى عن قبة بيت

المقدس، فإنها يحكى أنها أبعد في الارتفاع و السمو من هذه. و جملة الأمر أن منظرها و الوقوف على هيئته و وضعها و عظيم الاستقدار فيها عند معانيها بالصعود إليها و الولوج داخلها من أغرب ما يحدث به من عجائب الدنيا، و القدرة لله الواحد القهار، لا إله سواه.

رتبهم في جنازتهم

و لأهل دمشق و غيرها من هذه البلاد في جنازتهم رتبة عجيبة، و ذلك أنهم يمشون أمام الجنازة بقراءة القرآن بأصوات شجيبة، و تلاحين مبكية، تكاد تنخلع لها النفوس شجوا و حنانا، يرفعون أصواتهم بها، فتتلقاها الآذان بأدمع الأجنان، و جنازتهم يصل على عليها في الجامع قبالة المقصورة، فلا بد لكل جنازة من الجامع، فإذا انتهوا إلى بابه قطعوا القراءة، و دخلوا موضع الصلاة عليها، إلا أن يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدنته، فإن الحالة المميزة له في ذلك أن يدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه. و ربما اجتمعوا للجزء بالبلاط الغربي من الصحن بإزاء باب البريد، فيصلون أفرادا أفرادا، و يجلسون و أمامهم ربعات من القرآن يقرأونها، و نقباء الجنازة يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للجزء من محتشمي البلدة و أعيانهم و يحلونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالإضافة إلى الدين، فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمسه أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو معينه أو محبيه أو زكيه أو نجيبه، ما لا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعه، و تتبعها- و لا سيما في الفقهاء- بما شئت أيضا من سيد العلماء و جمال الأئمة و حجة الإسلام و فخر الشريعة و شرف الملة و مفتي الفريقين، ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المحالية. فيصعد كل واحد منهم إلى الشريعة صاحبا أذباله من الكبير، ثانيا

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٣٢

عطفه و قداله. فإذا استكملوا و فرغوا من القراءة و انتهى المجلس بهم منتهاه، قام و عاظهم واحدا واحدا بحسب رتبهم في المعرفة فوعظ و ذكر و نبه على خدع الدنيا و حذر و أنشد في المعنى ما حضر من الأشعار ثم ختم بتعزية صاحب المصاب و الدعاء له و للمتوفى ثم قعد، و تلاه آخر على مثل طريقته إلى أن يفرغوا و يتفرقوا. فربما كان مجلسا نافعا لمن يحضره من الذكرى.

و مخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل و التسويد و بامتثال الخدمة و تعظيم الحضرة، و إذا لقي أحد منهم آخر مسلما يقول: جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة، كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطيا، و الجد عندهم عنقاء مغرب، و صفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود، فترى الأعناق تتلاعب بين رفع و خفض، و بسط و قبض، و ربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط و آخر يقوم، و عمائمهم تهوى بينهم هويا. و هذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء، و عند استعراض رقيق الإماء، فيا عجا لهؤلاء الرجال، كيف تحلوا بسمات ربات الحجال، لقد ابتدلوا أنفسهم فما تأنف النفوس الأبية منه، و استعملوا تكفير الذمي المنهى في الشرع عنه! لهم في الشأن طرائق عجيبة في الباطل. فيا للعجب منهم، إذا تعاملوا بهذه المعاملة و انتهوا إلى هذه الغاية في الألفاظ بينهم فبماذا يخاطبون سلاطينهم و يعاملونهم؟! لقد تساوت الأذنان عندهم و الرؤوس، و لم يميز لديهم الرئيس و المرؤوس! فسبحان خالق الخلق أطوارا، لا شريك له، و لا معبود سواه.

و من عجيب حال الصغير عندهم و الكبير، بجميع هذه الجهات كلها، أنهم يمشون و أيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى، و يركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناية مهانة و استكانة، كأنهم قد سيموا تعنيفا، و أوثقوا تكتيفا.

و هم يعتقدون تلك الهيئة لهم تمييزا لهم في ذوى الخصوصية و تشريفا. و يزعمون أنهم يجدون بها نشاطا في الأعضاء، و راحة من الإعياء. و المحتشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبرا أو يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى. قد اتخذوا هذه المشية بينهم سننا، و كل منهم قد زين له سوء عمله فرآه حسنا. أستغفر الله منهم، فإن لهم من آداب المصافحة عوائد تجدد لهم الإيمان، و تستوهم لهم من الله الغفران، لما بشر به

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٣٣

الحديث المأثور عن رسول الله، صلى الله عليه و سلم، في المصافحة، فهم يستعملونها إثر الصلوات، و لا سيما إثر صلاة الصبح و صلاة العصر.

و إذا سلم الإمام و فرغ من الدعاء أقبلوا عليه بالمصافحة، و أقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه و عن يساره، فيتفرقون عن مجلس مغفرة، بفضل الله عزّ و جل، و قد تقدم الذكر فيما سلف من هذا التقييد أنهم يستعملونها عند رؤية الأهل، و يدعو بعضهم لبعض بتعرف بركة ذلك الشهر و يمنه و استصحاب السعادة و الخير فيه و فيما يعود عليه من أمثاله، و تلك أيضا طريقة حسنة ينفعهم الله بها لما فيها من تعاطي الدعوات و تجديد المودات، و مصافحة المؤمنين بعضهم بعضا رحمة من الله تعالى و نعمة.

حسن سيرة السلطان

و قد تقدم الذكر أيضا في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات: صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب، و ما له من المآثر الماثورة في الدنيا و الدين، و مثابته على جهاد أعداء الله، لأنه ليس أمام هذه البلدة بلدة للإسلام، و الشام أكثره بيد الإفرنج، فسبب الله هذه السلطان رحمة للمسلمين بهذه الجهات، فهو لا يأوى لراحة، و لا يخلد إلى دعة، و لا يزال سرجه مجلسه؛ إنا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين، و حللناها و قد خرج لمنازل حصن الكرك، و قد تقدم الذكر أيضا له، و هو عليه محاصر حتى الآن، و الله تعالى يعينه على فتحه. و سمعنا أحد فقهاء هذه البلدة و زعمائها المسلمين بسدة هذا السلطان و الحاضرين مجلسه يذكر عنه في حضرة محفل علماء البلد و فقهاء ثلاث مناقب في ثلاث كلمات حكاهما عنه رأينا إثباتها هنا:

إحداها أن الحلم من سجايها. فقال، و قد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه: أما أنا فلأن أخطئ في العفو أحب الي من أن أصيب في العقوبة. و هذا في الحلم مترع أحفى.

و قال أيضا، و قد تنوشدت بحضرته الأشعار و جرى ذكر من سلف من أكارم الملوك و أجوادهم: و الله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت أستكثرها له، و لو استفرغت له جميع ما في خزائني لما كان عوضا مما أراقه من حر ماء وجهه في استمناحه إياي. و هذا في الكرم مذهب رشیدی أو جعفری.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٣٤

و حضره أحد مماليكه المتميزين لديه بالخطبة و الأثرة مستعديا على جمال ذكر أنه باعه جملا معيبا أو صرف عليه جملا معيب لم يكن فيه، فقال السلطان له: ما عسى أن أصنع لك، و للمسلمين قاض يحكم بينهم، و الحق الشرعي مبسوط للخاصة و العامة، و أوامره و نواهيه ممتثلة، و إنما أنا عبد الشرع و شحنته، و الشحنة عندهم صاحب الشرطة، فالحق يقضى لك أو عليك. و هذا في العقد مقصد عمری. و هذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخرا، و الله يمتع ببقائه الإسلام و المسلمين بمته.

شهر جمادى الآخرة عرفنا الله بركته

إشارة

استهل هلاله ليلة الأحد التاسع من شهر شتنبر العجمي و نحن بدمشق، حرسها الله، على قدم الرحلة إلى عكة، فتحها الله، و التماس ركوب البحر مع تجار النصارى و في مراكبهم المعدة لسفر الخريف المعروف عندهم بالصليبية، عرفنا الله في ذلك معهود خيرته، و تكفلنا بكلاءته و عصمته، بعزته و قدرته، إنه سبحانه الحنان المنان، ولي الطول و الإحسان، لا رب غيره. و كان انفصالنا منها عشى يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور، و هو الثالث عشر من شهر شتنبر المذكور، في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكة. و من أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج و سيبهم يدخل بلاد المسلمين. شاهدنا من ذلك عند

خروجنا أمراً عجيبياً. و ذلك أن صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك، المتقدم الذكر في هذا التاريخ، قصد إليه الإفرنج في جميعهم، و قد تألبوا من كل أوب، و راموا أن يسبقوه إلى موضع الماء، و يقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين. فصمد لهم و أفلح عن الحصن بجملته و سبقهم إلى موضع الماء. فحادوا عن طريقه و سلكوا طريقاً و عرا ذهب فيه أكثر دوابهم، و توجهوا إلى حصن الكرك المذكور، و قد سد عليهم بنيات الطرق القاصدة بلادهم و لم يبق لهم إلا طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء و يبعد مداه عليهم بتحليق

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٣٥

يعترض فيه. فاهتبل صلاح الدين في بلادهم الغرة، و انتهر الفرصة، و قصد قصدها عن الطريق القاصدة، فدهم مدينة نابلس و هجمها بعسكره، فاستولى عليها، و سبى كل من فيها، و أخذ إليها حصوناً و ضياعاً. و امتلأت أيدي المسلمين سبياً لا يحصى عدده من الإفرنج، و من فرقة من اليهود تعرف بالسمره منسوبة إلى السامري.

و انبسط فيهم القتل الذريع، و حصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها، ما اكتفت من الأمتعة و الذخائر و الأسباب و الأثاث، إلى النعم و الكراع، إلى غير ذلك.

و كان من فعل هذا السلطان الموفق أن أطلق أيدي المسلمين على جميع ما احتازته، و سلم لهم ذلك، فاحتازت كل يد ما حوت و امتلأت غنى و يساراً. و عفى الجيش على رسوم تلك الجهات التي مر عليها من بلاد الفرنج، و آباو غانمين فائزين بالسلامة و الغنيمه و الإياب، و تخلصوا من أسرى المسلمين عدداً كثيراً، و كانت غزوة لم يسمع مثلها في البلاد.

و خرجنا نحن من دمشق و أوائل المسلمين قد طرقتوا بالغنائم كل بما احتواه و حصلت يده عليه، و كان مبلغ السبى آفاً لم نتحقق إحصاءها، و لحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا الأقرب ليوم انفصالنا و أعلمنا أنه يجم عسكره قليلاً و يعود إلى الحصن المذكور، فالله يعينه و يفتح عليه بعزته و قدرته. و خرجنا نحن إلى بلاد الفرنج و سببهم يدخل بلاد المسلمين، و ناهيك من هذا الاعتدال في السياسة! فان مبيتنا ليلة الجمعة بدارية، و هي قرية من دمشق على مقدار فرسخ و نصف ثم رحلنا منها صبيحة يوم الجمعة بعده إلى قرية تعرف ببيت جن، هي بين جبال، ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت إلى مدينة بانياس، و اعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدويح، أعلمنا أنها تعرف بشجرة الميزان، فسألنا عن ذلك، فقيل لنا: هي حد بين الأمن و الخوف في هذه الطريق لحرامية الإفرنج، و هم الحوسه و القطاع، من أخذوه و راءها إلى جهة بلاد المسلمين و لو باع أو شبر أسر، و من أخذ دونها إلى جهة بلاد الإفرنج بقدر ذلك أطلق سبيله، لهم في ذلك عهد يوفون به، و هو من أظرف الارتباطات الأفرنجية و أغربها.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٣٦

ذكر مدينة بانياس حماها الله تعالى

هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين، و هي صغيرة، و لها قلعة يستدير بها تحت السور نهر و يفضى إلى أحد أبواب المدينة، و له مصب تحت أرحاء. و كانت بيد الإفرنج فاسترجعها نور الدين، رحمه الله. و لها محرث واسع في بطحاء متصله يشرف عليها حصن للإفرنج يسمى هونين، بينه و بين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ. و عمالة تلك البطحاء بين الإفرنج و المسلمين، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، و مواشيهم مختلطة، و لا حيف يجرى بينهما فيها. فرحلنا عنها عشى يوم السبت المذكور إلى قرية تعرف بالمسيه بمقربة من حصن الإفرنج المذكور فكان مبيتنا بها. ثم رحلنا منها يوم الأحد سحراً، و اجترنا في طريقنا بين هونين و تبنين بواد ملتف الشجر، و أكثر شجره الرند، بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوى، تلتقى حافتاه، و يتعلق بالسماء أعلاه، يعرف بالأسطيل، لو و لجهت العساكر لغابت فيه، لا- منجى و لا- مجال لسالكة عن يد الطالب فيه، المهبط إليه و المطلع عنه عقبتان كؤودان، فعجبنا من أمر ذلك المكان. فأجزناه و مشينا عنه يسيراً و انتهينا إلى حصن كبير من حصون الإفرنج يعرف بتبنين، و هو

موضع تمكيس القوافل، و صاحبه خنزيرة تعرف بالملكة، و هي أم الملك الخنزير صاحب عكّه، دمرها الله. فكان ميبتنا أسفل ذلك الحصن، و مكس الناس تمكيسا غير مستقصى، و الضريبة فيه دينار و قيراط من الدينار الصورية على الرأس، و لا اعتراض على التجار فيه لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون، و هو محل التعشير، و الضريبة فيه قيراط من الدينار، و الدينار أربعة و عشرون قيراطا. و أكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة، و لا- اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين، و ذلك لمقدمه منهم أحفظت الإفرنج عليهم، سببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين، رحمه الله، أحد الحصون، فكان لهم في أخذه غنى ظهر و اشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم. فكل مغربي يزن على رأسه تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٣٧

الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم. و قال الإفرنج: إن هولاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا و نسألهم و لا نرزأهم شيئا، فلما تعرضوا لحربنا و تألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا، و جب أن نضع هذه الضريبة عليهم. فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو يسهله عليهم، و يخفف عنهم.

و رحلنا من تبين، دمرها الله، سحر يوم الاثنين، و طريقنا كله على ضياع متصله و عمائر منتظمة، سكانها كلها مسلمون، و هم مع الإفرنج على حاله ترفيه، نعوذ بالله من الفتنة. و ذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها، و جزية على كل رأس دينار و خمسة قرايط و لا يعترضونهم في غير ذلك. و لهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا. و مساكنهم بأيديهم و جميع أحوالهم متروكة لهم. و كل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل: رساتيقهم كلها للمسلمين، و هي القرى و الضياع، و قد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل الرساتيق المسلمين و عمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه و الرفق. و هذه من الفجائع الطارئة على المسلمين: أن يشتكى الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، و يحمد سيرة ضده و عدوه المالك له من الأفرنج، و يأنس بعدله، فإلى الله المشتكى من هذه الحال، و حسبنا تعزية و تسليه ما جاء في الكتاب العزيز: إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ .

فترلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضياع عكّه، على مقدار فرسخ، و رئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الأفرنج على من فيها من عمارها من المسلمين.

فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيله و أحضرهم صغيرا و كبيرا في غرفة متسعة بمنزله و أنالهم ألوانا من الطعام قدمها لهم، فعمهم بتكرمه. و كنا فيمن حضر هذه الدعوة.

و بتنا تلك الليلة و صباحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور، و هو الثامن عشر

تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٣٨

لشنتبر، مدينة عكّه، دمرها الله، و حملنا إلى الديوان، و هو خان معد لنزول القافلة، و أمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الآبنوس المذهبة الحلى. و هم يكتبون بالعربية و يتكلمون بها، و رئيسهم صاحب الديوان و الضامن له يعرف بالصاحب، لقب وقع عليه لمكانه من الخطه. و هم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند. و كل ما يجبي عندهم راجع إلى الضمان، و ضمان هذا الديوان بمال عظيم. فأنزل التجار رحالهم به و نزلوا في أعلاه، و طلب رحل من لا سلعة له لثلا يحتوى على سلعة مخبوءة فيه، و أطلق سبيله فنزل حيث شاء. و كل ذلك برفق و تودة، دون تعنيف و لا- حمل. فنزلنا بها في بيت اكرتيناه من نصرانية بإزاء البحر، و سألنا الله تعالى حسن الخلاص و تيسير السلامة.

ذكر مدينة عكّه دمرها الله و أعادها

هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، و محط الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام، مرفاً كل سفينة، و المشبهه في عظمها بالقسطنطينية،

مجتمع السفن و الرفاق، و ملتقى تجار المسلمين و النصارى من جميع الآفاق. سككها و شوارعها تغص بالزحام، و تضيق فيها مواطئ الأقدام، تستعر كفرا و طغيانا، و تفور خنازير و صلبانا، زفرة قدره، مملوؤه كلها رجسا و عذرة انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين فى العشر الأول من المئه السادسة، فبكى لها الإسلام ملء جفونه، و كانت أحد شجونه. فعادت مساجدها كنانس، و صوامعها مضارب للنواقيس، و طهر الله من مسجدها الجامع بقعه بقيت بأيدي المسلمين مسجدا صغيرا، يجمع الغرباء منهم فيه لإقامه فريضة الصلاة. و عند محرابه قبر صالح النبى، صلى الله عليه و سلم و على جميع الأنبياء، فحرس الله هذه البقعه من رجس الكفرة ببركه هذا القبر المقدس.

و فى شرقى البلده العين المعروفة بعين البقر، و هى التى أخرج الله منها البقر لآدم،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٣٩

صلى الله عليه و سلم. و المهبط لهذه العين على أدراج و طية، و عليها مسجد بقى محرابه على حاله، و وضع الإفرنج فى شرقيه محرابا لهم. فالمسلم و الكافر يجتمعان فيه، يستقبل هذا مصلاه و هذا مصلاه. و هو بأيدي النصارى معظم محفوظ، و أبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين.

فكان مقامنا بها يومين، ثم توجهنا إلى صور يوم الخميس الثانى عشر لجمادى المذكور، و الموفى عشرين لشتبر المذكور على البر، و اجتزنا فى طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب، و هى مطلة على قرى و عمائر متصله و على قرية مسورة تعرف باسكندرونه، و ذلك لمطالعه مركب بها أعلمنا أنه يتوجه إلى بجايه طمعا فى الركوب فيه، فحللناها عشى يوم الخميس المذكور، لأن المسافه بين المدينتين نحو الثلاثين ميلا، فنزلنا بها فى خان معد لنزول المسلمين.

ذكر مدينة صور دمرها الله تعالى و أعادها

مدينة يضرب بها المثل فى الحصانه، لا تلقى لطالبها بيد طاعه و لا استكانه. قد أعدّها الإفرنج مفزعا لحادثه زمانهم، و جعلوها مثابه لأمانهم. هى أنظف من عكه سكا و شوارع، و أهلها ألين فى الكفر طبائع، و أجرى إلى برّ غرباء المسلمين شمائل و منازع. فخلاتهم أسجح، و منازلهم أوسع و أفسح. و أحوال المسلمين بها أهون و أسكن، و عكه أكبر و أطغى و أكفر.

و أما حصانتها و مناعتها فأعجب ما يحدث به، و ذلك أنها راجعه إلى باين: أحدهما فى البر، و الآخر فى البحر و هو يحيط بها إلا من جهة واحده. فالذى فى البر يفضى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة، كلها فى ستائر مشيده محيطة بالبواب. و أما الذى فى البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس فى البلاد البحريه أعجب وضعها منها، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب و يحدق بها من الجانب الآخر معقود

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٤٠

بالجص. فالسفن تدخل تحت السور و ترسو فيها، و تعترض بين البرجين المذكورين سلسله عظيمه تمنع عند اعتراضها الداخل و الخارج، فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها. و على ذلك الباب حراس و أمناء، لا يدخل الداخل و لا يخرج الخارج إلا على أعينهم. فشأن هذه الميناء شأن عجيب فى حسن الوضع.

و لعكه مثلها فى الوضع و الصفه، لكنها لا- تحمل السفن الكبار حمل تلك، و إنما ترسو خارجها و المراكب الصغار تدخل إليها. فالصوريه أكمل و أجمل و أحفل.

فكان مقامنا بها أحد عشر يوما، دخلناها يوم الخميس و خرجنا منها يوم الأحد الثانى و العشرين لجمادى المذكوره، و هو آخر يوم من شتبر، و ذلك أن المركب الذى كنا أملنا الركوب فيه استصغرناه فلم نر الركوب فيه.

و من مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه بصور فى أحد الأيام عند مينائها، و قد احتفل لذلك جميع النصارى

رجالاً و نساءً، و اصطفوا سماًطين عند باب العروس المهداة، و البوقات تضرب و المزامير و جميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسانها من يمين و شمال، كأنهما من ذوى أرحامها، و هى فى أبهى زى، و أفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم، و على رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة، و على لبتها مثل ذلك منتظم، و هى رافلة فى حليها و حللها، تمشى فترا فى فتر مشى الحمامة أو سير الغمامة، نعوذ بالله من فتنه المناظر. و أمامها جله رجالها من النصارى فى أفخر ملبسهم البهية، تسحب أذيالها خلفهم، و وراءها أكفأؤها و نظراؤها من النصرانيات يتهادين فى أنفاس الملبس، و يرفلن فى أرقل الحلى، و الآلات اللهوية قد تقدمتهم. و المسلمون و سائر النصارى من النظار قد عادوا فى طريقهم سماًطين يتطلعون فيهم و لا ينكرون عليهم ذلك. فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلاها، و أقاموا يومهم ذلك فى وليمة. فأذانا الإتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرفى المستعاذ بالله من الفتنة فيه.

المسلمون فى عكا

ثم عدنا إلى عكة فى البحر، و حللناها صبيحة يوم الاثنين الثالث و العشرين من تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٤١
جمادى المذكورة، و أول يوم من شهر أكتوبر. و اكرينا فى مركب كبير، نروم الإقلاع إلى مسينه من بلاد جزيرة صقيلة، و الله تعالى كفيل بالتيسير و التسهيل بعزته و قدرته.

و كانت راحتنا مدة مقامنا بصور بمسجد بقى بأيدى المسلمين. و لهم فيها مساجد أحر. فأعلمنا به أحد أشياخ أهل صور من المسلمين أنها أخذت منهم سنة ثمانى عشرة و خمسمائة، و أخذت عكة قبلها باثنتى عشرة سنة بعد محاصرة طويلة و بعد استيلاء المسغبة عليهم. ذكر لنا أنهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها، و أنهم حملتهم الأنفة على أن هموا بركوب خطه عصمهم الله منها، و ذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم و أبناءهم فى المسجد الجامع، و يحملوا السيف عليهم غيرة من تملك النصارى، لهم ثم يخرجوا إلى عدوهم بعزمه نافذة و يصدموهم صدمة صادقه حتى يموتوا على دم واحد و يقضى الله قضاءه. فمنعهم من ذلك فقاؤهم و المتورعون منهم، و أجمعوا على دفع البلد و الخروج منه بسلام. فكان ذلك، و تفرقوا فى بلاد المسلمين. و منهم من استهواه حب الوطن، فدعاه إلى الرجوع و السكنى بينهم بعد أمان كتب لهم فى ذلك بشروط اشترطوها، و الله غالب على أمره، سبحانه جلت قدرته، و نفذت فى البرية مشيئته، و ليست له عند الله معذرة فى حلول بلدة من بلاد الكفر إلا مجتازاً، و هو يجد مندوحة فى بلاد المسلمين، لمشقات و أهوال يعانيتها فى بلادهم: منها الذلة و المسكنة الذميمة. و منها سماع ما يفتح الأفتدة من ذكر من قدس الله ذكره، و أعلى خطره، لا سيما من أراذلهم و أسافلهم. و منها عدم الطهارة، و التصرف بين الخنازير، و جميع المحرمات، إلى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره و لا تعداده. فالحذر الحذر من دخول بلادهم. و الله تعالى المسؤول حسن الإقامة و المغفرة من هذه الخطيئة التى زلت فيها القدم، و لم تتداركها إلا بعد موافقة الندم، فهو سبحانه ولى ذلك، لا رب غيره.

أسرى المسلمين و افتداء المغاربة

و من الفجائع التى يعانيتها من حل بلادهم أسرى المسلمين، يرسفون فى القيود، و يصرفون فى الخدمة الشاقة تصريف العبيد، و الأسيرات المسلمات كذلك، فى أسواقهم خلاخيل الحديد، فتفتطر لهم الأفتدة و لا يغنى الإشفاق عنهم شيئاً. و من تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٤٢

جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة، بهذه البلاد الشامية الإفرنجية، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات

الشامية و سواها، إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصةً لبعدهم عن بلادهم و أنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز و جل، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم. فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين و الخواتين من النساء و أهل اليسار و الثراء إنما ينفقون أموالهم في هذه السبيل. و قد كان نور الدين، رحمه الله، نذر في مرضه إصابته تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة. فلما استبل من مرضه، أرسل في فدائهم، فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة، و كانوا من حماة من جملة عمالته، فأمر بصرفهم و أخرج عوض عنهم من المغاربة، و قال:

هؤلاء يفتكهم أهلوهم و جيرانهم، و المغاربة غرباء لا أهل لهم. فانظر لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربي.

و قبض الله لهم بدمشق رجلين من مياسر التجار و كبرائهم و أغنيائهم المنغمسين في الثراء: أحدهما يعرف بنصر بن قوام، و الثاني بأبي الدار ياقوت مولى العظافي. و تجارتهما كلها بهذا الساحل الإفرنجي، و لا ذكر فيه لسواهما، و لهما الأمانة من المقارضين، فالقوافل صادرة و واردة ببضائعهما، و شأنهما في الغنى كبير، و قدرهما عند أمراء المسلمين و الإفرنجيين خطير. و قد نصبهما الله، عز و جل، لا فتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما و أموال ذوى الوصايا، لأنهما المقصودان بها لما قد اشتهر من أمانتهما و ثقتهما و بذلتهما أموالهما في هذه السبيل، فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر إلا على أيديهما. فهما طول الدهر بهذه السبيل ينفقان أموالهما، و يبذلان اجتهادهما في تخلص عباد الله المسلمين من أيدي أعداء الله الكافرين، و الله تعالى لا يضع أجر المحسنين.

و من سوء الاتفاقات، المستعاض بالله من شرها، أنه صحبنا في طريقنا إلى عكة من دمشق رجل مغربي من بونه عمل بجايه، كان أسيرا فتخلص على يدي أبي الدر المذكور و بقي في جملة صبيانه، فوصل في قافلته إلى عكة. و كان قد صحب النصاري و تخلق بكثير من أخلاقهم، فما زال الشيطان يستهويه و يغيره إلى أن نبذ دين الإسلام فكفر و تنصر مدةً مقامنا بصور. فانصرفنا إلى عكة، و أعلمنا بخبره، و هو بها قد بطس و رجس، و قد عقد الزنار، و استعجل النار، و حقت عليه كلمة العذاب، و تأهب لسوء

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٤٣

الحساب، و سحق المآب. و نسأل الله عز و جل أن يثبتنا بالقول الثابت في الدنيا و الآخرة، و لا يعدل بنا عن الملة الحنيفة، و أن يتوفانا مسلمين، بفضله و رحمته.

و هذا الخنزير صاحب عكة، المسمى عندهم بالملك، محجوب لا يظهر، و قد ابتلاه الله بالجذام، فعجل له سوء الانتقام، و قد شغلته بلواه في صباه، عن نعيم دنياه، فهو فيها يشقى، و لعذاب الآخرة أشد و أبقى. و حاجبه و صاحب الحال عوضه خاله القومس، و هو صاحب المجبى، و إليه ترتفع الأموال. و المشرف على الجميع بالمكانة و الوجاهة و كبر الشأن في الإفرنجية اللعينة، القومس اللعين، صاحب طرابلس و طبرية. و هو ذو قدر و منزلة عند الإفرنج، و هو المؤهل للملك و المرشح له، و هو موصوف بالدهاء و المكر. و كان أسيرا عند نور الدين نحو اثنتي عشرة سنة أو أزيد، ثم تخلص بمال عظيم بذل في نفسه مدة صلاح الدين و عند أول ولايته، و هو معترف لصلاح الدين بالعبودية و العتق.

و على بادية طبرية، اختلاف القوافل من دمشق لسهولة طريقها. و يقصد بقوافل البغال على تبين لوعورتها و قصد طريقها. و بحيرة طبرية مشهورة، و هي ماء عذب، وسعتها نحو ثلاثة فراسخ أو أربعة، و طولها نحو ستة فراسخ. و الأقوال فيها تختلف، و هذا القول أقربها إلى الصحة، لأننا لم نعاينها، و عرضها أيضا مختلف سعة و ضيقا.

و فيها قبور كثيرة من قبور الأنبياء، صلوات الله عليهم، كشعيب و سليمان و يهوذا و روبييل و ابنه شعيب زوج الكليم موسى، و غيرهم صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين. و جبل الطور منها قريب.

و بين عكة و بيت المقدس ثلاثة أيام. و بين دمشق و بينه مقدار ثمانية أيام، و هو بين المغرب و القبلة من عكة إلى جهة الإسكندرية. و الله يعيده إلى أيدي المسلمين، و يطهره من أيدي المشركين، بعزته و قدرته.

و هاتان المدينتان، عكة و صور، لا بساتين حولهما، و إنما هما في بسيط من الأرض أفيح متصل بسيف البحر، و الفواكه تجلب إليهما

من بساينهما التي بالقرب منهما، و لهما عمالة متسعة، و الجبال التي تقرب منهما معمورة بالضياح، و منها تجبي الثمرات إليهما.

و هما من غر البلاد. و لعكة في الشرق منها، مع آخر البلد، واد يسيل ماء. و لها مع

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٤٤

شاطئه مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم ير أجمل منه منظرا و لا ميدان للخيل يشبهه.

و إليه ركوب صاحب البلد كل بكره و عشيء، و به يجتمع العسكر، دمره الله. و لصور عند بابها البرى عين معينه ينحدر إليها على

أدرج. و الآبار و الجباب بها كثيرة لا تخلو دار منها، و الله تعالى يعيد إليها و إلى أخواتها كلمة الإسلام بمنه و كرمه.

و في يوم السبت الثامن و العشرين لجمادى المذكورة، و السادس لأكتوبر، سعدنا المركب، و هو سفينة من السفن الكبار، بمنه الله

على المسلمين بالماء و الزاد، و حاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الإفرنج. و سعدنا من النصارى المعروفين بالبلغريين، و هم حجاج

بيت المقدس، عالم لا- يحصى ينتهى إلى أزيد من ألفى إنسان، أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة و مأمول التسهيل و الصنع

الجميل بمنه و كرمه، لا معبود سواه. و نحن به منتظرون موافقة الريح و كمال الوسق، بمشيئة الله عزّ و جل.

شهر رجب الفرد عرفنا الله بركته و يمنه

إشارة

استهل هلاله ليلة الثلاثاء، بموافقة التاسع لشهر أكتوبر، و نحن على ظهر المركب بمرسى عكة منتظرون كمال وسقه و الإقلاع باسم الله

تعالى و بركته، و جميل صنعه، و كريم مشيئته. و تمادى مقامنا فيه مدة اثني عشر يوما، لعدم استقامة الريح.

و في مهب الريح بهذه الجهات سر عجب، و ذلك أن الريح الشرقية لا تهب فيها إلا في فصلى الربيع و الخريف، و السفر لا يكون إلا

فيهما، و التجار لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلا في هذين الفصلين. و السفر في الفصل الربيعى من نصف أبريل، و فيه تتحرك الريح

الشرقية و تطول مدتها إلى آخر شهر مايه، و أكثر و أقل بحسب ما يقضى الله تعالى به. و السفر في الفصل الخريفى من نصف أكتوبر،

و فيه تتحرك الريح الشرقية، و مدتها أقصر من المدة الربيعية، و إنما هى عندهم خلسة من الزمان قد تكون خمسة عشر يوما و أكثر و

أقل. و ما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف، و الريح الغربية أكثرها دواما. فالمسافرون إلى المغرب و صقلية و بلاد الروم

ينتظرون هذه الريح

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٤٥

الشرقية في هذين الفصلين انتظار وعد صادق، فسبحان المبدع في حكمته، المعجز في قدرته، لا إله سواه.

و كنا طول هذه المدة التي أقمنا فيها على ظهر المركب نبيت في البر، و نتفقد المركب في الأحيان. فلما كان سحر يوم الخميس

العاشر لرجب المذكور، و الثامن عشر لأكتوبر، ألقع المركب، و كنا على عادتنا في البر بائتين. و لم يحسن النهار للروم بأهبة السفر،

فضيعنا الحزم و نسينا المثل المضروب في أعداد الماء و الزاد، و أن لا يفارق الإنسان رحله. فأصبحنا و المركب لا عين له و لا أثر،

فاكترينا للحين زورقا كبيرا له أربعة مجاذيف و أقلعنا نتبعه. و كانت مخاطرة عصم الله منها فأدر كنا المركب مع العشى، فحمدنا الله عزّ

و جل على ما من به. و كان أول ذلك اليوم يوم شدتنا في هذا السفر الطويل، و آخره و الحمد لله يوم فرجنا، و لله الحمد و الشكر

على كل حال.

اتصل جرينا و الريح الموافقة تأخذ و تدع نحو خمسة أيام، ثم هبت علينا الريح الغربية من مكمنها دافعة في وجه المركب، فأخذ رئيسه

و مديره الرومى الجنوى، و كان بصيرا بصنعته، حاذقا في شغل الرياسة البحرية، يراوغها تارة يمينا و تارة شمالا، طمعا أن لا يرجع على

عقبه، و البحر في أثناء ذلك رهو ساكن. فلما كان نصف الليل، أو قريب منه، ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور، و السابع و

العشرين لأكتوبر، ترددت علينا الريح الغربية فقصفت قرية الصارى المعروف بالأردمون، و ألفت نصفها فى البحر مع ما اتصل بها من الشراع، و عصم الله من وقوعها فى المركب، لأنها كانت تشبه الصواري عظاما و ضخامة. فتبادر البحريون إليها، و حط شراع الصارى الكبير، و عطل المركب من جريه، و صيح بالبحريين الملازمين للعشارى المرتبط بالمركب، فقصدوا إلى نصف الخشبة الواقعة فى البحر و أخرجوها مع الشراع المرتبط بها، و حصلنا فى أمر لا يعلمه إلا الله تعالى، و شرعوا فى رفع الشراع الكبير، و أقاموا فى الأردمون شراعا يعرف بالدلون، و بتنا بلبلة شهباء، إلى أن وضح الصباح، و قد منّ الله عزّ و جل بالسلامة.

و شرع البحريون فى إصلاح قرية أخرى من خشبة كانت معدة عندهم، و الريح الغربية على أول لجاجها، و نحن بين اليأس و الرجاء نتردد مغليين حسن الثقة بجميل

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٤٦

صنع الله تعالى و حفى لطفه، و معهود فضله، سبحانه، هو أهل ذلك، جلت قدرته، و تناهت عظمته، لا إله سواه. و فى يوم الأربعاء الثالث و العشرين منه تحركت الريح الشرقية نسيمًا فاترا عليلًا فاستبشرت النفوس بها رجاء فى نمائها و قوتها، فكانت نفسا خافتا، ثم بعد ذلك غشى البحر ضباب رقيق سكنت له أمواجه، فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير، و لم يبق للجهات الأربع نفس يتنسم. فبقينا لاعميين على صفحة ماء، تخاله العين سيكئة لجين، كأننا نجول بين سماءين. و هذا الهواء الذى يسميه البحريون الغليني.

و فى ليلة الخميس الرابع و العشرين لرجب المذكور، و هو أول يوم من نونبر العجمي، كان للنصارى عيد مذكور عندهم احتفلوا له فى إسراج الشمع، و كاد لا يخلو أحد منهم، صغيرا أو كبيرا، ذكرا أو أنثى، من شمعة فى يده. و تقدم قسيسوهم للصلاة فى المركب بهم، ثم قاموا واحدا واحدا لوعظهم و تذكيرهم بشرائع دينهم، و المركب يزهر كله أعلاه و أسفله سرجا متقدة. و تمادينا على تلك الحالة أكثر تلك الليلة، ثم أصبحنا بمثل ذلك الهواء الساكن، و اتصل بنا ذلك إلى ليلة الأحد السابع و العشرين منه، فتحركت ريح شمالية، فعاد المركب بها لجريته و استبشرت النفوس، و الحمد لله.

شهر شعبان المكرم عرفنا الله خيره و برسته

غم هلاله علينا، فأكملنا عدة أيام رجب، فهو على الكمال من ليلة الخميس، بموافقة الثامن من نونبر، و قد تم لنا على ظهر البحر من يوم إقلاعنا من عكة اثنان و عشرون يوما حتى عدنا الأنس، و استشعرنا القنط و اليأس، و صنع الله عزّ و جل مأمول، و لطفه الحفى بنا كفيل بمنه و كرمه. و قل الزاد بأيدى الناس، لكن هم من هذا المركب بمنه الله، فى مدينة جامعة للمرافق، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد، من خبز، و ماء، و من جميع الفواكه و الأدم، كالرمان و السفرجل و البطيخ السندى و الكمثرى و الشاه بلوط و الجوز و الحمص و الباقلاء نيا و مطبوخا و البصل و الثوم و التين و الجبن

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٤٧

و الحوت، و غير ذلك مما يطول ذكره. عاينا جميع ذلك يباع. و فى خلال هذه الأيام كلها لم يظهر لنا بر، و الله يأتى بالفرج القريب. و مات فيه رجلان من المسلمين، رحمهما الله، فقدفا فى البحر، و من البلغريين اثنان أيضا، و مات منهم بعد ذلك خلق كثير، و سقط منهم واحد فى البحر حيا، فاحتمله الموج أسرع من خطفة البارق. و ورث هؤلاء الأموات من المسلمين و النصارى البلغريين رئيس المركب، لأنها سنة عندهم فى كل من يموت فى البحر، و لا- سبيل لو ارث الميت إلى ميراثه. فطال عجبا من ذلك. و فى سحر يوم الثلاثاء السادس من الشهر المؤرخ، و الثالث عشر من نونبر، ظهرت لنا جبال فى البحر، و قد اشتدت الريح الغربية، و توالى إعصارها، و كانت تتقلب بالقبول و الدبور. فألجأنا إلى أحد تلك الجبال، فأرسيها عنده. و سألنا عن الموضوع، فأعلمنا أنه من جزائر الرمانية. و هذه الجزائر تنيف على الثلاث مئة و خمسين جزيرة، و هى إلى عمل صاحب القسطنطينية، و الروم يحذرون أهلها كحذر المسلمين، لأنهم

لا صلح بينهم فأقمنا بذلك المرسى يوم الثلاثاء المذكور و صدر يوم الأربعاء بعده. و نزل من تلك الجزيرة قوم بايعوا أهل المركب بعض ساعة من النهار فى الخبز و اللحم بعد أمان أخذوه.

ثم أقلعنا يوم الأربعاء المذكور، و قد تم لنا على ظهر المركب ثمانية و عشرون يوماً، و ظهر لنا يوم الخميس بعده بر جزيرة أقریطش، و هذه الجزيرة أيضا لعمل صاحب القسطنطينية، و طولها ينيف على الثلاث مئة ميل، و قد تقدم ذكرها فى سفرنا البحرى إلى الإسكندرية، فبقينا نجرى بطولها و هى مئا على اليمين، و البحر فى أثناء ذلك كله هائل، و الريح لا توافق، و نحن ننتظر الفرج من الله عز و جل بصبر جميل، و نرتقب منه جل جلاله معهود التيسير و التسهيل بمنه و لطفه.

و فى يوم السبت العاشر لشعبان المذكور، السابع عشر لنونبر، انقطع عنا بر الجزيرة المذكورة، و نحن نجرى بريح شمالية موافقة، فزئرت و عصفت فطار لها المركب بجناحى شراعه، و البحر بها قد جن و استشرى لجاحه و قذفت بالزبد أمواجه، فتخال غواربه المتموجة جبالا مثلجة. و مع تلك استشعرت النفوس الأئس، و غلب رجاؤها اليأس، و قد كنا مدة الستة و عشرون يوما المذكورة، التى لم يظهر لنا فيها بر، نرجم

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٤٨

الظنون، و نغازل المنون، حذرا من نفاذ الزاد و الماء، و الحصول بين المهلكين الجوع و الظماء. فمن قائل يقول: إنا قد ملنا فى جرينا إلى بر المغرب، و هو بر أفريقية. و آخر يزعم: أنا قد ملنا إلى بر الأرض الكبيرة، بر القسطنطينية و ما يليها. و منهم من يقول: إلى اللاذية جهة الشام. و منهم من يقول: إلى دمياط بر الاسكندرية. و كنا نحذر أن تلجنا الريح إلى إحدى جزائر الرمانية الخالية، فنشتو فيها، أو تضطرنا الحال إلى المعمور منها. و ليس فى هذه الوجوه المتوقعة كلها وجه فيه حظ لمختار، حتى أتى الله بالفرج، و أذهب اليأس و اليأس، و مكن فى النفوس الإيناس، بعد مكابدة الأمرين، و مقاساة البرحين، فله در القائل :

البحر مَرّ المذاق صعب لا جعلت حاجتى إليه

أليس ماء و نحن طين فما عسى صبرنا عليه

و نحن الآن بفضل الله تعالى نتطلع البشرى بظهور بر صقيلة، إن شاء الله.

هول العاصفة

و فى النصف من ليلة الأحد الحادى عشر منه انقلبت الريح غربية، و كشف النوء من الغرب، و جاءت الريح عاصفة فأخذت بنا جهة الشمال. و أصبحنا يوم الأحد المذكور و الهول يزيد، و البحر قد هاج هائج، و ماج مائج، فرمى بموج كالجبال، يصدم المركب صدمات يتقلب لها على عظمه تقلب الغصن الرطيب، و كان كالسور علوا فيرتفع له الموج ارتفاعا يرمى فى وسطه بشأيب كالوابل المنسكب. فلما جنّ الليل اشتد تلاطمه، و صكت الأذان غماغمه، و استشرى عصف الريح. فحطت الشرع، و اقتصر على الدالين الصغار دون أنصاف الصوارى. و وقع اليأس من الدنيا، و ودعنا الحياة بسلام، و جاءنا الموج من كل مكان، و ظننا أنا قد أحيط بنا، فيا لها ليلة يشيب لها سود الذوائب، مذكورة فى ليالى الشوائب، مقدمة فى تعداد الحوادث

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٤٩

و النوائب. و نحن منها فى مثل ليل صول طولا، فأصبحنا لم نكد. فكان من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر إقريطش عن يسارنا، و جباله قد قامت أمامنا، و كنا قد خلفناه عن يميننا، فأسقطتنا الريح عن مجرانا، و نحن نظن أنا قد جزناه. فسقط فى أيدينا، و خالفنا المجرى المعهود اليمون، و هو أن يكون البر المذكور منا يميننا، فى استقبال صقيلة. فاستسلمنا للقدر، و تجرعنا غصص هذا الكدر، و قلنا:

سيكون الذى قضى سخط العبد أو رضى

و في أثناء ذلك انبسطت الشمس، و لان البحر قليلا، و صمنا نروم أخذ مرسى في البر المذكور إلى أن يقضى الله قضاءه و ينفذ حكمه، و لكل سفر أوان، و سفر البحر إنما هو في إبانه، و المعهود من زمانه، لا أن يعتسف في فصول أشهر الشتاء اعتسافنا له، و الأمر لله من قبل و من بعد فالحذر الحذر، من ركوب مثل هذا الخطر، و إن كان المحذور لا يغني عن المقدور شيئا، و حسبنا الله و نعم الوكيل.

ثم إن الريح ساعدت عند استقبالنا البر بعض مساعدة، فانصرفنا عنه و تركناه يمينا وعدنا إلى قريب من المجرى المقصود، و جرينا بعض ليلة الثلاثاء الثالث عشر منه، و قد تم لنا على ظهر المركب أربعة و ثلاثون يوما، و الشرع مصلبه، و هو عندهم أعدل جرى لأنه لا يكون إلا بالريح التي تتلقى مؤخر المركب في مجراه، فأصبحنا يوم الثلاثاء المذكور على مثل تلك الحال، و ساعدت الريح، ففرحنا و سررنا، و طلعت علينا مراكب قاصدة مقصدنا فاستبشرنا بها و علمنا أنا على مجرى مقصود، و لله الحمد و الشكر على كل حال من الأحوال.

ثم انقلبت الريح غربية، و هبت عاصفا، فألجأنا اضطرارا بعد أن جرت لنا بعض ليلة الأربعاء و يوم الأربعاء إلى مرسى من مراسى جزائر الرمانية، و هو رأس الجزيرة، و منه إلى الأرض الكبيرة مجاز فيه الاثنا عشر ميلا. فأصبحنا به يوم الخميس الخامس عشر لشعبان المكرم، و الثاني و العشرين لنونبر، فحمدنا الله عزّ و جل على ما من به من السلامة. و توافت بعدنا إلى ذلك المرسى خمسة مراكب، منها اثنان كانا قد ألقنا من بر

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٥٠

الإسكندرية عن عهد نحو خمسين يوما فأسقطتهما الريح. فأقمنا بذلك المرسى أربعة أيام، و جدد الناس به الماء و الزاد، لأن العمارة كانت منا قريبا، فنزل أهل الجزيرة و بايعوا أهل المركب في الخبز و اللحم و الزيت و ما كان عندهم من الأدم. و لم يكن خبزهم برا خالصا، إنما كان خليطا بالشعير و كان يضرب للسواد. فتهافت الناس عليه على غلائه، و لم يكن بالرخيص في سومه، و شكروا الله على ما من به عليهم.

و في هذا المرسى كمل لنا على ظهر البحر أربعون يوما، و الحمد لله على كل حال. و مدة مقامنا بالمرسى لم يفتر عصف الريح الغربية، و عادت أشد ما يكون هبوبا. فحمدنا الله تعالى على أن لم تأخذنا و نحن على ظهر البحر جارين، و الحمد لله على جميل صنعه.

بين اليأس و الرجاء

و ألقنا من المرسى المذكور يوم الاثنين التاسع عشر لشعبان المذكور، و السادس و العشرين لنونبر، بريح طيبة موافقة، فاستبشرنا بها و استطلعنا جميل صنع الله، عزّ و جل، و لطف قضائه، لا رب سواه. و تمادى سيرنا إلى يوم الخميس الثاني و العشرين لشعبان، و التاسع لنونبر. ثم انقلبت الريح غربية و أنشأت سحابة فيها رعد قاصف، و زجتها ريح عاصف، و تقدمها برق خاطف، فأرسلت حاصبا من البرد صبته علينا في المركب شآبيب متداركة، فارتاعت له النفوس، ثم أسرع انقشاعها، و انجلى عن الأنفس ارتياحها، و بتنا ليلة الجمعة مبيت وحشة و طالعا بها اليأس من مكمته. فلما أسفر الصبح و طلع النهار أبصرنا بر صقلية لائحا أمانا. فيا لها بشرى و مسرة، لو لم تعد حسرة في كرة! فأمسينا ليلة السبت، و هو أول يوم من دجنبر، و نحن على إدراكه في أقل من ثلثها أو منتصفها، و لكل أجل كتاب و ميقات. و كم أمل تعترض دونه الآفات، فما كان إلا- كلا و لا حتى ضربت في وجوهنا ريح أنكصتنا على الأعقاب، و حالت بين الأبصار و الارتقاب. و ما زالت تعصف، حتى كادت تنسف و تقصف، فحطت الشرع عن صواريتها، و استسلمت النفوس لباريها، و تركنا بين السفينة و مجريها. و تتابعت علينا عوارض ديم، حصلنا منها و من الليل و البحر في ثلاث ظلم، و عباب الموج تتوالى صدماته، و تطفر الألباب رجفاته.

فنبذت نفوسنا كل أمنيّة، و تأهبت للقاء المنيّة.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٥١

و قطعنا هذه الليلة البهائم في مصادمة أهوال، و مكابدة أوجال، و مقاساة أحوال، يا لها من أحوال! ثم أصبحنا يوم السبت ليوم عصيب، أخذ من هول ليلته بأوفر نصيب، و الأمواج و الرياح تترامى بنا حيث شاءت، و قد استسلمنا للقضاء، و تمسكنا بأسباب الرجاء. ثم تداركنا صنع الله تعالى مع المساء، ففترت الرياح و لان متن البحر و أسفر وجه الجو. و أصبحنا يوم الأحد ثاني دجنير، و الخامس و العشرين لشعبان، و قد بدل لنا من الخوف الأمان و تطلعت الوجوه كأنها انتشرت من الأكفان، و ساعدت الرياح بعض مساعدة. فعدنا نطلب من البر أثرا بعد عين، و نرجم الظنون بين متى و أين. و الله، عز و جل لطيف بعباده و كفيل بمعهود صنعه الجميل و معتاده، لا رب سواه.

شهر رمضان المعظم عرفنا الله البركة و القبول بمنه و كرمه

إشارة

استهل هلاله ليلة الجمعة السابع لشهر دجنبر و نحن يازاء الأرض الكبيرة على متن البحر مترددين، و قد من الله علينا بريح شرقية فاترة المهيب سرنا بها سيرا رويدا حتى وصلنا هذا الموضع من إزاء الأرض الكبيرة المذكورة، و أبصرنا فيها ضياعا عمارة كثيرة، أعلمنا أنها من فلورية، و هي من بلاد صاحب صقلية، لأن بلاده في الأرض الكبيرة تتصل نحو شهرين. و بهذا الموضع نزل كثير من البلغريين فائزين بأنفسهم لمسغبة مست أهل المركب لعدم الزاد و نفاذه. و حسبك أنا كنا نقتصر على مقدار رطل من الخبز اليابس، نتقسمه بين أربعة منا، نبله ييسير من الماء فتبلغ به. و كل من نزل من البلغريين باع فضله زاده، فترقق المسلمون بابتياح ما أمكن منه على غلائه، و انتهى إلى مقدار خبزة بدرهم من الخالص. فما ظنك بمدّة شهرين على ظهر البحر في مسافة ظن الناس أنهم يقطعونها في عشرة أيام أو خمسة عشر يوما الغاية. فالحازم من أدخل زاد ثلاثين يوما، و سائر الناس لعشرين يوما، و لخمسة عشر يوما.

و من العجب في الاتقافات في الأسفار البحرية، أنا استطلعنا على ظهر البحر أهلة ثلاثة أشهر: هلال رجب، و هلال شعبان، و هلال رمضان هذا. و في يوم مستهله مع

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٥٢

الصباح أبصرنا أمامنا جبل النار، و هو جبل البركان المشهور بصقلية، فاستبشرنا بذلك، و الله تعالى يعظم أجورنا على ما كابدناه، و يختم لنا بأجمل الصنع و أسناه، و يوزعنا في كل حال شكر ما أولاه، بمنه و كرمه.

ثم حركتنا من ذلك الموضع ريح موافقة، فلما كان عشي يوم السبت ثاني الشهر المذكور اشتد هبوبها فزجت المركب تزجية سريعة، فلم يكن إلا كلا و لا حتى أدتنا إلى أول المضيق و الليل قد جن. و هذا المضيق ينحصر فيه البحر مقدار ستة أميال، و أضيق موضع فيه ثلاثة أميال يعترض من بر الأرض الكبيرة إلى بر جزيرة صقلية، و البحر بهذا المضيق ينصب انصباب السيل العرم، و يغلى غليان المرجل، لشدة انحصاره و انضغاطه، و شقه صعب على المراكب. فاستمر مركبنا في سيره، و الريح الجنوبية تسوقه سوقا عنيفا، و بر الأرض الكبيرة عن يميننا، و بر صقلية عن يسارنا.

جنوح المركب و تحطمه

فلما كان مع نصف ليلة الأحد الثالث للشهر المبارك، و قد شارفنا مدينة مسينه من الجزيرة المذكورة، دهمتنا زعقات البحرين بأن المركب قد أمالته الريح بقوتها إلى أحد البرين و هو ضارب فيه، فأمر رئيسهم بحط الشرع للحين، فلم ينحط شرع الصاري المعروف

بالأردمون، و عالجه فلم يقدروا عليه لشدة ذهاب الريح به، فلما أعياهم مزقه الرانس بالسكين قطعاً قطعاً طمعا في توقيفه، و في أثناء هذه المحاولة سنح المركب بكلكله على البر، و التقاه بسكانيه، و هما رجلاه اللتان يصرف بهما، و قامت الصيحة الهائلة في المركب، فجاءت الطامة الكبرى، و الصدعة التي لم نطق لها جبرا، و القارعة الصماء التي لم تدع لنا صبيرا، و التدم النصارى التداما، و استسلم المسلمون لقضاء ربهم استسلاما، و لم يجدوا سوى جبل الرجاء استمساكا و اعتصاما. و تعاورت الريح و الأمواج صفح المركب حتى تكسرت رجله الواحدة فألقى الرانس مرسى من مراسيه طمعا في تمسكه به، فلم يغن شيئا، فقطع حبله و تركه في البحر.

فلما تحققنا أنها هي قمنا فشدنا للموت حيازيمنا، و أمضينا على الصبر الجميل

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٥٣

عزائمتنا، و أقمنا نرتقب الصباح أو الحين المتاح، و قد علا الصياح، و ارتفع الصراخ من أطفال الروم و نسائهم، و ألقى الجميع عن يد الإذعان، و قد حيل بين العير و النزوان . و نحن قيام نبصر البر قريبا، و تتردد بين أن نلقى بأنفسنا إليه سبحا، أو ننتظر لعل الفرج من الله يطلع صباحا. فأحضرنا نية الثبات، و البحريون قد ضموا العشارى لإخراج المهم من رجالهم و نسائهم و أسبابهم، فساروا به إلى البر دفعة واحدة، ثم لم يطيقوا رده، و قذفه الموج مكسرا على ظهر البر، فتكمن حينئذ اليأس من النفوس. و في أثناء مكابدة هذه الأحوال أسفر الصبح، فجاء نصر الله و الفتح، و حققنا النظر فإذا بمدينة مسينه أمامنا على أقل من نصف الميل و قد حيل بيننا و بينها، فعجبنا من قدرة الله عزّ و جل في تصريف أقداره، و قلنا: رب محبوب إليه حتفه في عتبه داره.

ثم تمكن الشروق فجاءتنا الزوارق مغيثة، و وقعت الصيحة في المدينة، فخرج ملك صقيلة غليام بنفسه في جملة من رجاله متطلعا لتلك الحال: و بادرنا إلى النزول في الزوارق و الأمواج لشدها لا تمكنها الوصول إلى المركب. فكان نزولنا فيها خاتمة الهول العظيم، و نجونا إلى البر منجى أبى نصر عن قدر. و تلف للناس بعض أسبابهم فتسلوا عن الغنيمة بإيابهم. و من العجب، على ما أخبرنا به، أن هذا الملك الرومى المذكور أبصر فقراء من المسلمين يتطلعون من المركب و ليس لهم شيء يؤدونه في نزولهم، لأن أصحاب الزوارق أغلوا على الناس في تخليصهم، فسأل عنهم فأعلم بقصتهم، فأمر لهم بمائة رباعى من سكتة ينزلون بها، و خلص جميع المسلمين عن سلام، و قيل: الحمد لله رب العالمين. و فرغ النصارى جميع ما كان لهم فيه، فأصبح في اليوم الثانى و قد جعلته الأمواج جدا، و رمت به البر أفلاذا، فعاد عبء لناظرين، و آية للمتوسمين. و وقع العجب من سلامتنا منه، و جددنا شكر الله عزّ و جل على ما من به من لطيف صنعه و جميل قضائه و تخليصه لنا من أن يكون هذا القدر ينفذ علينا في الأرض الكبيرة أو إحدى جزائر الروم المعمورة. فكننا، لو سلمنا، نستعبد للابد،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٥٤

و الله عزّ و جل يعيننا على أداء شكر هذه المنية و النعمة، و ما تداركنا به من لحظات الرأفة و الرحمة، إنه على ذلك قدير، و بعوائد الفضل و الخير جدير، لا إله سواه.

و من جملة صنع الله عزّ و جل لنا، و لطفه بنا، في هذه الحادثه، كون هذا الملك الرومى حاضرا فيها. و لو لا ذلك لانتهدب جميع ما في المركب انتهابا، و ربما كان يستعبد جميع من فيه من المسلمين، لأن العادة جرت لهم بذلك. و كان وصول هذا الملك لهذه البلاد، بسبب أسطوله الذى ينشئه، رحمه لنا، و الحمد لله على ما من به علينا من حسن نظره الكفيل بنا، لا إله سواه.

ذكر مدينة مسينه من جزيرة صقيلة أعادها الله تعالى

هذه المدينة موسم تجار الكفار، و مقصد جوارى البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برحاء الأسعار، مظلمة الآفاق بالكفر، لا يقر فيها لمسلم قرار، مشحونة بعبدة الصلبان، تغص بقاطنيها، و تكاد تضيق ذرعا بساكنيها، مملوءة تنا و رجسا، موحشه لا توجد لغريب أنسا، أسواقها نافقة حفيهة، و أرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيهة، لا تزال بها ليلك و نهارك في أمان، و إن كنت غريب الوجه و اليد

واللسان، مستندة إلى جبال قد انتظمت حضيضها و خنادقها، و البحر يعترض أمامها في الجهة الجنوبية منها. و مرساها أعجب مراسى البلاد البحرية، لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه و تنصب منها إلى البر خشبة يتصرف عليها، فالحمال يصعد بحمله إليها و لا يحتاج لزوارق في وسقها، و لا في تفرغها إلا ما كان مرسيا على البعد منها يسيرا. فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد في مرابطها و اصطبلاتها، و ذلك لإفراط عمق البحر فيها، و هو زقاق معترض بينها و بين الأرض الكبيرة، بمقدار ثلاثة أميال. و يقابلها منه بلدة تعرف بريه، و هي عمالة كبيرة. و هذه المدينة: مسينه، رأس جزيرة صقلية، و هي كثيرة المدن و العماثر و الضياع، و تسميتها تطول.

و طول هذه الجزيرة: صقلية سبعة أيام، و عرضها مسيرة خمسة أيام، و بها جبل

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٥٥

البركان المذكور، و هو يأتزر بالسحب لإفراط سموه و يعتّم بالثلج شتاء و صيفا دائما. و خصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف، و كفى بأنها ابنه الأندلس في سعة العماره، و كثرة الخصب و الرفاهه، مشحونه بالأرزاق على اختلافها، مملوءة بأنواع الفواكه و أصنافها، لكنها معمورة بعبدة الصلبان، يمشون في مناكبها، و يرتعون في أكنافها. و المسلمون معهم على أملاكهم و ضياعهم، و قد حسنوا السيرة في استعمالهم و اصطناعهم، و ضربوا عليهم إتاوة في فصلين من العام يؤدونها، و حالوا بينهم و بين سعة في الأرض كانوا يجدونها، و الله عزّ و جل يصلح أحوالهم، و يجعل العقبي الجميلة مآلهم، بمنه. و جبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح و الشاه بلوط و البندق و الإجاص و غيرها من الفواكه.

ملك صقلية و ثقته بالمسلمين

و ليس في مسينه هذه من المسلمين إلا نفر يسير من ذوى المهن، و لذلك يستوحش بها المسلم الغريب. و أحسن مدنها قاعدة ملكها، و المسلمون يعرفونها بالمدينة، و النصرارى يعرفونها ببلارمه، و فيها سكنى الحضريين من المسلمين، و لهم فيها المساجد، و الأسواق المختصة بهم في الأرباض كثير. و سائر المسلمين بضياعها و جميع قراها، و سائر مدنها كسر قوسه و غيرها. لكن المدينة الكبيرة التي هي مسكن ملكها غلام أكبرها و أحفلها و بعدها مسينه. و بالمدينة، إن شاء الله، يكون مقامنا. و منها نؤمل سفرنا إلى حيث يقضى الله عزّ و جل من بلاد المغرب إن شاء الله.

و شأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة و استعمال المسلمين و اتخاذ الفتیان المجاييب، و كلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه متمسك بشريعة الإسلام. و هو كثير الثقة بالمسلمين، و ساكن إليهم في أحواله و المهم من أشغاله، حتى إن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين، و له جملة من العبيد السود المسلمين، و عليهم قائد منهم. و وزراؤه و حجابة الفتیان، و له منهم جملة كبيرة، هم أهل دولته و المرتسمون بخاصته، و عليهم

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٥٦

يلوح روتق مملكته، لأنهم متسعون في الملابس الفاخرة و المراكب الفارهة، و ما منهم إلا من له الحاشية و الخول و الأتباع. و لهذا الملك القصور المشيدة و البساتين الأنيقة، و لا سيما بحضرة ملكة المدينة المذكورة. و له بمسینه قصر أبيض كالحمامة مطل على ساحل البحر. و هو كثير الاتخاذ للفتیان و الجوارى. و ليس في ملوك النصرارى أترف في الملك و لا أنعم و لا أرفه منه. و هو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك، و ترتيب قوانينه، و وضع أساليبه، و تقسيم مراتب رجاله، و تفخيم أبهه الملك و إظهار زينته، بملوك المسلمين. و ملكه عظيم جدا.

و له الأطباء و المنجمون، و هو كثير الاعتناء بهم، شديد الحرص عليهم، حتى إنه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر

يامساكه و أدر له أرزاق معيشتة حتى يسليه عن وطنه، و الله يعيذ المسلمين من الفتنة به بمنه. و سنه نحو الثلاثين سنة، كفى الله المسلمين عاديته و بسطته. و من عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ و يكتب بالعربية، و علامته، على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به: الحمد لله حق حمده. و كانت علامة أبيه: الحمد لله شكرا لأنعمه.

و أما جواريه و حظاياه في قصره فمسلما كلهن. و من أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور، و هو يحيى بن فتيان الطراز، و هو يطرز بالذهب في طراز الملك: أن الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة.

و هن على تكتم من ملكهن في ذلك كله، و لهن في فعل الخير أمور عجيبة. و أعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك. فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذاكرا لله و لرسوله من نسائه و فتيانه، و ربما لحقتهم دهشة عند رؤيته، فكان يقول لهم: "ليذكر كل أحد منكم معبوده و من يدين به،" تسكيناً لهم.

و أما فتيانه الذين هم عيون دولته و أهل عمالته في ملكه فهم مسلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً و تأجراً، و يتصدق تقرباً إلى الله و تزلفاً، و يفتك الأسرى، و يربي الأصاغر منهم و يزوجهم و يحسن إليهم، و يفعل الخير ما استطاع. و هذا كله صنع من الله، عزّ و جل، لمسلمي هذه الجزيرة و سر من أسرار اعتناء الله، عزّ و جل، بهم. لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح من وجوههم و كبرائهم، بعد تقدمه رغبة منه إلينا في ذلك،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٥٧

فاحتفل في كرامتنا و برنا و باح لنا بسر المكنون بعد مراقبه منه في مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه. فسألنا عن مكة، قدسها الله، و عن مشاهدها المعظمة و عن مشاهد المدينة المقدسة و مشاهد الشام. فأخبرنا، و هو يذوب شوقاً و تحرقاً، و استهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرف المبارك من مكة و المدينة قدسهما الله. و رغب في أن لا نبخل عليه بما أمكن من ذلك. و قال لنا: أنتم مدلون بإظهار الإسلام، فائزون بما قصدتم له، رابحون إن شاء الله في متجركم. و نحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسكون بعبادة الله و أداء فرائضه سرا، معتقلون في ملكه كافر بالله، قد وضع في أعناقنا ريقه الرق، فغايتنا التبرك بقاء أمثالكم من الحجاج، و استهداء أدعيتهم، و الاغتباط بما نتلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة، لتتخذها عدة للإيمان، و ذخيرة للأكفان. فتفطرت قلوبنا له إشفاقاً و دعونا له بحسن الخاتمة، و أتحنفنا ببعض ما كان عندنا مما رغب فيه. و أبلغ في مجازاتنا و مكافأتنا و استكتمناه سائر إخوانه من الفتيان.

و لهم في فعل الجميل أخبار مأثورة، و في افتكاك الأسرى صنائع عند الله مشكورة. و جميع خدمتهم على مثل أحوالهم. و من عجيب شأن هؤلاء الفتيان أنهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون أفذاذا من مجلسه فيقضون صلاتهم. و ربما يكونون بموضع تلحقه عين ملكهم فيسترهم الله عزّ و جل، فلا يزالون بأعمالهم و نياتهم و بنصائحهم الباطنة للمسلمين في جهاد دائم، و الله ينفعهم و يجعل خلاصهم بمنه. و لهذا الملك بمدينة مسينة المذكورة دار صنعة البحر تحتوى من الأساطيل على ما لا يحصى عدد مراكبه، و له بالمدينة مثل ذلك.

مغادرة مدينة مسينة

فكان نزولنا في أحد الفنادق، و أقمنا بها تسعة أيام، فلما كان ليلة الثلاثاء الثاني عشر للشهر المبارك المذكور، و الثامن عشر لدجنبر، ركبنا في زورق متوجهين إلى المدينة المتقدم ذكرها، و صرنا قريبا من الساحل بحيث نبصره رأى العين. و أرسل الله علينا ريحا شرقية رخاء طيبة زجت الزورق هنا ترحيه، و سرنا نسرح اللحظ في عمائر و قرى متصلة و حصون و معقل في قنن الجبال مشرفة. و أبصرنا عن يمننا في البحر تسع

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٥٨

جزائر قد قامت جبالا مرتفعة: على مقربة من بر الجزيرة اثنتان منها، تخرج منهما النار دائما، و أبصرنا الدخان صاعدا منهما، و يظهر بالليل نارا حمراء ذات ألسن تصعد في الجو، و هو البركان المشهور خبره. و أعلمنا أن خروجها من منافس في الجبلين المذكورين، يصعد منها نفس نارى بقوة شديدة تكون عنه النار، و ربما قذف فيها الحجر الكبير فتلقى به فى الساعة إلى الهواء لقوة ذلك النفس، و تمنعه من الاستقرار و الانتهاء إلى القعر. و هذا من أعجب المسموعات الصحيحة.

و أما الجبل الشامخ الذى بالجزيرة، المعروف بجبل النار، فشأنه أيضا عجيب، و ذلك أن نارا تخرج منه فى بعض السنين كالسيل العرم، فلا تمر بشيء الا أحرقتة حتى تنتهى إلى البحر فتركب ثبجه على صفحة حتى تغوص فيه، فسبحان المبدع فى عجائب مخلوقاته، لا إله سواه. إلى أن حللنا عشى يوم الأربعاء، بعد يوم الثلاثاء المؤرخ، مرسى مدينة شفلودي، و بينها و بين مسينة مجرى و نصف مجرى.

ذكر مدينة شفلودي من جزيرة صقلية أعادها الله تعالى

هى مدينة ساحلية كثيرة الخصب، واسعة المرافق، و منتظمة أشجار الأعناب و غيرها، مرتبة الأسواق، تسكنها طائفة من المسلمين، و عليها قننه جبل واسع مستديرة، فيها قلعة لم ير أمتع منها اتخذوها عدة لأسطول يفجؤهم من جهة البحر، من جهة المسلمين، نصرهم الله. و كان إقلاعا منها نصف الليل، فجننا مدينة ثرمة ضحوه يوم الخميس بسير رويد. و بين المدينتين خمسة و عشرون ميلا، فانتقلنا فيها من ذلك الزورق إلى زروق ثان أكثريناه لكون البحرين الذين صحبونا فيه من أهلها.

ذكر مدينة ثرمة من الجزيرة المذكورة [جزيرة صقلية]: فتحها الله

هى أحسن وضعا من التى تقدم ذكرها، و هى حصينة، تركب البحر و تشرف

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٥٩

عليه، و للمسلمين فيها ربح كبير لهم فيه المساجد، و لها قلعة سامية منيعة. و فى أسفل البلدة حمة قد أغتت أهلها عن اتخاذ حمام. و هذه البلدة من الخصب وسعة الرزق على غاية. و الجزيرة بأسرها من أعجب بلاد الله فى الخصب وسعة الأرزاق. فأقمنا بها يوم الخميس الرابع عشر للشهر المذكور، و نحن قد أرسينا فى واد بأسفلها و يطلع فيه المد من البحر ثم ينحسر عنه. و بتنا بها ليلة الجمعة، ثم انقلب الهواء غربيا، فلم نجد للإقلاع سيلا، و بيننا و بين المدينة المقصودة، المعروفة عند النصارى بيلارمة، خمسة و عشرون ميلا، فخشينا طول المقام، و حمدنا الله تعالى على ما أنعم به من التسهيل فى قطع المسافة فى يومين. و قد تلبث الزوارق فى قطعها، على ما أعلمنا به، العشرين يوما و الثلاثين يوما و نيفا على ذلك.

فأصبحنا يوم الجمعة منتصف الشهر المبارك على نية من المسير فى البر على أقدامنا، فنفذنا لطيتنا و تحملنا بعض أسبابنا و خلفنا بعض الأصحاب على الأسباب الباقية فى الزورق. و سرنا فى طريق كأنها السوق عماره و كثرة صادر و وارد، و طوائف النصارى يتلقوننا فيبادرون بالسلام علينا و يؤنسونا، فرأينا من سياستهم و لين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة فى نفوس أهل الجهل، عصم الله جميع أمه محمد، صلى الله عليه و سلم، من الفتنة بهم بعزته و منه. فانتبهنا إلى قصر سعد، و هو على فرسخ من المدينة، و قد أخذ منا الإعياء فملنا إليه و بتنا فيه.

قصر سعد و مسجده

و هذا القصر على ساحل البحر مشيد البناء عتيقه قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة، لم يزل و لا يزال، بفضل الله، مسكنا للعباد منهم، و حوله قبور كثيرة للمسلمين: أهل الزهاده و الورع، و هو موصوف بالفضل و البركة مقصود من كل مكان. و بإزائه عنى

تعرف بعين المجنونة، و له باب وثيق من الحديد، و داخله مساكن، و علالي مشرفة و بيوت منتظمة، و هو كامل مرافق السكنى، و فى أعلاه مسجد من أحسن مساجد الدنيا بهاء، مستطيل ذو حنايا مستطيلة، مفروش بحصر نظيفة، لم ير أحسن منها صنعة، و قد علق فيه نحو الأربعين قنديلا من أنواع الصفر و الزجاج.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٦٠

و أمامه شارع واسع يستدير بأعلى القصر، و فى أسفل القصر بئر عذبة. فبتنا فى هذا المسجد أحسن مبيت و أطيبه، و سمعنا الأذان و كنا قد طال عهدنا بسماعه. و أكرمنا القوم الساكنون فيه. و له إمام يصلى بهم الفريضة و التراويح فى هذا الشهر المبارك.

و بمقربه من هذا القصر، بنحو الميل جهة المدينة، قصر آخر على صفته يعرف بقصر جعفر، و داخله سقاية تفور بماء عذب. و أبصرنا للنصارى فى هذه الطريق كنائس معدة لمرضى النصارى. و لهم فى مدنهم مثل ذلك على صفة مارستانات المسلمين. و أبصرنا لهم بعكة و بصور مثل ذلك، فعجبنا من اعتنائهم بهذا القدر.

فلما صلينا الصبح توجهنا إلى المدينة فجتنا لندخل، فمنعنا و حملنا إلى الباب المتصل بقصور الملك الإفرنجى، أراح الله المسلمين من ملكته، و أدينا إلى المستخلف من قبله ليسألنا عن مقصدنا، و كذلك فعلهم بكل غريب، فسلك بنا رحابا و أبوابا و ساحات ملوكية، و أبصرنا من القصور المشرفة و الميادين المنتظمة و البساتين و المراتب المتخذة لأهل الخدمة ما راع أبصارنا و أذهل أفكارنا، و تذكرنا قول الله عز و جل: **وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثَبِّتَهُمْ سِقُفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ** و أبصرنا فيما أبصرناه مجلسا فى ساحة فسيحة قد أحدق بها بستان و انتظمت جوانبها بلاطات، و المجلس قد أخذ استطالة تلك الساحة كلها، فعجبنا من طوله و إشراف مناظره، فأعلمنا أنه موضع غذاء الملك مع أصحابه و تلك البلاطات و المراتب حيث تقعد حكامه. و أهل الخدمة و العمالة أمامه. فخرج إلينا ذلك المستخلف يتهدى بين خديمين يحفان به و يرفعان أذياله، فأبصرنا شيخا طويل السبلة أبيضها ذا أبهة، فسألنا عن مقصدنا و عن بلدنا بكلام عربى لين، فأعلمناه، فأظهر الإشفاق علينا و أمر بانصرافنا بعد أن أحفى فى السلام و الدعاء، فعجبنا من شأنه.

و كان أول سؤاله لنا عن خبر القسطنطينية العظمى و ما عندنا منه، فلم يكن عندنا ما نعلمه به، و قد نقيد خبرها بعد هذا. و كان من أغرب ما شاهدناه من الأمور الفتانة أن أحد من كان قاعدا عند باب القصر من النصارى قال لنا عند انصرافنا عن القصر المذكور:

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٦١

تحفظوا بما عندكم يا حجاج من العمال الممكسين لئلا يقع عليكم. و ظن أن عندنا تجارة تقتضى التمكيس. فاستجاب له أحد النصارى، فقال: ما أعجب أمرك، يدخلون حرم الملك، و يخافون من شىء، ما كنت أود لهم إلا آفا من الرباعيات، انهضوا بسلام لا خوف عليكم. فقضينا عجا مما شاهدناه و سمعناه. و خرجنا إلى أحد الفنادق فزلنا فيه، و ذلك يوم السبت السادس عشر للشهر المبارك، و الثانى و العشرين لدجنبر، و فى خروجنا من القصر المذكور سلطنا بلاطا متصلا مشينا فيه مسافة طويلة، و هو مسقف، حتى انتهينا إلى كنيسة عظيمة البناء. فاعلمنا أن ذلك البلاط ممشى الملك إلى هذه الكنيسة.

ذكر المدينة التى هى حضرة صقلية أعادها الله

هى بهذه الجزائر أم الحضارة، و الجامعة بين الحسين غضارة و نصارة، فما شئت بها من جمال مخبر و منظر، و مراد عيش يانع أخضر، عتيقة أنيقة، مشرقة موقنة، تتطلع بمرأى فتان، و تتخيل بين ساحات و بسائط كلها بستان، فسيحة السكك و الشوارع، تروق الأبصار بحسن منظرها البار، عجيبة الشان، قرطبية البنيان، مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذان، يشقها نهر معين، و يطرد فى جنباتها أربع عيون، قد زخرت فيها لملكها دنياه، فاتخذها حضرة ملكه الإفرنجى أباده الله. تنتظم بلبتها قصوره انتظام العقود فى نحور الكواعب، و يتقلب من بساتينها و ميادينها بين نزهة و ملاعب. فكم له فيها، لا عمرت به، من مقاصير و مصانع، و مناظر و مطالع. و كم

له بجهايتها من ديارات قد زخرف بنيانها، و رفة بالأقطاعات الواسعة رهبانها، و كنائس قد صيغ من الذهب و الفضة صلبانها، و عسى الله عن قريب أن يصلح لهذه الجزيرة الزمان، فيعيد لها دار إيمان، و ينقلها من الخوف للأمان، بعزته إنه على ما يشاء قدير. و للمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان، يعمرن أكثر مساجدهم و يقيمون الصلاة بأذان مسموع، لهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى، و الأسواق معمورة بهم و هم التجار فيها. و لا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم، و يصلون تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٦٢

الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسى. و لهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم، و جامع يجتمعون للصلاة فيه و يحتفلون فى وقيدته فى هذا الشهر المبارك. و أما المساجد فكثيرة لا تحصى، و أكثرها محاضر لمعلمى القرآن. و بالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار، و لا أمن لهم فى أموالهم و لا فى حريمهم و لا أبنائهم، تلافاهم الله بصنع جميل بمنه. و من جملة شبه هذه المدينة بقرطبة، و الشىء قد تشبه بالشىء من إحدى جهاته، أن لها مدينة قديمة تعرف بالقصر القديم هى فى وسط المدينة الحديثة، و على هذا المثال موضوع قرطبة، حرسها الله. و بهذا القصر القديم ديار كأنها القصور المشيدة، لها مناظر فى الجو مطلة تحار الأبصار فى حسنها.

عيد الميلاد فى كنيسة الأنطاكي

و من أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكفران كنيسة تعرف بكنيسة الأنطاكي، أبصرناها يوم الميلاد، و هو يوم عيد لهم عظيم، و قد احتفلوا لها رجالا و نساء، فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه، و يقع القطع بأنها أعجب مصانع الدنيا المزخرفة: جدرها الداخلة ذهب كلها، و فيها من ألواح الرخام الملون ما لم ير مثله قط، قد رصعت كلها بفصوص الذهب، و كللت بأشجار الفصوص الخضراء، و نظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج، فتخطفت الأبصار بساطع شعاعها، و تحدث فى النفوس فتنة نعوذ بالله منها. و أعلمنا أن بانيتها الذى تنسب إليه أنفق فيها قناطير من الذهب، و كان وزيرا لجد هذا الملك المشرك. و لهذه الكنيسة صومعة قد قامت على أعمدة سوار من الرخام ملونه، و علت قبة على أخرى سوار كلها فتعرف بصومعة السوارى، و هى من أعجب ما يبصر من البنيان، شرفها الله عن قريب بالأذان، بلطفه و كريم صنعه.

وزى النصرانيات فى هذه المدينة زى نساء المسلمين: فصيححات الألسن، ملتحات، منتقيات، خرجن فى هذا العيد المذكور و قد لبسن ثياب الحرير المذهب،

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٦٣

و التحفن للحف الرائقه، و انتقبن بالنقب الملونه، و انتعلن الأحفاف المذهبه، و برزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينته نساء المسلمين من التحلى و التخصب و التعطر. فتذكرنا على جهة الدعابة الأدبية قول الشاعر:

إن من يدخل الكنيسة يوم يلقى فيها جاذرا و ظباء

و نعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو، و يؤدى أباطيل اللهو، و نعوذ به من تقييد، يؤدى إلى تفنيد، إنه سبحانه أهل التقوى و أهل المغفرة. فكان مقامنا بهذه المدينة سبعة أيام، و نزلنا بها فى أحد فنادقها التى يسكنها المسلمون، و خرجنا منها صبيحة يوم الجمعة الثانى و العشرين لهذا الشهر المبارك، و الثامن و العشرين لشهر دجنبر، إلى مدينة أطرابنش، بسبب مركبين بها: أحدهما يتوجه إلى الأندلس، و الثانى إلى سبتة.

و كنا أقلعنا إلى الإسكندرية فيه، و فيهما حجاج و تجار من المسلمين، فسلطنا على قرى متصلة و ضياع متجاورة، و أبصرنا محارث و مزارع لم نر مثل تربتها طيبا و كرما و اتساعا، فشبهاها بقنباينة قرطبة، أو هذه أطيح و أمتن.

و بتنا فى الطريق ليلة واحدة فى بلدة تعرف بعلمقة، و هى كبيرة متسعة، فيها السوق و المساجد، و سكانها و سكان هذه الضياع التى

في هذه الطريق كلها مسلمون، و قمنا منها سحر يوم السبت الثالث و العشرين لهذا الشهر المبارك، و التاسع و العشرين لدجنبر، فاجتزنا بمقربة منها على حصن يعرف بحصن الحمه، و هو بلد كبير فيه حمامات كثيرة، و قد فجرها الله ينابيع في الأرض و أسالها عناصر لا يكاد البدن يحتملها لإفراط حرّها، فأجزنا منها واحدة على الطريق، فنزلنا إليها عن الدواب و أرحنا الأبدان بالاستحمام فيها. و وصلنا إلى أطرابنش عصر ذلك اليوم، فنزلنا فيها في دار اكرتيناها.

ذكر مدينة أطرابنش من جزيرة صقلية أعادها الله

هي مدينة صغيرة الساحة، غير كبيرة المساحة، مسورة بيضاء كالحمامة، مرساها من تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٦٤

أحسن المراسى و أوفقها للمراكب. و لذلك يقصد الروم كثيرا إليها و لا سيما المقلعون إلى بر العدو، فإن بينها و بين تونس مسيرة يوم و ليلة، فالسفر منها إليها لا يتعطل شتاء و لا صيفا إلا ريثما تهب الريح الموافقة، فمجرها في ذلك مجرى المجاز القريب. و بهذه المدينة السوق و الحمام و جميع ما يحتاج إليه من مرافق المدن، لكنها في لهوات البحر لإحاطته بها من ثلاث جهات، و اتصال البر بها من جهة واحدة ضيقة، و البحر فاغر فاه لها من سائر الجهات، فأهلها يرون أنه لا بد له من الاستيلاء عليها و إن تراخى مدى أيامها، و لا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

و هي مرفقة موافقة لرخاء السعر بها لأنها على محرث عظيم، و سكانها المسلمون و النصراري، و لكلا الفريقين فيها المساجد و الكنائس. و بركنها من جهة الشرق، مائلا إلى الشمال على مقربة منها، جبل عظيم مفرط السمو متسع، في أعلاه قنة تنقطع عنه، و فيها معقل للروم. و بينه و بين الجبل قنطرة، و يتصل به في الجبل للروم بلد كبير، و يقال إن حريمه من أحسن حريم هذه الجزيرة، جعلها الله سببا للمسلمين.

و بهذا الجبل الكروم و المزارع. و أعلمنا أن به نحو أربعمائه عين متفجرة، و هو يعرف بجبل حامد. و الصعود إليه هين من إحدى جهاته، و هم يرون أن منه يكون فتح هذه الجزيرة، إن شاء الله. و لا سبيل أن يتركوا مسلما يصعد إليه، و لذلك أعدوا فيه ذلك المعقل الحصين، فلو أحسوا بحادثه حصلوا حريمهم فيه و قطعوا القنطرة.

و اعترض بينهم و بين الذي في أعلاه متصل به خندق كبير. و شأن هذا البلد العجيب، فمن العجب أن يكون فيه من العيون المتفجرة ما تقدم ذكره، و أطرابنش في هذا البسيط و لا ماء لها إلا من بئر على البعد منها، و في ديارها آبار قصيرة الأرشية، ماؤها كلها شريب لا يساغ.

و ألفينا المركبين الذين يرومان الإقلاع إلى المغرب بها، و نحن، إن شاء الله، تؤمل ركوب أحدهما، و هو القاصد إلى بر الأندلس، و الله بمعهود صنعه الجميل كفيل بمنه.

و في غربي هذه البلدة، أطرابنش المذكورة، ثلاث جزائر في البحر على نحو فرسخين منها، و هي صغار متجاورة: إحداها تعرف بمليطمة، و الأخرى بياسة، و الثالثة تعرف

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٦٥

بالراهب، نسبت إلى راهب يسكنها في بناء أعلاها كأنه الحصن، و هي مكنم للعدو. و الجزيرتان لا عمارة فيهما، و لا يعمر الثالثة سوى الراهب المذكور.

شهر شوال عرفنا الله يمنه و برسته

استهل هلاله ليلة السبت الخامس من ينير بشهادة ثبتت عند حاكم أطرابنش المذكورة بأنه أبصر هلال شهر رمضان ليلة الخميس، و

يوم الخميس كان صيام أهل مدينة صقلية المتقدم ذكرها، فعيد الناس على الكمال بحساب يوم الخميس المذكور. و كان مصلانا في هذا العيد المبارك بأحد مساجد أطرابنش المذكورة، مع قوم من أهلها امتنعوا من الخروج إلى المصلى لعذر كان لهم. فصلينا صلاة الغرباء، جبر الله كل غريب إلى وطنه، و خرج أهل البلد إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم، و انصرفوا بالطبول و البوقات، فعجبنا من ذلك و من إغضاء النصارى لهم عليه. و نحن قد اتفق كراؤنا في المركب المتوجه، إن شاء الله إلى بر الأندلس و نظرنا في الزاد، و الله المتكفل بالتيسير و التسهيل.

و وصل أمر من ملك صقلية بعقله المراكب بجميع السواحل بجزيرته، بسبب الأسطول الذي يعمره و يعده، فليس لمركب سبيل للسفر إلى أن يسافر الأسطول المذكور- خيب الله سعيه و لا تتم قصده- فبادر الروم الجنوبيون، أصحاب المراكب المذكورين، إلى الصعود فيهما تحصنا من الوالى. ثم امتد سبب الرشوة بينهم و بينه فأقاموا بمركبهم ينتظرون هواء يقلعون به. و فى هذا التاريخ المذكور وصلتنا أخبار موحشة من الغرب، منها تغلب صاحب ميورقة على بجايه، و الله لا يحقق ذلك و يجعل العاقبة و الهدنة للمسلمين بمنه و كرمه. و الناس فى هذه المدينة يرجمون الظنون فى مقصد هذا الأسطول الذى يحاول هذا الطاغية تعميمه، و عدد أجفانه، فيما يقال، ثلاثمائة: بين طرائد و مراكب، و يقال: أكثر من ذلك. و يستصحب معه نحو مائة سفينة تحمل الطعام، و الله يقطع به و يجعل الدائرة عليه. فمنهم من يزعم أن مقصده الإسكندرية، حرسها الله و عصمها، و منهم

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٦٦

من يقول: إن مقصده ميورقة، حرسها الله، و منهم من يزعم أن مقصده إفريقية، حماها الله، ناكثا لعهدده فى السلم بسبب الأبناء الموحشة الطارئة من جهة المغرب.

و هذا أبعد الظنون من الإمكان لأنه مظهر للوفاء بالعهد، و الله يعين عليه و لا يعينه.

و منهم من يرى أن احتفاله إنما هو لقصده القسطنطينية العظمى بسبب ما ورد من قبلها من النبأ العظيم الشأن، و المهدي للنفوس بشائر تتضمن عجائب من الحدثان، و تشهد للحديث المأثور عن المصطفى- صلى الله عليه و سلم- بصدق البرهان. و ذلك بأنه ذكر أن صاحبها توفى و ترك الملك بعده لزوجته و لها ابن صغير، فقام ابن عم له فى الملك و قتل الزوج المذكورة و ثقف الابن المذكور، ثم ابنا للثائر المذكور عطفته الرحم على الابن المعتقل فأطلق سبيله، و كان أبوه قد أمره بقتله، فرمت به الأقدار إلى هذه الجزيرة بعد خطوب جرت عليه، فوردها على حالة ابتذال، و مهنة استعمال، خادما لأحد الرهبان، مسدلا على شارته الملوكية ستر من الامتهان، ففشا الأمر، و ذاع السر، و لم يغن عنه ذلك الستر. فاستحضر عن أمر الملك الصقلى غليام، المذكور قبل، و استنطق و استفهم، فزعم أنه عبد لذلك الراهب و خديمه، ثم إن طائفة من الروم الجنوبيين المسافرين إلى القسطنطينية أثبتوا صفته و حققوا أنه هو مع مخايل و دلائل ملوكية لاحت منه: منها، فيما ذكر لنا، أن الملك غليام خرج فى يوم زينه له، و قد اصطف الناس للسلام عليه، و أحضروا الفتى المذكور فى جملة الخاصة، فصقع الجميع خدمة للملك و تعظيما لطوعه عليهم إلا ذلك الفتى فإنه لم يزد على الإيماء فى السلام، فعلم أن الهمة الملوكية منعه من المدخل مدخل السوق، فاعتنى به الملك غليام و أكرم مثواه، و أذكى عيون الاحتراس عليه خوفا من اغتيال يلحقه بتدسيس من ابن عمه الثائر عليه.

و كانت له أخت موصوفة بالجمال علق بها ابن العم الثائر على الملك المذكور، فلم يمكنه تزويجها بسبب أن الروم لا تنكح فى الأرقاب، فحمله الحب المصمى و الهوى المصم المعمى، و السعادة التى تفضى بصاحبها إلى العاقبة الحسنى و ترمى على أخذها و التوجه بها إلى الأمير مسعود صاحب الدروب و قونية و بلاد العجم المجاورة للقسطنطينية. و قد تقدم ذكر غنائها فى الإسلام فيما مضى من هذا التقييد، و حسبك أن

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٦٧

صاحب القسطنطينية لم يزل يؤدى الجزية إليه و لصالحه على ما يجاوره من البلاد، فأسلم مع ابنة عمه على يده، و سيق له صليب ذهب

قد أحى عليه في النار فوضعه تحت قدمه، و هي عندهم أعظم علامات الترك لدين النصرانية و الوفاء بدمه دين الإسلام، و تزوج ابنة العم المذكورة و بلغ هواه، و أخذ جيوش المسلمين معه القسطنطينية فدخلها بهم و قتل من أهلها نحو الخمسين الفا من الروم. و أعانه الأغريقيون على فعله، و هم فرقة من أهل الكتاب و كلامهم بالعربية، و بينهم و بين سائر الفرق من جنسهم عداوة كامنة. و هم لا يرون أكل لحم الخنزير، فشفوا نفوسهم من أعاديهم، و قرع الله نبع الكفر بعضه ببعض، و استولى المسلمون على القسطنطينية، و نقلت أموالها كلها، و هي ما لا يأخذه الإحصاء، إلى الأمير مسعود، و جعل من المسلمين فيها ما ينيف على الأربعين ألف فارس، و اتصلت بلادهم بها. و هذا الفتح، إذا صح، من أكبر شروط الساعة، و الله أعلم بغيبه.

ألفينا هذا الحديث بهذه الجزيرة مستفيضا على ألسنة المسلمين و النصراري محققين له لا شك عندهم فيه، أنبأت به مراكب الروم التي وصلت من القسطنطينية. و كان أول سؤال مستخلف الملك بالمدينة لنا، يوم أحضرنا لديه عند دخولنا المدينة، عما عندنا من خبر القسطنطينية، فلم يكن عندنا علم و لا تعرفنا معنى السؤال عنها إلا بعد ذلك.

و تحقوه أيضا من جهة ملكها، هذا الصبي، و ما كان من إتباع الثائر عليه إياه عيونا يروم اغتياله. فهو اليوم بسبب ذلك عند صاحب صقلية محترس محافظ عليه، لا يكاد يصل لحظ العيون إليه.

و أخبرنا أنه رطيب غصن الصبا، محتدم حمرة الشباب، صقيل رونق الملك، عليه ناظر في علم اللسان العربي و غيره، بارع في الأدب الملوكي، ذو دهاء على فتوة سنه و غمريه شبيته. فالملك الصقلي، على ما يذكر، يروم توجيه الأسطول المذكور إلى القسطنطينية أنفة لهذا الصبي المذكور، و ما جرى عليه. و كيفما توجه الأمر فيه من هذه المقاصد فالله - عز و جل - ينكصه خاسرا على عقبه، و يعرفه شؤم مذهبه، و يجعل قواصف الرياح خاسفة به، إنه على ما يشاء قدير. و هذا الخبر القسطنطيني، حققه الله، من أعظم عجائب الدنيا و كوائنها المرتقبة، و لله القدرة البالغة في أحكامه و أقداره.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٦٨

شهر ذى القعدة عرفنا الله يمنه و بركنه

استهل هلاله ليلة الاثنين الرابع من شهر فبراير و نحن بمدينة أطرابنش، المتقدم ذكرها، منتظرين انسلاخ فصل الشتاء و إقلاع المركب الجنوى الذى أملنا ركوبه إلى الأندلس، إن شاء الله عز و جل، و الله سبحانه ييمن مقصدنا و ييسر مرامنا بمنه و كرمه.

و فى مدة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها، دمرهم الله، و ما هم عليه معهم من الذل و المسكنة، و المقام تحت عهدة الذمة، و غلظة الملك، إلى طوارئ دواعى الفتنة فى الدين على من كتب الله عليه الشقاء من أبنائهم و نسائهم. و ربما تسبب إلى بعض أشياخهم أسباب نكالية تدعوه إلى فراق دينه، فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم التى هى حضرة ملكهم الطاغية، و يعرف بابن زرعة، ضغطته العمال بالمطالبة، حتى أظهر فراق دين الإسلام و الانغماس فى دين النصرانية، و مهر فى حفظ الإنجيل و مطالعة سير الروم و حفظ قوانين شريعتهم، فعاد فى جملة القسيسين الذين يستفتون فى الأحكام النصرانية. و ربما طرأ حكم إسلامى فيستفتى أيضا فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية، و يقع الوقوف عند فتياه فى كلا الحكيمين. و كان له مسجد بإزاء داره أعاده كنيسة، نعوذ بالله من عواقب الشقاوة و خواتم الضلالة. و مع ذلك، فأعلمنا أنه يكتنم إيمانه. فعله داخل تحت الاستثناء، فى قوله تعالى: **إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**

و وصل هذه الأيام إلى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين و سيدهم القائد أبو القاسم بن حمود، المعروف بابن الحجر. و هذا الرجل من أهل بيت بهذه الجزيرة توارثوا السيادة كابرا عن كابر. و قرر لدينا مع ذلك أنه من أهل العمل الصالح، مرید للخير، محب فى أهله، كثير الصنائع الأخروية من افتكاك الأسارى

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٦٩

و بث الصدقات في الغرباء و المنقطعين من الحجاج، إلى مآثر جمعة و مناقب كريمه، فارتجت هذه المدينة لوصوله. و كان في هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية أزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه، افتروا عليه فيها أحاديث مزورة نسبه فيها إلى مخاطبة الموحدين أيدهم الله، فكادت تقضى عليه لو لا حارس المدة. و توالى عليه مصادرات أغرمته نيفا على الثلاثين ألف دينار مؤمينة، و لم يزل يتخلى عن جميع دياره و أملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقى دون مال. فاتفق في هذه الأيام رضى الطاغية عنه و أمره بالنفوذ لمهم أشغاله السلطانية، فنفاها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه و ماله.

و صدرت عنه عند وصوله هذه البلدة رغبة في الاجتماع بنا، فاجتمعنا به، فأظهر لنا من باطن حاله و بواطن أحوال هذا الجزيرة مع أعدائهم ما يبكى العيون دما، و يذيب القلوب ألما. فمن ذلك أنه قال: كنت أود لو أباع أنا و أهل بيتي، ففعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه، و يؤدي بنا إلى الحصول في بلاد المسلمين. فتأمل حالا يؤدي بهذا الرجل، مع جلاله قدره و عظم منصبه، أن يتمنى مثل هذا التمنى مع كونه مثقلا عيالا و بنين و بنات! فسألنا له الله عزّ و جل حسن التخلص مما هو فيه و لسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة. و واجب على كل مسلم الدعاء لهم في كل موقف يقفه بين يدي الله، عزّ و جل. و فارقناه باكيا مبكيا، و استمال نفوسنا بشرف منزعه، و خصوصية شمائله، و رزانة حصاته، و شمول مبرته و تكرمه، و حسن خلقه و خليقته. و كنا قد أبصرنا له و لإخوته و لأهل بيته بالمدينة ديارا كأنها القصور المشيدة الأنيقة، و شأنهم بالجملة كبير لا سيما هذا الرجل منهم. و كانت له أيام مقامه هنا أفعال جميلة مع فقراء الحجاج و صعاليكهم، أصلحت أحوالهم و يسرت لهم الكراء و الزاد، و الله ينفعه بها و يجازيه الجزاء الأوفى عليها بمنه.

و من أعظم ما منى به أهل هذه الجزيرة أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجته أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه أنفة تؤديه إلى التطارح في الكنيسة فيتنصر و يتعمد، فلا يجد الأب للابن سيلا و لا الأم لل بنت سيلا. فتخيل حال من يمنى بمثل هذا في أهله و ولده و يقطع عمره متوقعا لوقوع هذه الفتنة فيهم.

فهم الدهر كله في مداراة الأهل و الولد خوف هذه الحال. و أهل النظر في العواقب

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٧٠

منهم يخافون أن يتفق على جميعهم ما اتفق على أهل جزيرة أفریطش من المسلمين، في المدة السالفة، فإنه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى و الاستدراج الشىء بعد الشىء حالا بعد حال حتى اضطروا إلى التنصر عن آخرهم، و فر منهم من قضى الله بنجاته، و حققت كلمة العذاب على الكافرين، و الله غالب على أمره، لا إله سواه.

و من عظم هذا الرجل الحمودى المذكور في نفوس النصارى، أبادهم الله، أنهم يزعمون أنه لو تنصر لما بقى في الجزيرة مسلم إلا و فعل فعله اتباعا و اقتداء به، تكفل الله بعصمته جميعهم و نجاهم مما هم فيه، بفضل و كرمه. و من أعجب ما شاهدناه من أحوالهم التي تقطع النفوس إشفاقا و تذيب القلوب رأفة و حنانا أن أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه إلى أحد أصحابنا الحجاج راغبا في أن يقبل منه بنتا بكرا صغيرة السن قد راهقت الإدراك، فإن رضىها تزوجها و إن لم يرضها زوجها ممن رضى لها من أهل بلده، و يخرجها مع نفسه راضية بفراق أبيها و إخوتها طمعا في التخلص من هذه الفتنة و رغبة في الحصول في بلاد المسلمين. فطاب الأب و الإخوة نفسا لذلك، لعلهم يجدون السبيل للتخلص إلى بلاد المسلمين بأنفسهم، إذا زالت هذه العقلة المقيدة عنهم. فتأجر هذا الرجل المرغوب إليه بقبول ذلك و أعناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية إلى خير الدنيا و الآخرة. و طال عجبتنا من حال تؤدى بإنسان إلى السماح بمثل هذه الوديعه المعلقة من القلب و إسلامها إلى يد من يرغبها و احتمال الصبر عنها و مكابدة الشوق إليها و الوحشه دونها. كما أنا استغرنا حال الصبية، صانها الله، و رضاها بفراق من لها، رغبة في الإسلام و استمساكا بعروته الوثقى. و الله، عزّ و جل، يعصمها و يكفلها و يؤنسها بنظم شملها و يجعل الصنع لها بمنه.

و استشارها الأب فيما هم به من ذلك، فقالت له: إن أمسكتنى فأنت مسؤول عنى.

و كانت هذه الصبية دون أم، و لها أخوان و أخت صغيرة أشقاء لها.

غمّ هلاله علينا لتوالى الأنواء، فأكملنا أيام شهر ذى القعدة بحسابه من ليلة

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٧١

الأربعاء السادس لشهر مارس ونحن بهذه المدينة المذكورة طامعين في قرب السفر مستبشرين بطيب الهواء، والله يسر مراننا و يتكفل بسلامتنا بعزّته. و اتفق أن أبصرنا الهلال ليلة الأربعاء كبريا، فعلم أنه من ليلة الثلاثاء، فانتقل حساب الشهر إليها. و فى ظهر يوم الأربعاء التاسع من الشهر المذكور، و الثالث عشر من مارس، و هو يوم عرفه، عرفنا الله برسته و بركة الموقف الكريم فيه بعرفات، كان صعودنا إلى المراكب، يمنه الله و رزقنا السلامة فيه، مبيتين للسفر، قرب الله علينا مسافته. فأصبحنا على ظهر المركب صبيحة يوم عيد الأضحى، نفعنا الله بمقاساة الوحشة فيه، و نحن نيف على الخمسين رجلا من المسلمين، عصم الجميع و نظم شملهم بأوطانهم بمنه و كرمه، إنه سبحانه كفيل بذلك. و رمنا بالإقلاع فلم توافق الرياح، فلم نزل نتردد من المركب إلى البر، و نبيت للسفر كل ليلة اثني عشر يوما، إلى أن أذن الله بالإقلاع صبيحة يوم الاثنين الحادى و العشرين لذى الحجة المذكور، و الخامس و العشرين لمارس، فأقلعنا على بركة الله تعالى فى ثلاثة مراكب من الروم قد توافقت على الاصطحاب فى الجرى و أن يمسك المتقدم منها على المتأخر، فوصلنا إلى جزيرة الراهب، و قد تقدم ذكرها فى هذا التقييد، و بينها و بين أطرابنش نحو ثمانية عشر ميلا، فتغيرت الرياح علينا، فملنا إلى مرساها.

فكان من الاتفاق العجيب أن ألقينا فيها مركب مرون الجنوى المقلع من الإسكندرية بنحو مئتى رجل و نيف من أصحابنا الحجاج المغاربة الذين كنا فارقناهم بمكة، قدسها الله، فى ذى الحجة من سنة تسع، و لم نسمع لهم خيرا منذ فارقناهم و لا سمعوا لنا. و كان فيهم جماعة من أصحابنا من أهل أغرناطة، منهم الفقيه أبو جعفر بن سعد صاحبنا و نزلنا بمكة مدة مقامنا فيها. فلحين ما علموا بنا تطلعوا إلينا من المركب متعلقين بحافات و جوانبه، رافعين أصواتهم ببشرى السلامة و اللقاء، مسرورين بالاجتماع، باكين من الفرح، دهشين ذاهلين لوقوع المسرة من نفوسهم، و نحن لهم على مثل تلك الحال. فكان يوما، مشهودا اتخذناه عقب العيد عيدا جديدا. و نزل الأصحاب بعضهم إلى بعض، و باتوا و بتنا بأسر ليلة و أنعمها، و جعلنا هذا الاجتماع عنوانا كريما لما نؤمله من انتظام الشمل بالأوطان، إن شاء الله عزّ و جل.

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٧٢

و أهب الله علينا ريحا طيبة فى سحر تلك الليلة، و هى ليلة الثلاثاء الثانى و العشرين من الشهر المذكور، فأقلعنا بها و نحن فى أربعة مراكب كلها تؤمل جزيرة الأندلس، بحول الله تعالى، و سرنا ذلك اليوم كله بريح تزجى المراكب تزجيه حثيثة، و نحن من الشوق إلى الأندلس بحال تكاد لها النفوس تقوم مقام الرياح فى حث الرياح و انزعاجها، و الله يمن بالتسهيل و التعجيل. ثم انقلبت الرياح غربية، بعد مسير يوم و ليلتين، فضربت فى وجوهنا فأنكصتنا على الأعقاب فرجعنا عودا على بدء إلى مرسى جزيرة الراهب، فوصلنا إليه ليلة الخميس الرابع و العشرين من الشهر المذكور.

ثم أقلعنا منه عشى يوم الجمعة بعده منفردين دون المراكب المذكورة. فأزعجتنا ريح شديدة خرق لها المركب فى الجرى، فأصبحنا يوم الأحد السابع و العشرين من الشهر و نحن على طرف جزيرة سردانية، و قد قطعناها جريا، و طولها أزيد من مئتى ميل، فاستبشرنا و سررنا. و قدر للمركب فى يوم و ليلتين قطع نيف على خمسمائة ميل، فكان أمرا مستغربا. ثم إن الريح الموافقة ركدت عنا و هبت ريح أسقطتنا ليلة الاثنين الثامن و العشرين منه، و هو أول أبريل، إلى جهة بر أفريقية، فأرسلنا يوم الاثنين المذكور بجزيرة تعرف بخالطة. و هى جزيرة غير معمورة، و يقال: إنها كانت معمورة، فى القديم، و هى مقصد العدو، و بينها و بين البر المذكور نحو ثلاثين ميلا، و هو منا رأى العين. فأقمنا بها بعد أهوال لقيناها فى دخول مرساها، عصم الله منها، و توالى الأنواء علينا فيها و نحن نتظر فرجا من الله

تعالى. و كان مقامنا فيها أربعة أيام، آخرها يوم الخميس مستهل محرم.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار؛ ص ٢٧٢

شهر محرم سنة إحدى وثمانين عرفنا الله برکتها بمنه

غمّ هلاله علينا فحسبناه على الكمال من ليلة الخميس الرابع لشهر أبريل، عرفنا الله بركة هذه السنة و يمنها و رزقنا خيرها و وقانا شرها و من علينا بنظم الشمل فيها، إنه سميع مجيب.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٧٣

و في ليلة الجمعة الثاني منه أهب الله علينا ريحا شرقية ألقنا بها، و هي لينه رخاء، إلى أن استشرت فعاتت ريحا شديدة جرى بها المركب أقوى جرى و أعدله. و ما زلنا منذ ركبنا البحر نتنسم هذا الأفق الشرقي شوقا إلى ريحه فلا يهب منه نسيم حتى خلناه لعدمه عنقاء مغرب، إلى أن تداركنا الله بلطفه و جميل صنعه فأجراه لنا الآن في شهر نيسان (أبريل)، عرفنا الله السلامة بمنه و كرمه.

و صحبتنا هذه الرياح الشرقية نحو يومين سرنا فيهما سيرا حثيثا، و تركنا جزيرة سردانية عن يميننا. ثم تلاعبت بنا الرياح المختلفة فأقمنا بها نضرب البحر طولا و عرضا و لا يتراءى لنا بر حتى ساءت ظنون و توهمنا إسقاط الرياح لنا إلى جهة بر بر شلونته، دمرها الله، إلى أن أذن الله بالفرج، فأبصرنا بر جزيرة يابسة ليلة السبت العاشر من الشهر المذكور، و نحن لا نكاد نتبينه، لبعده، خيالا خفيا. فلما كان يوم السبت المذكور بان لنا، فدخلنا مرسى الجزيرة المذكورة مع الليل، بعد مكيدة اختلاف الرياح في دخوله. فأرسينا و المدينة منا على مقدار أربعة أميال، و كان إرساؤنا بازاا فرمنتيرة. و هي منقطعة عن جزيرة يابسة، و بينهما مقدار أربعة أميال أو خمسة، و فيها قرى كثيرة معمورة. فأقمنا بمرساها و نحن بمقربة من الجبلين المنقطعين المتناظرين المعروفين بالشيخ و العجوز. و في تلك الليلة مع المغيب أبصرنا جبال بر الأندلس، و أقربها منا جبل دانية المعروف بقاعون. فحدقت الأبصار لهذا البر سرورا بمرآه و استبشرت الأنفوس بالدنو منه. و أصبحنا يوم الأحد الحادي عشر من الشهر بالمرسى المذكور و الرياح غربية و نحن نتنظر تميم الصنع الجميل من الله، عزّ و جلّ، بإرسال الرياح الموافقة، نشرا بين يدي رحمته، إن شاء الله.

و في ضحوه يوم الثلاثاء الثالث عشر منه ألقنا على اليمن و البركة بريح شرقية لينه المهيب، لها نفس خافت، داعين لله عزّ و جلّ في إحياء ذمائها، و تقوية إجرائها، و جبال دانية أمامنا رأى العين، و الله يتمم فضله علينا، و يكمل صنعه بعزّته لنا. و تبادت و انتشرت بفضل الله تعالى، فنزلنا بقرطاجنة عشى يوم الخميس الخامس عشر منه، شاكرين لله على ما من به من السلامة و العافية، و الحمد لله رب العالمين، و صلواته

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٧٤

على محمد خاتم النبيين و إمام المرسلين. ثم ألقنا منها إثر صلاة الجمعة السادس عشر منه فبتنا في فحوص قرطاجنة بالبرج المعروف ببرج الثلاثة صهاريج، ثم منه يوم السبت إلى مرسيه، و منها في اليوم بعينه لبراله، ثم منها يوم الأحد إلى لورقة، ثم منها يوم الاثنين إلى المنصورة، ثم منها يوم الثلاثاء إلى قنالش بسطة، ثم منها يوم الأربعاء إلى وادي آش، ثم منها يوم الخميس الثاني و العشرين لمحرم، و الخامس و العشرين لأبريل، إلى المنزل بغرناطة:

فألقت عصاها و استقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

و الحمد لله على الصنع الجميل الذي أولاه، و التيسير و التسهيل الذي والاه، و صلواته على سيد المرسلين الأولين منهم و الآخرين، محمد رسوله الكريم و مصطفاه، و على آله و أصحابه الذين اهدوا بهداه، و سلم و شرف و كرم. فكانت مدة مقامنا، من لدن خروجنا من غرناطة إلى وقت إيابنا هذا، عامين كاملين و ثلاثة أشهر و نصف، و الحمد لله رب العالمين.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٧٥

كشاف حضارى

اشاره

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٧٧

آيات قرآنية

(أ)

آل عمران: الآية ٩٦.

إبراهيم: الآية ٣٧.

(ب)

البقرة: الآية ١٥٨.

(ت)

التوبة: الآية ٤٠.

(س)

سبأ: الآية ٣٩.

(ق)

القصص: الآية ٥٧.

أجناس و قبائل و أقوام

(أ)

أتراك ١٤٠، ١٧٨، ٢٢٣

أحابيش ١٥٣، ١٧٨

أعاجم ٩٨، ١١١، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٧، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٥٨-١٥٩، ١٨٠، ٢٢٧

أغزاز (غز) ٤٨، ٥٩

أفخاذ قضاة ٤٨

إفرنج ٥٣، ٥٧، ٢٠٠، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٣٩، ٢٤٣

أكراد ١٨٨، ٢٠٠، ٢٠٢

(ب)

البيجة ٥١

البلغريون ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٥١

(ج)

جنويون ٢٠

(ح)

حبشيون ٥٠

(خ)

خراسانيون ٦٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٤١

خفاجة (قبيلة) ١٦٦، ١٨٠

(د)

الديلم ١٧٨

(ر)

الروم ٢٠، ٢٣، ٣٥، ٤١، ٥٢، ١٤٤، ١٨١، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٦، ٢٠١، ٢٠٥، ٢٢١، ٢٤٤-٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٦٤-٢٦٨، ٢٧١

(س)

السرو ١٠٢، ١١٥، ١٢٦، ١٢٨-١٢٩، ١٣٣، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٢

السودان (البيجة) ٤٥، ٥١-٥٢، ٧٣، ١٤٠

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٧٨

(ش)

الشيبيون ٦١، ٦٩-٧٠، ١٠٧، ١١٤-١١٥، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٨-١٣٠، ١٤١

(ص)

صقالب ١٥٣، ١٥٧

(ع)

العباسيون ١٧٧، ١٧٩
العبيديون ٣٧-٣٨
عراقيون ١٣٩-١٤١، ٦٤

(غ)

غز (أغزاز) ١١٥

(ق)

القبط ٤٣
قريش ٦٤، ٨٢، ٨٦، ١٠٦

(م)

مسلمون ٢١-٢٢، ٢٤، ٥٢، ١٣٢، ١٥٩، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢٢٥-٢٢٦، ٢٣٣-٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٥١-٢٥٦، ٢٥٨-٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٧-٢٧١

مغاربة ٢٦، ٣٥، ٤٦، ٩٤، ١٣١، ٢١٢، ٢١٧، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤١-٢٤٢، ٢٧١

(ن)

نصاري ٢٧، ٤١، ٤٣، ١٨٩، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٣٩-٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٦-٢٤٧، ٢٤٧، ٢٦٠

(هـ)

هنديون ٢٤٦

(و)

يمينيون ٤٦، ٤٨، ١٠٧، ١٢٦، ١٢٨-١٢٩، ١٣٣-١٣٤، ١٣٧، ١٤٢

يهود ٢١، ٢٧، ٢٣٥

أديان و مذاهب

(أ)

إسلام ٢٦، ٤١، ٥٢، ٥٧، ١١٦، ١٢١، ١٣٠، ١٣٧، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٥٥، ٢٦٦-٢٦٨، ٢٧٠

(ب)

حنابلة ١١٢، ١٧٣

(ز)

زيدية ٧٦، ١١٢

(ش)

شافعية ٧٧، ٨٦، ١١٢، ١١٨، ١٥٧

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٧٩

١٧٢، ١٩٦، ٢١٢

(م)

مالكية ٣٧، ٧٧، ٨٠، ٨٦، ١١٠، ١١٢، ١٢٠، ٢١٢، ٢٢٣

(ن)

نصارى ٢٧، ٤١، ٤٣، ١٨٩، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٣٨-٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٦-٢٤٦، ٢٥٢، ٢٥٥، ٢٥٩-٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٠

(ي)

يهود ٢١، ٢٧، ٢٣٥

أعلام

(أ)

إبراهيم (النبي) ٤٠، ٤٠-٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٦، ٧٨، ٨٠، ٨٢-٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ٩١، ١٠٦، ١٢٥، ١٣٦، ١٦٦، ١٩٢، ١٩٧، ٢١٤-٢١٧، ٢٢٦

إبراهيم بن صالح ٦٨

ابن زرع ٢٦٨

ابن عوف ٧٧

ابن المعلی الأسدي ٢٠٥-٢٠٦، ٢١٥

أبو إبراهيم إسحاق ١٥٠

أبو البركات حيان بن عبد العزيز ١٩٢

أبو بكر (الصدیق) ٨٦-٨٦، ٨٩، ١٣١، ١٤٩، ١٥١

أبو بكر بن أيوب ٣٤

أبو جعفر بن سعد ٢٧١

أبو جعفر بن علي (الفنكي القرطبي) ٦٨، ٧٩، ١١٣، ٢٠٩

- أبو جعفر المنصور ٦٨
أبو حامد الغزالي ٩١، ٢٠٨
أبو الحسن علي بن سردال الجباني (الأسود) ٢٢٣
أبو الدار ياقوت (مولى العطافي) ٢٤٢
أبو الربيع سليمان (بن إبراهيم بن مالك) ٢١٧
أبو زيد (من سروج) ١٩٥
أبو طالب ١٣١
أبو العباس أحمد (الناصر) ٣٤، ٦٥، ٧٢، ١٧٨
أبو عبد الله محمد ٦٨
أبو عبيدة بن الجراح ٢٠٥
أبو الفضل جعفر (المقتدر) ١٧٨
أبو القاسم بن حمود (ابن الحجر) ٢٦٨
أبو القاسم بن هبة الله (بن عساكر) ٢١٤
تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٨٠
أبو المظفر يوسف (المستجد) ٣٤، ٦٥، ١٧٨
أبو محمد عبد الله (المستضيء) ٨١، ١٧٨
أبو الوليد الأزرقى ٨٢، ٨٨
أبو اليقظان ١٨٨
أحمد بن حسان ١٩، ٢٤، ١١٠، ١١١،
إدريس (النبي) ١٦٦
آدم ١٢٥، ١٣٦، ٢٣٨
أم حبيبة ٢١٨
أم سلمة ١٣٦
أيوب (النبي) ٢١٥

(ب)

بلال بن حمامة (بن رباح) ١٣٠، ١٥٣

(ج)

جمال الدين (القاضي) ٩٦، ١٣٢، ١٧٣
جمال الدين (الوزير) ١٣٠، ١٣٦
جمانة بنت فليته ١٠٠

(ج)

الحارث بن مضاظ الجرهمي ٨٣
حبيب بن أوس الطائي ١٨٠
الحجاج بن يوسف ٨٤، ١٠٦
الحريري (صاحب المقامات) ١٩٥
حسان (بن ثابت) ٨٣
الحسن ٥٩، ٧٢، ٨٧، ١٢٧، ١٥٢، ١٥٥
الحسن بن هانئ (أبو نواس) ١٨٧
الحسين ٢٩، ٧٢، ٨٧، ١٢٧، ١٥٢، ٢١٠
حمزة ٣٤، ٧٢
حواء ٥٦، ١٩١

(خ)

الخاتون (أم عز الدين) ١٤٥، ١٨٠، ١٨٥
الخاتون (ابنة الدقوس) ١٤٥، ١٨٠
الخاتون (بنت الأمير مسعود) ١٤٤، ١٥٧، ١٨٠، ١٨٥-١٨٦
خالد بن الوليد ٨٤، ٢٠٢، ٢٠٥
خديجة الكبرى ٧٢، ٨٧، ١٢٧

(د)

الداودي (الشريف) ١٠٥

(ر)

رضي الدين القزويني ١٧٢
الرشيد (هارون) ٢٣، ٥٦، ١٣٧، ١٦٤، ١٨١

(ز)

زبيدة بنت جعفر (زوجة الرشيد) ٧٨، ١٣٥، ١٦٣، ١٨١
الزبير بن العوام ٣٢، ١٤٥
تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٨١
زيد بن ثابت ٧٨
زينب (الصغرى) ٢١٩

(س)

سحبان بن وائل ٤٤
سفيان الثوري ٢٠٦
سلمان (الفارسي) ١٥٦، ١٦٩
سلمة (الزاهد) ١٩٢
سلمة (المكشوف) ١٩٢، ١٩٤
سليمان بن داود ٥٣، ٢٤٣

(ش)

شعيب (النبي) ١٧١

(ص)

الصاحب مجد الدين ١٧٨
صلاح الدين ٢٥-٢٦، ٣٢، ٣٨، ٤٠، ٤٥، ٥٠، ٥٧، ٥٨، ٧٨، ١١٤، ١٣٤، ١٨١، ١٨٩، ١٩٤-١٩٥، ٢٠٣، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٣٤-٢٣٥
صدر الدين ١٥٨، ١٥٩، ٢٥٧
صدر الدين الخجندی ١٧٢

(ط)

طغتكين بن أيوب (سيف الإسلام) ١١٣-١١٦، ١٣٣

(ع)

عائشة (أم المؤمنين) ١٠٦، ١٥٣، ٢٠٩
العباس ٣٤، ٦٦، ١٢٣، ١٥٥
عبد الرحمن (بن عمر، أبو شحمة) ١٥٤
عبد الرحمن بن ملجم ١٦٦
عبد الله بن الزبير ٣٢، ٨٤، ١٠٦
عبد الله بن عبد المطلب ١٢٧
عبد الله بن عمر ٨٥، ١٠٤، ١٥٣
عبد المسيح ٢٥٦
عثمان (الخليفة) ٨٦، ١٤٥، ١٥٢، ١٥٤-١٥٦، ٢١٠
عثمان بن طلحة ٦١
عثمان بن علي ١٣٣، ١٣٥

عز الدين (بن أتابك) ١٨٨، ١٨١
علي بن أبي طالب ٢٩، ٣١، ٥٩، ١٢٧، ١٣١، ١٤٩، ١٦٦-١٦٧، ١٧٧، ٢٠٩، ٢١٨، ٢١٩
علي بن موفق (علي القائد) ٥٩
عمار (بن ياسر) ١٥٦
عمر (الفاروق) ٨٦-٨٨، ١٣١، ١٤٩، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ٢٠١
عمر بن حيان (الشيخ) ٩٢
عمر بن عبد العزيز ٨٨، ١٥٠، ١٩١، ٢٠٥، ٢١٠، ٢١٢، ٢٢٧-٢٢٨
عيسى (النبي) ٢٠٤، ٢١٥
تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٨٢

(غ)

غليام (ملك صقلية) ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٦٦

(ف)

فاطمة الزهراء ٧٢، ٨٧، ١٢٧، ١٥١، ١٥٥

(ق)

قائيل ٢١٥
القرمطي ٦٧
قس بن ساعدة ٤٤
قطب الدين ١٤٥

(ج)

لوط (النبي) ٢١٥

(م)

مالك بن أنس ٧٢، ١٠٦، ١٥٤، ١٥٧
مجاهد الدين ١٨٤
محمد بن أبي جعفر (المهدي) ٦٨، ٨١-٨٢
محمد بن إسماعيل ٦١، ١٢٨، ١٤١
محمد بن جبير ١٩
محمد الحسن (المستضيء) ٣٤
مسعود (الأمير) ١٨٩، ٢٦٦-٢٦٧

معاوية ٢٠٧، ٢١٨

معين الدين (بن أتابك) ١٨٨

مكثّر بن عيسى ٥٩، ٧٢-٧٣، ٧٨، ٨١، ٩٥، ١٠٠، ١٠٥، ١٠٨، ١١٣-١١٦، ١٢٢، ١٣٢

موسى (النبي) ٤٠، ٢١٥، ٢٤٣

مونح ٥٠

الميانشى (الفقيه) ٩٦

(ن)

النبي (محمد- ص) ٣١، ٣٤، ٤٢، ٦٠، ٦٣-٦٤، ٧٠، ٧٣، ٧٦، ٧٨، ٨١-٩٠، ٩٥، ٩٧، ٩٩، ١٠٤-١٠٥، ١١٣، ١٢٢-١٢٦، ١٢٨، ١٣١، ١٣٣،

١٣٧، ١٣٩-١٤٠، ١٤٨-١٤٩، ١٦٠، ١٧٢، ١٨٤، ٢٠٦، ٢١٥، ٢١٨-٢٢٠، ٢٣٣، ٢٥٩، ٢٦٩، ٢٧٤

نجم الدين الخوشانى ٣٢

نصر بن قوام ٢٤٢

نصر الله ٢٢٢

نور الدين ١٤٤، ١٤٥، ١٨١، ٢٢٢-٢٢٣، ٢٣٦، ٢٤٢-٢٤٣

نوح (النبي) ١٦٦، ١٨٦

(هـ)

هايبيل ٢١٥

هود (النبي) ٢٠٦

(و)

الوليد (بن عبد الملك) ٢٠٥

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٨٣

(ى)

يحيى بن فتیان الطراز ٢٥٦

يقتين بن موسى ٦٨

يوسف بن أيوب (صلاح الدين) ٢٧، ٢٣، ٣٤، ٧٠، ٢٣٣

يوسف (الصديق) ٤٠

يونس (النبي) ١٨٥

أماكن

(أ)

- أبجر ٥٥
أبي تيج ٤٢
الأجفر ٢٦٢
أخميم ٤٢، ٤٤-٤٦
أدم ٩٤
إستجة ١٩
الأسطيل ٢٣٦
أسكر ٤٠
إسكندرية ٢٠، ٢٣-٢٥، ٢٨، ٣٦-٣٧، ٣٩، ٤١-٤٢، ٤٤، ٥٢، ٥٩، ٧٧، ٢٤٣، ٢٤٧-٢٤٨، ٢٥٠، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٧١
إسكندورنة ٢٣٩
أسوان ٤١
أسيوط ٤٢
إشيلية ٢٠٣، ٢١٢
أشونة ١٩
أصبهان ١٤٥
أطرايش ٢٦٣-٢٦٥، ٢٦٨، ٢٧١
إفريقية ٢٤٨، ٢٦٦، ٢٧٢
أمتان ٤٨-٤٩
آمد ١٤٤، ١٨١، ١٨٩، ١٩٤
الأندلس ٢٠، ٣٢، ٥٧، ٩٢، ١٨٩، ١٩١، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٥٥، ٢٦٣-٢٦٥، ٢٦٨، ٢٧٢-٢٧٣
أنصنا ٤٠

(ب)

- الباب ١٩٦
بانياس ٢٣٥-٢٣٦
بجاية ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٦٥
بدر ١٤٧-١٤٨، ١٧٤
برزة ٢١٤
برشلونة ٢٧٣
برمة ٢٨
برية ٢٥٤
بزاعة ١٩٦
بصا ٢٨

البصرة ١٧٦-١٧٧، ١٧٩، ١٨٣

بطن عرنة ١٣٥-١٣٦

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٨٤

بعلبك ٢٠١

بغداد ٥٢، ١٤١، ١٦٢-١٦٤، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٥-١٧٧، ١٧٩، ١٨٢، ٢٢٤، ٢٢٦

بطن مر ١٤٣-١٤٤

بكة (مكة) ٦٢

بلاد العجم ١٨٠، ٢٢٧، ٢٦٦

بالارمة (باليرمو) ٢٥٥، ٢٥٩

البلينة ٤٦

بيت لاهية ٢١٦

بيت المقدس ١٠٧، ٢٢١

البيضاء ١٩٤

(ت)

تبين ٢٣٦

تكريت ١٨٢

تل عبدة ١٩٤

تل العقاب ١٨٩

تهامة ١٦١

تونس ٢٦٤

(ث)

ثرمة ٢٥٨

(ج)

جبل أبي ثور ٨٨-٨٩، ١٢٥

جبل أبي قبيس ٨١-٨٢، ٨٦، ٩٩، ١٢١، ١٢٧

جبل أحد ١٥٤

جبل الجودي ١٨٦، ٢٢٥

جبل حامد ٢٦٤

جبل حراء ٨٦، ١٢٥-١٢٦

جبل الرحمة ١٣٦، ١٣٩، ١٤٨

- جبل شلير ١٩
جبل الطبول ١٤٨
جبل الطور ٥٣، ٢٤٣
جبل دانية (قاعون) ٢٧٣
جبل قاسيون ٢١٤-٢١٥
جبل قعيقعان ٩٩
جبل لبنان ٢٠٠، ٢٢٥
الجبل المخروق ١٦٢
جبل المقله ٤٠، ٤٢
جبل النار (البركان) ٢٣، ٢٥٢، ٢٥٥
جدال ١٨٦
جده ٣٩، ٤١، ٤٩-٥١، ٥٣-٥٧، ٥٩
الجديده ١٨٢
جزائر الرمانية ٢٤٧، ٢٤٩
جزيرة أقریطش ٢٣، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٧٠
جزيرة خالطة ٢٧٢
تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٨٥
جزيرة الراهب ٢٦٥، ٢٧١، ٢٧٢
جزيرة سردانية (سردينية) ٢٠-٢٢، ٢١٢، ٢٧٣
جزيرة صقلية ٢١-٢٣، ٥٢، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٥٤-٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٧
جزيرة طريف ١٩
جزيرة فرمنتيرة ٢٧٣
جزيرة مليطمة ٢٦٤
جزيرة منورقة ٢٠
جزيرة ميورقة ٢٠، ٢٦٥-٢٦٦
جزيرة يابسة ٢٠، ٢٦٤، ٢٧٣
جيان ١٩، ١٩٩
الجيزة ٣٧، ٣٨

(ج)

- الحبشه ٤٦، ٩٢
الحجاز ٣٩، ٥٣-٥٤، ٥٦، ٩٧، ١٢٥، ١٨٦، ١٨٩، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٥
حصن أركش ١٩

حصن قبرة ١٩

حصن القبذاق ١٩

حلب ١٩٦-١٩٧، ٢٠٢

الحلة ١٦٧-١٧٠

حماه ٢٠٠-٢٠١، ٢٤٢

حمص ٢٠٠-٢٠٣

(خ)

خراسان ١٤٥، ١٨٠

خليص ١٤٥

(د)

دارى ١٨٨، ١٨٩

دارية ٢٣٥

دانية ٢٠

دجوة ٢٩

الدروب ٢٦٦

دشنه ٤٦

دمشق ١٩٥، ٢٠٢-٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٤-٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٤-٢٣٥، ٢٤٢-٢٤٣

دمنهور ٢٨

دمياط ٢٤٨

دندرة ٤٦

دنقاش ٤٧-٤٨

ديصر ١٨٨-١٨٩

ديار بكر ١٨٩، ١٩٣-١٩٥

ديار ربيعه ١٩٣-١٩٥

(ر)

رأس العين ١٨٩-١٩٠

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٨٦

الرقه ١٩٥

راوية ٢٢٠

الرصافه ١٧٩

(ز)

زباله ۱۶۳، ۱۶۴
زریران ۱۶۹-۱۷۰
زقاق القنادیل ۲۹

(س)

سبتة ۲۰، ۵۲
سروج ۱۹۵
سنجار ۱۸۸

(ش)

شاغب ۴۸
الشام ۴۱، ۵۷، ۷۸، ۹۷، ۱۴۵، ۱۸۰-۱۸۱، ۱۸۳، ۱۸۹، ۱۹۳، ۱۹۵، ۲۰۳، ۲۱۰، ۲۱۴، ۲۳۷-۲۳۸، ۲۴۸
شفلودی ۲۵۸

(ص)

صرصر ۱۷۰
صعید مصر ۴۱، ۴۲، ۴۶
الصفراء ۱۱۳، ۱۴۸
صور ۲۳۹-۲۴۲، ۲۴۴

(ط)

الطائف ۸۴، ۹۳-۹۴
طبریا ۲۴۳
طرابلس ۲۷، ۲۴۳
طندته (طنطا) ۲۸

(ع)

عدن ۱۳۳
العذیب ۱۶۵
عرفات ۸۴، ۹۶-۹۷، ۱۲۴، ۱۳۱-۱۳۷، ۱۳۹، ۱۴۴، ۱۵۶، ۲۲۹، ۲۷۱
العراق ۵۲، ۸۴، ۹۷، ۱۴۱، ۱۴۳، ۱۶۰، ۲۰۳

عريش النبي ١١٨
عسقلان ١٤٥
العشراء ٤٩-٥٠
عقبه أيلة ٥٣
العقر ١٨٢
العقبيه ١٢٣، ١٨٣
عكة ٥٢، ١٨٣، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٣٦-٢٤٤، ٢٦٠
علقمة ٢٦٣
عيزاب ٣٨-٣٩، ٤١، ٤٦-٥٣، ١٣٩
عين البقر ٢٣٨
تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٨٧
عين الرصد ١٨٦
عين سليمان ٩٤

(غ)

غرناطة ١٩، ٢٧١، ٢٧٤

(ف)

فحص قرطاجنة ٢٧٤
فلسطين ٢٢٥

(ق)

قبا ١٤٩، ١٥٥
القاهرة ٢٨-٢٩، ٣٢-٣٥، ٤٠، ٥٩، ٢١٠
القدس ٢٢٥
قرطاجنة ٢١، ٢٧٣
قرطبة ٢٦٢
قرية النشمة ١٩
القسطنطينية ٢٣، ٢٣٨، ٢٤٧-٢٤٨، ٢٦٠-٢٦٦، ٢٦٧
قصر مصمودة ٢٠
قلاع الضياع ٤٧
قليوب ٢٨
القلزم ٤١

قنا ٤٦، ٤٨

قنالش بسطة ٢٧٤

قنباينة قرطبة ٢٦٣

قوسمرکه ٢١

قوص ٣٩، ٤١-٤٢، ٤٤-٤٨

قونية ٢٦٦

القيارة ١٨٣

(٤)

الكلابي ١٨٦

الكوفة ١٦٢-١٦٣، ١٦٥-١٦٧، ١٧٩، ١٨٣

(٥)

اللاذقية ٢٤٨

لبراله ٢٧٤

لورقة ٢٧٤

(٦)

ماء الخيب ٥٠

ماء العبدین ١٧

ماردين ١٨٨-١٨٩

مجاج ٤٩

محطة اللقيطة ٤٧

المدينة ٣٩، ٤١-٤٢، ٩٦-٩٧، ١٢٨، ١٤٩، ١٥٥-١٥٦، ١٦٢، ١٧٥، ١٨٤، ٢٥٧

مدينة ابن السليم ١٩

مرسية ٢١، ٢٧٤

مسينة ٢٤١، ٢٥٢، ٢٥٨

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٨٨

مصر ٢٨-٢٩، ٣٣-٤٢، ٥٣، ٥٧، ٥٩، ٧٨، ٩٢، ٩٥، ١١٣، ١١٥، ١٨٩، ٢٢٠-٢٢٥

مكة ٣٩-٤٢، ٥٦-٦٠، ٧٢، ٧٤، ٧٨، ٨٠، ٨٢-٨٣، ٨٥-٨٦، ٨٨، ٩١، ٩٤، ٩٦، ٩٩-١٠١، ١٠٣-١١١، ١١٣-١١٤، ١١٩، ١٢٣-١٢٨،

١٣٣-١٣٥، ١٤٠-١٤٤، ١٦٢-١٦٣، ١٦٧، ١٧٥، ١٨٦، ٢٥٧، ٢٧١

مليج ٢٨

منج ١٩٥

منشأة السودان ٤٥

المنصورة ٢٧٤

منفلوط ٤٢

منية ابن الخطيب ٤٠، ٤٤، ٤٦

المنيحة ٢١٩

الموصل ٩٦، ١٤٣، ١٤٥، ١٨٠-١٨١، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٤

المويلحة ١٨٦

(ن)

نابلس ٢٣٥

نجد ١٦٠-١٦١

نهر ثورا ٢١٦

نهر دجلة ١٦٩، ١٧١، ١٧٦-١٧٧، ١٨٢-١٨٥

نهر العاصي ٢٠٠

نهر الفرات ١٦٣، ١٦٥، ١٦٧-١٦٨، ١٧٠، ١٧٧، ١٩٤-١٩٥

النيرب ٢١٦

نهر النيل ٢٥، ٢٨-٢٩، ٣٦-٤٢، ٤٥-٤٦، ٤٨، ١٦٨، ١٧٠

(هـ)

الهند ٥٠، ٥٢، ٩٢

هونين ٢٣٦

(و)

وادي آش ٢٧٤

وادي العروس ١٦٠

وادي العقيق ١٤٩

وادي الكروش ١٦٢

وادي محسر ١٣٥-١٣٩

واقصة ١٦٣-١٦٤

(ي)

اليمن ٤١، ٤٩-٥٠، ٥٢، ٥٧، ٧٨، ٨٤، ٩٢-٩٣، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٩، ١١٣، ١١٦، ١٣٣

أمثال و حكم و أشعار

(أ)

إن من يدخل الكنيسة يوماً ٢٣٦
تذكره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٨٩

(ب)

ضاع الرعيل و من يقوده ١٨٠

(ج)

علينا بالألواح، و على الحجاج بالأرواح ٥٢

حلي و مجوهرات

(د)

جواحر ٩٢

(هـ)

ذهب ٢٧، ٢٩، ٦٢، ٦٦، ٦٨، ٩٦، ١١٥، ١٢٧، ١٥٣، ١٥٩، ١٧١، ١٨٠، ١٨٦، ٢٠٥، ٢١٠، ٢٣٠، ٢٤٠، ٢٥٦، ٢٦١-٢٦٢

(و)

فضة ٢٧، ٢٩، ٥١، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٧، ٦٩، ٧١، ٧٤، ٨٧، ٩٦، ١٢٧، ١٥١-١٥٢، ٢٦١

(ز)

قلادة (قلاند) ١٠٠، ١٨٦

(ح)

لؤلؤ ٤٢، ٥٠

(ط)

ياقوت ٩٢

حيوانات

(أ)

إبل ٤٧-٤٩، ١٠٠، ١٣٨، ١٤٥، ١٦٣، ١٦٥، ١٨٢، ١٨٦

(ب)

بغال ١٨٨، ٢٤٣

(ب) بقر ٢٣٨

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار؛ ص ٢٨٩

(ت)

تماسيح ٣٨

(ج)

جمال ٤١، ٥٦، ٩٩، ١٤١، ١٦٣، ١٨٨

(ح)

حمامة (حمام) ٧٤، ٨٩، ٢٤٠، ٢٥٦، ٢٦٣،

حمير ١٨٨

حوت ٥١، ٢٤٧

(خ)

خيل ٢١، ١٠١، ٢٢٦، ٢٤٤

(د)

دجاج ٥١-٥٢

(س)

سمك ١٥٠

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٩٠

السلحفاة ٥١

(ع)

عنكبوت ١٩، ٢٠٥، ٢٣٠-٢٣١

(غ)

غراب ۲۱۹

غنم ۱۹۰

(ق)

قرش ۵۲

صناعات

(د)

ديباج ۲۹، ۱۱۵، ۲۱۶

طعام و شراب

(ا)

أترج ۹۲

أدم ۲۵۰، ۲۴۶، ۱۶۵

(ب)

بطيخ ۹۲، ۲۴۶

(ت)

تمر ۵۶، ۱۶۵

تين ۹۲، ۹۴، ۱۰۳، ۱۹۹، ۲۴۶

(ج)

جين ۵۴۶

جوز ۹۲، ۲۴۶

(ح)

حلوى السكر المعقود ۹۳

حلوى العسل ۹۳

(خ)

خبز ۲۷، ۱۶۵، ۲۲۷-۲۲۸، ۲۴۷، ۲۵۰، ۲۵۱

خوخ ۹۲

خیار ۹۲

(د)

دقیق ۱۶۵

رمان ۹۲، ۲۴۶

(ز)

زیب ۹۳، ۱۰۲

زیتون ۱۹۹

(س)

سفرجل ۹۲، ۲۴۶

سکر ۹۲-۹۳

سمن ۵۲، ۹۳، ۱۰۲، ۱۶۲-۱۶۳

تذکره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ۲۹۱

(ع)

عسل ۹۲-۹۳، ۱۰۲، ۱۶۲

عنا ۸۸

عنب ۹۲، ۹۴، ۱۰۳، ۱۹۹، ۲۰۱، ۲۵۸

(ق)

قثاء ۹۲

لبن ۵۶، ۹۳، ۹۵، ۱۶۲-۱۶۳

لحم ۹۳، ۱۶۲، ۲۴۷، ۲۵۰

(م)

ماشیه (مواشی) ۱۰۳، ۱۲۵

عقاقیر و عطور

(ع)

عنبر ۹۲

عود ۹۲

(ف)

كافور ۹۲

(م)

مسك ۹۲، ۱۵۱

فنون

(ت)

تصاویر ۴۳، ۱۵۳، ۲۲۱

(ف)

فسيفساء ۱۵۳، ۲۰۵

(م)

مجزع ۱۱۶، ۱۵۳

مقرنص (مقرنصات) ۷۵، ۸۰، ۱۲۷، ۱۵۳، ۱۹۸

كتب

(ا)

أخبار مكة ۸۸

الإنجيل ۲۶۸

(ت)

تاریخ ابن عساکر ۲۱۴

(ق)

القرآن ٤٤، ٤٩، ١١٦، ١١٨، ١٤١، ١٧٣، ٢١٢، ٢٢٢، ٢٢٧-٢٢٨، ٢٣١، ٢٦٢

(م)

مصحف (مصاحف) ٤٨، ٤٣، ٤٦، ٧٨، ١٢٥، ١٥٢، ٢١٠
موطأ مالك ١٠٦

لباس

إشارة

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٩٢

(أ)

إزار (أزر) ٤٩، ١٠٤، ١٥١، ١٥٣، ١٧١

(ق)

قميص ٩٤

(ج)

لباس الإحرام ٣٤

مساجد

(م)

مسجد إبراهيم الخليل ٤٠، ٨٥، ١٣٦

مسجد ابن طولون ٣٥، ٥٩

مسجد بيت المقدس ٧٩، ٢٣١، ٢٤٣-٢٤٤

مسجد السيدة ١٢٣

مسجد حمزة ١٥٤

مسجد الخيف ١٢٤، ١٣٩-١٤٠

مسجد داود ٤٢

مسجد ذى الحليفة ١٤٩

مسجد ذى النون المصرى ٤٢

مسجد الرسول (ص) ١٥٠، ١٥٢، ١٥٧، ١٦٦

مسجد سلمان ١٥٦

مسجد عائشة ٨٥-٨٦، ١٠٠، ١٠٦

مسجد علي بن أبي طالب ٨٦، ١٠٦، ١٥٦

مسجد عمر بن الخطاب ٥٦

مسجد عمرو بن العاص ٢٩، ٣٣، ٣٧

مسجد الفتح ١٥٦

مسجد منار الإسكندرية ٢٦

مصطلحات

(خ)

الخليفة ١٤١، ١٦٧-١٦٨، ١٦٣-١٧٣، ١٧٤، ١٧٦-١٨٠، ٢٢٠، ٢٢٧

(س)

السلطان ٢١، ٢٤، ٢٨، ٣٤-٣٥، ٣٨-٣٩، ٤٥، ٥٢، ٥٧-٥٨، ٧٨، ١٧٩، ٢١٧، ٢٢٦، ٢٣٣-٢٣٤

(م)

مجرى (مئة ميل) ٢٠

معابد

(ك)

كنيسة مريم ٢٢١

كنيسة الإيطالي ٢٦٢

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٩٣

معالم و آثار

(أ)

إشارة

الأبطح ١٤٠

أبواب الحرم ٧٩، ٨٠، ٩٦

أبواب دمشق:

* باب الجايئة ٢٢٠-٢٢١، ٢٢٦

* باب البريد ١٣١

* باب توما ٢٢١

* باب السلام ٢٢١

* باب شرقى ٢١٠

* باب الصغير ٢٢١

* باب الفراديس ٢١٤، ٢٢١

* باب الفرغ ٢٢١، ٢٢٦

* باب النصر ٢٢١

أبواب المدينة:

* باب البقيع ١٥٦ ٢١٦

* باب الحديد ١٥٦

* باب الشريعة ١٥٦

* باب القبلة ١٥٦

أبواب المسجد الأموى بدمشق:

* باب البريد ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٢-٢١٣

* باب جيرون ٢٠٨، ٢١٠-٢١١، ٢١٣

* باب الزيادة ٢١٠، ٢١٣

* باب الناظفين ٢٠٨، ٢١٠-٢١٣، ٢٢٧

أبواب مسجد الرسول (ص):

* باب جبريل ١٥٣

* باب الخشية ١٥٣

* باب الرجاء ١٥٣

* باب الرحمة ١٥٣

أبو الهول ٣٦، ٣٧

أحد ٥٦

أكمه ابن الزبير ١٠٦

الأهرام ٣٦، ٣٧

(ب)

- باب الزاهر ٨٤، ٨٥
باب الطاق ١٧٠، ١٧٧
باب المعلى ٧٣، ٨٦، ١٠٦، ١٢٢
بئر أريس ١٥٥
بئر رومة ١٥٦
بئر زمزم ٦٦، ٧٦
بئر القلب ١٤٨
بدر ١٤٧-١٤٨، ١٧٤
البربا ٤٦
بقيع الغرقد ١٥٤
تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٩٤
بيت الحزن (بيت فاطمة) ١٥١، ١٥٥

(ت)

تل التوبة ١٨٥

(ج)

- الجامع الأموى (المكرم) ٢٠٤، ٢١٤، ٢٣١
جامع دمشق ٢٠٤
جامع الرصافة ١٧٩
جامع النيرب ٢١٦

(ح)

- حائط العجوز ٤٢
الحجر (حجر الكعبة) ٦٤، ٦٥، ٧٤، ٨٠، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧، ١١٢، ١١٥
الحجر الأسود ٦٠-٦١، ٦٣-٦٤، ٦٧، ٧٢-٧٣، ٧٧-٧٦، ٨٢، ١١٠
الحجون ٨٣، ٨٦، ١٠٦
حصن الحمة ٢٦٣
حصن العزاب ١٥٦
الحرم ٥٩-٦١، ٦٧-٦٨، ٧٢، ٧٤-٧٥، ٧٧، ٨٥، ٩٤-٩٦، ٩٨-١٠١، ١٠٧-١٠٨، ١١٠، ١١٢، ١١٤-١١٦، ١١٩-١٢٣، ١٢٦، ١٢٧،
١٤٠، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٩، ١٥٧-١٥٨

(خ)

الخدق ١٩٧، ٢٣٦، ٢٦٤

(د)

دار أبي أيوب الأنصاري ١٥٥

دار أبي بكر ٨٧، ١٥٢، ١٥٥

دار بني النجار ١٥٥

دار جعفر بن أبي طالب ٨٨

دار خديجة ٨٨، ١٣٠

دار الخيزران ٨٧، ١٣٠

دار الخيل ٢١٠

دار زبيدة ٧٨

دار الصفة ١٥٦

دار عائشة ١٥٥

دار العجلة ٧٨

دار القاضي ٧٨

دار الندوة ٦٨، ٧٩، ٢٤٣

دار الهجرة ١٥٧

(ر)

رجبة مالك بن طوق ١٩٥

الركن الشامي ٦١-٦٤، ٦٦-٦٧

الركن العراقي ٦٢-٦٤

الركن اليماني ٦١، ٦٤، ٦٥، ٦٩-٧٠، ٧٤، ٧٧

روضة جمال الدين الموصلی ١٥٤

روضة الحسن بن علي ١٥٥

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٩٥

روضة العباس بن عبد المطلب ١٥٥

روضة الروضة المكرمة (روضة النبي) ١٤٩-١٥١، ١٥٤، ١٥٧

(ز)

(س)

السور ١٣٨، ١٥٦، ١٦٢، ١٧٩، ١٨٤، ٢٤٠، ٢٤٨

(ص)

الصفاء ٦٠-٦١، ٦٨، ٧٦، ٧٨، ٨٠-٨٣، ٨٨، ٩٣، ١٠٠، ١٠٢، ١١٤، ١١٦، ١٣٠

(ط)

طاق كسرى ١٧٠

(ع)

العذيب ١٦٥

العقبه ٦٤، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٩، ١٤٠

عين (النبي) ٥٦

(غ)

الغار (غار حراء) ٨٨-٨٩، ١٢٥-١٢٦، ١٥٤

(ق)

قبة جبريل ٩٠، ١٢٧

قبة حجر الزيت ١٥٣، ١٥٦

قبة زمزم ٦٠، ٦٤، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٩٥، ٩٩، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٨، ١١٤، ١١٩، ١٢٢

قبة الرصاص ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢٢٩، ٢٣٠

قبة الشراب ٦٦

قبة العباسية ٦٦، ٧٥-٧٦، ٧٨، ١١٥، ١١٦

قبة اليهودية ٦٦، ٧٥

قبر إبراهيم (ابن النبي) ١٥٤-١٥٥

قبر ابن النبي صالح ٣٠

قبر أبي حنيفة ١٧٧

قبر أبي الدرداء ٢١٨

قبر أبي بكر الشبلي ١٧٧

قبر أبي سليمان الداراني ٢٢٠

- قبر أبي مسلم الخولاني ٢٢٠
قبر أحمد بن حنبل ١٧٧
قبر آدم ٨٢
قبر آسيه (امرأة فرعون) ٣٠
قبر اسماعيل ٦٦
قبر أم الدرداء ٢١٨
قبر أم كلثوم (الست) ٢٢٠
قبر أم مريم ٢٢٠
قبر أوس بن أوس الثقفي ٢١٨
تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٩٦
قبر أويس القرني ٢٢٠
قبر بلال ٢١٨
قبر الحسين بن منصور الحلاج ١٧٣
قبر روبيل بن يعقوب ٣٠، ٢٤٣
قبر سكينه بنت الحسين ٢٢٠
قبر سعيد بن عبادة ٢١٩
قبر سهل بن الحنظلية ٢١٨
قبر شعيب ٢٤٣
قبر شيث ٢٢٠
قبر صالح (النبي) ٢٣٨
قبر عبد الله بن جعفر الطيار ١٥٤
قبر عثمان (بن عفان) ١٥٥
قبر عقيل بن أبي طالب ١٥٤
قبر عون و معين ١٠٠
قبر فاطمة ١٥٥
قبر فضالة بن عبيد ٢١٨
قبر كعب الأخبار ٣٨
قبر مالك بن أنس ١٥٤
قبر معروف الكرخي ١٧٧
قبر موسى بن جعفر ٢٢٠
قبر نوح ٢٢٠
قبر هاجر ٦٦
قبر واثله بن الأسقع ٢١٨

قبر يهوذا ٢٤٣

قدم موسى ٢٢١

القرافة ٣٠، ٣١، ٣٣

قصر جعفر ٢٦٠

قصر سعد ٢٥٩

القلعة ٣٤، ٤٠

قلعة نجم ١٩٥

القناطر ٣٦، ١٦٩، ٢٣٠، ٢٦٢

(ك)

كأس كسرى ١٥٣

كداء ٨٣

الكعبة ٦٠، ٦٢، ٦٧-٦٩، ٧١-٧٢، ٧٥، ٨٢-٨٣، ٩٦، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٦، ١١٢، ١٢١-١٢٢، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٦

(م)

ميرك الناقة ١٤٨، ١٥٥

مدائن كسرى ١٧٠

مرآة كسرى ١٥٣

المروة ٦٠، ٨١، ٨٣، ٨٨، ٩٣، ١٠٠

مزدلفة ١٣٢، ١٣٥، ١٣٩

مشاهد الأصحاب و التابعين ٣٢، ٣٣، ١٦٩

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٩٧

مشاهد أهل البيت ٣٠-٣١، ١٤٩، ٢١٨

مشاهد الشريقات ٣٢-٣٣

مشاهد العلماء و الزهاد ٣٢-٣٣

مشهد الإمام الشافعي ٣٢

مشهد أم كلثوم ٣١، ٢١٩

مشهد جرجيس (الخضر) ١٨٤

مشهد رأس الحسين ٣٠، ٢١٠

مشهد رأس يحيى بن زكريا ٢١٤

مشهد سعد بن عبادة ٢١٩

مشهد صفية ١٥٤

مشهد فاطمة (بنت أسد) ١٥٥

مفار التنور ١٦٦

المقام (مقام إبراهيم) ٦١، ٦٣، ٧٦

منار الإسكندرية ١٢٠، ١٢٥

منى ٨٦ ١٢٣-١٢٤، ١٣٤-١٣٥، ١٣٩، ١٤١

الميزاب (ميزاب الكعبة) ٦١، ٦٤-٦٦، ٧٧، ٩٠، ٩١

(ن)

نينوى ١٨٥

منشآت

(ب)

بئر (آبار) ٥٩

بیمارستان (مارستان) ٢٦، ٣٤-٣٥، ١٧٩، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٤، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٢٢، ٢٦٠

(ج)

جباب (آبار) ٥٦، ٩٦-٩٧، ١٣٦، ٢٤٤

جسور ١٧٠، ١٧٦، ١٨٦، ١٨٧، ٢٠١

(خ)

خانقة ١٩١، ٢١٢، ٢١٥، ٢٢٨

خصص (أخصاص) ٥٦

(ف)

فنادق ٥٦، ٩٧، ٢٥١، ٢٦١، ٢٦٣

فندق ابن العجمي ٤٦

فندق أبي الثناء ٢٩

فندق الصفار ٢٤

(م)

محابس للمجانين ٣٥

محارس ٢٦

مدارس ٢٦، ٣٦، ١٧٩، ١٨٨، ٢٠١

مواد و معادن

(أ)

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٢٩٨
آجر ١٦٥، ١٨٤

(ب)

بلور ١٦٥

(ج)

جص ٥٠، ٦٧، ٦٩، ٧٥، ٧٧، ٨٠، ١٩٣، ٢٠٦، ٢٣٠، ٢٤٠

(د)

حديد ٣٥، ٦٤، ٦٩، ٧٦-٧٧، ١٣٠، ١٥٤، ١٥٦-١٥٧، ١٦٧، ١٧٠-١٧١، ١٨٤، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٢٦، ٢٤١
حرير ٦٢-٦٣، ٦٩، ١٠٠، ١٧٧، ١٨٦، ٢٤٠، ٢٦٢

(هـ)

خشب ٢٢، ٤٣-٤٤، ٦٤، ٦٩، ٧٥، ٧٧، ١١٧، ١١٩، ١٦٧، ١٩٣، ١٩٨، ٢٠٤، ٢٢٨، ٢٣٠
خشب الأبنوس ٥٦، ١٥٢، ١٩٨، ٢٣٨
خشب الساج ٦٢، ١٦٦
خوص ٥٢

(و)

دهن الخروع ٥٢
دهن القرش ٥٢

(ز)

رخام ٢٥، ٢٩، ٣٤، ٣٨، ٦٢، ٦٤، ٦٧، ٧٠، ٧١، ١٢٧، ١٥١، ١٥٣، ١٧٩، ١٨٤، ١٩٣، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٦-٢١٧، ٢٦٢
رصاص ٦٦، ١٥٢، ١٦٦، ٢٠٦-٢٠٧، ٢٠٩، ٢١١

(ح)

زجاج ٥٤، ٦٠، ٧٠، ١١٣، ١١٩، ٢١١، ٢١٤، ٢٥٩، ٢٦٢

زيت ١٥٦، ٢٥٠

(س)

سكر ٩٢-٩٣

سمن ٩٢-٩٣

(ش)

شمع ٢٩، ٧٧، ١٠٠، ١١٠، ١١٢، ١١٦، ١٢١، ١٣٩، ٢١٥، ٢٤٦

(ص)

صفر (نحاس) ٦٥، ١١٩، ٢٠٩، ٢١١-٢١٢، ٢٥٩

(ع)

عاج ١٩٨

(ق)

قار ١٨٣

قطن ٦٢، ٦٩، ١٧٧

قنب ٦٩، ١٣٠

(ك)

كتان ١٠٠، ١٣٨

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٢٩٩

مواسم و عادات

(ع)

عيد المولد النبوي ٨٧، ١٢٧

عيد النحر ٢٨، ١٢٣-١٢٤، ١٣٢، ١٤٠-١٤١، ١٤٤

نباتات

(ا)

آبنوس ۵۶، ۱۵۱-۱۵۲، ۱۹۸، ۲۷۸

أترج ۵۰، ۹۲

إجاص ۲۵۵

(ب)

باذنجان ۹۲

باقلاء ۲۴۶

بر ۱۴۳، ۲۵۰

بصل ۲۴۶

بطيخ ۹۲، ۲۴۶

بلوط ۲۳۵

بندق ۲۵۵

(ت)

تفاح ۲۵۵

تین ۹۲، ۹۴، ۱۰۳، ۱۹۹، ۲۴۶

(ث)

ثوم ۲۴۶

(ج)

جزر ۹۲

جوز ۹۲، ۲۴۶

جوز النارجیل ۵۱

(ح)

حناء ۸۸

حمص ۲۴۶

حنطة ۹۵، ۱۰۲

(ر)

رطب ۴۶

رمان ۸۸، ۹۲، ۲۴۶

رند ۲۳۶

ریحان ۱۵۴

(س)

سفرجل ۹۲، ۲۴۶

سلجم ۹۲

(ش)

شاه بلوط ۲۴۶، ۲۵۵

الشعیر ۱۶۹، ۲۵۰

(ص)

صندل ۱۵۱

تذکره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ۳۰۰

(ع)

العشر (شجر) ۵۰

عناب ۸۸

(ف)

فستق ۱۹۹

(ق)

قناء ۹۲

قصب السكر ۹۳

قمح ۵۷

قنب ۶۹، ۱۳۰

القنبار ۵۱

(ک)

کرنب ۵۲

کمشری ۲۴۶

(ج)

لوبياء ١٠٢
لوز ٩٣، ١٠٢

(م)

المقل (ثمر الدوم) ١٤٥، ٩٢، ٥٢

(ن)

نخل، نخيل ٤٢، ٤٧، ٥٢، ٨٨ ١٤٤-١٤٥، ١٤٨، ١٤٣، ١٥٥، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٩

(س)

يقطين ٩٢

نقود

(د)

درهم (دراهم) ٢٢٤، ١٠٣، ٩٣، ٤٤
دينار (دنانير) ٢٨، ٣٣، ٤٤، ٥٧، ٦٥، ٩٣-٩٤، ١٣٠-١٣١، ١٥٩، ١٨٦، ١٩٠، ٢٠٥، ٢١٧، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٣٦-٢٣٧، ٢٤٢، ٢٦٩

هيئات و منظمات وسائل و أدوات

(أ)

أباريق ١٤٦
أتوار (أوان صغيرة) ٢٩، ٦٦، ١١٧-١٩٠
أردب ٥٧
أستار ٦٠، ١٠٠، ١٢٩-١٣٠، ١٥١
أسمطة ٩٣
أقفاص ٥١-٥٢
ألواح ٥٢
أمراس ٥١، ١٣٠، ١٣٨
تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص: ٣٠١
١.

(ب)

بوق (أبواق، بوقات) ٤٢، ١٠١، ١١٥، ١٨١، ٢٤٠، ٢٦٥

(ت)

تابوت فضة ٢٩

(ث)

ثريا (ثريات) ١١٦-١١٧

(ج)

جلبة (جلاب) ٥٠-٥٣، ٥٥، ١٢٣

(ح)

حجف ١٠١

حربة (حراب) ٧٣، ١٠١

حصر ١١٠

حق ١٥٣

حمام (حمامات) ٢٦، ٣٢، ٤٠، ١٧٩، ١٨٤، ١٨٩، ١٩١، ٢١٧، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٥٩، ٢٦٣-٢٦٤

حوض ١٥١، ١٥٦، ١٦٧، ١٨٣، ٢١٢، ٢١٦

(د)

دبادب ١٠١، ١١٢، ١١٤-١١٥، ١٣٣

دسر ٥٠

الدقل ٥٤

دلو (دلاء) ١٠٩

دورق (دوارق) ٦٦، ١٣٨

.٢

(ر)

راية ٣٤، ٧١، ١٠١، ١٢٢، ١٢٥، ١٤١، ١٥٩، ١٨١

(ز)

زورق (زوارق) ۵۱، ۷۶، ۱۷۸، ۱۹۵، ۲۴۵، ۲۵۳-۲۵۴، ۲۵۷-۲۵۹

(س)

ستر (ستور) ۶۲-۶۳، ۶۹، ۱۶۶، ۱۷۴، ۱۸۵، ۲۱۹، ۲۳۹

سراج (سرج) ۱۰۰، ۱۰۱، ۱۱۷، ۱۸۱، ۲۱۵، ۲۳۳، ۲۴۶

سفینه ۵۴، ۱۶۶، ۱۶۸، ۱۸۶، ۲۳۸، ۲۴۰، ۲۵۰

سله (سلال) ۹۴

سهام ۱۴۰، ۱۴۲

سیف (سیوف) ۳۴، ۵۲، ۷۲، ۱۰۱-۱۰۲، ۱۱۴، ۱۴۰، ۱۷۸، ۱۹۶، ۲۱۹

(ش)

شقدف (شقادف) ۴۷، ۱۳۹

(ص)

الصاری ۵۲، ۵۴، ۲۴۵، ۲۴۸، ۲۵۲

صندوق ۱۵۱-۱۵۲، ۲۰۵

صهریج ۹۶، ۱۲۷، ۱۳۵-۱۳۶، ۱۶۱، ۱۶۳-۱۶۵، ۱۸۷، ۱۹۰، ۲۰۳، ۲۰۹

تذکره بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ۳۰۲

صوع (أصواع) ۹۵

(ط)

طبل (طبول) ۴۱، ۱۰۱، ۱۱۵، ۱۴۱، ۱۴۷-۱۴۸، ۱۸۰، ۲۰۵

(ع)

عمامة ۳۴، ۷۱، ۱۱۵، ۱۵۸-۱۵۹، ۲۳۲

(ق)

قدح ۹۵، ۲۱۴

قسی (أقواس) ۸۱، ۱۰۴، ۱۴۰، ۱۵۲، ۱۶۶، ۲۰۸

قفل ۷۰

تذکره بالأخبار عن اتقافات الأسفار؛ ص ۳۰۲

یز ۵۷

قلع (قلوع) ۵۴

قلّة (قلال) ٦٦

قنديل (قناديل) ٢٩، ٧٦-٧٧، ٧٩، ١١٣، ١١٦، ١١٩، ١٥١، ٢١٤، ٢٥٩

(ك)

كأس ١٥٣، ٤٣

كرسى ١١٥-١١٦، ١٣٨، ١٥٧، ١٧٢، ١٧٤

الكوس (الطبل) ١٤٧، ١٦٨

(م)

مجنّ ١٤٢

محرارة (محرارات) ١٣٩، ١٤٦

محراب ٦٢، ٦٥، ٧٧، ٨٠، ٨٨، ١١٦-١١٧، ١٢٠، ١٢٧، ١٣١، ١٣٦، ١٥١، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٦، ١٨٥، ١٩٨، ٢٠٦-٢٠٧، ٢١٠، ٢١٩، ٢٣٩

مرس (أمراس) ٦٩

مركب ٢٠-٢١، ٢٤، ٢٨-٢٩، ٤١-٤٢، ٤٥، ٥٠-٥٥، ٧٣، ١٦٧، ١٩٠، ٢٣٤، ٢٤٠-٢٤١، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٩-٢٥٤، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٧

٢٧١، ٢٧٣

مسمار (مسامير) ٥١، ٧٤، ١١٦، ١١٨، ١٥٣، ١٥٥

مشعال (مشاعيل) ٧٧، ١١٠، ١١٢، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٤٧

مصباح (مصاييح) ٨٧، ١١٠، ١١٤، ١١٦، ١١٩، ١٤٢، ١٧٣، ٢١١

مفتاح ٧٠

منبر ٣٤، ٧١-٧٣، ١١٦-١١٨، ١٢٢، ١٢٥، ١٤٩، ١٥١-١٥٢، ١٥٧، ١٥٩، ١٧٢-١٧٣، ١٧٦

(ه)

هودج (هودج) ١٠٠، ١٨٠

(و)

وتد (أوتاد) ١٣٠، ١٣٨

تذكرة بالأخبار عن اتقافات الأسفار، ص: ٣٠٣

الفهرس

استهلال ٧

المقدمة ٩

نص الرحلة ١٧

كشاف عام ٢٧٥